وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

نمـوذج رقـم (٨)

((إجازة اطروحة علمية في في صيغتها النهائيه بعد إجراء التعديلات

الاسم الرباعي: خالد بن أحمد بن إسماعيل الأكوع الرقم الجامعي (٤١٩٨٤٥٣٦)

كلية: اللغة العربية   قسم الدراسات العليا العربية   فرع: اللغة

الأطروحة مقدمه لنيل درجة / الماجستير   في تخصص: (لغويات)

عنوان الأطروحة:

(((أثر الإسلام في التوحيد اللغوي)))

==========

الحمدالله رب العالمين والصلاة والسلام على أشراف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فبعد إجراء التصويبات المطلوبه التي أوصت بها اللجنة التي ناقشت هذه الأطروحه بتاريخ ٢٥/١٠/١٤٢٣هـ توصى اللجنة بإجازتها في صيغتها النهائيه المرفقة.

والله المـوفق ،،،

أعضاء اللجنة:

المشرف: د. عليان بن محمد الحازمي	المناقش الداخلي: أ.د سليمان بن إبراهيم العايد	المناقش الثاني: أ.د مازن بن عوض الوعر
التوقيع:	التوقيع:	التوقيع:

يعتمد: رئيس قسم الدراسات العليا العربية
أ.د سليمان بن إبراهيم العايد

التوقيع:

ي/ الانصاري

٣٠١٠٢٠٠٠٠٤٤٢٠

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية

٠٠٥٠٠٦

أثر الإسلام في التوحيد اللغوي

رسالة مقدمة لتكملة متطلبات درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها
تخصص لغويات

إعداد
الطالب / خالد بن أحمد إسماعيل الأكوع
الرقم الجامعي (٤١٩٨٤٥٣٦)

إشراف
د/ عليان بن محمد الحازمي

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني في عبادك الصالحين ﴾

[سورة النمل : ١٩]

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله أولاً وآخراً .

أرفع شكري وامتناني لجامعة أم القرى منبر العلم والدين ممثلة في مدير الجامعة الأستاذ الدكتور/ ناصر الصالح . كما أشكر عميد الدراسات العليا الدكتور أحمد بن ناصر الحمد وجميع منسوبي الجامعة .

وأخص بالشكر كلية اللغة العربية ممثلة في عميدها سعادة الدكتور عبدالله بن ناصر القرني . ورئيسيّ قسم الدراسات العليا العربية فيها سعادة الدكتور سليمان إبراهيم العايد والرئيس السابق سعادة الدكتور محسن العميري على منحهم لي شرف التلمذة على مشايخها وعلمائها .

وعلى يد أستاذ قدير في جامعة عريقة بنيت هذه الدراسة وهو الأستاذ الدكتور سليمان بن إبراهيم العايد جزاه الله عنّي كل خير . وله مني الشكر والعرفان بالجميل الذي غمرني به طالباً وإنساناً . ثم أكمل معي مسيرة البحث والإشراف أستاذ حاز أكثر من لغة فنظر وقارن ثم أفرغ على دراستي ما ذلل صعوبتها ومهدّ طريقها وهو الدكتور عليان بن محمد الحازمي جزاه الله عنّي كلّ خير فله منّي الشكر والتقدير على ما بذله في سبيل إخراج هذا العمل من جهد كبير .

كما أشكر لجنة المناقشة المكونة من الأستاذين : الأستاذ الدكتور سليمان ابن إبراهيم العايد والأستاذ الدكتور مازن بن عوض الوعر .

وكل شكري وامتناني لوالديّ العزيزين حفظهما الله ومتعهما بالصحة والعافية ووفقني لبرهما وطاعتهما بعد طاعة الله . فهما السراج المنير الذي أضاء طريقي وحبب إليّ العلم وأهله فجزاهما الله عني وإخواني كل خير .

ولا يفوتني أن أشكر إخواني وكل من له فضل عليّ بالنصح والتشجيع حتى أتممت هذا العمل .

والله أسأل خلوص النية في هذا البحث لوجهه الكريم . وإتمام الفضل بالسداد والتوفيق فيه بمنّه وكرمه فهو على ذلك قدير وهو نعم المولى ونعم النصير . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الباحث

« أثر الإسلام في التوحيد اللغوي في اللغة العربية »

ملخص الدراسة

تكونت هذه الدراسة من مدخل وثلاثة أبواب :

المدخل فيه :

– معنى اللغة ودرجاتها ، والنظريات حول نشأتها وأثر النظرة إلى أصل اللغة في تفسير ظواهرها وأسباب اختلافها .

– الكشف عن سنّة التغير والانقسام في اللغات الإنسانية ، والتعرّف على العوامل المؤثرة في حدوثها وذلك من خلال دراسة الواقع اللغوي في الجزيرة العربية التي كانت تضم عدة لغات عربية ؛ منها ما باد وانقرض ومنها ما تغيَّر وانقسم ، فبين عربية شمالية وأخرى جنوبية خلّفت كلٌّ منهما عدة لغات مختلفة .

– التعرف على أسباب اختلاف لغات العرب قبل الإسلام ، وهي أسباب مباشرة وطأت لها أسباب غير مباشرة ؛ منها انتشار العربية في مناطق جغرافية واسعة ، وكثرة المتحدثين بها ، وطول العهد بزمانها ، فظهرت الأسباب المباشرة وهي ظاهرة الخفّة والثقل ، والقياس المستقل ، والاحتكاك اللغوي الخارجي ، والعامل الزمني الذي سمح بحدوث النتغير والاختلاف .

الباب الأوَّل : (مظاهر الاختلاف اللغوي بين اللهجات العربية قبل الإسلام) وفيه :

– دراسة مظاهر الاختلاف اللغوي الذي ظهر في جميع مستويات اللغة الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية ، فانقسمت العربية إلى عدّة لهجات مختلفة وكان حتمًا أن تتحول – جريًا مع سنن اللغات – إلى لغات مستقلة لسعة اختلاف وطول العهد بها .

– سعينا أثناء عرضنا لمظاهر الخلاف اللغويّ قبل الإسلام إلى ترسم أسبابها ، والوقوف على آثارها في تكوين الفصحى ، إذ أفادت الفصحى من اختلاف تلك اللهجات بعد أن توحّدت فيها وحوّلته إلى مصلحتها في تنمية ثروتها اللغوية وتكوين ظواهرها من ترادفٍ ، واشتراكٍ ، وتضادٍ ونحوه .

الباب الثاني : (أسباب الوحدة اللغوية قبل الإسلام) . وفيه :

– الكشف عن سنة التوحد والاندماج والعوامل المؤثرة في حدوثها . وهي أضعف من سابقتها ، وتكون آنية في فترة محددة ثم تفترق من جديد ، فهي تحدث في ظل سنة التغير والانقسام من الناحية الزمنية .

– حدوث بوادر الوحدة اللغوية قبل الإسلام نتيجة لتضافر عدة عوامل أدت إلى التقارب اللغوي بين اللهجات العربية ، وتتمثل تلك العوامل في الحجّ ، الهجرات البينية ، أسواق العرب ، الحروب ، عمل الشعراء والخطباء .

– تتمثل مظاهر الوحدة اللغوية قبل الإسلام في اللغة الأدبية .

الباب الثالث : (أسباب الوحدة اللغوية بعد الإسلام ومظاهرها) . وفيه :

– دراسة أثر الإسلام في التوحيد اللغوي ، ومعرفة أسباب الوحدة اللغوية التي كان الإسلام من ورائها بشكل مباشر وغير مباشر (أي قامت لخدمته وبسببه) .

– أثر الإسلام في التوحيد اللغوي له ثلاث صور :

١ – توحيد اللهجات العربية المختلفة وإذابة فروقها اللغوية لا سيما الشمالية والجنوبية .

٢ – توحيد معظم اللغات المختلفة من حول العرب ودحرها بعد تعرّب أهلها .

٣ – توحيد اللغة العربية عبر عصورها التاريخية (تخليدها) ، فحفظها من التغيّر والانقراض .

مقدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمــــة

الحمد لله رب العالمين حمداً يليق بجلال عظمته وعظيم سلطانه حمداً كالذي نقول وخيراً مما نقول ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أمّـا بعد :

فهذه دراسة لغوية عن « أثر الإسلام في التوحيد اللغوي » نقدّمها ، لنكشف فيها عن سرّ من أسرار عظمة اللّغة العربية وهو عن وحدتها المكانية والزمانية .

فقد رأيتنا معشرَ العرب – واللّغاتُ من حولنا تتبلبل وتختلف ، والشعوب تتناكر أجيالها عبر عصورها وتتقطع ما بينها من أواصر لغوية – ونحن باقون على البيان تجمعنا لغة واحدة بالرغم من كلّ العقبات الجغرافية والحدود السياسية التي تفصل بيننا ، وتربطنا مع أجدادنا منذُ مئات السنين لغة واحدة لم يعترها تغير يُذكر أو اختلاف يؤثر ، فما زلنا نقرأ القرآن الذي نزل منذُ أربعة عشر قرناً وكأنه نزل فينا بالأمسِ القريب ، ونقرأ ما ألّفه أجدادنا في القرن الثاني الهجري في شتى المجالات وأنواع العلوم فنعيه ونفهمه .

وقد نظرت إلى واقعنا اللّغوي في الجزيرة العربية قبل الإسلام فوجدتها مسرحاً للغات مختلفات منها ما باد وانقرض ، ومنها ما انقسم واختلف ، فبين عربية للجنوب وأخرى للشمال ، وبين عربية بائدة وأخرى باقية انقسمت إلى عدّة لهجات تتفاوت درجة اختلافها فيما بينها حسب قربها وبعدها عن بعضها ومدى اتصالها ، ويزداد الاختلاف بين العدنانيين والقحطانيين ، ويقل فيما بين العدنانيين، ولكنه بدرجة أصبح فيها لكلِّ قبيلة منها – تقريباً – لغةٌ خاصة تتميز بها وتختلف فيها مع غيرها . وهنا وقفت مع نفسي وقفة تأمّل وطرحت عليها بعض الأسئلة ، وهي :

١ – ما هي أسباب الوحدة اللّغوية في الوطن العربي ؟ وكيف حدثت ومتى ؟

٢ – لِمَ لم تنقسم اللّغـة العربية خلال كلّ هـذه العصور إلى لغات مستقلـة كما انقسمت غيرها من اللّغات ؟

٣ - لِمَ لم تنقرض اللّغة العربية الفصحى كما انقرضت اللّغات العربية قبلها ؟

٤ - كيف انتشرت اللّغة العربية في مناطق لغوية مختلفة فأصبحت لغة قومية لأهلها ؟

٥ - أين تلك اللّغات العربية التي نزل بها القرآن على سبعة أحرف مراعاةً لاختلاف الألسنة ؟

٦ - كيف أصبحت الفروق بين جميع اللهجات العربية في القرن الثالث والرابع يسيرة محتقرة وفي شيء من الفروع ، أما الأصول فواحدة ؟

كلّ هذه الأسئلة وغيرها لم أجد لها جوابًا شافيًا ، وللأسف لم أجد البحوثَ والدراساتِ التي تجيب عنها ، وقد كانت ندرةُ المصادر والمراجع عن هذا الموضوع من أشد الصعوبات التي واجهتني في دراستي ، إلا أنها –ولله الحمد– حفزّتني على المضيّ والاعتماد على الله ثم على نفسي في استنباط أدلة دراستي وأمثلتها وجمع مادتها العلمية عن الصحيح الثابت ، وقد استغرق ذلك من جهدي ووقتي ما لا استكثره أو أَمُنُّ به فهو جهد يسير لما لأمتي ولغتي عليّ من حقوق وواجبات .

وتتلخص محاور دراستي لـ « أثر الإسلام في التوحيد اللّغوي » فيمايلي:

أن الخلافَ بين اللهجات العربية قبل الإسلام كان واسعًا وقد بلغت أوجه الخلاف بينها جميع مظاهر اللّغة (الصوتية – الصرفية – النحوية – الدلالية) مما يؤهلها للانقسام مع مرور الزمن ، لسعة بلادها وكثرة المتحدثين بها مع اتساع فجوة الخلاف بين لغاتهم ، والانقسام في هذه الحالة سنّةٌ في جميع اللّغات .

ثم حدثت قبيل الإسلام عواملُ أدت إلى التقارب اللّغوي وتكوُّن لغة مشتركة يتم عن طريقها التفاهم والاتصال ، من أهمها : (الحج ، الأسواق، الهجرات البينيّة ، الحروب، عمل الشعراء والخطباء خاصة شعراء الحوليات) ولكن هذه العوامل لم تكن كافية لتوحيداللّغة بين جميع العرب ومنع انقسامها، حيث كانت على المستوى الخاص وليس العام لاختلاف العرب في اللّغة المشتركة ثراءًا وفقرًا ، والقدرة على إجادتها تكاد تنحصر على أولئك الذين حازوا قدرًا وافرًا من الثقافة اللّغوية ، أمّا العامة وأكثرهم من الشيوخ والنساء والأطفال فمعظمهم لا يقدر على التحول عن لغته .

الخاصة ولو كان العرب على مستوى لغوي واحد ما نزل القرآن على سبعة أحرف مراعاةً لهم وتيسيرًا لعامتهم .

وعند مجيء الإسلام عمل على توحيد اللّغة العربية وتعميمها على جميع مستويات العرب (خاصة وعامة) بل نشرها بين غير أهلها ووحَّد بها اللغات المختلفة من حولهم في صورة هي أسمى درجات التوحيد والتأثير اللغوي التي عرفتها اللغاتُ الإنسانية ، وقد جاء عمله بطريقة مباشرة وغير مباشرة وبشكل متدرّج على النحو الآتي :

١ - نزول القرآن على سبعةِ أحرف من باب التيسير والتدرج في التوحيد اللغوي .

٢ - معسكرات الجهاد وإذابة الفروق اللغوية ومزج اللهجات العربية مما أسهم في إنشاء لسان مشترك وتعميمه .

٣ - جمع عثمان - رضي اللّه عنه - الناسَ على مصحف واحد (القرشي) وحرقه سائر المصاحف ذات الحروف المختلفة ، وانعكاس توحيد المصاحف على اللّغة بالتُّوحد .

٤ - قيام علماءِ الإسلام بجمع اللّغة وتقعيدها - بدافع ديني - على أساس اللّغة الأدبية التي نزل بها القرآن مما أسهم في توحيد اللّغة وتعميم اللّغة الأدبية لا سيما عندما تشددوا في لغة القرآن وعمدوا إلى إماتة اللهجات الخاصة .

وقد حثّ العلماءَ على جمع اللّغة وتقعيدها دافع ديني له أسباب وزعنا عرضها على جمع اللّغة وتقعيدها على النحو التالي :

أ - جمع اللّغة العربية :

١ - لمعرفة معنى لفظ غريب جاء في القرآن والحديث والاستعانة بها على فهم النصوص الشرعية .

٢ - إثبات أن القرآن نزل وفق سنن العرب في كلامها وحرصهم على إثبات ذلك . (الاحتجاج على لغة القرآن) وبعكسه كان (الاحتجاج بالقرآن) وهو الذي أسهم في توحيد اللّغة .

ب - ضبط اللّغة وتقعيدها :

١ - لتعليم العربية للمسلمين من غير العرب (تعليمي) .

٢ - الحفاظ على العربية ودفع اللحن .

وقد ساعد على جمع اللّغة وتقعيدها إسهام الفكر الإسلامي في ظهور المصطلح والقياس في العربية والعمل به كدليل علمي، كما أسهم القياس المطَّرِد في خلودها .

٥ - العامل الاجتماعي : وهو نفس العامل الذي أدى إلى التقارب اللّغوي قبل الإسلام ، إلا أنه ازداد استحكامًا واتسع آثارًا بعد الإسلام ، وهو من الأسباب غير المباشرة ولكنَّه اشتق أنظمته من الإسلام وعمل على ترجيحه فحسبناه عليه .

٦ - التسامي إلى المثل الأعلى والنموذج الموّحد: وذلك عندما قدّم القرآن المثل الأعلى للّغةالعربية الموحدة فكان محوراًالتفَّت حول لغته العرب والعلماء واتخذوها مثلاً أعلى تقيس العرب عليها فصاحتها وتحاكي اختياراتها وتهجر من لغاتها ما خالفها ، والعلماء تتخذها معياراً تحكمُ به وتحتكمُ إليه فكان الحَكَمَ على صحة القاعدة وسلامة الاستخدام اللّغوي ، وفصاحة القول ، يحتجُّون به ويستدلُّون بآياته ، فأسهم هذا التوجه من قبل العرب والعلماء في حدوث وحدتنااللّغوية وذلك حين اتخذوه مثلاً أعلى.

٧ - الوحدة السياسية تبعتها وحدة لغوية : أصبحت العربية لسان الحكم والسياسة وانتشرت بانتشار الفتح العربي الإسلامي ، فواكبته مسيرته وسارت على خطاه فتعربت بها الألسنة في بعض البلاد وتأثرت بها لغاتٌ أخرى . وهو أيضًا من العوامل غير المباشرة ولكنه مرتبطٌ بالدين ومحمول عليه .

وقد أعقبنا هذه الأسباب بمظاهر الوحدة اللغوية بعد الإسلام وهي تمثل أدلتها.

منهج البحث :

١ - اعتمدنا في دراستنا على المنهج التاريخي .

٢ - تتبعنا آثار الإسلام في التوحيد اللغوي المباشرة وغير المباشرة . ونقصد بغير المباشرة تلك الأعمال التي قام بها الخلفاء والعلماء بدافع ديني ، وهدفت إلى خدمة الإسلام والحفاظ على العربية فنجم عنها وحدة لغوية وأسهمت في حدوثها ، ويدخل في ذلك العوامل السياسية والاجتماعية التي اشتقت أنظمتها من الإسلام .

٣ - لما كان موضوع الدراسة واسعًا ومكوناتُها متشعبةً وطويلةً بحيثُ يحتاج الباحث في استقصاء جميع عناصرها إلى تضمين دراسته عدّة كتب ومجلدات ، وهو مع ذلك لا يأمن الخروج عن هدف دراسته وتفريغها من مضمونها بإعادة ما استقصى درسه في بحوث سابقة والانشغال بها عن هدفه ، وعليه فقد آثرنا الوقوف على البداياتِ وأسبابِ النشأة لإظهار أثر الإسلام فيها ، ودراسة مراحلها من هذا المنطلق ثم أحلنا القارئَ إلى مظانها التي استقصت درسها بعد إيقافه على أهدافها العامة ودراستنا لها .

٤ - عرضنا المعلومات عن بعض المواضيع منجّمةً ، وتطرقنا لها في أكثر من موضع مع حرصنا على إضافة معنىً آخر وتناولها من جانب جديد ، وذلك حين اقتضى المقام الرجوع إليها ، فآثرنا هذا الأسلوب على الإعادة والتكرار خشية الملل والسَّأم ، من ذلك مثلاً : الاحتجاج بلغة القرآن والتسامي إلى المثل الأعلى درسناهما في الباب الثالث في أكثر من موضع ، أحدها في السبب الرابع والآخر في السادس، وقد نكرر بعض الأمثلة في أكثر من موضع متى وجدنا ذلك أنسب في بيانها وأقوى في دلالتها .

٥ - آثرنا عدم تبنّي أي نظريةٍ في نشأة اللّغة حتى نتمكن من تفسير ظواهرها وأسباب اختلافها بموضوعية وحياد ، دون أن نتأثر بتلك النظرية في اتخاذ أحكام مسبقة أو نعمد إلى لَـيِّ النصوص والروايات وتجاهل الحقائق الثابتة حتى لا تتعارض معها أو تخالف ما قررناه مسبقًا .

وفي المقابل احتفظنا لأنفسنا بحق الاعتراض على الخطأ ومناقشته ، لأن هدف الدراسة الوصول إلى العلم والحقيقة أينما كانت ، وليس من هدفها نصرة مذهب على آخر والدخول في جدل عقيم .

٦ - اعتمدت الدراسة في إثبات أثر الإسلام في التوحيد اللّغوي على الموضوعية وتقديم الدليل العلمي في مجال اللّغة والنحو ، ونأت عن تحريك المشاعر الدينية للمسلمين في إثبات وتقرير حقائقها ؛ لأن الباحث جعل نصب عينيه مخاطبة غير المسلمين والمنكرين إن وجدوا . وهذا لا يعني أننا لم نعتمد على القرآن في إثبات

بعض الأمور فهو حقيقة علمية مطلقة ، وإنما يعني الاعتماد على المادة العلمية وما أقرّ به غير المسلمين من الغرب والعرب عن أثر الإسلام في التوحيد اللّغوي .

٧ - لم ألتزم - في الغالب - الترجمة المطولة للأعلام الذين ذكرتهم واكتفيت بذكر الإسم واللّقب وسنة الوفاة ، لأن أكثر من ذكرتهم من القدماء والمؤسسين لعلومهم ولا تخفى على متعلق بمثل هذه العلوم سيرتهم ، وكان من الإسهاب ذكرها ومما يطول به بحثنا ، إلا أنني التزمت الإشارة إلى مكانتهم الدينية وأعمالهم إذا كانوا من القرّاء والفقهاء وذلك في متن الدراسة .

٨ - كانت معظم النصوص الشعرية التي وردت في دراستي مضمّنةً في قصة أو مسألة نحوية نقلتها عن كتب ومصادر أمهات خضعت من قبل العلماء للتحقيق والتدقيق والتخريج ، فرأيت أن من ضياع الجهد تخريجها ، ولهذا اكتفيت بذكر مصدرها .

خطّة البحث :

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يتكوّن مما يلي :

١ - المقدمة .

٢ - مدخل تمهيدي ، يشمل :

- تعريف اللّغة ودرجاتها .
- حول نشأة اللّغة الإنسانية والعربية .
- في تاريخ نشأة اللّغة العربية .
- العربية الجنوبية والعربية الشمالية .
- انقراض اللهجات اليمنية القديمة وحلول الفصحى مكانها .
- العربية الشمالية (بائدة وباقية) .
- أسباب اختلاف لغات العرب .

٣ - الباب الأوّل : (مظاهر الاختلاف اللّغوي) ذكرنا فيه :

حالة اللّغة العربية قبل الإسلام وتأهلها للانقسام ، ثم تناول :

الفصل الأول : المظهر الصوتي .
الفصل الثاني : المظهر الصرفي .
الفصل الثالث : المظهر التركيبي (النحوي) .
الفصل الرابع : المظهر الدلالي .
الباب الثاني : (أسباب الوحدة اللّغوية قبل الإسلام ومظاهرها) :
الفصل الأول: عوامل التقارب اللّغوي بين اللهجات العربية قبل الإسلام:
أولاً : الحجّ .
ثانيًا : أسواق العرب .
ثالثًا : الهجرات البينيّة .
رابعًا: الحروب (أيام العرب).
خامسًا: عمل الشعراء والخطباء .
الفصل الثاني : مظاهر الوحدة اللّغوية قبل الإسلام ،
وتتمثل في اللّغة الأدبية الموحدة .
الباب الثالث : (أسباب الوحدة اللّغوية بعد الإسلام ومظاهرها) :
الفصل الأول : أسباب الوحدة اللغوية بعد الإسلام :
أولاً : نزول القرآن على سبعة أحرف ، من باب التدرج في توحيد اللّغة والتيسير على أهلها .
ثانيًا : معسكرات الجهاد وإذابة الفروق اللغوية .
ثالثًا : جمع عثمان رضي اللّه عنه الناس على مصحف واحد (القرشي) وحرق سائر المصاحف .
رابعًا : قيام علماء الإسلام بجمع اللّغة وتقعيدها على أساس اللّغة الأدبية (لغة القرآن) .
خامسًا : العامل الاجتماعي .
سادسًا : التسامي إلى المثل الأعلى والنموذج الموّحد في اتباع لغة القرآن .
سابعًا : الوحدة السياسية تبعتها وحدة لغوية .

الفصل الثاني : مظاهر الوحدة اللغوية بعد الإسلام :

١ - المظهر الصوتي من خلال وحدة التلاوة (التجويد) ، وأثره في خلود أصوات العربية .

٢ - تعميم بعض الظواهر والخصائص اللهجية .

٣ - لغة الكتابـة .

٤ - الخاتمة : وفيها النتائج والتوصيات .

٥ - فهرس المصادر والمراجع .

٦ - فهرس الموضوعات .

مدخـــــل تمهيدي

يشـــــمل :

- تعريف اللغة ودرجاتها .
- حول نشأة اللغة الإنسانية والعربية .
- في تاريخ نشأة اللغة العربية .
- العربية الجنوبية والعربية الشمالية .
- انقراض اللهجات اليمنية القديمة وحلول الفصحى مكانها .
- العربية الشمالية (بائدة وباقية) .
- أسباب اختلاف لغات العرب .

تعريف اللّـغة ودرجاتها :

قدّم لنا ابن جنّي تعريفًا موضوعيًا للّغة الإنسانية بشكل عام فقال :« إنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[(١)] ، ثم وصف لنا هذه الأصوات وطريقة حدوثها واختلافها بقوله : « واعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلاً متّصلاً ، حتى يعرض له من الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنية عن امتداده واستطالته ، فيسمّى المقطع أينما عرض له حرفًا . وتختلف أجراس الحروف بحسب اختلاف مقاطعها » [(٢)].

فنظر هذا التعريف المختصر إلى اللّغة من جهة طبيعتها الصوتية ، ومن جهة وظيفتها في التعبير عن الأغراض ، ومن جهة وجودها الاجتماعي كظاهرة إنسانية عند كلِّ قوم .

واعلم أن قصر اللّغة على الإنسان لا يعني عدم وجود مستوياتٍ لغوية عند سائر المخلوقات الحيَّة يتم من خلالها التفاهم بين أنواعها المختلفة من الحشرات والطيور والحيوانات الأخرى التي أثبت القرآن أن لها لغةً وتسبيحًا[(٣)] . وقد تنبّه العرب إلى ذلك منذُ القدم إذ نجدهم كما أطلقوا على صوت الإنسان وكلامه (لغة) كذلك أطلقوا على صوت الطير (لغوى) جاء في اللسان:« ولغوى الطير: أصواتها»[(٤)]. وبالعودة إلى اللغة الإنسانية نجد أن محورها اللسان والأذن فيكون الإنسان إمّا منتجًا لها أو متلقِّيًا ؛ معتمدًا في ذلك على عقله الذي يُعدّ مصدرَالنظام في لغة الإنسان ومركزًا لإصدار الأصوات وحفظها وفك رموزها وبذلك تميزت لغته عن غيرها[(٥)]. هذا بالنسبة للّغة الإنسانية بشكل عام ، أمّا اللّغة المحدّدة والمعيّنة لقوميّةٍ دون أخرى فإن العرب تسميّها لسانًا من قبيل المجاز ، قال تعالى: ﴿ وما

---

(١) الخصائص ٣٣/١ ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق محمد علي النجار (المكتبة العلمية).

(٢) سرّ صناعة الإعراب ٦/١ ، أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : د. حسن هنداوي (دار القلم).

(٣) ينظر : سورة النمل آية (١٨ ، ١٩ ، ٢٢) .

(٤) لسان العرب لابن منظور ، مادة (لغا) ٢٥٢ .

(٥) ينظر : أثر الفكر في اللغة في كتاب في علم اللغة العام ، د. عبد الصبور شاهين (٩٥) ، ط١٤١٣هـ ، مؤسسة الرسالة .

أرسلنا من رسولٍ إلاَّ بلسان قومه ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿ بلسان عربي مبين ﴾ [١]. وبهذه التسمية سمّى ابن منظور معجمه (لسان العرب) .

وقد توسّع العرب في استعمال لفظ (اللّغة) إذ نجدهم يطلقونه على اللغة الإنسانية بشكل عام ، ويطلقونه على اللغة المحدّدة والمعيّنة نحو : العربيّة ، الفارسيّة (مرادف اللسان)، ويطلقونه على اللهجة فيقولون : (لغات العرب) ويريدون لهجاتها، فيطلقون لفظ (اللّغة) على جميع درجاتها .

وعندما تزداد دائرة اللغة ضيقًا تسمّى (اللّهجة) وقد أطلق عليها القدماء لفظ (اللّغة) تارةً ولفظ (اللحن) تارةً أُخرى إذ نجدهم يقولون في المعاجم : لغة طيئ ولغة هذيل ولغة تميم ، ونسمع في بعض الروايات قول العربي : (ليس هذا لحني ولا لحن قومي) عندما يختبره أحد علماء اللّغة أو النحو .

وقد ذكر إبراهيم أنيس أن اللهجة في الاصطلاح الحديث : « هي مجموعة من الصفات اللغوية تنتمي إلى بيئة خاصة ويشترك في هذه الصفات جميع أفراد هذه البيئة ؛ وبيئة اللهجة هي جزء من بيئة أوسع وأشمل يضمّ عدّة لهجات ، لكل منها خصائصها ولكنها تشترك جميعًا في مجموعة من الظواهر اللغوية التي تيسِّر اتصال أفراد هذه البيئات بعضهم ببعض ، وفهم ما يدور بينهم من حديث ؛ فهمًا يتوقف على قدر الرابطة التي تربط بين هذه اللهجات ... فالعلاقة بين اللّغة واللّهجة هي العلاقة بين العام والخاص . فاللّغة تشتمل عادة على عدّة لهجات »[٢] .

(١) سورة إبراهيم (٤) ، سورة الشعراء (١٩٥) .

(٢) في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس (١٩) ، مكتبة الأنجلو ، ط ٩ .

حول نشأة اللّغة الإنسانية والعربيّة :

نظر علماء اللّغة العرب قديمًا إلى نشأة اللّغة العربيّة في ظل اللّغة الإنسانية بشكل عام ، لذا جاءت نظرياتهم التي فسرت النشأة اللّغوية للّغة العربيّة معبِّرةً عن تصورهم لنشأة اللّغة الإنسانية .

ومن هذا المنطلق سنعرض النظريات التي حاولت الكشف عن نشأة اللّغة . مع العلم أن القول الفصل في نشأة اللّغة أمرٌ لم يجمع علماء اللّغة فيه على رأي واحد، فكان مجالاً للخلاف بين علمائها قديمًا وحديثًا ، بل إن كثيرًا من المحدثين يرى أنْ ليس من المفيد البحث في نشأة اللّغة ، باعتبارها حدثًا من أحداث ما قبل التاريخ ، وأنه ضرب في المجهول يجب أن تتنزه عنه البحوث التي تتشبث بالموضوعية ، وأنَّ نشأة اللّغة قضيّة تهم علم الإنسان أو علم الاجتماع أكثر مما تهم اللغويين . إلا أن المنصفين منهم رأى في تساؤل اللغويّ عن نشأة اللّغة ضرورة منهجية لا ينبغي تجاهلها ، ومدخلاً طبيعيًا لدراسة الظاهرة المجهولة الأصل يفيد في بيان أهميّة اللّغة وقِدم مشكلاتها ، إلى جانب إثارة خيال الدارسين حولها[١] .

وهذا أمرٌ تنبّه له القدماء ، فتكلموا في ماهية اللّغة ، بل ذهبوا لأبعد من ذلك إذ رأوا في خلافهم حولها فائدةً نحوية وهي مدى شرعية قلب اللّغة ، فإن قلنا إنها اصطلاحية جاز ، وإنْ لا فلا ، فحُكي عن بعض القائلين بالتوقيف منع القلب مطلقًا ، فلا يجوز تسمية الثوبِ فرسًا والفرسِ ثوبًا ، وعن القائلين بالاصطلاح تجويزه[٢] . (أي جواز التصرف في اللّغة) وهي مسألة في غاية الأهمية ، كما أن تصور الباحث لنشأة اللّغة يفسر ظواهرها وأسباب اختلافها[٣] .

أولاً - نظريات القدماء في أصل اللغة :

١ - **النظرية التوقيفية** :يرى أصحاب هذه النظرية أن أصل اللّغة توقيف ووحي من اللّه ، استدلوا لأصل النظرية بقوله تعالى: ﴿وعلَّم آدمَ الأسماءَ كُلَّها﴾ [٤]،

---

(١) ينظر في ذلك : في علم اللغة العام ، د. عبد الصبور شاهين (٨٢ ، ٨٣) ، وينظر : رأي فندريس في كتابه اللغة (٣) .

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن السيوطي ٢٦/١ .

(٣) سيتضح لك من خلال البحث أن تفسير العلماء لكثير من ظواهر اللغة وأسباب اختلافها تأثر بنظرتهم لأصل اللغة . وقد حرصنا على بيانه في مواضعه .

(٤) البقرة (٣١) .

أي أسماء المسميات ، وهي نظرية متكاملة في تفسير نشأة اللّغة ، خير من عبّر عنها أحمد بن فارس في عدّة مواضع من كتابه(الصاحبي)فهو يرى أن لغة العرب توقيف، واستدل بالآية ﴿ وعلّم آدمَ الأسماءَ كُلَّها ﴾ ، وكذلك يقول في المترادفات من الأسماء إنها جميعًا توقيف ، ويسميها صفات – لأنه من منكري الترادف في اللّغة – فيقول : « فإن قيل : أفتقولون في قولنا سيف وحسام وعضب ، إلى غير ذلك من أوصافه إنه توقيف حتى لا يكون شيء منه مصطلحًا عليه ؟ قيل له : كذلك نقول » . وقال بالتوقيف أيضًا في باب القول عن الخط العربي، وقال به في الاشتقاق بقوله : «وهذا أيضًا مبنيٌّ على ما تقدم من قولنا في التوقيف . فإن الذي وقفنا على أن الاجتنان الستر، هو الذي وقفنا على أن الجنَّ مشتقٌّ منه » ، وهو يرى أن هذا التوقيف حصل متدرِّجًا ولم تأتِ اللّغة جملة واحدة [١].

وتعتبر هذه النظرية من أقدم النظريات التي قال بها علماء اللّغة ، قال بها أبو علي الفارسيّ ومن قبله الجاحظ ، وقال بها من المحدثين فرانسوا لامي في كتابه (فن الكلام)[٢] ، ويرى أصحاب هذه النظرية أن اللّغة العربية من الشرف والكمال والدّقّة واللطف ما يجعلها بمنأى عن وضع الإنسان ، وهذا ما يتضح من كلام ابن جني بقوله : « وذلك أنني إذا تأملت حال هذه اللّغة الشريفة ، الكريمة اللطيفة ، وجدت فيها من الحكمة والدقّة ، والإرهاف والرقّة ، ما يملك عليَّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوةِ السحر . فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحمهم اللّه .. وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند اللّه جلَّ وعزّ ، فقوى في نفسي اعتقاد كونها توقيفًا من اللّه سبحانه ، وأنها وحي »[٣] ، وإن تراجع بعد ذلك بافتراضه أنّ اللّة خلق قبل زمانهم من كان ألطف أذهانًا وأسرع خاطرًا ، فلا يعنينا تراجعه إذ المراد معرفة السرّ من وراء القول بالتوقيف .

وقد ادّعت كثير من القوميّات نسبة اللّغة الأولى للإنسان إلى نفسها ، منها العبرية ، والعربية ، والتركية وغيرها [٤]، مما أثار سخرية كثير من المحدثين على

---

(١) الصاحبي ، أحمد بن فارس ، ينظر على الترتيب (٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ٥٧) .
(٢) في علم اللغة العام ، د. عبد الصبور شاهين (٧١) .
(٣) الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني ، ج١ (٤٧) .
(٤) دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس (١٥) .

هذه النظرية ، ونحن نرى أن هذا الادّعاء يُدخِل علينا الحيرة إذا ما أردنا معرفة اللّغة الأولى التي تكلم بها الإنسان(١) ، ولكنه يؤنِّسنا في حال أردنا معرفة كيفية وقوعها ونشأتها عند الإنسان الأول بغض النظر عن القوميّة التي تنتسب إليها أو تتكلم بها .

واعترض إبراهيم أنيس بأن القائلين بالتوقيف يعتمدون في أكثر أدلتهم على النصوص النقليّة ويفسرونها على أهوائهم ليستنبطوا منها ما يؤيد آراءهم(٢) .

ونحن نخالفه الرأي إذ إن الذي تأول النصوص النقليّة من احتار بين التوقيف والوضع وهو ابن جني بقوله : « وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها »(٣) . وقد قال بالتفسير الذي ذهب إليه أصحاب نظرية التوقيف جمع غفير من علماء السلف وجاءت به كتب التفاسير المعتمدة (٤).

فكون اللّغة توقيفًا من الله أمرٌ محتمل الوقوع ، خاصة وقد جاءت به ظاهر النصوص النقليّة كما تقدم بيانه وإنْ كنا آثرنا الوقف وهو مذهب سيأتي بيانه .

٢ - **النظرية الوضعية** :يرى أصحاب هذه النظرية - ومعظمهم من المعتزلة - أنَّ أصل اللّغة مواضعة واتفاق بين أهلها ، اصطلحوا على وضعها اصطلاحًا صوَّره لنا ابن جنّي في صورتين :

أ - الصورة الأولى : « وذلك أنهم ذهبوا إلى أنَّ أصل اللّغة لا بد فيه من المواضعة ، قالوا : وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا ، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكلِ واحدٍ منها سمة ولفظا إذا ذُكر عُرف به مسمَّاه ... فكأنَّهم جاءوا إلى واحد من بني آدم ، فأومئوا إليه وقالوا : إنسان ، فأيَّ وقت سُمع هذا اللفظ عُلم أنَّ المراد به هذا الضرب من المخلوق ، وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم أو نحو ذلك .. وهلم جرًا فيما سوى هذا من الأسماء ، والأفعال ، والحروف . ثم لك من بعد ذلك

---

(١) رغم انه قيل : إن الله علم آدم جميع الأسماء بجميع اللغات : العربية ، الفارسية ، الرومية ... ثم تفرق ولده وعلِق كل منهم بلغة من تلك اللغات . الخصائص ، ٤١/١ .

(٢) ينظر : دلالة الألفاظ (١٧) .

(٣) الخصائص ٤٠/١ ، ٤١ .

(٤) ينظر التخريجات التي أوردها السيوطي في المزهر ٢٨/١ .

أن تنقُلَ هذه المواضعة إلى غيرها ، فتقول : الذي اسمه إنسان فليُجعل مكانه مَرْد ، والذي اسمه رأس فليُجعل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام »[(١)] .

واعترض بعض المحدثين على هذه الصورة بقولهم : « مثل هذا التخيل لا يمكن أن ينهض تفسيراً لتلك الظاهرة الإنسانية العامة ، شديدة التعقيد ، على حين يحمل هذا الخيال في طياته عناصر البساطة والسذاجة »[(٢)] ، ولا ندري أيُّ تعقيد يريدونه لتفسير نشأة اللّغة ؟ ؟

ب – الصورة الثانية : « وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللّغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات ، كدويّ الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ونحو ذلك . ثم ولدتِ اللّغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندي وجه صالح ، ومذهب متقبل »[(٣)] .

فعدَّ محاكاة الإنسان لأصوات الطبيعة صورة من صور النظرية الوضعية ، وذكر أن العرب أسمت الأشياء بأصواتها عند تنبيهه على إمساس الألفاظ أشباه المعاني بقوله:«ولو لم يتنبَّه على ذلك إلا بماجاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتها، كالخازباز (الذباب) لصوته ، والبطِّ لصوته .. » [(٤)]. كما أن هذا الباب هو صورة تفسيرية لنشأة اللغة وبدايتها إذ يصف عمل العرب في اصطلاح لغتهم أو بعض منها انطلاقًا من محاكاة الطبيعة ويتجلى ذلك في قوله : « وذلك أنَّهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها ترتيبها ، وتقديم ما يضاهي أوّل الحدث ، وتأخير ما يُضاهي آخره ، وتوسيط ما يُضاهي أوسطه ، سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود ، والغرض المطلوب ، وذلك قولهم : بحث . فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، والحاء لصحلها (بحَّتِها) تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفثِ ، والبث للتراب »[(٥)] .

---

(١) الخصائص ١/٤٤ ، ٤٦ .

(٢) جاء عن د. عبد الصبور شاهين ، في علم اللغة العام (٧١) .

(٣) الخصائص ١/٤٤ ، ٤٦ .

(٤) المرجع السابق ٢/١٦٥ .

(٥) المرجع السابق ، ١/١٦٢ ، ١٦٣ .

وتلقَّى هذه الصورة كثير من المحدثين بقبول حسن ، واعتقدوا بها ، فقال بها الأب أنساس الكرملي في نظرته لنشوء لغة قحطان وحديثه عن انقسام اللغويين فيها على فريقين إذ يقول : « فريق يذهب إلى أن الكلم ، وضعت في أول أمرها على هجاء واحد : متحرك فساكن ، محاكاةً للطبيعة ثم فُتِمت (زيد فيها حرف أو أكثر) فتصرَّف المتكلمون بها فكان لكلّ زيادة أو حذف أو قلب ، أو إبدال ، أو صيغة ، معناه أو غاية ، أو فكرة ، دون أختها ثم جاء الاستعمال فأقرّها مع الزمن على ما أوحته اليهم الطبيعة ... وفريق يقول : إنّ الكلم وضعت في أول نشوئها على ثلاثة أحرف بهجاء واحد أو بهجاءين ، ثم جرى عليها ما تقدم »[١]، ولذلك علل الأب انساس تشابه بعض الكلمات العربية بالغربية وسائر اللغات باتفاق الخاطر -خاطر العرب وغيرهم- في توهُّم صوت الطبيعة[٢] .

وقد عدّها بعض المحدثين نظرية مستقلة بذاتها - عن الوضعية - وأوردها في نظريات المحدثين[٣] . واعترض عليها بعضهم بأنها تقف بالفكر الإنساني عند حظائر الحيوان ، وأن ليس من المعقول أن الإنسان وهو أرقى المخلوقات يقلِّد أصوات مخلوقاتٍ أدنى منه ، ليستنبط من تلك الأصوات المبهمة الغامضة كلمات لغته الراقية السامية . وهذه النظرية المتعالية لا تمنع من وجود هذه الظاهرة في اللغة ، ولعل أقوى ما يوجه إليها هو قلة وجودها في اللّغات بوضعها الراهن ، أضف إلى ذلك أنها قد تختلف باختلاف اللغات حتى في الفصيلة الواحدة ، فليس لخرير الماء أو حفيف الشجر أو مواءِ الهرِّ أو نُباحِ الكلبِ ، في لغات البشر كلماتٌ مشتركة في لفظها أو بعض لفظها[٤] .

ونجم عن هذه النظرية التوقيفية والوضعية عدّة آراء في نشأة اللّغة ، منها ما توقف عن الجزم بإحداهما ، وسميت الوقف « أي لا يَدري أهي من وضع اللّه أو البشر لعدم دليلٍ قاطعٍ في ذلك وهو الذي اختاره ابن جني أخيرًا »[٥] .

ورأي آخر حاول التوفيق بينهما ، فقالوا إنَّ اللّغة بدأت توقيفًا وأجازوا لما

---

(١) نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ، الأب أنستاس ماري الكرملي (١ ، ٢) .

(٢) ينظر السابق (٧) .

(٣) ينظر : دلالة الألفاظ ، د . إبراهيم أنيس (٢٠) .

(٤) المرجع السابق ٢٢ ، ٢٣ بتصرف .

(٥) الاقتراح ، السيوطي (٢٥) .

بعدها أن تكون وضعًا واصطلاحًا أو توقيفًا لاستحالة وقوع الاصطلاح على أوّل اللّغات من غيرِ معرفةٍ من المصطلحين بعين ما اصطلحوا عليه في رأيهم[١] . « ومن قال بالتَّوقيف على اللّغة الأولى ، وأجاز الاصطلاح فيما سواها من اللّغات اختلفوا في لغة العرب . فمنهم من قال : هي أوّل اللغات وكل لغة حدثت بعدها إما توقيفًا أو اصطلاحًا . ومنهم من قال : لغة العرب نوعان :

أحدهما : عربية حمير ، وهي التي تكلموا بها من عهد هود ومن قبله وبقي بعضها إلى وقتنا هذا .

والثانية : العربية المحضة التي نزل بها القرآن وأول من أُنطقَ لسانه بها إسماعيل ، وهذا يَحْتَمِلُ أمرين : إما أن يكون اصطلاحًا بينه وبين جُرهم النازلين عليه بمكة ، وإما أن يكون توقيفًا من الله تعالى وهو الصواب »[٢] .

وقد ذكرنا هذه الآراء للقارئ الكريم ليدرك معها مدى الخلاف الذي دار بين القدماء في نشأة اللّغة ، حتى بات التردد والحيرة فيها مذهبًا يسمى الوقف .

ثانيًا - نظريات المحدثين في نشأة اللغة :

أمّا المحدثون من علماء اللغة فمنهم من اتبع القدماء في نظرياتهم وسار على نهجهم ، واعتقد بما قالوا به في نشأة اللّغة ، من هؤلاء الأب فرانسوا لامي الذي قال بالتوقيف في كتابه (فن الكلام) ، والأب أنستاس ماري الكرملي الذي قال بمحاكاة الطبيعة في كتابه (نشوء اللّغة العربية ونموها واكتهالها) ؛ ومنهم من كان له نظرية جديدة وتصور خاص في نشأة اللّغة ، وآخرون قدّموا لنا طريقة وأسلوب دراسة جديد في محاولة الكشف عن ماهية اللّغة ونشأتها . فالمتّبعون ، سبقت الإشارة إلى نظرياتهم عند القدماء ، أمّا الصنف الثاني من المحدثين فتتلخص أشهر نظرياتهم فيما يلي :

١ - **نظرية داروين** : وهو صاحب نظرية التطور والنشوء التي تقول إن الإنسان حيوان تطور عبر العصور حتى وصل لهذه المرحلة وكذلك سائر الحيوانات، مع اختلافٍ في درجات التطور ، وتشمل هذه النظرية التطور الجسمي والعقلي واللّغويّ إذ يتصور وأصحاب مدرسته أن اللّغة الإنسانية بدأت في صورة شهقات

---

(٦) ينظر : المزهر ٢٧/١ .

(١) المزهر ٢٨/١ .

وتأوهات صدرت عن الإنسان بشكل غريزي لتعبِّر عن فرح أو دهشة أو غضب ونحوه، كخروج صوت (أوه) عند الدهشة و (أفْ) عند الغضب ، فحاول تفسيرها تفسيرًا جسميًا إذ ربط بين هذه الأصوات وبين تقلصات أعضاء النطق وانبساطها، ورأى أنّ هذه الأصوات كانت متحدة عندجميع الأفراد ولذااتّحدت بعض المفردات[١].

وإذا تجاوزنا عن فساد المعتقد بأصل هذه النظرية[٢] ، فإنَّ بعض العلماء اعترض عليها بأن هذه الأصوات فجائية منعزلة عن الكلام والتكلم الذي يُصدره المرء بصورة إرادية . فهي صورة سلبية للكلام وغير إرادية يصدرها الإنسان إذا أعياه القول . كما أن تصورهم العام لهذه النظرية حجب أبصارهم عن ملاحظة اللّغة ومدى مخالفتها لزعمهم ، ولو تكلفوا النظر إلى اللّغة لوجدوا أنَّ هذه الأصوات عُرْفيّة تختلف باختلاف الشعوب والأمم ، فالغضب والتضجر عندنا ينشأ عنه صوت (أفْ) أمّا عند الغرب فهو (بوه) وكذا البكاء [٣].

٢ – **وهناك نظرية تقول** : إنّ اللّغة نشأت في صورة ردة فعل من الإنسان تجاه الأحداث ، إذ يرى أصحابُها أن كلَّ أثرٍ خارجي يتأثر به المرء يستلزم النطق ببعض الأصوات ، وهذه قوة أو قدرة اختص بها الإنسان منذُ الخليقة ولا يُعرف سرها . ويخبرنا إبراهيم أنيس أنَّ هؤلاء بنوا نظريتهم على تلك الظاهرة العامة من أن اصطدام أي جسم أو الدق عليه يولد صوتًا معينًا يميزه عن غيره ، فالدق على الحديد يولد صوتًا يخالف الدّق على الخشب أو الفضة ، وهكذا نرى أن لكل شيء رنينًا خاصًا به وكذلك الآثار الخارجية التي يتأثر بها الانسان ، ولذا تعددت الألفاظ والأصوات المشتملة عليها[٤] . وحسبك من هذه النظرية غموضها ، وإحاطة أصحابها أنفسهم بالألغاز والسحر والنسبة إليه .

٣ – **وهناك نظرية تربط** نشأة اللّغة بتكون المجتمع الإنساني ، إذ يرى أصحابها أن النطق الإنساني نشأ أوّلاً في صورة جماعيةحين التقى الإنسان بأخيه، وأنها أصوات أطلقتها الجماعة من الناس أثناء عملهم المُضْنِي ومن صورها

---

(١) دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس (٢٣ ، ٢٤) بتصرف .

(٢) إن الله خلق آدم على صورته ولم يتطور عن أي حيوان وإن كان راقيًا بزعمهم .

(٣) دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس (٢٥) بتصرف .

(٤) ينظر المرجع السابق .

الأهازيج التي يصدرها العمال في أعمالهم ثم لا تلبث هذه الأصوات أن ترتبط بالعمل نفسه وتصبح بمثابة علَم له ، ومثل هذه العبارات الجماعية هي التي بدأ بها الكلام(١) .

وتكمن أهمية هذه النظرية في مراعاتها للجانب الجماعي ، حيث إنَّ اللّغة وسيلة اتصال تزداد أهميتها بين الجماعات الإنسانية ، وفيما عدا ذلك تفتقر إلى تفسير جوانب اللّغة المختلفة التي لا ترتبط أصواتها بمدلولاتها .

وتخيّل إبراهيم أنيس في كتابه (دلالة الألفاظ) صورة لنشأة اللّغة عدّها غير معبرةٍ عن معاني في بدايتها بل ناجمة عن لعب الإنسان بالنطق ، وكان هدفه المتعة واللعب ، ثم تطور هذا النطق من مجرد اللعب والمتعة إلى غاية في حد ذاته وهدفٍ استُغِل في التعبير عن كل ما يدور بخلد الإنسان من خير وشر ، وذكر أنّ وقوع الأسماء على المسميات من باب الصدفة(٢) .

وبالرغم من لطافة هذه الصورة فإنها لا تعدو كونها خيالاً وتصوراً غير قائم على أدلةٍ وبراهين مقنعة يمكن الاعتماد عليها .

ثالثا - والصنف الثالث من المحدثين قدموا لنا أسلوب دراسة وطريقة جديدة في محاولة الكشف عن نشأة اللّغة ، ومن أشهر نظرياتهم نظرية جسبرسن التي قامت على الإستقراء ثم التقرير ، وإنْ لم تحقق أهدافها حتى الآن إلا أنّها كشفت عن العديد من القوانين والقواعد العامة للّغة الإنسانية ، وما تخضع له أثناء تطورها .

نظرية جسبرسن :

أسس أصحاب هذه النظرية ، وعلى رأسهم جسبرسن ، نظريتهم على أسس ثلاثة ، محاولين استخدام نتائجها في الكشف عن نشأة اللّغة ، وهي :

١ - دراسة مراحل نمو اللّغة عند الأطفال .

٢ - دراسة اللّغة في الأمم البدائية .

٣ - دراسة تاريخية للتطور اللّغوي .

أولاً : أمّا دراسة مراحل نمو اللغة عند الأطفال فقد ربطوها بالمراحل التي مرت بها اللّغة الإنسانية ، حتى باتت ذات أصوات ومدلولات كالتي نألفها الآن(٣) .

---

(١) ينظر : دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس (٢٦) .

(٢) ينظر المرجع السابق (٣٥) وما بعدها .

(٣) ينظر المرجع السابق (٢٨) .

فقسم جسبرسن النمو اللّغوي عند الطفل إلى ثلاث مراحل :

أ – مرحلة الصياح ، والتي نسميها المناغاة ، إذ يصدر الطفل فيها أصوات قريبة من النون والغين .

ب – مرحلة البأبأة . سميت بذلك إذ يبدأ الطفل فيها بإصدار صوت الباء (با، با ، با) .

جـ – مرحلة الكلام التي تنقسم إلى فترتين : فترة اللّغة الخاصة بالطفل وهي أسماء يطلقها على احتياجاته لا يفهمها إلا أمه نحو تسميته الطعام (نَنَّه أو هَمْ) ، ثم فترة اللّغة المشتركة التي يلتزم فيها الطفل بلغة الجماعة ، والتي يجب على الجماعة فيها تخليصه من لغته الخاصة غير مستئنسين أو متندرين حتى لا يتعثر الطفل لغويًا في حال تساهلو معه[١] .

ومن الفوائد التي نستفيدها من هذه الدراسة ، أنها كشفت لنا عن مقدرة الإنسان واستعداده لاستخدام جميع المخارج الصوتية ، والنطق بالحروف التي كان يعتقد سابقًا اقتصار القدرة على النطق بها على قوميّة دون أخرى ، متى ما مُرِّن عليها أو سمعها في لغته ، فقد نسمع – كما يقول أنيس – من الطفل الانجليزي أصوات الحلق وليس في لغة أبويه مثل هذه الأصوات ، وقد تشق عليه فيما بعد إذا تعلم لغة أبويه لخلوّها منها .

والمأخذ على هذه الدراسة عدم صلاحيتها للتطبيق الكلي على نشأة اللّغة ، إذ تختلف مراحل نموّهما (أي نمو اللّغة عند الطفل وعند الإنسان الأول) في ظروف تَلَقِّي الطفل في مرحلة تالية للّغة أبويه فيكون بذلك متّبعًا، بخلاف الإنسان الأول الذي يجب عليه الابتكار المستمر للّغة . وللاستفادة من هذه الدراسة يجب قصرها على السنة الأولى من حياة الأطفال حيث لم تتأثر لغتهم بلغة أهليهم في هذه الفترة [٢].

ثانيًا : أما فيما يتعلق بدراسة اللّغة عند الأمم البدائية ، فقد افترضوا أنّها صورة من بدايات اللّغة الإنسانية ، ويمكن أن تكشف عنها خاصةً بعد مقارنة اللّغة البدائية بلغة الحضارة ومعرفة الطريق الذي سلكته في تطورها . فتصوروا

---

(١) في علم اللّغة العام ، د. عبد الصبور شاهين (٧٥) بتصرف .

(٢) ينظر : دلالة الألفاظ (٢٩) .

انطلاقًا من هذه الدراسة أن اللّغة عند نشأتها تشبه في بعض خصائصها خصائص لغة الأمم البدائية في كثرة المفردات التي تشبه أصواتها ما تدل عليه ، وانها غير مكتملة وساذجة يكثر فيها الاعتماد على الإشارات اليدوية والجسمية لسدّ قصورها اللّغوي(١) .

واعترض إبراهيم أنيس على هذه الدراسة بقوله : « ومع هذا فمن المغالاة أن نتصور أن لغات الأمم البدائية قريبة الشبه بلغة الإنسان الأول . فهي مهما التقطناها من بين أحط الشعوب في المدنيّة تمثل مرحلة متأخرة نسبيًا من مراحل التطور اللغوي . فلا شك أن آلافًا من السنين قد مرّت على لغة الإنسان قبل أن تصل إلى مرحلة تلك الشعوب التي نسميها بدائية »(٢) .

ثالثًا : ومن أهم هذه الدراسات في بحث النشأة اللغوية ؛ الدراسة التاريخية للتطور اللغوي ، ولكنهم – كما يقول إبراهيم أنيس – بدءوها بطريقة عكسية ، فبدءوا البحث في لغات العصر الحاضر ثم عادوا إلى العصور السابقة معتمدين على النصوص اللغوية والمستندات التاريخية التي وصلت إلينا من تلك العصور ، فأخذوا يعقدون بينها المقارنات ليستنبطوا القوانين والقواعد العامة للتطور اللغوي ، ويطبقونها على عصور ما قبل التاريخ ليتسنّى لهم الكشف عن نشأة اللّغة . فمثلاً يقارنون بين اللهجات العربيّة الحديثة والقديمة(٣) .

وقد أفادت هذه الدراسة في الكشف عن بعض القوانين العامة التي خضعت لها اللّغة العربية كاتجاهها نحوالتيسير في الأصوات بتخلُّصها من الكلمات المتنافرة الحروف (الهعخع – مستشزرات – اجحنشش) وكذلك ميلها نحو التقصير من بنية الكلمات ، فاستنتجوا من ذلك خطأ القول بالثنائية في اللّغة وعدم وجود أصلٍ لها إذ وجدوا أن النصوص القديمة في معظم اللغات قد تضمنت كلمات طويلة كثيرة الحروف نحو (اقعنسس ، احرنجم ، اجرنثم) وغيرها من الأوزان الصرفية قد انقرضت في اللّغة العربية ، وشاعت تلك الكلمات الثلاثية والرباعية(٤) .

---

(١) ينظر في ذلك : علم اللّغة ، د. عبدالواحد وافي (٩٧) .

(٢) دلالة الألفاظ (٣١) .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق (٣٣) بتصرف .

في تاريخ نشأة اللـّغة العربية :

وبغض النظر عن كون اللـّغة العربية توقيفًا أو اصطلاحًا فقد اختلف القدماء في نشأتها وأوّل من تحدث بها بل في نسبتها على النحو التالي[١] :

١ – منهم من رجع نشأة اللّغة العربية إلى آدم عليه السلام – سواء أوقفه اللّه عليها ، أو أقدره على وضعها كما تأوله ابن جني – ثم توالى الأمر بعد ذلك وتتابع سواء على أنبياء العرب كما اعتقد أصحاب التوقيف أو قام بالمهمة أبناء العرب أنفسهم عند غيرهم .

٢ – ومنهم من أرجعها إلى يعرب بن قحطان وزعم أنه أوّل من نطق بها ، وبهذا المعنى جاء شعر حسان بن ثابت يفخر على العدنانيين :

تعلمتم منطق الشيخ يَعْرُبِ أبينا فصرتم معربين ذوي نفر

وقالوا إنّ العربية نسبت إليه وهؤلاء القحطانية ، وذهب آخرون إلى رجع النسبة إلى (عربة) واحة العرب ، وهناك فريق ثالث رجع النسبة إلى إعراب ألسنتهم وبيانها .

٣ – ومنهم من رجعها إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، فقالوا إنّه أوّل من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه . وهذا يحتمل أمرين إما أن يكون اصطلاحًا بينه وبين جرهم النازلين عليه ، وإما أنْ يكون توقيفًا من اللّه ، وهؤلاء العدنانية .

٤ – وقال آخرون إنَّ أول من تكلم العربية المحضة إسماعيل – أرادوا عربية قريش التي نزل بها القرآن – وأمَّا عربية قحطان وحمير فكانت قبله بكثير .

والأمر الذي أجمعوا عليه هو اعتقادهم بقدم اللّغة العربية ، فهي عندهم سلسلة من التراكمات اللغوية تكونت عبر العصور التاريخية يُضاف بعضها لبعضٍ ويتصل به فيتلاحق تابع منها بفارط يتوارثونه آخرًا عن أوّل[٢] .حتى استقرت اللّغة على هذا البناء والتكوين فاعتبرها العلماء أمانة يجب الحفاظ عليها وعدم تغييرها بقياس لم تقسه العرب أو اشتقاق لم تشتقه أو بإحداث بنية جديدة لم تكن في لغتهم وقت

---

(١) ينظر المزهر ٢٧/١ إلى ٧٤ ، وانظر في اللسان مادة (عرب) .

(٢) ينظر : الخصائص ٢٨/١ وما بعده .

الاحتجاج عند كل فريق[١] ، لدرجة أن الكلمات التي احتاجوا إليها من لغات أخرى عرّبوها ونطقوا بها وفق منهاج العرب ولم ينقلوها كما هي عند أهلها انطلاقًا من إحساسهم بقداسة اللّغة العربية ولأن في ذلك فسادها ولذا ظهرت المقولة العبقرية (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)[٢] لأنه إذا كان إحداث أسماء ومصطلحات جديدة أمرًا ضروريًا ، فإن تغيير القالب والشكل الذي تصب فيه اللّغة أمر محظور عندهم وفي ذلك سر من أسرار خلودها .

ونجم عن هذه النظرة التراكمية للّغة العربية وارتباطها بعصورها الأولى عندهم أن وضع بعضهم لأصحاب السير شعرًا عن آدم (يرثي ابنه) وعن مرثد بن سعد وكان في زمن هود الذي عاش بعد نوح وقبل إبراهيم عليهم وعلى نبينا السلام ، كما رُوِي شعر عن يعرب بن قحطان نفسه وعن عاد وثمود بن عابر وغيرهم من الأمم البائدة مما هو منتشر في مروج الذهب للمسعودي وسيرة ابن هشام وأخبار الكلبي وغيرهم . وإن كنّا لا نعتمد على هذا الشعر لأسباب فنّية تتعلق بالشعر نفسه منها الركاكةُ والسهولةُ والألفاظ الإسلامية التي تدل على وقت وضعه ، واستحالة بقاء الرواية عبر آلاف السنين دون تدوين وكتابة ، إلا أنه يؤخذ منها قدم العربية أو اعتقادهم بذلك ، يشهد على ذلك الكلام (العُقْبِيّ أو العُقْمِيّ) وهو الكلام القديم المندرس من كلام الجاهلية الذي لا يعرفه من جاء بعدهم ولا يُشتق منه فعل ، «قال أبو عمرو بن العلاء : سألت رجلاً من هذيل عن حرف غريب فقال : هذا كلام عُقْمِي. يعني أنّه من كلام الجاهلية لا يُعرف اليوم»[٣] . ويدلنا على ذلك أيضًا قبول ابن جني كلام العربي المخالف لما عليه الجمهور إذا كان فصيحًا ووافق كلامه القياس وتعليله ذلك بأنه قد يمكن أن يكون ذلك وقع إليه من لغةٍ قديمةٍ قد طال عهدها، وعفا رسمها، وتأبدت معالمها[٤] .

---

(١) لا يقبل أصحاب التوقيف لغة حدثت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم . ذهب إلى ذلك ابن فارس فيما أورده عن أبي الأسود من رده لغة الأعرابي المختلقة رغم ان وفاته في ٩٦ هـ (الصاحبي ، ٨) بينما استمر الاحتجاج عند غيره إلى ١٥٠ في المدن ، ٣٥٠ في البادية بعد الوثوق من لغة العربي . وسيأتي بيانه .

(٢) ينظر : الخصائص ٣٥٧/١ .

(٣) لسان العرب مادة (عقم) .

(٤) ينظر : الخصائص ٣٨٥/١ – ٣٨٦ .

ولم يكن المحدثون بأحسنَ حالاً من القدماء في محاولة الكشف عن تاريخ نشأة اللّغة العربية رغم اعتمادهم على الدراسات المقارنة وقراءتهم النقوش القديمة للعربية الجنوبية والشمالية البائدة ، فأقصى ما توصلت إليه بحوثهم أنَّها إحدى اللغات المتفرِّعة عن اللغة السامية القديمة (الأم) . وقسم العلماء اللغات المتفرعة عنها إلى مجموعتين : المجموعة السامية الشمالية وتتألف من (العبرانية ، والفنيقية ، والآرامية ، والآشورية « البابلية » ، والكنعانية) . والمجموعة السامية الجنوبية وتتألف من (العربية بلهجاتها ، والحبشية) [١]، وقد رجعت البحوث هذه اللغات إلى فصيلة لغوية واحدة لما بينها من التشابه في جوهرها من حيث جذور الأفعال ، وأصول التصريف والمفردات ، وزمن الفعل الماضي والمستقبل وحروف الجر وأسماء الإشارة والأسماء الدالة على القرابة الدموية والأعداد وأعضاء الجسم وجملة من الألفاظ[٢] .

وقد كشفت بحوثُهم أن العربية أقربُ أخواتها إلى اللغة السامية القديمة ، إذ تحمل أقدم وأكثر الخصائص التي تميزت بها ، فهي أكثرُ أخواتها احتفاظًا بالأصوات السامية القديمة ، وأدقُّها في قواعد النحو والصرف ، وأثراها في أصول الكلمات والمفردات حيثُ تحمل من هذه الخصائص ما اشتملت عليه أخواتها مجتمعةً وتجرَّدت منه منفردة[٣] . وهي بالرغم من كونها أحدث اللغات السامية ظهورًا على مسرح التاريخ وكون آثارها آخر ما سطرته أقلام الساميين إلا أنَّها تبدو -اعتمادًا على ما تقدم- أقدم لغةٍ في مجموعتها وأنها موجودةٌ في مهد اللغات الساميّة .

ولعل في تصور ولفنسون عن تكوّن اللغة العربية الباقية ما يعلل ذلك ، إذ ذكر : أنَّ اللغة العربية الباقية هي مزيج من لهجات مختلفة بعضها من شمال الجزيرة وهو الأغلب وبعضها من جنوب البلاد اختلط بعضها ببعض وامتزج امتزاجًا شديدًا

---

(١) هناك تقسيمات أخرى غير ما ذكرنا . انظر : تاريخ اللّغات السامية ، أ. ولفنسون (٢٠) ، وانظر : شجرة اللغات السامية عند صبحي الصالح في فقه اللّغة العربية (٤٩) .

(٢) ينظر : ولفنسون (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) (تاريخ اللغات السامية) .

(٣) قارن بين : فقه اللّغة العربية ، د. علي وافي (١٦٤ – ١٦٥ ، و علم اللّغة العربية ، د. محمود فهمي حجازي (١٣٩) .

حتى صارت لغةً واحدةً بعد أن فني أصحاب اللهجات وبادوا بفعل الحروب والكوارث والمهاجرة والاندماج في بعضهم ، وقد رجع تعدد الصيغ والمفردات في العربية إلى هذه الظاهرة حيث كانت اللهجات القديمة مختلفة في كثير من مادتها اللغوية وعندما توحّدت تعددت الصيغ كقولنا في جمع نجم : أنجم ونُجوم ونجُم ، وكلها بمعنىً واحد .

ويرى أن امتزاج هذه اللهجات وتداخلها كان متدرجًا عبر عصور طويلة أثناء الجاهلية فكانت الواحدة تبتلع الأخرى ثم يتكون من الاثنتين لهجة جديدة لم تكن من قبل فتمتزج بأخرى .. وهكذا استمر الاندماج مع ملاحظة سيادة الشمالية على اللهجات الجنوبية والتغذي بها قبل ظهور الإسلام وانسحاب ذلك على اللغات السامية المختلفة فكانت الواحدة تندمج في الأخرى[١] .

وهذا ونحوه ما جعل اللّغة العربية تزخر بالخصائص والعناصر الساميّة القديمة ، أضف إلى ذلك عزلتها الجغرافية التي كانت بمثابة الحارس الأمين للغتها الساميّة القديمة وكذلك نشوؤها في أقدم موطن للساميين وهو جزيرة العرب على أقوى الآراء [٢].

وقد تنبّه من القدماء إلى هذه القرابةِ اللغويةِ والتشابهِ بين بعض اللغات السامية ابن حزم الأندلسي إذ يقول : « إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينًا أن السريانية والعبرانية والعربية ، وهي لغة مضر لا حمير لغةٌ واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الأندلسي إذا رام نغمة أهل القيروان ... ومن تدبر العربية والعبرانية والسريانية – أراه يقصد في فترة متقدمة – أيقن أن اختلافها إنما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان واختلاف البلدان ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل »[٣] .

---

(١) ينظر ولفنسون (١٦٦ – ١٦٧) .

(٢) ينظر الآراء في أقدم موطن للساميين في المفصل ١/٣٢٩ وما بعدها . (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) د. جواد علي .

(٣) الإحكام في أصول الأحكام ، ابن حزم الأندلسي (٣٤) .

العرب والأعراب :

أمّا كلمة (العرب) فلم تدل على هذه القوميّة إلا في وقت قريب من ظهور الإسلام ، وقد كانت قبل ذلك تُطلق على نوع خاص من القبائل وهي التي تسكن الصحراء من البدو المتنقّلين من مكان إلى آخر سعيًا خلف الكلأ والماء ، هذا ما أفضى إليه تتبع المستشرقين لتاريخ الكلمة ومعناها في اللغات السامية وكتابات الآشوريين واليونان والرومان والعبرانيين وفي العربية الجنوبية فوجدوها تدل على البداوة والأعرابية والجفاف والقفر (١).

أمّا المتحضرون من العرب وسكان المدن فكانوا يُنسَبون إلى قبائلهم أو إلى أقاليمهم ومناطقِهم كالسبئيين والحميريين وغيرهم ، وقد كانوا أهل حضارة عربية عريقة فشيَّدوا القصورَ والسدودَ والمعابدَ وتزعموا طرقَ التجارةِ في العالم القديم . وكذلك اللهجات العربية قديمًا كانت تُنسَب إلى أقاليمها أو إلى أكبر قبائلها كالمعينية والسبئية والحضرمية والثمودية واللحيانية والصفوية وغيرها ، ولما شاعت لغة شمالِ الجزيرة التي كان أغلب عناصرها من الأعراب سمّيت اللغة باسم هذه الطوائف البدوية في العصور القريبة من ظهور الإسلام من باب التغليب فأصبحت العربية تدل على اللّغة السائدة في الجزيرة ولفظ العرب يدل على القومية .

ثم جاء بعد ذلك في اللّغة العربية التفريق بين لفظ (العرب والأعراب) بتخصيص (العرب) لسكان المدن والحضر وتخصيص (الأعراب) للبدو الرحَّل وأهل الصحراء ، وكان ذلك قبيل الإسلام ، وقد جاء في القرآن تسمية البدو بالأعراب في سورة التوبة ، والأحزاب ، والفتح والحجرات . وكما تخبرنا المعاجم العربية أن البدوي يفرح إذا قيل له يا عربي ، ويغضب إذا قيل له يا أعرابي ، ولعل السبب في ذلك ما نُعت به بعضهم في القرآن .

ونود الإشارة هنا إلى أن عمل علماء الأفرنج وبعض المستشرقين في نسبة أكثر الكلمات العربية ذات المعاني العمرانية والعلمية إلى الآرامية أو العبرية ومبالغتهم في ذلك بدعوى أنها غيرُ مألوفةٍ عند العرب – لبداوتهم – لا مسوِّغ له بتاتًا بعدما تقدم بيانه من أنَّ من العرب أصحاب حضارة عريقة في شمال الجزيرة وجنوبها ذابت لغتهم في العربية الباقية وتغذّت بها ، وهذا مدخل واسع ينهجه أعداء العربية لسلبها محاسنها والطعن في أهلها بعد فصل حضارتها(٢) .

---

(١) ينظر : المفصل ١/١٦ ، ١٨ ، ٢٣ .

(٢) جاء في كتاب ولفنسون (تاريخ اللغات السامية) : « على أن هناك كلمات يجزم علماء الأفرنج أنها ليست عربية الأصل لأنها تدل على معانٍ عمرانية أو دينية أو علمية غير مألوفة عند العرب فينسبونها إلى الآرامية أو إلى العبرية » ص ١٦٣ .

العربية الجنوبية والعربية الشمالية :

دأب المحدثون على تقسيم لغات العرب القديمة في شبه الجزيرة العربية إلى عربية الجنوب وعربية الشمال ، ثم تقسيم عربية الجنوب إلى خمس لهجات وهي (المعينيّة ، السبئيّة ، الحميريّة ، القتبانيّة ، والحضرمية) ، وتقسيم عربية الشمال إلى بائدة وهي (اللحيانيّة ، الثموديّة ، الصفوية) وباقية وهي العربية الفصحى ولهجاتها المختلفة .

أولا - العربية الجنوبية القديمة (*):

وجد علماء الآثار أنّ لعرب الجنوب (اليمن) لغات قديمة تختلف لهجاتها عن اللّغة العربية الفصحى اختلافًا كبيرًا ، فأطلقوا عليها عدّة أسماء منها (العربية الجنوبية القديمة) و (اليمنية القديمة) و (السبئية أو الحميرية) تسميةً لها بأشهر لهجاتها ، وقد وصلت إلينا لغاتها من نقوش كثيرة مدونة على الصخور والأعمدة وجدران المعابد والهياكل مكتوبةً بالمسند اليمني القديم وهو على هيئة خطوط هندسية منسقة مستندة إلى أعمدة ويُكتب من اليمين إلى الشمال وحروفه هي حروف الأبجدية العربية ، وقد عُثر عليها في اليمن وفي بعض مناطق نفوذها في شمال الحجاز وبعض المناطق الشمالية لبلاد كنعان .

ونُسبت هذه اللهجات إلى دولها وملوكها وأكبر قبائلها التي لم يُتمكن تحديد زمنها ولغتها بشكل دقيق إلا ما كان على سبيل التقريب ، وذلك لغموض أغلب نقوشها باحتوائها على عبارات غير واضحة الدلالة لما تشتمل عليه من عبارات دينية مبهمة ، واصطلاحات تتعلق بفن العمارة ، وكلمات غريبة لا نظير لها في اللغات السامية الأخرى إضافة إلى كونها لا تشتمل على تواريخ يمكن معها تعيين وقت تدوينها . وإليك أشهر لهجاتها :

١ - اللهجة المعينية : وتنسب إلى المعينيين الذين أنشئوا أقدم دولة في

(*) اعتمدنا في استقاء المعلومات عنها على كتاب ولفنسون (تاريخ اللغات السامية) وعلى كتاب فقه اللّغة ، د . علي عبد الواحد وافي ، بتصرف ، وأشرنا إلى ما أخذناه من غيرهم في موضعه .

بلاد العرب ، وكانت عاصمتها قرنا أو قرنانا ، ويُعتقد قيامها قبل القرن الثامن للميلاد إذ يرى بعضهم أن سقوطها على يد السبئيين ما بين القرن الثامن والسابع ق.م ، وهذا يعني قيامها قبل ذلك . وقد كان بأيديهم زمام التجارة بين الهند من جهة وبلاد العرب وما وليها من جهة أخرى ، فكانت قوافلهم التجارية تتَّجه من سواحل المحيط الهندي إلى القسم الشمالي من بلاد الكنعانيين مارةً بسواحل البحر الأحمر. وقد وصلت إلينا اللهجة المعينية من نقوشها التي عُثر عليها في موطنها في اليمن وفي بعض مناطق نفوذها حيث استقرت جالياتها في شمال بلاد العرب ونقلت إليها حضارة اليمن ومسندها وعمارتها وعبادة الأوثان اليمنية .

٢ – اللهجة السبئية : وتنسب إلى السبئيين الذين قوَّضوا مُلك المعينيين ، وقد جاء ذكرهم وذكر حضارتهم في القرآن الكريم في سورة (سبأ) فذكر أنهم كانوا في نعيم ورغد من العيش فكفروا بأنعم الله فسلط الله عليهم سيل العرم ومزقهم كل ممزق وجعلهم أحاديث للناس .

واتخذ السبئيون مأرب عاصمةً لدولتهم وهي أشهر مدينة عربية في الجاهلية حوت المعابد والقصور الأنيقة والسدود العظيمة التي كانت سبباً في ازدهارها ومعلماً من معالم حضارتها .

وقد خاضت سبأ حروباً وصراعاتٍ كثيرة في جنوب الجزيرة العربية مع حمير وقتبان وحضرموت وقبلها معين ، ولا يوجد لها جاليات في الشمال كما كان للمعينيين ولم يُعثر على نقوشها إلا في اليمن ، وكان زوال دولتهم باحتلال الأحباش لليمن سنة (٣٧٥) م ، ولكنها اتحدت مع جميع العناصر القومية في اليمن وطردت الأحباش (٥٧٠) ب . م .

٣ – اللهجة الحميرية القديمة : وهي بخلاف الحميرية القريبة من ظهور الإسلام إذ إن الأخيرة امتزجت مع العربية الشمالية وأصبحت من إحدى لهجاتها وإن أبقت على بعض الآثار من الحميرية القديمة(١) ، وتنسب اللهجة الحميرية القديمة

---

(١) سيأتي الحديث عن ذلك في انقراض اللهجات اليمنية القديمة .

إلى جماعات حمير التي خاضت معارك كثيرة مع السبئيين في سبيل السلطة بدون جدوى حتى تم طرد الأحباش من اليمن فتولت السلطة بعد ضعف السبئيين سنة (٤٠٠) م ، ومن ثم سادت لهجتها على سائر اللهجات اليمنية القديمة ، وقد اتخذوا من ظفار عاصمة لدولتهم واشتهر ملوكهم بلقب التبابعة وهو جمع تبّع ، وقد اشتهرت هذه القبائل بالحكمة والذكاء وأكثر الأمثال اليمنية اليوم تُنسب إلى حمير لما عُرف عنهم من الحكمة وسداد الرأي ، وقد كتب الهمداني عن أمثالهم وحِكَمهم في أجزاء من كتابه (الإكليل) ولكنها فُقِدت للأسف[١] .

٤ – اللهجة القتبانية : وتنسب إلى قبائل قتبان التي أنشأت مملكتها في المناطق الساحلية بشمال عدن ، ويتضح من نقوشٍ كثيرةٍ أن بين القرن السابع والثاني قبل الميلاد استمرت حروب كثيرة بين سبأ وقتبان انتهت بمحو قتبان نهائيًا وامتزاجها في سبأ، ولذلك عُرف ملوك سبأ سنة (١١٥) ق . م بملوك سبأ وريدان.

٥ – اللهجة الحضرمية : وتنسب إلى قبائل حضرموت التي أقامت حضارة زاهرة في جنوب اليمن تعرف باسمها ، ولم تسلم من سطوة النفوذ السبئي فسرعان ما تقوّض حكمها وزالت دولتها ، وذابت لهجتها في اللهجة السبئية ، وباتوا من رعايا ملوك سبأ ، يتضح ذلك من تسمية الملك يوهراش نفسه سنة (٣٣٠) م ، ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنه .

وقد وصلتنا العربية الجنوبية من نقوشها بالمسند اليمني التي استخدمته جميع لهجاتها فعرفنا أنَّها تختلف وتتباين عن العربية التي نزل بها القرآن اختلافًا كبيرًا في جميع مستوياتها الصوتية والصرفية وفي التراكيب والمفردات ، ولمعرفة مقدار الخلاف إليك نموذجًا لنقش سبق ترجمة حروفه برسمنا العربي :

---

(١) ينظر : مقدمة حمد الجاسر على كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني بتحقيق محمد بن علي الأكوع رحمهم الله ، ص ٢٣ .

.. ن بمقم مراهيمو عثتر شرقون واشمسهو والال تهمو وباخيل ومقيمت خميس[١]

وهو يقول بلغتنا الفصحى :

بمجد سيدهم عثترالمشرق وآلهة الشمس وسائرالآلهة وبحول وقوة الخميس.(الجيش).

انقراض اللهجات اليمنية القديمة وحلول الفصحى مكانها:

تعرّض القسم الجنوبي من الجزيرة العربية لأزمات سياسية واقتصادية متتالية أدت إلى ضعفه وتقويض حضارته ، فقد كان مسرحًا للحروب الأهلية بين قبائله في محاولة السيطرة على دفة الحكم ، ومطمعًا للأمم الأخرى لا سيما وهو يتمتع بموقع جغرافي وتجاري هام في العالم القديم ، وفعلاً وقع تحت الاحتلال الحبشي تارة وتحت الحكم الفارسي تارة أخرى ، وخرجت منه هجرات بشرية واسعة نحو شمال الحجاز وفلسطين وجنوب سورية والعراق .

ومن المعلوم يقينًا أن اللّغة تتّبع حضارة أهلها وقوة دولتهم،وكما يقول ابن حزم: « فإنّ اللّغة يسقط أكثرها ، ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم ، فإنما يقيِّد لغة الأمة وعلومها وأخبارها قوة دولتها ، ونشاط أهلها وفراغهم . وأما من تلفت دولتهم ، وغلب عليهم عدوهم ، واشتغلوا بالخوف والحاجة والذلّ وخدمة أعدائهم ، فمضمون منهم موت الخواطر ، وربما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم ونسيان أنسابهم وأخبارهم بيود علومهم ، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة »[٢] .

وقد كان التقارب اللغويّ والانتماء القومي سببًا جوهريًا في حلول اللغة العربية الفصحى مكان اللهجات اليمنية القديمة بعد ذوبانها وتغذي الفصحى بها ، وكان ذلك بشكل متدرج عبر عصور طويلة وبحسب القرب والاندماج مع القبائل الشمالية وفي قلب الجزيرة العربية وزيادة فرصة الاحتكاك اللغويّ ، فكلما اقتربت القبائل الجنوبية من الشمالية توحدت اللّغة وسادت الفصحى ، ولعل في وصف الهمداني للغات

---

(١) أصل الحروف بالمسند اليمني . انظر : ولفنسون (٢١٩) نقش رقم خمسة ، وانظر تعقيب ليتمان عليه (٢٨٠) آخر الكتاب .

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ، ابن حزم الأندلسي ٣٤/١ .

العرب في الجزيرة ما يكشف الطريق الذي سلكته الفصحى في جنوب الجزيرة وكيفية سريانها وسيادتها على لغاته القديمة ، حيث يصف بعض لغات اليمن بأنه فصيح (يشبه لغة القرآن ولغة قريش) ، ومنها ما هو أغتم يشاكل لغة العجم ، ومنها ما هو وسط وإلى اللكنة أقرب ، ومنها ما هو حميري ويصفه بالتعقيد وتارةً أخرى يجعل من الحميرية صفةً بذاتها ، ثم يصف لغة صنعاء بأنَّ فيها بقايا من العربية المحضة ونَبَذٌ من كلام حمير(*) ، ثم نجده يصف اللغات بالفصاحة كلما اتجه شمالاً ثم يطلق الفصاحة على عرب وسط الجزيرة في نجد والحجاز وعكس ذلك كلما اتجه إلى عمق اليمن وجنوبها ، وصف لغات أهلها بأنها غتمة أو غير فصيحة أو حميرية كما وصف ذمار وعدن مهره[١] .

ومما يدلنا على سيادة العربية الفصحى في اليمن وحلولها مكان لغاتها القديمة ما لاحظه الهمداني بأنَّ الأسماء اليمانية القديمة ثقيلةٌ على ألسنة الناس في أيَّامه وقبل أيَّامه مما له شأن كبير في الكشف عن تغير وتبدل لسان أهل اليمن وأنَّ ذلك التغيُّر قد تناول حتى الأسماء ، فصارت الأسماء القديمة ثقيلةً على أسماعهم ، غليظة الوقع عليها فخفَّفوها أو بدّلوها ، وهذا ما دلّت عليه الأسماء في المساند المدونة قبل الميلاد والتي أخذت تخفّ في ثقلها عنها بعد الميلاد وقبل الإسلام مما يدل على حصول تقارب بين لغتهم ولغة أهل الحجاز وبقية العرب الذين يسميهم المستشرقون (العرب الشماليين)[٢] .

ومن هنا فإننا لا نجد مسوغًا للدعوة التي نادت بإنكار الشعر الجاهلي ، خاصة ما يتعلَّق بشعراء القحطانية كامرئ القيس وغيره بدعوى أن اللّغة الحميرية أو القحطانية تختلف عن العدنانية معتمدين على لغة النقوش التي عُثر عليها وكذلك على قول أبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[٣]. إذ علمنا أن اللغة الحميرية التي كانت تختلف عن لغة قريش هي من

(*) علمًا بأن الحميرية في عصره كانت قد تغلبت عليها القرشية وتأثرت بها فهي إحدى اللهجات العربية بخلاف الحميرية الموغلة في القدم والتي تختلف عن العربية .

(١) ينظر : صفة جزيرة العرب للهمداني (٢٤٨ – ٢٥٠) .

(٢) نقلاً عن المفصل ٩٢/١ . (بتصرف) .

(٣) نادى بهذه الدعوة طه حسين في كتابه (في الأدب الجاهلي) .

اللغات اليمنية القديمة التي انقرضت وذابت في العربية الشمالية بعد أن تغلّبت عليها قبل الإسلام بأمد طويل ، وأنَّ النصوص التي عثروا عليها في النقوش وفيها خلاف بين اللغتين نصوص معينية أو سبئية أكثرها غير مؤرخ ، وفي رأي (جلازر) أن أقدمها هي المعينية ، وأقدم هذه يرجع إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد(١) .

أمَّا حميرية القرن الخامس الميلادي – وهو عهد الأدب الجاهلي – فقد كان الخلاف بينها وبين القرشية في ظلِّ اللّغة الواحدة بعد أن سادت الفصحى في جنوب الجزيرة بأمد طويل ، بيد أن العربية تأثرت في ألسنة أهل اليمن بلهجاتهم القديمة وبقاء بعض آثارها في أصواتهم وتراكيبهم ومفرداتهم مما أدى إلى اختلافها عن القرشية(٢) ، من ذلك وقوفهم على الهاء بالتاء فيقولون في (عربية) (عربيت)(٣) واستخدامهم (ام) أداة للتعريف فيقولون (ام رجل)(٤) بمعنى (الرجل) ، ومن جهة المفردات تسميتهم الذيب بالقِلَّوب ، والصديق بالخِلْم ، والأصابع بالشَّناتر(٥) . ولكن هذا الاختلاف لا يعدو كونه اختلافًا في ظل اللّغة الواحدة .

أما احتجاجهم بقول أبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، فهو احتجاج في غير محله إذ أنّ قوله لا يخرج عن معنيين :

أحدهما : أنه يقصد الحميرية الموغلة في القدم ، ذهب إلى ذلك علي عبد الواحد وافي بقوله : كأنه كان يعني الحميرية القديمة(٦) .

وإذا كان هذا معناه فلا يُعتبر ذلك طعنًا في الشعر الجاهلي لشعراء اليمن إذ إن أقدم ما وصلنا عن العصر الجاهلي لا يتجاوز أواخر القرن الخامس وأوائل القرن

---

(١) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ، د . عبد العال مكرم (٣٣٣ – ٣٣٤) وقد نقله عن د.أحمد الحوفي .

(٢) هناك أسباب أخرى سنذكرها في أسباب اختلاف لغات العرب .

(٣) ينظر : الصاحبي (٣٢) .

(٤) ينظر : صفة جزيرة العرب (٢٥٠) .

(٥) ينظر : الصاحبي (٣٨) .

(٦) ينظر : فقه اللّغة ، د. وافي ، حاشية ٧٧ ، و ص ٨٦ .

السادس الميلاديين ، والحميرية القديمة كانت قبل ذلك بأمد طويل .

والثاني : أنه يقصد بالخلاف بين الحميرية والعدنانية أنه بين لهجتين في لغة واحدة ، وقد كان القدماء يطلقون على اللهجة اسم اللّغة أو اللسان[١] ، وكانوا يَعُدّون الخلاف بينهما في ظل اللّغة الواحدة ، يؤيد ذلك رواية ابن سلام الجمحي في طبقاته عنه إذ يقول : « وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا .. »[٢] ، فقوله (اليوم) دليل على أنه يريد أنها لهجة ، وإلا فلا يعقل أنه أراد غير ذلك كما زعم منكرو الشعر الجاهلي ، والواقع ينفيه إذ إن وفود اليمن كانت تفد إلى الرسول صلى اللّه عليه وسلم وتسمع منه وتخاطبه ، ويرسل إلى اليمن الدعاة للدعوة دون أيّ عائقٍ لغويّ ، كما أن الأسواق كانت تقام في صنعاء وعدن والشحر وهي بمثابة نوادٍ أدبية ، تلقى فيها الخطب والأشعار .

---

(١) ينظر رأي أحمد بن فارس في الصاحبي عن الخلاف بين الحميرية والقرشية (٣٨) .

(٢) طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي (مقدمة) ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المديني ، جده .

ثانيا - العربية الشمالية [بائدة وباقية] :

١ - اللغة العربية البائدة :

ويطلق عليها (عربية النقوش) أيضًا إذ اهتدينا إلى لهجاتها عن طريق نقوشها التي عُثر عليها في مواطن العرب بشمال الحجاز في منطقة العلا ومدائن صالح(الحجر) وعلى الحدود الآرامية (في جنوب سوريا وفلسطين والأردن) وداخلها، وقسّم العلماء هذه النقوش قسمين ، قسم شديد التأثر بالآرامية ، وقسم أقل تأثرًا بها وأقرب إلى الباقية (الفصحى ولهجاتها) بيد أنها جميعًا أقرب صلة وأكثر شبهًا بالعربية الباقية في كثير من خصائصها الصوتية وفي التراكيب والمفردات من عربية الجنوب ، « فهي تشتمل على معظم الأصوات التي تمتاز بها العربية الباقية عن سائر أخواتها السامية أو يكثر ورودها فيها دون غيرها كأصوات (الذال والثاء والغين والضاد) وتشتمل كذلك على أهم خاصيّة لقواعد اللّغة العربية ؛ وهي خاصيّة الإعراب بالحركات لآخر الكلمة لبيان وظيفتها وعلاقتها ببقية عناصر الجملة ، وتسير على الطريقة العربية في صوغ أفعل التفضيل وحذف علامة الإعراب أو شيء منها في حالة إضافة الاسم إلى ما عداه . وتبدو وجوه الشبه بينهما أظهر ما تكون في أصول المفردات وأسماء الأعلام»[١] .

أ - لهجات القسم الأول من النقوش :

وجد علماء اللغة وعلماء الآثار بعد قراءة القسم الأول من النقوش أنّها تشتمل على ثلاث لهجات وهي (اللحيانية ، الثمودية ، الصفوية) اشتقت أقلامها من المسند اليمني ، وتأثرت بالطابع الآرامي والنبطي لمجاورتها لهم ، إلا أن ذلك لم ينقص من كونها عربية شيئًا رغم اختلافها عن العربية الباقية في استخدامها (الهاء) كأداة للتعريف كما هي الحال في العبرية فيقولون في (الجمل) : (هجمل) ، و (البيت) : (هبيت)[٢] ، وخلُوّها من حروف العلة فيكتبون (زيد) : (زد) ، و (مناة) : (منت)، و (إلى و على) : (ال - عل) ، كما تحوي بعضها[٣] على بعض الأسماء والأفعال

---

(١) فقه اللّغة ، د. علي وافي (٩٩) .

(٢) ينظر : ولفنسون (١٨٠) .

(٣) وهي الصفوية ، ينظر المرجع السابق (١٨٨) .

غير معروفة في العربية ، من الأسماء (رفأل و عزرأل و شمريهو و اليشيبع) ، ومن الأفعال (خرص) بمعنى (قتل) ، وفي الباقية بمعنى (كذب) ، و (وجم) بمعنى (وضع علامة) ، وفي الفصحى بمعنى (سكت على غيظ) ، ومن معانيها في اللسان أيضًا (حجارة مركومة بعضها فوق بعض) ، و (مطى) بمعنى (غنم) ، وفي الفصحى لما يمتطى من خيل وإبل[١] . أضف إلى ذلك ما اعترى بعض أساليبها من عجمة بارزة وخلو هذه النقوش من روح العصبية والقومية العربية فنجدهم يؤرخونها بحرب النبط وتاريخ بصرى وحروب الفرس والروم .

١ – النقوش اللحيانية : وتنسب إلى قبائل لحيان التي سكنت شمال الحجاز واتخذت من مدينة العلا عاصمة لها ، ورأيٌ آخر يقول إنَّها دويلات صغيرة إحداها منتشرة في شمال الحجاز وأخرى ممتدة في صحراء سورية إلى حدود العراق يخضع بعضها للنفوذ الروماني وبعضها للدولة الفارسية ، وثالثة كانت تحت سيطرة النبط لمصلحة الرومان[٢] .

وقد وصلتنا أجزاء من نقوشها وتحتوي على أسماء ملوكها وألقابهم بالقلم اللحياني المكتوب من اليمين إلى الشمال والمشتق من المسند اليمني ، ولا يتعدى أقدمها القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد . ومما لا ريب فيه أن لغتها عربية ويوجد فيها حروف الذال والثاء والعين والضاد ، كما يوجد فيها أفعل التفضيل وعلامة التنبيه التي هي من الخصائص البارزة للّغة العربية[٣] .

٢ – النقوش الثمودية : وتنسب إلى الثموديين الذين نزحوا من جنوب الجزيرة العربية[٤] إلى شمالها في الحجر (مدائن صالح) . والّذين جاء ذكرهم في عدّة آيات من القرآن الكريم فأخبرنا عن قوّتهم وحضارتهم حتى إنهم نحتوا من الجبال بيوتًا يسكنونها وحدّثنا عن هلاكهم بالصيحة بعد كفرهم بنبيهم صالح . وقد عُثر على هذه النقوش أيضًا في مناطق اللحيانيين وفي مناطق بعيدة عنهم من بلاد

---

(١) ما ذكر في الأفعال قد يكون نتيجة التطور الدلالي ولا غرابة فيه .

(٢) ينظر : ولفنسون (١٧٢) .

(٣) ينظر : ولفنسون (١٧٧) .

(٤) اختلفت الآراء حول موطنهم الأصلي أهو اليمن أم عسير . ينظر : ولفنسون (١٧٤) .

نجد وهضاب شبه جزيرة طور سيناء . ويرجع تاريخ معظمها إلى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد ، ودونت بالقلم الثمودي الشبيه بالقلم اللحياني والمشتق من المسند اليمني أيضًا إلا أنَّ اتجاهاته غير ثابتة على حال ، وفي الغالب يتجه من أعلى إلى أسفل وهو أقل رونقًا ونظامًا من القلم اللحياني .

والنقوش الثمودية موجزة مختصرة مما أدى إلى غموضها وهي على الرغم من ذلك عربية وقريبة من الأسلوب العربي المستعمل في صدر الإسلام أكثر من غيرها - كما يقول ولفنسون - ومنها يقف الباحث على أسماء الأصنام والأعلام وعلى جملة من التقاليد في الأحوال الدينية والاجتماعية . وإليك نموذجًا من نقوشها مدونًا برسمنا العربي[١] :

أ) ذ ن - ل ق ض - ب ن ت - ع ب د م ن ت

وعند إضافة حروف المد التي لا تدونها هذه النقوش كما سبق أن أشرنا إليه ، فإن النقش يقول : (ذين لقيض بنت عبد مناة) ، ووجدوا بجوار النقش قبرًا ، فكأنه يقول : (هذا قبر لقيض بنت عبد مناة) لدلالة الحال على ذلك .

ب) ل ت م - ي غ ث - ب ن - ج ش م - هـ و ع ل .

وعند إضافة حروف المد فإنه يقول : (لتيم يغوث بن جشم هوعل) أي : الوعل لتيم يغوث بن جشم ، ونلاحظ استخدامه الهاء أداة للتعريف .

٣ - النقوش الصفوية : سميت بذلك نسبة إلى منطقة الصفا رغم أنَّ نقوشها وجِدت في الحرة القريبة منها والواقعة بين جبل الدروز وتلو أرض الصفا ، ولا يوجد بين العرب قبائل تسمّى القبائل الصفوية كما يوهم بذلك تقسيم المستشرقين للخطوط العربية ولكنَّه مجرد اصطلاح أُطلق على خطها الذي يشبه القلم الثمودي واللحياني ويُعتقد أنه مشتق من أحدهما غير أنه مختلف الاتجاهات فتارة يُقرأ من الشمال إلى اليمين وأخرى من اليمين إلى الشمال .

ويرى المستشرق الألماني(لتمان) الذي فك رموزها أنَّ نقوشها ترجع إلى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، وتحوي من الحروف ثمانية وعشرين حرفًا كما هي

---

(١) نقلاً عن ولفنسون وبه النصوص الثمودية (١٧٨ ، ١٨٠) .

بالعربية الفصحى ، ووجد في كتاباتهم ألفاظًا تدل على حياتهم الصحراوية ففيها ذكر للغنائم (غنم أو مطي) والغزو (قتل أو خرص) ، ويستعملون كلمات مثل : أسد ولث (ليث) ، لبأه (لبؤه) ، وغزالي (غزال) ، وإبل وجمل وبكر ومهر .. ومن أصنامهم : (اللات وشيع القوم ورضو وجد ..)[١] . وإليك نموذجًا لأحد نقوشها مدونًا برسمنا العربي[٢] :

ل ا ن ع م ب ن ق ح ش و غ ن م سنت حرب نبط .

وعند وصل حروفه نجده يقول : (لأنعم بن قحش . وغنم سنة حرب النبط).

ب - القسم الثاني من النقوش[*] :

بالقرب من منطقة الصفا عثر المستشرقون على أربعة نقوش جاهلية أقرب إلى العربية (الباقية) من حيث أسلوبها ومادتها اللغوية من سابقتها وهي (نقش النمارة ٣٢٨م ، نقش زبد ٥١١ م، نقش حران ٥٦٨ م ، نقش أم الجمال –ولم ينشر بعد–) . وتتميز هذه النقوش بقلة تأثرها بالآرامية ، وبكونها عربية دونت بالقلم النبطي المتأخر والشبيه بالخط العربي الكوفي ، ونرى أنه يعتبر المرحلة الأولى في نشأة الخط العربي وبداية تكوّنه حيثُ جُزِم قلمنا العربي منه ولم يجزم من المسند اليمني القديم كما كان سائدًا عند القدماء[٣] بخلاف القلم اللحياني والثمودي والصفوي فإنها مجزومةٌ من المسند لا خلاف في ذلك .

كما تتميز هذه النقوش باشتمالها على بعض الأساليب العربية الفصيحة والتراكيب والأدوات النحوية السليمة والمستخدمة في الفصحى ، من ذلك ما جاء في نقش النمارة (فلم يبلغ ملك مبلغه) (نزّل بنيه الشعوب) (وملك العرب كلها) (هلك سنة) ، واستخدام (ذو) بمعنى (الذي) وهو استخدام عُرف في طيئ بعد ذلك ونُسِب إليها ، وقد جاء على لغتهم قول الشاعر الأسدي، منظور بن سحيم الفقعسي:

---

(١) نقلاً عن ولفنسون (١٨٣ ، ١٨٤) .

(٢) ولفنسون (١٨٥) وفيه النص بالقلم الصفوي .

(*) اعتمدت في استقاء المعلومات عنها على كتاب ولفنسون وتعليق لتمان عليه . والنقوش في (١٩٠ النمارة ١٩١ زبد ، ١٩٢ حران) انظر أصولها .

(٣) ينظر : مادة (جزم) في لسان العرب تجد هذا الاعتقاد .

إمَّا كِرامُ موسِرونَ لَقِيتُهُم　　　　فَحَسْبِي منْ ذُو عِندَهم ما كَفَانِيا[1]

أما نقش حران فهو نص عربي جاهلي كامل . وإليك نص النقوش نقلناها عن ولفنسون برسمنا العربي :

نقش النمـــارة

عُثر عليه في قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب وهو من ملوك الحيرة وانتشر نفوذه على بادية الشام ، والنمارة قصر صغير في الحرة الشرقية من جبل الدروز . ويرجع تاريخ النقش إلى سنة ٣٢٨م ، ويشمل خمسة أسطر ونصه برسمنا العربي كما يلي :

١) تى نفس مر القيس بن عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج .

٢) وملك الأسدين ونزرا وملوكهم وهرب مذحجوا عكدى وجا .

٣) بزجى في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤) الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥) عكدى . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

ترجمة نقش النمارة :

١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي حاز التاج .

٢) وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم . وهزّم (أو هرّب) مذحجِ بقوته (عكدى تدل على القوة) وجاء .

٣) إلى نزجى (أو بزجى) في حبج نجران مدينة شمر وملك معداً وأنزل (قسم) بين بنيه .

٤) (أرض) الشعوب . ووكله الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥) في الحول (عكدى) . هلك سنة ٢٢٣ يوم سبعة من الول (كانون الأول) ليسعد الذي ولده (الذين خلفهم) .

ويعتقد لتمان أنه نقش عربي مكتوب بالقلم النبطي ويشتمل على بعض ألفاظ آرامية . وحرف الواو في أسماء الأعلام مثل : مذحجو ، شمرو وضع لينوب عن

---

(١) من شواهد ابن عقيل على ألفية ابن مالك ٤٨/١ وتلزم (ذو) الواو في الرفع والنصب والجر .

التنوين في حالة الرفع ، ولعل كاتب النقش أراد بإثبات حرف الواو أن يدل القارئ على النطق الصحيح للكلمة. قال بذلك ردًا على قول ولفنسون إن نقش النمارة آرامي أكثر منه عربي[١] .

نقش زبد

زبد اسم خربة موجودة بين قنسرين ونهر الفرات (جنوب شرق مدينة حلب) ويحوي النقش سطرين ويرجع تاريخه إلى ٥١١ م . وهو مكتوب بثلاث لغات : باليونانية والسريانية والعربية ، وتكمن قيمة هذا النقش في أنه يمثل الرسم العربي في أقدم مراحله . والنقش يقول على قراءة ليتسبرسكي :

(بسـ)م الإله شرحو بر مع قيمو بر مر القيس وشرحو بر سعدو وسترو و (شر) يحو (بتميمي) . كتبت هذه الكلمة بالسريانية .

قراءة المستشرق لتمان :

(بنصر) الإله شرحو برامت منفو وظبى بر مر القس وشرحو إلخ[٢] ...

[سرجو عوضًا عن شرحو ، وهنئ عوضًا عن ظبي] بذلك علق لتمان على ولفنسون[٣] .

نقش حران

كتب على حجر فوق باب كنيسة باليونانية والعربية في حران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز ، وهو ذو قيمة عظيمة في لغته ورسمه إذ يمثل اللغة والكتابة العربية في أوائل القرن الخامس الميلادي ، فهذا النقش يضم نصًا عربيًا جاهليًا كاملاً إذ يقول :

أنا شرحبيل بن ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول سنت (سنة) ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعم (بعام)[٤] .

---

(١) ينظر قول ولفنسون (١٩٣) وتعليق لتمان عليه في (٢٧٨) ، تاريخ اللّغات السامية ، ولفنسون .

(٢) تاريخ اللّغات السامية (١٩١) ، ولفنسون .

(٣) نقله ولفنسون بعد الفهارس ص ٢٧٨ .

(٤) ولفنسون (١٩٢) .

٢ – اللّغة العربية الباقية :

ويقصد بها اللّغة العربية الفصحى ولهجاتها المختلفة المنتشرة في شبه الجزيرة العربية شمالها وجنوبها قبل الإسلام ، وهي المقصودة بالعربية عند إطلاق اللفظ ، والتي ظهرت في قلب الجزيرة في الحجاز ونجد، وكان أصح ما وصلنا عنها روايةً يقدره العلماء في القرن الخامس الميلادي (١٥٠) قبل الهجرة ؛ وهي اللّغة التي نزل بها القرآن الكريم ونُظم بها الشعر الجاهلي ونثره ، وهي لغة الأدب والعلوم والتأليف في الوطن العربي إلى يومنا هذا ، وهي لغة لا يُعرف لها طفولة أو اكتهال ، ولم يشعر بها العالم إلا وهي في أوج قوتها واكتمالها وسعة نفوذهاوانتشارها فانقرضت أمامها اللهجات اليمنية القديمة في جنوب الجزيرة وصرعت أخواتها السامية في شمالها والتفّ حولها العرب في الجزيرة العربية .

ولكونها نمت قبل ذلك في طورها اللساني – لعدم إتقان المجتمع الذي نشأت فيه للكتابة والقراءة – اتّسمت بالموسيقى والعذوبة ، يتجلى ذلك في تنوع أصواتها واستثمارها لجميع المخارج الصوتية الممكنة عند الإنسان ، ورشاقة أبنيتها وأوزانها وتنوعها، واستخدامها للإعراب (تحريك أواخر الكلم بالضم والفتح والكسر) في التفريق بين المعاني مما يُضفي على جُمَلِها وتراكيبها مقاطع موسيقية عند الانتقال من الضم إلى الفتح أو الكسر ثم السكون وتنوّع ذلك في الجملة حسب مكوناتها .

وقد نجم ذلك لاعتماد أهلها على السمع واللسان في التعامل معها مما جعل آذانهم موسيقيةً مرهفةً لها قدرة فائقة في التمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة فتستريح إلى حسن الجرس وتستحسنه وتنبو لاختلاله وتستقبحه ، كما أخذت ألسنتهم تصنع من مواد العربية مقاطع موسيقية تكسوها الذلاقة والرشاقة ويكتنفها حسن النظم والائتلاف ، فانعكس ذلك على اللّغة نفسها ، واتسمت به ، لأنها أولاً وآخراً من نتاج الإنسان وصنعه ، ومن الخطأ أنْ نتصور اللّغة كائنًا مثاليًا تتكون وتتطور وتتبع أغراضها الخاصة بها مستقلة في ذلك عن البشر .

وبالرغم من كون اللّغة العربية الفصحى هي السائدة في الجزيرة العربية شمالها وجنوبها إلا أنّها لم تكن كذلك بالنسبة لجميع طبقات العرب(الخاصةوالعامة) كما أنّها لم تتخذْ في تطوّرها مساراً واحدًا في مختلف بيئاتها ، فانقسمت إلى عدّة

لهجات متفاوتة في اختلافها بعضها عن بعض بعداً وقرباً في جميع مستويات اللّغة (الصوتية ، الصرفية ، النحوية ، الدلالية)، ومن أهم هذه اللهجات: اللهجة الحجازية واللهجة التميمية اللتان كانتا المعين الصافي الذي انتهل منه علماء اللّغة مادتهم اللّغوية وبنوا على أساسه قواعدهم النحوية .

فعنى اللغويون بلغة أهل الشمال الفصحى بعد نزول القرآن وورود الحديث بها وهما أساس الشريعة الإسلامية ، فأخذوا في تقعيدها بعد استقرائها وجمعها وفق ضوابط جغرافية وزمانية مع مراعاة الوثوق من فصاحة المتلقى عنه(١) .

وسوف نحاول التعرف على الأسباب التي أدت إلى اختلاف لغات العرب وانقسامها فيما يأتي من حديثنا .

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الباب الثالث من بحثنا إن شاء الله . (ونكتفي بهذا القدر عن العربية الباقية هنا لأنها موضوع بحثنا) .

أسباب اختلاف لغات العرب[١]

من خلال الدراسات اللغوية المقارنة وجدنا أن هناك سنةً تخضع لها جميع اللغات الإنسانية على اختلافها وهي ميلها إلى التغير والاختلاف في ألسنة أهلها عند انتشارها ، وكثرة متحدثيها ، وتقادم العهد عليها ، ويكون مقدار هذا الاختلاف بدرجات متفاوتة من لغة إلى أخرى حسب العوامل المؤثرة عليها .

ويبدأ هذا الاختلاف عادةً بانقسام اللّغة الواحدة إلى لهجات مختلفة ، ثم لا تلبث هذه اللهجات أن تستحيل إلى لغات مستقلة يخالف بعضها بعضًا ويغايره وينغلق فهمها إلا على أهلها ، وكذلك اللهجات .

وهذا ما حدث في اللاتينية التي خرجت منها عدَّة لغات كالفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومينية ولغات أخرى ، ونرى أنَّ هذا التشعُّب كان قبل ذلك عبارة عن لهجات ثم لم تلبث أن تحوّلت إلى لغات مختلفة ، بدليل أنه كلما أوغلنا في تاريخ الفرنسية مثلاً وجدنا حالات متنوعة يتلو بعضها بعضًا وتقرِّبنا شيئًا فشيئًا من اللّغة اللاتينية[٢] .

وقد خضعت لهذه السنَّة اللغات السامية بما فيها العربية التي تفرعت عن اللّغة الساميّة القديمة الأم واختلفت عن بعضها عبر حقبٍ من التاريخ حتى صارت كلُّ لهجة منها لغةً مستقلةً بذاتها ، وقد مرّ بنا حديث ابن حزم في الفرق بين العربية والعبرية بأنه صوتي (عبارة عن لهجة أو لكنة) في فترة من الفترات ، ونحن الآن في زماننا هذا نرى الفرق بينهما جذريًا سوى بعض السمات التي تشير إلى انتمائها إلى فصيلة لغوية واحدة ، هي السامية .

وإذا كانت اللّغة العربية نجت من هذا المصير - تحول لهجاتها إلى لغات - لمجيء الإسلام ونزول القرآن بلغتها مما أسهم في وحدتها واتصالها بعصورها فإنها لم تسلم من اختلاف لهجاتها ، وكأن في ذلك إشارة إلى أنها لغة كسائر اللغات تخضع لنفس السنّة . وأنه لولا مجيئ الإسلام ونزول القرآن بلسانها لتحوّلت لهجاتها

---

(١) المراد بلغات العرب لهجاتها ، وقد استخدمنا تعبير القدماء في تسميتهم اللهجة لغة .

(٢) ينظر حديث فندريس عن القرابة اللغوية ص ٣٦٧ - ٣٦٩ .

إلى لغات مختلفة كما حدث للاتينية القديمة .

وإلى ذلك أشار الدكتور عمر فروخ عند قوله : « إن اللّغة العربية الموحدة خضعت في الشمال والجنوب لمجريين مستقلّين من التطور حتى كادت تصبح لغتين كالعربية والآرامية أو كالعربية والحبشية ، ولولا أن الإسلام ردّ جميع المسلمين إلى لغة أهل الشمال لكانت اليمن الجغرافية تتكلم اليوم لغة من اللّغات الساميّة تختلف عن اللّغة العربية كثيرًا أو قليلاً »(١).

وبالرغم من كون سعة انتشار اللّغة ، وكثرة متحدثيها ، وتقادم العهد عليها ، من الأسباب الفاعلة في اختلاف لغات العرب إلا أنّها لم تؤدِ إليه بشكل مباشر ولكنها وطّأت لأسباب وعوامل أخرى أدت إلى هذه النتيجة بشكل مباشر ، من أهمها :

ظاهرة الخفّة والثِّقل ، القياس المستقل (قياس القريحة) ، مجاورة الأمم الأخرى (الاحتكاك اللغوي) ، العامل الزمني . فظهرت هذه العوامل عندما انتشرت اللّغة العربية في بيئات ومناطق واسعة في شبه الجزيرة وخارجها ، وعندما كَثُر المتحدثون بها من أبنائها وغيرهم وتقادم العهد عليها ، كان هذا الاختلاف في جميع مستويات اللّغة (الصوتي ، الصرفي ، التراكيب ، الدلالة) ، كما أن هناك أسبابًا أخرى قال بها أصحابها تحت تأثير نظرتهم لنشأة اللّغة .

١ - ظاهرة الخِفَّة والثِّقل :

أسهمت هذه الظاهرة في اختلاف لغات العرب إسهامًا واسعًا خاصة وأنّها - في الغالب - نسبيّة ، بمعنى أنَّ ما قد أراه خفيفًا سهلاً على لساني قد يراه غيري ثقيلاً عسيرًا عند النطق به ، فيحتالُ عليه إمّا بإبداله أو إدغامه أو بحذفه أو بقلبه أو بتسهيله وما إلى ذلك من التغيرات التي تطرأ على أصوات اللّغة وألفاظها وينسبها القدماء عادةً إلى الخفّة والثِّقل وإلى الكراهة في بعض الأحيان . والأمثلة على ذلك كثيرة منها ما عقده سيبويه في كتابه في باب ما يسكَّن استخفافًا وهو في الأصل متحرك جاء فيه :« وذلك قولهم في فخذٍ : فَخْذُ ، وفي كَبِدٍ : كَبْدُ ... وهي لغة بكر بن وائل وأناسٍ كثير من بني تميم...وإنماحملهم على هذا أنهم كرهوا أن يرفعوا

(١) العرب في ثقافتهم وحضارتهم (٤٤) .

(ألسنتهم) من المفتوح إلى المكسور ، والمفتوح أخفُّ عليهم ، فكرهوا أن ينتقلوا من الأخف إلى الأثقل ... فكرهوا أنْ يحوّلوا ألسنتهم إلى الاستثقال »[١] . ونحن نعلم أن ذلك لم يكن مستثقلاً عند غيرهم فينطقونه بسهولةٍ . ومن ذلك أيضًا ما أورده في باب ما كان شاذًا ممَّا خفَّفوا على ألسنتهم وليس بمطَّرد جاء فيه : « ومن ذلك قولهم : وَدٌّ وإنما أصله وَتِدٌ ، وهي الحجازية الجيدة . ولكن بني تميم أسكنوا التاء ، كما قالوا في فَخِذٍ : فَخْذ ، فأدغموا (أي التاء في الدال) . وجاء فيه : ومن الشَّاذِّ قولُهم : أَحَسْتُ ، ومَسْتُ ، وظلت ، لمَّا كثر في كلامهم كرِهوا التضعيف (أي في أصلها: أحسست ، ومسست ، وظللت) ، وقال في موضع آخر : وإنما فعلوا هذا لأن التضعيف مستثقل في كلامهم . وجاء : ومن الشاذ قولهم في بني العنبر وبني الحارث : بَلْعَنْبَر وبلْحَارِثِ بحذف النون . ومثل ذلك قول بعض العرب : (الطَجَعَ) في (اضطجَعَ) ، بإبدال اللام مكان الضاد كراهية التقاء المطبقين »[٢] .

ومن ذلك تجَشُّم بني تميم قلب العين حاء ثم إدغام الهاء فيها في قولهم (مَحُّم، مَحَّاؤلاء) يريدون : (معهم ، ومع هؤلاء) وما ذلك إلا لثقل الأصل عندهم . بل إنَّ ظاهرة الخفّة والثقل في اللّغة نفسها حيث يقول سيبويه : « واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض ، فالأفعال أثقل من الأسماء لأن الأسماء هي الأُولَى ، وهي أشد تمكّنا »[٤] ، وكذلك في الحروف نفسها إذ يقول ابن جني : « اعلم أن حروف المعجم تنقسم على ضربين : ضرب خفيف ، وضرب ثقيل ، وتختلف أحوال الخفيف منهما فيكون بعضه أخف من بعض ، وتختلف أيضًا أحوال الثقيل منهما ، فيكون بعضه أثقل من بعض »[٥] ، وفي تأليفها ترى الخفة والثقل ، « فتأليف المتباعدة هو الأحسن ويليه تضعيف الحرف نفسه ويُرفض أو يَنْدُر تأليف المتجاورة » [٦] . وتظهر ظاهرة الخفة والثقل في الأبنية أيضًا فأبنية الثُّلاثيِّ أخفُّ من غيرها لأنها متوسطة بين القلة

(١) الكتاب ٤/١١٣ ، ١١٤ .

(٢) الكتاب ٤/ ينظر من ٤٨٢ – ٤٨٤ .

(٣) ينظر المرجع السابق ٤/٤٥٠ .

(٤) المرجع السابق ١/٢٠ .

(٥) سرّ صناعة الإعراب ٢/٨١١ .

(٦) المرجع السابق ٢/٨١٦ .

والكثرة[١] ، بيد أن الذي يعنينا هو ما اختلفت حوله العرب بسبب الخفَّة والثِّقل ، لا ما أطبقت في الحكم عليه والتعامل معه من هذه الظاهرة في اللّغة نفسها .

٢ - القياس المستقل (قياس القريحة) :

وممن أشار إلى دور القياس المستقل في اختلاف لغات العرب الأخفش (سعيد بن مسعدة) حين جوَّز أن تكون اللغة الأولى على ضربٍ واحدٍ، فأدَّى القياس المستقلُّ إلى اختلافها ، يتجلّى ذلك فيما نقله عنه صاحب الخصائص من قوله : « ويجوز أيضًا أن يكون الموضوع الأول ضربًا واحدًا ، ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الأول إلى قياس ثانٍ جارٍ في الصّحة مجرى الأول » . وقد رجَّح ذلك ابن جني بقوله : « ولا يبعد عندي ما قال من موضعين : أحدهما سعة القياس ، وإذا كان كذلك جازت فيه أوجه لا وجهان اثنان . والآخر أنَّه كان يجوز أن يبدأ الأول بالقياس الذي عدل إليه الثاني ، فلا عليك أيهما تقدَّم ، وأيهما تأخَّر »[٢] .

ويدلك على ذلك ما ذكره سيبويه من أن أمر العرب في الإمالة لا يطرد على قياس لا يخالفونه وإنما يصدر كل منهم على سجيّته وما تمليه عليه قريحته بقوله : « واعلم أنّه ليس كلُّ من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممّن يُميل ، ولكنه قد يخالف كلُّ واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعضَ ما يميل صاحبهُ ويميل بعضَ ما يَنصب صاحبهُ ، وكذلك من كان النصبُ من لغته لا يوافق غيره ممّن ينصب ... فإذا رأيت عربياً كذلك فلا تُرَيِّنهُ خلَّطَ في لغته، ولكن هذا من أمرهم »[٣].

ويتضارب قياس القريحة مع القياس المطرد بحسب وجهة نظر العربي إلى الكلمة أو الأداة ، من ذلك إعمال (ما) عمل (ليس) ، فبنو تميم لا يعملونها لأنهم أجروها مجرى(أمّا وهل)وقال عنها سيبويه هي الأقيس لأنها ليست بفعل ولا يكون فيها إضمار .

أمّا الحجازيون فيشبِّهونها بـ (ليس)؛ إذْ كان معناها كمعناها . وقول سيبويه أقيس يدل على أن الثانية ضربٌ من القياس أيضًا ولكنَّه دون الأول[٤] . وكل ذلك

(١) ينظر : الخصائص ١/٥٥ ، والممتع في التصريف لابن عصفور الاشبيلي ١/٦٩ .

(٢) الخصائص ٢/٢٩ .

(٣) الكتاب ٤/١٢٥ .

(٤) ينظر المرجع السابق ١/٥٧ .

يدلك على أن قياس القريحة ، والقياس المستقل أسهم في اختلاف لغات العرب أيما إسهام .

٣ – مجاورة الأمم الأخرى (الاحتكاك اللغوي) :

وممّا أدى إلى اختلاف لغات العرب الاحتكاك اللغوي بين اللغات المختلفة -(الاحتكاك بين اللهجات يؤدي إلى وحدتها)- وهو ما يعرف عند القدماء بمجاورة الأعاجم (اللغات الأخرى) ، وقد نجم عن تطرُّف بعض القبائل العربية ومجاورتها للأمم الأخرى تأثر العربية في لسانهم بلغات تلك الأمم واختلافها عن العربية في قلب الجزيرة ، مما تسبَّب في فسادها وتأثرها ببعض العادات اللغوية عند تلك الأمم ، يدلك على ذلك إحجام القدماء من اللغويين والنحاة عن الأخذ منهم والاحتجاج بكلامهم ، فقد نقل السيوطيّ عن الفارابيِّ قوله : « وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضريّ قطّ ، ولا عن سكّان البراريِّ ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ، ولا من جذام ، لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ، ولا من تغلب والنَّمر، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبدالقيس وأزد عُمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفُرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ...الخ » [١]. وسبب ذلك المجاورة ، ناهيك عن تسرب كثير من المفردات الأعجمية وهو ما يُعرف بالمعرَّب والدخيل مع وجود العربي في كثير من الأحيان[٢] ، ومثل هذا يُسهم في اختلاف لغات العرب على المستوى الدلالي متى ما استخدمت بعض القبائل المعرَّب وبقيت الأخرى على العربي لا سيما وأن المعرَّب أخذ حكم العربي بنطق العرب له وفق منهاجهم . هذا إلى جانب علمنا بأن تطور اللغة في مَعْزِل عن كل تأثير خارجي يُعدّ أمرًا مثاليًا – كما يقول فندريس – لا يكاد يتحقق في أية لغة ، ذلك لأن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية[٣] . ونحن لا نتصور أن تطورها يأخذ مسارًا واحدًا وشكلاً

---

(١) المزهر ٢١٢/١ . النص غير موجود في كتاب الحروف للفارابي .

(٢) عقد السيوطي فصلاً في المعرَّب الذي له اسم في لغة العرب . المزهر ٢٨٣/١ .

(٣) (اللّغة) فندريس ٣٤٨ . .

متفقًا عليه عند جميع العرب باختلاف بيئاتهم دون أنْ يحدث لها شكلٌ من أشكال الخلاف والتباين في لهجاتها .

٤ - العامل الزمني :

وقد أسهم العامل الزمني في اختلاف لغات العرب حيث ساعد على اندثار كثير من الصيغ والمفردات منها الكلمات كثيرة الحروف والكلام العُقمِي (كلام الجاهلية الذي لم يعرفه من جاء بعدهم) وحلّت محلها صيغ ومفردات تختلف عنها نتيجة اختلاف نظرة المجتمع وقدرة الذاكرة على الاحتفاظ بالقديم واختلاف الناس في ذلك، أضف إلى ذلك دوران اللغة في ألسنة أهلها واستعمال المهجور وهجر المستعمل ، واستقلال كل فريق ببعض الظواهر النحوية والصرفية طبقًا للنواميس اللغوية عند سعة انتشار اللّغة .

أمّا الذاكرة فقد أسهمت في اختلاف لغات العرب لوقوعها بين حالتين في نشاطها وقدرتها على اجترار القديم وإحياء الميت والمهجور من اللّغة عند الحاجة إليه ، وفي حالة خمولها يلجأ العربي إلى استخدام المجاز أو ابتكار ألفاظٍ جديدة عن طريق القياس لتعويض ضعف الذاكرة وخمولها ، وتلعب الحضارة والبداوة دورًا هامًا في قوة الذاكرة وضعفها مما ينعكس على اللّغة بالضرورة [١]، ولعل هذا تعليلاً منطقيًا لسبب اختلاف لغة الحضر عن لغة البدو واستمرار الاحتجاج بلغة البادية حتى منتصف القرن الرابع الهجريٍّ ، في حين توقف الاحتجاج بكلام سكان المدن في منتصف القرن الثاني الهجري ، وما كان ذلك إلا لقوة الذاكرة عند البدو إلى جانب الأسباب سالفة الذكر .

وهناك أسباب لاختلاف لغات العرب قال بها أصحابها تحت تأثير نظرتهم إلى أصل اللّغة ، من أبرزها :

١ - ما ذهب إليه أصحاب النظرية الطبيعية من رجع اختلاف اللغات واللهجات إلى اختلاف الخاطر في توهم صوت الطبيعة ورجع اتفاقها إلى اتفاق الخاطر في توهم صوت الطبيعة أيضًا ، باعتبار أن اللّغة نشأت من محاكاة الإنسان

---

(١) ينظر إلى أثر الذاكرة في تطور اللغة عند فندريس ٤٣١ في كتابه اللّغة .

لأصوات الطبيعة . ورأوا أن خصائص الإقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانه ، ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللّغة بين سكان المناطق الجبلية والصحراء وبين سكان السواحل والأودية[١] .

ونحن وإن لم نقل بالنظرية الطبيعية إلا أننا لا نُنْكِر أثر البيئة والطبيعة في خشونة طباع الإنسان أو رِقَّتها مما ينعكس بالضرورة على اللّغة ويُفضي إلى اختلاف لهجاتها باختلاف بيئاتها ، ونحن نرى المثال لذلك ميل اللّغة الحجازية لغة قريش إلى التسهيل والرقة في فك الإدغام مثلاً ، وبخلافها لغة تميم البدوية تميل إلى التفخيم والإدغام في كلامها وما ذلك إلا لأثر البيئة البدوية في تميم وأثر البيئة الحضرية المرفَّهة على قريش .

٢ - وقد ذهب المتأثرون بنظرية داروين في أصل اللّغة في رجع اختلاف اللغات إلى تطور وارتقاء أعضاء النطق من جهة بنيتها (الجسمية) ومن جهة استعدادها[٢] .

أمّا من جهة تطور أعضاء النطق جسمياً وخَلْقياً ، ففساد هذه النظرة مرتبط بفساد النظرية التي قامت عليها[٣] .

وأمّا من جهة استعدادها ففيه نظر حيث إنه يرتبط في قوته وضعفه بالممارسة والمران على نطق الحروف وفق مخارجها الصحيحة ، وأي خلل في ذلك قد يؤدي إلى اختلاف اللهجات عن طريق فَقد أعضاء النطق مرونتها في النطق ببعض أصوات اللّغة فينحرف مخرجها .

٣ - وهناك من يرى أن سَبَبَ اختلاف لغات العرب هو أساس الوضع . بمعنى أن اللّغة وضعت على خلاف في أولها ، قال بذلك الأخفش ، نقله عنه صاحب

---

(١) ينظر في حديثنا عن هذه النظرية ص (٧ ، ٨) - ، وقارن بين نشوء اللّغة لـ (انستاس الكرملي) ص ٧ ، وبين علم اللغة لـ (د. علي وافي) ص ٢٣٦ .

(٢) ذهب إلى ذلك روسلو وتبعه بعض المحدثين منهم علي عبد الواحد وافي . ينظر : علم اللّغة لـ (د. علي وافي) ص ١٦٢ - ٢٢٧ - ٢٦٤ .

(٣) ينظر حديثنا عن نظرية داروين ص (٩) من بحثنا .

الخصائص : « وذهب إلى أن اختلاف لغات العرب إنما أتاها من قِبَل أنَّ أوّل ما وُضِعِ منها وضع على خلاف »[١] .

ونجد تفسير هذه النظرة عند الرافعي الذي يبدو أنه اعتقد بها في حديثه عن معنى اللغات بقوله : « وعندنا أن لغات القبائل في اختلافها إنما هي درجات تاريخية في سلم النشوء والارتقاء ، يَسْتَقْرِئُ فيها سير التاريخ اللغوي من طبقة إلى طبقة ؛ لأنّ هذه اللغات جرت من أول عهدها على اندماج النوع الأدنى منها في النوع الأرقى ، واشتهر ذلك بين العرب ، فكلما انتشرت لغة أو لغات لقوم دون قوم تعاورها كلٌّ ، وبهذا جعلت القبائل تتدرج في سبيل الوحدة اللغوية العامّة التي تقضي بها سنّة الحياة » [٢].

ورُب معترضٍ يعترض علينا فيقول : كيف تقول إنَّ من سنن اللغات التغير والاختلاف ثم تورد هنا ما يخالفه وهو أن من سنن اللغات التوحد والاندماج ؟ !

وجوابنا عليه أن كلا السُنَّتين صحيح ، فإن اللّغة تؤثِّر فيها عوامل تسير بها صوب الوحدة والتماسك والاندماج ، كما تؤثر فيها أيضًا عوامل أخرى تسير بها صوب التغير والاختلاف ، ومصير كلِّ لغةٍ يقف بين هذين العاملين أيهما كان أقوى تأثيرًا في اللّغة سارت اللّغة نحوه .

---

(١) الخصائص ٢/٢٩ . وينظر أثر هذه النظرة عند الأخفش في تفسير أسباب الخلاف اللغوي (المظهر النحوي) فقال فيما رواه ابن جني ٢/١٦ (وأجاز الأخفش أن يكون كانت العرب قدْما تقول : مررت بأخواك وأخويك جميعًا ، إلا أن الياء كانت أقيس للفرق فكثر استعمالها ، وأقام الآخرون على الألف ، أو أن يكون الأصل قبله الياء في الجرّ ، ثم قلبت للفتحة قبلها ألفا في لغة بلحرث بن كعب » .

(٢) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ١/١٣٥ .

الباب الأول
مظاهر الاختلاف اللغوي

تمهيـــد : حالة اللغة العربية قبل الإسلام وتأهلها للانقسام .

الفصل الأول : المظهر الصوتي .

الفصل الثاني : المظهر الصرفي .

الفصل الثالث : المظهر النحوي .

الفصل الرابع : المظهر الدلالي .

تمهيـــد : حالة اللغة العربية قبل الإسلام :

كان الخلاف بين العرب في شبه الجزيرة العربية ماثلاً في شتى مجالات الحياة العربية سواء في الحضارة والبداوة أو في الخلاف السياسي وعدم التفافهم حول قيادة سياسية واحدة تجمع شملهم وتوحد صفَّهم ، أو في الخلاف الديني والعقدي إذ كان منهم الوثني وهو الكثير ومنهم النصراني واليهودي وقليل منهم الحنيفي ، وبالتالي فقد كان الخلاف أيضًا في الحياة اللغوية التي تمثل انعكاسًا لمجموعة التناقضات والخلافات السائدة في الحياة العربية . فلم تكن حالة اللّغة العربية قبل مجيء الإسلام متوحدةً توحدًا كاملاً وإنما كانت لغاتٍ مختلفةً متباينةً بدرجات متفاوتةٍ حسب قربها وبعدها واتصالها ببعضها ، كما لم يكن لها مرجعيةٌ مدونةٌ – لعدم انتشار الكتابة بينهم – أو مثلٌ أعلى يَتَسَنَّى مع وجوده عرض ظواهرها عليه وقياس مدى توافقها واختلافها معه خاصة وأنَّ الشعر الجاهلي المُوحَّد لم يكن كافيًا – وحده – للقيام بهذه المهمة[١] ، فكانت مجرد لغاتٍ في أفواه أهلها يُعتمد فيها على الحفظ والذاكرة مما جعلها عرضةً وفريسة سهلة للعوامل المؤثرة في اختلافها[٢] دون أنْ يشعر أهلها بما يحدث لها وإلى أي مصير سيئول إليه أمرها ، ناهيك عن بيئتهم الصحراوية القاحلة التي كانت سببًا في خروج هجرات عربية عديدة إلى مناطق الخصب والمياه في الشام والعراق ومشاركتهم لغيرهم من القوميات كالفرس والروم الذين كانوا يفوقون العرب – في تلك الفترة – حضارة وتقدمًا بحيث لم يؤمن عليهم وعلى لغاتهم الذوبان والانخراط فيها .

« وفي هذه الظروف – كما يقول عبد الصبور شاهين – لا يتصور أحد أن يتخلّق مجتمع حضاري في الجزيرة العربية ، ووضع كهذا لا يُتصور أن يئول إلا إلى الانقراض الاجتماعي واللغوي ، وهو في أفضل توقعاته قد ينتهي إلى حركة

(١) لما فيه من ركوب الصعب واقتراف الضرورات ، لأن الشاعر يُراعي فيه الوزن وقيوده والقافية ورويَّها والموسيقى بين الكلمات وإنْ كان ذلك على حساب اللّغة والقاعدة والأسلوب العربي الفصيح . (وذلك لا يعني عدم أهميته مطلقًا) .

(٢) ينظر أسباب اختلاف لغات العرب في بحثنا ص (٣٤).

هجرة من نوع الهجرات التي سبقت في تاريخ الجزيرة العربية على طول التاريخ»[١]. وفي الحقيقة ظهرت بوادر الذوبان والانحلال في لغات القبائل العربية التي هاجرت إلى تلك المناطق المشتركة أو التي سكنت في أطراف الجزيرة العربية مما دعا اللغويين إلى عدم الثقة بها وقد تقدم بيانه[٢] .

أضف إلى ذلك استحكام العوامل المؤثرة في اختلاف لهجاتها ، وتأهّلها للانقسام إلى لغات مختلفة يتجلى ذلك في سعة الخلاف بين اللهجات العدنانية والقحطانية مما أدى في بعض الأحيان إلى صعوبة التفاهم بينهم ، من ذلك ما جاء عن علي بن أبي طالب من قوله للرسول صلى اللّه عليه وسلم بعد محادثته وفود اليمن بلغاتهم : « يا رسول اللّه ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ! .. » ، ومن ذلك ما جاء في قول ملك حمير لأحد الأعراب (ثب) بمعنى (اجلس) عندهم ، وهي في العدنانية (اقفز) ، فوثب الأعرابي من فوق جبل كانا عليه فهلك [٣] .

ونرى أنّ الخلاف على هذا المستوى نجم عن استقلال كل فريق من العرب بمجموعة من المفردات وبعض الظواهر النحوية والصرفية فاقتصر عليها وكَثُر دورانها في لسانه ، ومع تعاقب أجياله عليها تعسَّر الفهم بين الجيلين وساعد على هذا الاستقلال سعة اللّغة العربية ، فقد جاء عن الشافعي في الرسالة قوله : « لسان العرب أوسعُ الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا ، ولا نعلمُ أنه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي ، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامّتها حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه .. » وأيده على ذلك اللغويون[٤] .

أما الخلاف بين اللهجات العدنانية فيما بينها فقد كان أقل اتساعًا من سابقه ،

---

(١) يشير إلى الهجرات السامية الأولى باعتبار أن الجزيرة العربية هي موطن الساميين الأول ، في علم اللّغة العام (٢٤٧) .

(٢) ص (٣٨) .

(٣) جاءت في الصاحبي (٣١ ، ٣٢) وهي من باب التضاد .

(٤) الرسالة ، محمد بن إدريس الشافعي (٤٢) ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، ١٣٥٨هـ ، القاهرة . وينظر الصاحبي ١٦ ، ٢٦ .

ومهما بلغ البون بين لهجاتها فإنه لم يبلغ مبلغ البون بين العدنانية واللهجات اليمنية أي أنَّ الخلاف بين اللهجات العربية كان على درجات متفاوتة بيّنها لناالجاحظ بقوله: « فقد تخالفت عليا تميم وسفلى قيس وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللّغة وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير وسكان مخاليف اليمن وكذلك في الصورة والشمائل والأخلاق وكلهم عربي خالص »[١] .

وبالرغم من كون هذه اللهجات مستويات محلية للكلام تبعد بدرجة كبيرة أو صغيرة عن المستوى النموذجي – للّغة الأدبية – إلا أن كل لهجة منها كانت تتسم بصفات وخصائص وتخضع لقواعد خاصة بها لا تحيد عنها إلا فيما تستعيره من لهجات أخرى مع اختلاف أحوال العرب في ذلك وإليه أشار ابن جني بقوله : « واعلم أن العرب تختلف أحوالها في تلقي الواحد منها لغة غيره ، فمنهم من يخف ويسرع إلى قبول ما يسمعه ومنهم من يستعصم فيقيم على لغته البتّة ، ومنهم من إذا طال تكرر لغة غيره عليه لَصِقت به ، ووُجِدت في كلامه ... »[٢] .

إذن فنحن أمام لهجات عربية ذات صفات خاصة ظهرت نتيجة التطور المستقل لكلام كل قبيلة بفعل العوامل التي أدت إلى اختلافها خاصة وقد ساعد على ذلك سعتها وانتشارها في بيئات مختلفة وتقادم العهد عليها وهو ما تقتضيه سنن اللّغات عند اجتماع هذه العوامل على لغة ما .

وفعلاً اتسع الخلاف بين اللهجات العربية حتى شمل جميع مظاهر اللّغة العربية سواء في أصواتها ومبانيها أو تراكيبها ودلالتها ، وهذا ما سنتعرض لطرف منه فيما يلي من دراستنا في هذا الباب حتى تتكون لدى القارئ صورة تقريبية عن حالة اللّغة العربية قبل مجيء الإسلام ، ومن ثم معرفة أثر الإسلام في توحيدها .

مظاهر الاختلاف اللغوي بين اللهجات العربية :

وقبل المضيّ في الحديث عن مظاهر الخلاف بين اللهجات العربية نود الإشارة

---

(١) رسائل الجاحظ ١/١٠ .

(٢) الخصائص ١/٣٨٣ . (ضرب أمثلة لذلك فانظر إليها) .

إلى أنَّ المادة التي رُويت لنا عن هذه اللهجات في كتب النحو واللّغة والمعاجم العربية تُعدُّ قدراً يسيراً ومحدوداً عن حالة الحياة اللغوية قبل الإسلام ، دُونت أكثرها في القرن الثاني الهجري ، وخضعت من علماء العربية ورواتها لكثير من الاستثناءات ، منها عدم الأخذ عن الحضر أو عن القبائل العربية المتاخمة للأمم الأخرى ، كما أنَّ هذه الكتب قامت أساساً على تتبع اللّغة الأدبية وإثباتها ، ولم تلتفت إلى اللهجات بشكل مقصود بل تعمدت إماتتها لضمان وحدتها والحيلولة دون التعصب لها ، إلا ما جاء منها على سبيل ذكر عيوبها وسعة اختلافها وبيان فضل القرشية – لغة القرآن– وجدارتها باعتمادهم إياها لغة أدبية لجميع العرب ، أو ما جاء في القرآن وهو يرجع إلى صفات إحدى هذه اللهجات فرجع إليها العلماء لذلك ، ولذا نجد أكثر ما رُوي لنا من اللهجات العربية هو القريب من لغة القرآن وهو في أكثره ينسب إلى قبائل الحجاز ونجد كـ (قريش وهذيل وثقيف وتميم وأسد وقيس وطيئ) . وبالرغم من ذلك وجدنا بينها اختلافاً امتد إلى جميع مستويات اللّغة ومظاهرها ، فما بالك بدرجة الخلاف بين اللهجات العربية قبل استثناءات العلماء ، ودرجته بين اللهجات البعيدة عن لغة القرآن والتي اقتضت نزوله على سبعة أحرف .

وقد انقسمت هذه الروايات إلى نوعين :

النوع الأول : روايات نسبت صفات اللهجات إلى قبائلها ملقبةً أو غير ملقبة .

مثال الأول : قول ابن فارس يصف فضل لغة قريش : « ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل (تِعلَمون) و (نِعْلَم) ومثل (شِعير وبِعير) »(١) .

مثال الثاني : قول سيبويه في إعمال (ما) عمل (ليس) : « وأمَّا بنو تميم فيجرونها مجرى (أمَّا وهل) أي لا يعملونها في شيء... وأمَّا أهل الحجاز فيشبهونها بـ (ليس) »(٢) – أي يعملونها عمل (ليس) .

---

(١) الصاحبي (٣٤) .

(٢) الكتاب ١/٥٧ .

النوع الثاني: روايات تجاهلت نسبة صفات اللهجات إلى قبائلها واكتفت بإثبات الخلاف بينها ، وهو كثير .

مثالها : قول ابن فارس : « تقع في الكلمة الواحدة لُغتان . كقولهم :(الصِّرَام) و (الصَّرَام) .. وتقع في الكلمة ثلاث لغات ، نحو : (الزُّجَاج) و (الزِّجَاج) و (الزَّجَاج) .. وتقع في الكلمة أربع لغات ... » (١).

مثالها أيضًا قول سيبويه : « واعلم أنَّ بعض العرب يقول .. » دون تسميتهم ، وهو كثير في كلامه .

والآن سنعرض لأشهر ما رُوي لنا عن الاختلاف اللغوي بين اللهجات العربية وفق مظاهر اللّغة الأربعة حسب التقسيم اللغوي الحديث وهو : (المظهر الصوتي ، المظهر الصرفي ، المظهر التركيبي ، المظهر الدلالي) .

---

(١) الصاحبي (٦٧) .

الفصل الأول
المظهـــر الصوتي

أولاً : الاختلاف في الحركات .

ثانيًا : الاختلاف في بعض الحروف .

ثالثًا : الخلاف في التفاعل بين الحركات والحروف - الفتح والإمالة .

الفصل الأول
المظهر الصوتي

اختلفت اللهجات العربية في النطق ببعض أصوات اللّغة ، كما اختلفت في قوانين التفاعل بين الأصوات المتجاورة حين يتأثر بعضها ببعض ، فأصبح لكل لهجة عاداتها الصوتية ونغمتها الخاصة التي تميزها عن غيرها من اللهجات الأخرى سواء في بعض حركات الكلمة أو بعض حروفها أو في التفاعل بين الحركات والحروف[١] .

أولاً - الاختلاف في الحركات :

١ - بين الحركة والسكون :

رُويت لنا كثير من الكلمات محرَّكة في موضع ما من الكلمة في لغة أهل الحجاز وأكثر العرب ، ونفس الكلمات رُويت لنا في لغة أهل نجد ساكنةً في نفس الموضع والمعنى هو المعنى ، ونرى أن مثل هذا الاختلاف يرجع عادةً إلى طلب الخفة والنفور من الثقل أو توهم ذلك في لهجة دون أخرى؛ لأن الحركة مهما كانت ثقيلة (الكسرة ، والضمة أثقل منها) أو خفيفة (الفتحة) فإنها أثقل من (السكون) - إذا لم يقع أولاً - لأنه عدم الحركة البتة .

من ذلك ما ذكره سيبويه عن لغة بكر بن وائل وأناس كثير من تميم في باب ما يسكن استخفافًا وهو في الأصل متحرك : « وذلك قولهم في فَخِذ : فَخْذ ، وفي كَبِدٍ : كَبْدُ ، وفي عَضُدٍ : عَضْدُ ، وفي الرَّجُل : رَجْل ، وفي كَرُمَ : كَرْم ، وفي عَلِم : عَلْمَ »، وعلل لعملهم بقوله : « وإنما حملهم على هذا أنهم كرهوا أن يرفعوا (ألسنتهم) عن المفتوح إلى المكسور ، والمفتوح أخف عليهم ، فكرهوا أن ينتقلوا من الأخف إلى الأثقل » كما ذكر أنَّ هؤلاء أيضًا يخففون (يسكنون) إذا تتابعت الضمتان أو الكسرتان ، لأنّ الضمة من الواو والكسرة من الياء فكرهوا تتابعهما ، كما كرهوا

---

(١) سنعرض للاختلاف الصوتي في المركبات إذ لا توجد في اللغات أصوات لغوية منعزلة . ينظر : فندريس (٨٣) .

تتابع الواو أو الياء عدا تتابع الفتحتين فيقولون : الرُّسْل في الرُّسُل ، وإِبْل في إِبِل ، أما جَمَل وحَمَل فلا يخففون فيه[١] .

٢ - بين الضم والكسر :

تميزت لهجات القبائل البدوية من العرب بميلها نحو حركة الضم ، في حين تميزت لهجات القبائل المتحضرة بميلها نحو حركة الكسر ، وفي الحقيقة أنَّ بين الضمة والكسرة من القرب والتناسب ما ليس بينهما وبين الفتحة كما يقول ابن جني[٢] ، ولذلك يكثر تناوبهما في كثير من الكلمات العربية ، وبما أنَّ الحركتين فيهما ثِقَلٌ بالنسبة للفتحة بدليل ظهورها في المنقوص نحو (رأيت القاضيَ) وتعذر ظهورها فليس للخفة والثقل دورٌ في ميل اللهجات إلى هذه أو تلك بقدر ما للرقة والخشونة من دورٍ فيها ، فالضمة تُعتبر مظهراً من مظاهر الخشونة التي تميزت بها البداوة وحياة الشظف في الصحراء القاحلة بينما الكسرة تعتبر من مظاهر الرقة والسهولة التي تميزت بها حياة الحضارة ، وهي حركة المؤنث في اللّغة العربية[٣] ، والتأنيث عادة ما يكون محل الرقة ، ويدلك على توجه كلا الفريقين ما روى من الأسماء مؤنثًا في لغة الحجازيين ومذكرًا في لغة تميم وسائر العرب ، جاء في اللسان[٤] : « الزقاق : السِّكة ، يذكَّر ويؤنَّث ، قال الأخفش : أهل الحجاز يؤنثون الطريق والسراط والسبيل والسُوق والزُّقاق والكَلاَّء ، وهو سوق البصرة ، وبنو تميم يذكِّرون هذا كله » . وبالعودة إلى حركة الضم والكسر نجد كثيرًا من الكلمات رُويت لنا بروايتين إحداهما تتضمن الكسر في موضع من الكلمة والأخرى بالضم في نفس الموضع والمعنى هو المعنى ، من ذلك ما نقله السيوطي[٥] : « أهل الحجاز : يبطِش ، وتميم : يبطُش .. ، أهل الحجاز مِرْيه وتميم مُريه » .

---

(١) الكتاب ١١٣/٤ - ١١٥ . بتصرف .

(٢) سر صناعة الإعراب ٥٤/١ .

(٣) قال سيبويه : « لأن الكسرة مما يؤنث به تقول : إنكِ ذاهبة وهاتي هذا للجارية وإنما الكسرة من الياء » ٢٧٢/٣ . وينظر كتاب إبراهيم أنيس ، في اللهجات العربية (٩١) .

(٤) لسان العرب ١٤٣/١٠ .

(٥) المزهر ٢٧٥/٢ - ٢٧٦ .

وكذلك فيما نقله عن اليزيدي بأن أهل الحجاز يقولون : « إِسْوَة وقِدْوَة ، وتميم تضم »[١] ، أمَّا بالنسبة لغير المنسوب من الأسماء التي تتناوب على أحد حروفها حركة الكسر والضم ويمكن حملها على المنسوب فكثيرة وافرة ، منها على سبيل المثال لا الحصر ما أورده ابن قتيبة في باب ما جاء من ذوات الثلاثة فيه لغتان وهي: « فَعِل و فَعُل : حَذِر و حَذُر ، فِعْل و فُعْل : صِفْر و صُفْر – المعدن المعروف – ، فُعَل و فِعَل : صُوَر و صِوَر ، فِعْلة و فُعْلة : قِدْوة و قُدْوة ، فِعَال و فُعَال : سِوَار و سُوَار »[٢].

وقد يكون الإتباع – وهو ما يُعرف عند المحدثين اليوم بالتوافق الحركي – سبباً في إبدال الكسرة ضمة والضمة كسرة في بعض اللهجات العربية إذا تلت إحداهما الأخرى أو سبقتها ، من ذلك كلمة (مُنْتِن) حيث ذكر ابن جني فيها ثلاث لغات: « مُنْتِن ، وهو الأصل ، ثم يليه : مِنتِن ، وأقلُّها مُنْتُن » [٣]. وتعليل ذلك لمن في لغته (مِنْتِن) بكسرتين فإنه كسر الميم لكسرة التاء وأتبعها إياها ، ولم يكن عندهم الساكن بينهما حاجزاً حصيناً ، وأما من هي في لغته (مُنْتُن) بضمتين فإنه ضم التاء لضمة الميم قبلها وأتبعها إياها، ولم يكن عندهم الساكن بينهما حاجزاً حصيناً. ومن ذلك أيضاً ما قاله سيبويه عن قوم من ربيعة يقولون : « مِنْهِمْ ، أتبعوها الكسرة ولم يكن المسكَّن حاجزاً حصيناً عندهم . وهذه لغة رديئة ، إذا فصلت بين الهاء والكسرة فالْزَمِ الأصل ، لأنَّك قد تجري على الأصل ولا حاجز بينهما »[٤] . وكذلك قول ناس من بكر بن وائل : من أحلامِكِم ، وبِكِم ، فأتبعوا الكسرة الكسرة ، ووصفها سيبويه بأنها لغة رديئة جداً إذ الأصل ضم الكاف[٥] .

ومن الملاحظ أنَّ لغة أهل الحجاز لا تعرف الإتباع كما عرفته لغة أهل نجد وغيرها من اللهجات العربية الأخرى ، ولذلك انعكست الحالة التي ذكرناها عن ميل

(١) المزهر ٢/٢٧٧ .

(٢) أدب الكاتب (٤٢٦ – ٤٣٠ – ٤٣٤ – ٤٣٨) .

(٣) الخصائص ٢/١٤٣ .

(٤) الكتاب ٤/١٩٦ .

(٥) المرجع السابق ٤/١٩٧ . بتصرف .

الحجازية إلى الكسر والتميمية إلى الضم ، إذ ضم الحجازيون جريًا على الأصل وكسر التميميون لدواعٍ صوتية اقتضت منهم كسر المضموم أو ضم المكسور خروجًا على الأصل ، يتجلى ذلك فيما عقده سيبويه في باب ما تكسر فيه الهاء التي هي علامة الإضمار إذ يذكر سيبويه أن أصلها الضم وبعدها الواو ، وهي كذلك في لغة أهل الحجاز فيقولون : مررت بِهُو قبل ، ولَدَيْهُو مالُ ، ويقولون : (فَخَسَفْنَا بِهُو وبدارِهُو الأَرض) [(١)] ، ثم قال : إنَّ هاء الضمير المضمومة تكسر في غير لغة أهل الحجاز إذا سبقت بياء أو كسرة فيقولون بِهِي عليهِي بإتباع الكسرة الكسرة وقلب الواو ياء وعند حذف الحرف تكون بِهِ وعليهِ كما هي في الفصحى[(٢)] .

٣ – بين الفتح والكسر :

رُويت لنا كثير من الكلمات (أفعال وأسماء وصفات) محركة بالفتح في موضع منها في لهجة أهل الحجاز ، ومحركة بالكسر في لهجة تميم وسائر العرب والمعنى هو المعنى .

ولتفسير هذه الظاهرة رجعنا إلى كتب القدماء فوجدناهم رجعوها إلى مبدأ الإتباع (التوافق الحركي) فقالوا إنّ أصل مثل هذه الكلمات جاء بالفتح في موضع منها ولأسباب صوتية قامت هذه اللهجات بإبدال الفتحة كسرة لتتوافق مع كسرة بعدها إذا كانت اسمًا أو صفةً فيرتفع اللسان من موضع واحد ، أو للتنبيه على أنَّ ماضي الفعل المضارع فَعِلُ [(٣)]، وسيأتي بيانه أثناء عرضنا لحالاتها ، وهي :

أ – كسر حروف المضارعة وفتحها : ذكر سيبويه أن جميع العرب تكسر حروف المضارعة فيما كان ماضيه على (فَعِل) سوى أهل الحجاز فإنَّهم يفتحونها وذلك الأصل فيها ، يدلك على ذلك اتفاق جميع اللهجات مع لغة الحجاز في فتحها مع الياء فيقولون : (يَفْعَلُ) لثقل الكسرة على الياء وكذلك تركهم الضم مع يَفعُل أي عدم اتباعهم الفتحة بالضمة لما كان ماضيه على (فَعُل) كما فعلوا مع ما كان

---

(١) سورة القصص : ٨١ .

(٢) الكتاب ٤/١٩٥ . بتصرف . (ينظر في حذف الواو والياء ٤/١٨٩) .

(٣) يشبه هذا العمل إمالتهم الفتحة أو الألف للإشعار بأصلها ، وبما يعرض لها في بعض التصاريف أو بشبهها . انظر الإمالة في بحثنا .

ماضيه (فَعِل) ، وعلل لعملهم في مضارع فَعِل بأنهم أرادوا التفريق في المضارع بين ما كان ماضيه على (فَعِل) وبين ما كان ماضيه على (فَعَل) فقالوا : (تِعْلَم ولم يقولوا : تِذْهَب لأن ماضيه ذَهَبَ) .

سائر العرب تقول : (أنت تِعْلَمُ ، وأنا إِعْلَمُ ، ونحن نِعْلَمُ . وكذلك كلُّ شيء فيه فَعِلَ من بنات الياء والواو التي الياء والواو فيهن لام أو عين ، والمضاعَف ، نحو : شَقِيتَ فأنت تِشْقَى ، وخَشِيتُ فأنا إِخْشَى ، وَخِلْنا فنحن نِخالُ ، وعَضِضْتنَّ فأنتنَّ تِعْضَضْنَ وأنت تِعَضِّين) ، وجميع ذلك تُفتح فيه حروف المضارعة في لغة أهل الحجاز [١].

أما كسر حروف المضارعة الذي نسبه الرواة إلى بهراء وسموه بالتلتلة فيبدو أنهم لم يقتصروا على كسر ما كان ماضيه (فَعِل) فقط كما هو عند جميع العرب ولكنهم توسعوا في ذلك وكسروا ما كان ماضيه على (فَعَل) أيضًا ، ولذلك نسبت إليهم التلتلة ، يتجلى ذلك في الأمثلة التي ساقها ثعلب للتعريف بالتلتلة إذ نقل ابن جني عن ثعلب قوله : (وأمَّا تلتلة بهراء فإنَّهم يقولون: تِعلمون وتِفْعَلون وتِصْنَعون)[٢] ومن المعروف أن ماضي تِفعَلون و تِصْنَعون على فَعَل (فَعَل و صَنَع) ، أو كما يقول إبراهيم أنيس أنَّهم خالفوا العرب بكسر الياء من حروف المضارعة متأثرين بالآرامية والعبرية التي اطرد فيها كسر حروف المضارعة[٣] .

ب – كسر فاء فَعِيل من أبنية الأسماء أو فتحها إذا كان أحد حروف الحلق عينًا لها : نقل صاحب اللسان عن الليث قوله : « لغة تميم شِهِيد ، بكسر الشين ، يكسرون فِعِيلاً في كل شيء كان ثانيه أحد حروف الحلق وكذلك سُفلى مضر يقولون فِعِيلاً ، قال : ولغة شَنْعاءُ يكسرون كل فعِيل والنصب اللّغة العالية »[٤] .

وعلل ابن جني[٥] لهذا العمل بأنَّه محاولة لتقريب صوت من آخر مع حروف

---

(١) الكتاب ٤/١١٠ – ١١٣ بتصرّف .

(٢) الخصائص ٢/١١ .

(٣) ينظر كتابه في اللهجات العربية (١٣٩) .

(٤) لسان العرب ٣/٢٤٠ .

(٥) ينظر : الخصائص ٢/١٤٣ .

الحلق نحو شِعِير ، و بِعِير ، و رِغِيف . ولكن ما وجه اشتراطهم وقوع أحد حروف الحلق عينًا لفاء الكلمة حتى تكسر ؟ ولِمَ لم يقولوا إنَّ الفتحة تَبِعت الكسرة فانكسرت توافقًا ؟ وهل القصر على ذلك مع حروف الحلق هو نقص في الاستقراء كما يقول إبراهيم أنيس[1] ؟ أم أن السبب الرئيس في كسر الفاء هو اجتلاب الكسرة الطويلة (يعني الياء) لها كما يقول محمود فهمي حجازي[2] ؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات رجعنا إلى صاحب الكتاب فوجدناه يقول إنّ في فَعِيل لغتين : فَعِيل و فِعِيل إذا كان الثاني من الحروف الستة وأن تميم تكسِر فاء الكلمة فتقول شِعِير و لِئِيم و سِعِيد و بِخِيل ، وأن أهل الحجاز يُجرون جميع هذا على القياس . وبهذا الإجماع في الروايات سقط اتهام إبراهيم أنيس الرواة بالتقصير في الاستقراء .

ومما يُسقط تعليل محمود فهمي حجازي بأن الياء هي التي كسرت فاء الكلمة ؛ تعليل سيبويه لكسر فاء فَعِيل مع حروف الحلق بأن هذه الحروف سفلية ولا يصلح لها سوى حركة الفتح لأنَّها من الألف والألف من مخرجها ، ولذلك عندما تقع لامًا تُفتح العين لها (لأنها قد تسكن فعوضوا ذلك بفتح ما قبلها) ، وعندما وقعت عينًا في وزن (فَعِيل) وأصبح الكسر لازمًا لها لم يتسنّ فتحها لأنه لا يوجد وزن (فَعَيل) وبما أنَّها من الحروف التي تقع الفتحة عليها أو قبلها نطق بها الحجازيون على الأصل ، أمَّا بنو تميم فكسروا ما قبلها حيث لزمها الكسر وكان ذلك أخفّ عليهم حيث كانت الكسرة تشبه الألف وأرادوا أن يرفعوا ألسنتهم من موضع واحد ، كما فعلوا في الإدغام والإمالة وغير ذلك من صنوف التوافق الذي عرفته لغتهم[3] .

ونخلص من هذا أنَّ قدرة حروف الحلق في تحديد نوع حركتها أو حركة ما قبلها هو الذي أحدث هذا الاختلاف عندما تصادمت مع حركة الوزن وهي الكسرة اللازمة بحكم الوزن ولذلك اشترطوا وقوع أحد حرفي الحلق عينًا ، أمَّا علة العلة فهي

---

(١) ينظر : في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس (٩٨) .

(٢) ينظر : علم اللّغة العربية ، د. محمود فهمي حجازي (٣٣١) .

(٣) الكتاب ٤/١٠٧ – ١٠٩ . بتصرف ، وقارن (١٠١) .

حركية وليست بين حركة وحرف ، ولذلك قالوا في (فَعِل) إذا كان اسمًا أو صفة أو فعلاً (فَعِل و فِعِل) ، نحو : (شِهِد و شَهِد ، رَجُلُ لِعِبُ و لَعِبُ) وقد قال السيرافي في مثل هذا:إن كسرة الشين اتَّبعت كسرة الهاء في الأصل عند تفسيره قول سيبويه إنْ بعضهم قال شِهْد ، فخففوا وتركوا الشين على اتباعها (أي مكسورة)(١) .

ملحوظة :

اعلم أن جميع ما ذكرناه هو الكثير المشهور وليس مطردًا حتى لا يخرج عنه شيء ، فقد رُوي لنا أن اللهجة الحجازية سكَّنت حيث حرَّكت التميمية في نحو (عَشْرة) ساكنة الشين عند أهل الحجاز محركةً عند تميم . ورُوي لنا أن الحجازية كسرت حين فتحت التميمية في نحو : (الحَصَاد و الحَجُّ) ، فهي عند الحجازيين (الحِصاد والحِجّ) ، ورُوي لنا الضم عن أهل الحجاز فيما كسره بنو تميم وقد مرّ بنا في الإتباع قول الحجازية بِـهُ . وعلينا أن ندرك أن ميل اللهجة إلى حركة (ما) أو حرف (ما) لا يعني خلوّها من إحدى الحركات أو الحروف الأخرى ، إذن لخلت كل لهجة من حركة أو حرف لا تميل إليه وهذا لم يثبت البتة ؛ وإنما يؤثر ميلها على اختياراتها . وينطبق هذا على جميع ما سنذكره في اللهجات إن شاء الله .

ثانياً – الاختلاف في بعض الحروف :

من مظاهر الاختلاف الصوتي بين اللهجات العربية الاختلاف في نطق بعض حروف اللّغة ، وهذه بعض الظواهر الصوتية التي اختلفت فيها بعض اللهجات العربية وكان مدارها الحروف .

الهمز بين التحقيق والتخفيف :

الهمزة حرف شديد مجهور من أقصى الحلق يُمنع النَّفس أن يجري معه (حبيس). هكذا جاء وصفه عند سيبويه(٢) وأيده على ذلك بعض علماء الأصوات في العصر الحديث وخالفه آخرون(٣) .

---

(١) ينظر تعليق السيرافي الذي أورده عبدالسلام هارون على عبارة سيبويه ، حاشية (١) ١٠٩/٤ .

(٢) الكتاب ٤٣٣/٤ – ٤٣٤ . بتصرف .

(٣) ينظر : الأصوات العربية بين اللغويين والقرّاء ٩٣، ٩٥ ، د . محمود زين العابدين محمد .

وقد جاء في أحكامها مفردة وغير مفردة (همزتان في كلمة أو كلمتين) ما لا يحصيها أقل من مجلد ، وحسبنا من ذلك معرفة حال العرب في النطق بها واختلافهم في ذلك بين التحقيق والتخفيف .

تحقيق الهمز من صفات لهجة تميم والقبائل البدوية من العرب وهي الكثرة الغالبة ، كما أنها من الصفات التي تميزت بها اللّغة (الأدبية) الفصحى للعرب . فتحقيق الهمزة أن تنطق بها فتمنع النفس من التسرب من الحلق عند النطق بها ولو لجزءٍ من الثانية بحيث تصبح حبيسة مع التزام الشدّة والجهر، وقد مثّل سيبويه لتحقيق الهمز بقوله : « فالتحقيق قولك : قرأْتُ ، ورَأْسُ ، وسَأَلَ ، ولَؤُمَ ، وبِئْسَ ، وأشباه ذلك » (١) ، وأشار إلى نسبة الهمزة إلى بني تميم بقوله : « وذلك قولك : سَأَلَ في لغة أهل الحجاز إذا لم تُحقّق كما يحقّق بنو تميم »(٢) .

أمّا تخفيف الهمزة فهو من سمات اللهجة الحجازية في مكة والمدينة ، وقد أطبقت الروايات على نسبة التخفيف في الهمز إليها ، من ذلك ما رُوي من طريق حمران بن أبي الأسود الدؤلي عن أبي ذر قوله : « جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا نبيء الله ، فقال : لست بنبيء الله ، ولكني نبيّ الله » (٣).

وقد ذكر سيبويه لتخفيف الهمزة ثلاث حالات بقوله : « وأما التخفيف فتصير الهمزة فيه بين بين ، وتُبدل ، وتحذف » .

١ – تخفيف الهمزة بين بين : قال عنه السيرافي : أن تجعلها من مخرج الهمزة ومخرج الحرف الذي منه حركة الهمزة . فإذا كانت مفتوحة جعلناها متوسطة في إخراجها بين الهمزة وبين الألف ، لأن الفتحة من الألف وذلك قولك (سال) إذا خففنا (سأل) ، وإذا كانت مضمومة فجعلناها بين بين أخرجناها متوسطة بين الهمز والواو كقولنا (لوم) تخفيف (لؤم) ، وإذا كانت مكسورة جعلناها بين الياء والهمزة .

---

(١) ، (٢) الكتاب ٣/٥٤١ – ٥٤٢ .

(٣) الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي ١/٢١٤ . (قال الذهبي : حديث منكر) .

والفرق بين الهمزة المحققة والهمزة (بين بين) أنَّك تضعّف الصوت ولا تتمه وتُخْفي ، كذلك قال سيبويه[١] ، وقد عدّها من الفروع المستحسنة للحروف[٢] . وقد أشار الصحابة رضي الله عنهم إلى التسهيل بين بين في رسم المصاحف العثمانية فكتبوا صورة الهمزة الثانية في قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ قل أؤنبئكم ﴾ واوًا على إرادة التسهيل بين بين[٣] .

٢ – التخفيف بالابدال (القلب): (نرى أن إبدال الهمزة مع حروف العلة قلبٌ). أن تبدل الهمزة الساكنة حرف مدٍّ من جنس حركة ما قبلها فتبدل ألفًا بعد الفتحة، وواوًا بعد الضمة ، وياءًا بعد الكسرة ، نحو : (يُؤْمنون ، فَـأْذنوا ، جئت) قرئت : (يُومنون ، فَاذنوا ، جِيت) .

٣ – التخفيف بالحذف والإسقاط : ويكون بنقل حركتها ثم إسقاطها أو إسقاطها رأسًا . أما النقل فهو نقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها فتسقط الهمزة . مثاله في كلمتين (قَدْ أَفلح) ، فَتُنقل الفتحة إلى الدال الساكنة وتسقط الهمزة فيبقى اللفظ بدال مفتوحة بعدها فاء[٤] . وفي المفرد المَرَة في المَرْأَة [٥]، والخَبَ في الخَبْءَ .

والإسقاط مباشرة هو إسقاط الهمزة دون نقل حركتها ، من ذلك في المفردة (متكِئين) قرئت (متكين) ، و (لا يطئون) قرئت (لا يطون)[٦] . أمّا في همزتين فكما يقول سيبويه : « فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحقَّقا، ومن كلام العرب تخفيف الأولى وتحقيق الآخِرة ، وهو قول أبي عمرو . وذلك قولك : (فقد جا

(١) الكتاب ٥٤١/٣ وحاشيتها .

(٢) ينظر : الكتاب ٤٣٢/٤ .

(٣) نقله السيوطي في الإتقان عن الداني ٢١٥/١ .

(٤) ينظر : الإتقان ٢١٤/١ .

(٥) ينظر : الكتاب ٥٤٥/٣ .

(٦) ينظر : في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس (٨٠) .

أَشْـراطَها) ، ومنهم مـن يحـقق الأولى ويخـفف الآخرة ، سـمعنا ذلك من العرب وهو قولك : فقد جاء اشراطها [١].

ونختتم حديثنا عن الهمز بمقولة أبي عمرو بن العلاء : « ما كان مهموزًا فقد يترك همزة وما لم يكن مهموزًا لم يجز همزه بوجه » [٢].

إبدال الحـروف :

من اخـتـلاف اللهـجـات العربيـة في المظهـر الصـوتي إبدال الحروف . قـال ابن فـارس : « من سـنن العـرب إبدال الحـروف وإقـامـة بعـضـهـا مكان بعض ، ويقـولـون (مَدَحه . ومَدَهـه) و (فرس رِفلُ ورفنٌ) وهو كثير مشـهور قد ألف فيه العلماء » [٣] .

ولم يذكر ابن فارس سبب إبدالهم الحروف ، والذي نراه أنّـه وقــع لأسباب صوتية لا سيما إذا علمنا أن لكل حرف من اللّغة مخرجه الخاص وصفته التي تَمِيزُه عن غيره سواء في الشِّدَّة والرّخاوة أو الهمس والجهر أو التفخيم والترقيق[٤] ، ومـا أن ينتقل الحرف – ولو بدرجة قليلة – عن مخرجه أو يفقد إحدى صفاته حتى يتحول إلى حرف آخر قد يكون من نفس المخرج مع اختلاف الصفة أو من مخرج آخر مع اتفاق الصفة . فمثال الأول (الهمزة والهاء) كلاهـما من أقصى الحلق (المخرج) إلا أن الهمزة شديدة مجهورة ، والهاء رخوة مهموسة، وكلاهما مرقق ، ومثال الثاني (الهاء والحاء) كلاهما رخو مهموس مرقق (صفات) إلا أن الحاء من وسط الحلق والهاء من أقصاه (مخرج) . والحدود الفاصلة بين الحروف المتقاربة دقيقة جدًا ، وإذا لم يحترز المتحدث بتحقيقها فسيبدل بعضها مكان بعض دون أن يشعر بذلك ، يساعده طبعه وما يميل إليه [*] كما يساعده تأثير الحروف في بعضها فيجذب القويّ

---

(١) الكتاب ٥٤٩/٣ . ويقصد بقوله : (فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا في الوصل وليس الوقف) . والآية من سورة محمد بهمزتين (١٨) .

(٢) جاء ذلك في تفسير القرطبي ٢٨٠/١٤ .

(٣) الصاحبي (٣٣٣) .

(٤) ينظر إلى مخارج الحروف ومعاني هذه المصطلحات في المظهر الصوتي من بحثنا (مظاهر الوحدة اللغوية) (٣١٣ ، ٣١٤).

(*) ذهب إبراهيم أنيس في اللهجات العربية إلى أن طباع العرب وحياة البداوة أو الحضارة أثرت في ==

منها الضعيف والمفخّم يجذب المرقّق(*) .

وقد أشار ابن دريد فيما نقله ابن فارس إلى أنّ انحراف المخرج – بالمبالغة في التحقيق أو التساهل – قد أدى إلى الاختلاف الصوتي بين اللهجات العربية فنجم عنه إبدال بعض الحروف مكان بعض بقوله : « فأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف باللهاة حتى تغلظ جداً ، فيقولون : (القوم) فيكون بين الكاف والقاف وهذه لغة فيهم . قال الشاعر :

ولا أكُول لِكدر الكَوْم : قد نضجت ولا أكول لبابِ الدَّار : مكفولُ»(١)

وقد كان الإبدال في بعض الكلمات من الأمور التي اختلفت حولها اللهجات العربية بيد أنه لم يقع إلا في الحروف المتقاربة في المخارج أو الصفات إلاّ في بعض الحالات الشاذة .

من أمثلة الكلمات التي نعتقد أنها جاءت مبدلة في لهجة أو أكثر ما يلي :

١ – جاء في اللسان (٢) عن الفراء : أهل الحجاز وطيئ يقولون فاظت نفسه ، وقضاعة وتميم وقيس يقولون فاضت نفسه مثل فاضت دمعته .

ولا نتعجب من هذا الإبدال، إذ إنَّ العلاقة بين الضاد والظاء وثيقة ، فكلاهما رخو مجهور مفخم على حسب جدول أصول الحروف لتمّام حسّان في كتابه الأصول ولا يختلفان إلاّ في المخرج وهو قريب أيضاً . وقد رجَّح عندنا أن أحدهما مبدلٌ عن الآخر تحذير ابن الجزري القراء من قلب الضاد ظاءً خاصة فيما يشتبه

= ميل اللهجات إلى الحروف المجهورة والشديدة والمفخمة عند البدو ، وإلى الهمس والرخاوة والرقة عند الحضر ولذلك نجد بعض الكلمات تأت بحرف شديد في لهجة وفي لهجة أخرى تأت بنظيره الرخو وذلك في بعض الكلمات وليس بمطرد إذن لخلت بعض اللهجات من بعض الحروف لأنها تبدلها وهذا لم يثبت البتة . (اللهجات ١١٨) . بتصرّف .

(**) مثال جذب المفخم للمرقق قلب السين صاداً إذا جاء بعدها (ع غ خ ق ط) لأن هذه الحروف مفخمة والسين مرققة فجذب المفخم السين من الترقيق إلى التفخيم فتغيرت صفتها وأصبحت صاداً لأن المخرج واحد . وهذا أيضاً في حالات معينة بحسب موقع الحرف من غيره .

(١) الصاحبي (٣٦) .

(٢) لسان العرب ٧/٤٥٤ .

بلفظه نحو : (ضل من تدعون) ، يشتبه بقوله : (ظل وجهه مسودًا)[١] .

٢ – جاء في اللسان[٢] في مادة (لصق): لَصِقَ به يلصق لُصُوقًا وهي لغة تميم ، وقيس تقول (لَسق) بالسين ، وربيعة تقول (لَزَق) . وإذا علمنا أنها جميعًا من مخرج واحد (طرف اللسان وفويق الثنايا) لم نعجب من هذا الإبدال والاختلاف بين هذه اللهجات . كما أنَّها جميعًا (السين ، الصاد والزاي) رخوة بحسب جدول الحروف سالف الذكر، إلا أنَّ (الزاي) مجهور مرقق ، و (الصاد) مهموس مفخم، و (السين) مهموس مرقق . ومثل هذا ما رُوي لنا عن اختلافهم في (الصقر ، والزقر ، والسقر) .

٣ – جاء في اللسان[٣] مادة (كشط): وقال يعقوب : قريش تقول (كشط)، وتميم وأسد يقولون (قشط) . وفي التنزيل العزيز : ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ . قال الفراء : يعني نُزعت فطويت ، وفي قراءة عبدالله (قشطت) بالقاف، والمعنى واحد . والعرب تقول : (الكافور والقافور ، والكُسط والقُسْط) ، وإذا تقارب الحرفان في المخرج تعاقبا في اللغات . (وفي هذا ما يُغني عن التعليق) .

ومما يلحق بالإبدال وهو من الاختلاف الصوتي بين اللهجات العربية ما رُوي لنا من اللغات المذمومة كـ (العنعنة) التي تذكر عن تميم ، و (الكشكشة) التي في أسد ، و (الكسكسة) التي في ربيعة ، و (الفحفحة) في لغة هذيل، و (الجعجعة) في لغة قضاعة ، و (الشنشنة و الوتم) في لغة اليمن .

١ – أمّا (العنعنة) التي تذكر عن تميم فقلبهم الهمزة في بعض كلامهم عينًا ، يقولون : (سمعتُ عَنَّ فلانًا قال كذا) يريدون (أنَّ) . وروي في حديث قَيْلَه: (تحسب عَنّي نائِمَة) قال أبو عبيد : أرادت (تحسب أني) ، وهذه لغة تميم . قال ذو الرمَّة :

أَعَن ترسَّمت مِنْ خرقَاءَ مَنزِلَةً ماءُ الصبابةِ من عينيكَ مَسْجُومُ

---

(١) النشر في القراءات العشر ٢٢٠/١ .

(٢) لسان العرب ٣٢٩/١٠ .

(٣) المصدر السابق ٣٨٧/٧ .

أراد (أأن) فجعل مكان الهمزة عينًا[١] .

ونقل صاحب اللسان عن الفراء قوله : « لغة قريش ومن جاورهم أنَّ ، وتميم وقيس وأسد ومن جاورهم يجعلون ألف أن إذا كانت مفتوحة عينًا ، يقولون : أشهد عَنَّك رسول الله ، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف »[٢].

وقد عدَّ إبراهيم أنيس هذا الإبدال محاولةً للجهر بالصوت بحكم ميل هذه القبائل إلى صفة الجهر لطبعها البدوي فعمدوا إلى المبالغة في التحقيق باستبدالها بأحد الأصوات الحلقية القريبة منها مخرجًا وصفةً وهو العين[٣] .

٢ - وأمَّا (الكشكشة) التي في أسد ، فقال قوم : إنهم يبدلون الكاف شينًا ، فيقولون : (عَلَيْشَ) بمعنى (عليك) وينشدون :

فَعَيْناش عيناها ، وجِيدُش جِيدُها ... ولَوْنُشِ - إلاَّ أنَّها غيرُ عاطلِ

وقال آخرون : بل يصلون بالكاف شينًا فيقولون : (عليكش)[٤] .

وفي رواية ابن جنّي عن ثعلب أنها لربيعة وأنها مع كاف ضمير المؤنث فقط : (إنَّكِش ورأيتكش تفعل هذا في الوقف ، فإذا وصلت أسقطت الشين[٥] . ونسبت إلى تميم في حديث معاوية الذي نقله صاحب اللسان : « تياسروا عن كشكشة تميم أي إبدالهم الشين مكان كاف الخطاب مع المؤنث فيقولون : (أَبُوشِ وأمُّشِ) وزادوا على الكاف شينًا في الوقف فقالوا : (مررت بِكِش) كما تفعل تميم . وبغض النظر عن نسبتها فما جاء في حديث معاوية - الوصف الذي عُلِّق به على حديثه - أكثر منطقيةً فهي إبدال الشين مكان الكاف مع المؤنث خاصة وزيادتها على الكاف في الوقف لتبين كسرة الكاف فيؤكد التأنيث لأنها تسكن في الوقف[٦] .

---

(١) الصاحبي (٣٥) .

(٢) لسان العرب ١٧/٢٩٥ .

(٣) اللهجات ، إبراهيم أنيس (١١٠) بتصرف .

(٤) الصاحبي (٣٥) .

(٥) الخصائص ٢/١١ .

(٦) ينظر ما نقله صاحب اللسان عن صحاح اللغة ٦/٣٤٢ .

وعند محاولتنا الكشف عن علاقة الكاف بالشين وجدناهما مشترِكَين في صفة الهمس والرِقَّة ، كما أن مخرج الشين يلي مخرج الكاف بحسب وصف سيبويه[١] ، فعندما كُسرت الكاف انجذب مخرجها إلى الأمام قليلاً صوب الياء في وسط الحنك الأعلى لأن الكسرة من الياء ومن مخرجها أيضًا الجيم والشين ، ومع توافق صفة الكاف والشين حصل الإبدال عند من نسبت إليهم هذه الصفة . واللّه أعلم .

٣ – وجاء في المزهر نقلاً عن الفراء قوله : « ومن ذلك (الكسكسة) ، وهي في ربيعة ومضر؛ ويجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر سينًا على ما تقدم (أي في الكشكشة) ، وقصدوا بذلك الفرق بينهما »[٢]، ورُويت في اللسان للمؤنث ونُسبت لهوازن قال : « (كسكسة) هوازن هو أن يزيدوا بعد كاف المؤنث سينًا فيقولوا : أَعْطَيْتُكِسْ ، ومِنكِس ، وهذا في الوقف دون الوصل »[٣] .

ولم أجد علاقة بين الكاف والسين إلاّ في صفة الهمس والرِّقَّة ، أما المخارج فبعيدة إذ الكاف من أقصى اللسان وما يليه من الحنك الأعلى ، والسين من طرف اللسان وأصول الثنايا . وأظنه من الإبدال الشاذ ؛ هذا إذا وقعت السين مكان الكاف . أمّا إذا زيدت بعدها فليست من الإبدال البتة وإنما هي زيادة ، وينطبق ذلك على الشين أيضًا في حال زيادتها بعد الكاف .

٤ – الفحفحة : إبدال الحاء عينًا وهي في لغة هذيل . وجاء في اللسان : « و (عَتَّى) : بمعنى (حتى) ، هُذلية وثَقَفِيَّة ، وقرأ بعضهم : (عَتَّى حين) ؛ أي: حتى حينٍ . وفي حديث عمر رضي اللّه عنه : بَلَغَه أنَّ ابن مسعود رضي اللّه عنه يقرئ الناس (عَتَّى حين) ، يريد : (حتى حين) ، فقال : إنَّ القرآن لم ينزل بلغة هذيلٍ ، فأقرئ الناس بلُغة قريش »[٤] .

وتتناوب الحاء والعين على كثير من الكلمات ، جاء في المزهر : « ومن الحاء

---

(١) الكتاب ٤/٤٣٣ .

(٢) المزهر ١/٢٢١ .

(٣) لسان العرب ٦/١٩٦ .

(٤) لسان العرب ١٥/٢٨ .

والعين يقال : ضَبحت الخيل وضبعت ، وهو عِفْضاج وحفضاج إذا تفتَّق وكَثُر لحمُه وبَحثَر الشيء وبعثره »[١] .

والعلاقة بين الحاء والعين واضحة جليَّة فهما من وسط الحلق(من مخرج واحد) وقد وصف سيبويه العين بقوله : « وأما العين فبين الرِّخوة والشديدة ، تصل إلى الترديد فيها لشبهها بالحاء »[٢]. فلا عجب أن تبدلها هذيل عينًا في بعض المواضع ، أو أنْ يتناوبا على بعض الكلمات .

٥ – الجعجعة: إبدال الياء المشدَّدة جيمًا. جاء في المزهر:« ومن ذلك (الجعجعة) في لغة قضاعة ؛ يجعلون الياء المشدَّدة جيمًا ، يقولون : تميميّ : تميمجّ » . بيد أنَّ سيبويه نسبها إلى بني سعد (رهط حليمة السعديّة مرضعة النبي عليه السلام) وذكر أن هذا الإبدال يكون في الوقف فقط ، وعلله بقوله : « وأمَّا ناس من بني سَعْد فإنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف لأنها خفيَّة ، فأبدلوا من موضعها أبين الحروف ، وذلك قولهم : هذا تميمجّ ، يريدون : تميميٌّ ، وهذا عَلِجّ ، يريدون : عليٌّ . وسمعتُ بعضهم يقول : عَرَبانجّ ، يريد : عَرَبانيَّ . وحدثني من سمعهم يقولون :

خَالي عُوَيف وأبو عَلِجِّ　　　المُطعمانِ الشَّحْمَ بالعَشِجِّ

وبالغداة فِلَقَ البَرْنِجِّ

يريد : أبا علي ، بالعشيّ ، والبَرْنِيِّ »[٣].

٦ – الشنشنة في لغة اليمن ، تجعل الكاف شينًا مطلقًا ، كـ (لبَّيْش اللهم لبَّيْش) أي : لبيك[٢] . وقد درسنا علاقة الكاف بالشين في (الكشكشة) فارجع إليها.

٧ – الوتم في لغة اليمن ؛ «تجعل السين تاءًا كـ : النات في : الناس»[٤] . ومن ذلك ما أنشده أبو زيد من قول الشاعر :

يا قَاتَل اللَّهُ بني السَّعْلاتِ　　　عمر بن يربوعٍ شرار النَّاتِ

غيرَ أعِفَّاءٍ ولا أكياتِ

(١) المزهر ٤٦٦/١ .

(٢) الكتاب ٤٣٥/٤ .

(٣) الكتاب ١٨٢/٤ .

(٤) المزهر ٢٢٢/١ .

أراد : الناس ، أكياس . فأبدل التاء من السين لموافقتها إياها في الهمس والرقة وتجاور المخارج . وهو من البدل الشاذ[١] .

ومما أبدلت السين فيه تاءً قولهم في سدس (ست) حيث كانت السين مضاعفة وليس بينهما حاجز قوي وهو قريب من مخرج السين فكرهوا إدغامه في السين فتتكرر ثلاث سينات ، فأبدلوا مكان السين أشبه الحروف بها من موضع الدال وهو التاء ثم أدغم الدال في التاء[٢] .

وممن رجع الإبدال إلى اختلاف اللهجات أبو الطيب اللغوي، قال: « ليس المراد بالإبدال أن العرب تتعمد تعويض حرف من حرف ، وإنما هي لغات مختلفة لمعانٍ متفقة تتقارب اللفظتان في لغتين لمعنى واحد ، حتى لا يختلفا إلا في حرف واحد . والدليل على ذلك أن قبيلة واحدة لا تتكلم بكلمة طورًا مهموزة وطورًا غير مهموزة ، ولا بالصاد مرة وبالسين أخرى ، وكذلك إبدال لام التعريف ميمًا ، والهمزة المصدرة عينًا ؛ كقولهم في نحو : أَنْ : عَنْ ؛ لا تشترك العرب في شيء من ذلك ، إنما يقول هذا قومٌ وذاك آخرون »[٣] . ورجعه المحدثون إلى التطور الصوتي مع مراعاة التقارب بين الحرفين (الأصلي والجديد)[٤] .

الإدغام :

من الاختلاف الصوتي بين اللهجات العربية حدوث الإدغام حيثُ إنه ضرب من أضرب التأثر بين الأصوات المتجاورة ، بل يُعدُ من أقصى درجات التأثر التي تبدأ في أدنى مستوياتها بتغيير حركةٍ أو تسكينها لإحداث نوعٍ من الانسجام بين أصوات اللغة في لهجة أو أخرى مرورًا بالإمالة والتخفيف والإبدال وانتهاءًا بالحذف أو الإدغام . وقد أشار إلى ذلك ابن جني في باب الإدغام الأصغر بقوله : « قد ثبت أنَّ الإدغام المألوف المعتاد إنما هو تقريب صوت من صوت » ، كما أشار إلى الدرجات

(١) نقلاً عن لسان العرب ٦/١١ ، ٢١٧ . بتصرف .

(٢) الكتاب ٤/٤٨١ . بتصرف .

(٣) نقلاً عن المزهر ١/٤٦٠ .

(٤) ينظر : من أسرار اللّغة ، إبراهيم أنيس (٧٥) وما بعدها . (ويظهر أن كلام أبي الطيب عن الإبدال اللغوي وكلام المحدثين من الإبدال الصوتي) .

الأخرى التي ذكرناها في نفس الباب[١] .

وقد مالت بعض اللهجات العربية خاصة تلك التي تؤثر السرعة والخفَّة في الكلام فتمتزج الحروف ببعضها وتُلغى الحواجز والفواصل بينها ، قد مالت إلى الإدغام ، أو بعبارة أدق نجم عنها الإدغام . وفي مقابلها مالت لهجات أخرى إلى البيان أو الإظهار ، خاصة تلك التي تؤثر تحقيق الأصوات والتأني في نطقها كاللهجة الحجازية ، علماً بأن الإدغام ظاهرة عامة في لغة جميع العرب ، ولهذا قال أبو عمرو بن العلاء : « الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها ولا يحسنون غيره »[٢] بيد أنّه كذلك في حالات معينة فقط[٣] .

وقبل المضيِّ في الحديث عن الخلاف بين اللهجات العربية في الإدغام والبيان نَقِفُ على كنهه كما جاء عن القدماء :

« الإدغام هو النطق بالحرفين المتجاورين (ليس بينهما فاصل) حرفًا كالثاني مشدَّدًا ، إذا كانا متماثلين (متفقين مخرجًا وصفةً) ، أو متجانسين (متفقين مخرجًا ومختلفين صفةً) ، أو متقاربين (متقاربان مخرجًا وصفةً) طلبًا للتخفيف لأنه بإدخالك حرفًا في الثاني يرتفع اللسان عنهما رفعة واحدة من غير وقف على الأوَّل كقولك في (قطْطَع وشدْدَ : قطَّع وشدَّ) ، ويقع في كلمة وكلمتين في الفعل أو في الاسم إذا شابه الفعل لكون الفعل ثقيلاً فكان التخفيف به أليق ، وهو نوعان : كبير وهو ما كان أوّل حرفيه متحركًا ، وصغير إذا كان أوّل حرفيه ساكنًا وهو الأصل في الإدغام »[٤] .

وإذا رجعنا إلى الحديث عن الخلاف بين اللهجات العربية في الإدغام – عندما يكون جائزًا – وبحثنا في كتب القدماء وجدناهم ينسبون الإدغام إلى تميم وأسد

---

(١) الخصائص ١٣٩/٢ .

(٢) النشر ٢٧٥/١ .

(٣) عندما يكون واجبًا . ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للاستراباذي ٢٣٥/٣ . وفي حالات أخر سنذكر بعضها إن شاء الله .

(٤) النشر ٢٧٤/١ وما بعدها بتصرف . للتوسع في معرفة الإدغام وأحكامه وشروطه وغير ذلك . ينظر : شرح شافية ابن الحاجب سالفة الذكر ٢٣٤/٣ .

وبكر بن وائل وغيرهم من القبائل البدوية ، وفي المقابل ينسبون البيان أو الفك والإظهار إلى قريش والأنصار وغيرهم ، ممَّن تأثر بالبيئة الحضرية أو جاورهم ، وقد أشارت إلى حالات الإجماع بين العرب في هذه الظاهرة أيضًا . من ذلك :

١ - ما جاء عن سيبويه من أنَّ العرب مجمعون على الإدغام في الفعل المضعَّف (ما كان آخره حرفين من موضع واحد) إذا تحرك الحرف الثاني منه ، واستدل برأي الخليل في ذلك بأن الإدغام فيه أولى لأنه لما كانا من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعيدوها إلى ذلك الموضع للحرف الآخِر ، فلما ثقل عليهم ذلك أرادوا أن يرفعوه رفعة واحدة ، وذلك قولهم : رُدِّي واجترَّا وانقدُّوا (أي في ياء المخاطبة وألف الاثنين وواو الجماعة) .

ولكن سرعان ما تظهر نزعة الميل إلى البيان أو الإدغام بين اللهجات العربية إذا أسكن الثاني لموجب إعرابي كالجزم أو الأمر ، « فإنّ أهل الحجاز يضاعفون (يجرون على الأصل) لأنهم أسكنوا الآخِر ، فلم يكن بُدٌّ من تحريك الذي قبله ؛ لأنه لا يلتقي ساكنان وذلك قولك : ارْدُدْ واجْتَرِرْ ، وإنْ تضارِرْ أضارِرْ ، وإن تستعدِدْ أستعْدِدْ ، وكذلك جميع هذه الحروف » .

« وأمّا بنو تميم فيدغمون المجزوم كما أدغموا ، إذْ كان الحرفان متحركين لما ذكرنا من المتحركين ، فيسكنون الأول ويحركون الآخِر لأنَّهما لا يسكنان جميعا ، وهو قول غيرهم من العرب ، وهم كثير »[(١)].

وقد امتدح سيبويه مذهب الحجازيين في البيان بقوله : « ودعاهم سكون الآخِر في المثلين أن بَيَّنَ أهل الحجاز في الجزم فقالوا : ارددْ ولا تَرْدُدْ . وهي اللّغة العربية القديمة الجيدة ، ولكن بني تميم أدغموا ولم يشبهوها بَرَددتُ »[(٢)] .

وقد ذكر سيبويه أنَّ بني تميم وغيرهم من العرب اختلفوا في تحريك الثاني بعد إدغام الأول فيه على النحو التالي[(٣)] :

---

(١) الكتاب ٣/٥٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٤/٤٧٣ .

(٣) المرجع السابق ٣/٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ على التوالي .

أ - منهم من يحرك الآخِر كتحريك ما قبله ، فإن كان مفتوحًا فتحوه ، وإن كان مضمومًا ضمُّوه، وإن كان مكسورًا كسروه، وذلك قولك: رُدُّ و عَضَّ و فرِّ يا فتى.

ب - ومنهم من يفتح إذا التقى ساكنان على كل حال ، وهم بنو أسدٍ، وغيرهم من تميم ... وزعم يونس أنه سمعهم يقولون : * غُضَّ الطرف إنَّك من نُميرٍ *

(الشاهد فيه الفتح في غُضَّ المضعف ولم يتبعوا الآخر حركة ما قبله) .

جـ - ومن العرب من يكسر على كل حال ، ثم ذكر أنَّهم (كَعْبُ وغَنِيٌّ) .

٢ - وقد روى سيبويه عن شيخه الخليل:« أن أناسًا من بكر بن وائل يقولون: (رُدَّنَ و مُدَّنَ و رَدَّتُ) علمًا بأنَّ أهل الحجاز وغيرهم من العرب مجتمعون على البيان عند سكون الثاني من المثلين سكونًا لازمًا وذلك بدخول نون الإناث وتاء الضمير عليه وبغير موجب إعرابي (الجزم أو الأمر) فيقولون : رَدَدْنَ و رَدَدْتُ و مَدَدْتُ »[1] .

وبالرغم من كون النطق البكري في ذلك يُعدُّ شاذًا وقليلاً إلا أنَّه يُعبِّر عن النزعة التوَّاقة إلى الإدغام في بعض اللهجات وإنْ كان على حساب وحدتها واجتماعها .

٣ - ويدلُّك على هذه النزعة أيضًا ما نسبه سيبويه إلى تميم من قولهم : مَحُّمْ ، يريدون : مَعَهُمُ ، و مَحَّاؤُلاءِ ، يريدون : مَعَ هَؤلاءِ[2] . وهم بهذا الإدغام قلبوا العين حاءًا ثم أدغموا الهاءَ فيها .

ومن هنا تظهر هذه النزعة إلى الإدغام حيث خالفوا بفعلهم هذا جميع الأصول التي كثر مجيء الإدغام وفقها . منها :

أ - أن أصل الإدغام أن يكون الأول ساكنًا[3] . مَعَهُمْ أوَّله متحرك . والإدغام الكبير أيضًا يخالفه مع ملاحظة أنه ينسب إلى تميم أيضًا وقد مرَّ بنا قوله سيبويه : « وأما بنو تميم فيدغمون كما أدغموا إذ كان الحرفان متحركين » .

---

(١) الكتاب ٣/٥٣٥ ، ٥٣٥ . بتصرف .

(٢) المرجع السابق٤/٤٥٠ .

(٣) المرجع السابق ٤/٤٧٢ .

ب - « أن الأصل في الإدغام أن يتبع الأول الآخِر»[1] . مَعَهُمْ قلبت العين حاء ثم أدغمت الهاء في الحاء ، وعلى الأصل كان يجب العكس ولكنه متعذر . وقال في موضع آخر : « والإدغام إنَّما يدخل فيه الأول في الآخِر والآخِر على حاله . ويقلب الأول فيدخل في الآخِر حتى يصير هو والآخِر من موضع واحد »[1] . وقد أطلق المحدثون على إدغام الأول في الثاني الأثر الرجعي وعلى ضدّه الأثر التقدمي وهو قليل .

جـ - « أن أصل الإدغام في حروف الفم واللسان لأنها أكثر الحروف»[2] .

د - «حروف الحلق ليست بأصل في الإدغام لقلتها»[3]. وقد جاءت مَعَهم بخلاف الأصل الثالث والرابع بالرغم من أن الأصل الرابع عربي حسن .

ونحن لا نتعجَّب من مخالفة أحد هذه الأصول بل نتعجَّب من مخالفتها جميعًا سعيًا للإدغام وتجشُّم ما كان البيان فيه أخف وأحسن عند غيرهم من العرب .

---

(١) الكتاب ٤/٤٦٩ ، ٤/١٠٤ .

(٢) المرجع السابق ٤/٤٤٨ .

(٣) المرجع السابق ٤/٤٤٩ .

ثالثا - الخلاف في التفاعل بين الحركات والحروف :

تحدثنا فيما مضى عن الخلاف بين اللهجات العربية في الحركات والحروف وتفاعل كلٍّ منهما مع مجانسه ، وسنعرض هنا للخلاف بينها في تفاعل الحركات مع الحروف وما نجم عن ذلك من اختلاف صوتي ، خيرُ ما يعبر عنه هو الفتح والإمالة ؛ إذ تُعدّ الإمالة من أضرب التأثر والتفاعل بين الأصوات المتجاورة صوائت كُنَّ أم صوامت بنوعيه التقدمي والرجعي ، كما تشمل جميع صور التفاعل سواء الحركي أو الحرفي أو ما بين الحركات والحروف ، فهي نتيجة إحداث نوع من المناسبة والانسجام بين أصوات اللّغة في لهجة أو أخرى .

الفتح والإمالة

أجمعت الروايات على نسبة الفتح أو التفخيم أو النصب للغة أهل الحجاز ، ونسبة الإمالة أو الإضجاع أو الكسر إذا كانت كبرى ، والتقليل والتلطيف وبين بين إذا كانت صغرى للغة أهل نجد . وقد نقل صاحب النشر عن أبي عمرو الداني قوله : « والإمالة والفتح لغتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم . فالفتح لغة أهل الحجاز ، والإمالة لغة عامة أهل نجد من تميم وأسد ، وقيس » (١).

وقد عرّف ابن الجزري الفتح والإمالة بقوله : « والفتح هنا عبارة عن فتح القارئ لفيه بلفظ الحرف وهو فيما بعده ألف أظهر ويقال له أيضًا التفخيم ، وربما قيل له النصب . وينقسم إلى فتح شديد - ليس في لغة العرب - وفتح متوسط ... والإمالة أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة ، وبالألف نحو الياء (كثيرًا) [إمالة شديدة] و (قليلاً) [إمالة متوسطة] ، وكلاهما جائزٌ في القراءة جارٍ في لغة العرب »(٢) .

وقد توسع بعضهم في مفهوم الإمالة فأدخل ألف التفخيم (الميل بالألف صوب الواو) والإشمام (الكسرة المشوبة بالضمة ، والضَّمَّةَ المشوبة بالكسرة ، والفتحة

(١) النشر ٢/٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٩ ، ٣٠ .

المشوبة بالضَّـمَّـةِ)[١] . أما الإمالة المشهورة عند النحاة والقراء المقصودة عند إطلاق اللفظ الكثيرة في لغة العرب فهي أن تنحو بالفتحة صوب الكسرة وبالألف صوب الياء .

أما ما ذكرناه من اشتمالها على جميع صور التفاعل الحركي والحرفي أو ما بين الحركات والحروف واشتمالها على الأثر الرجعي(تأثر الأول بالثاني)، والتقدمي (تأثر الثاني بالأول) ، فيتجلى في أسباب وقوعها التي ذكرها علماء السلف وهي أسباب ليست بموجبة لها ، بل هي المجوِّزة لها عند من هي في لغته ، وكل موضع يحصل فيه سبب الإمالة جاز فيه الفتح . وترجع عندهم إلى شيئين ، أحدهما : الكسرة ، والثاني : الياء بغرض المناسبة والإشعار[٢] .

الأسباب التي ترجع إلى المناسبة :

١ - تمال الألف إلى الياء إذا سبقت أو تليت بكسرة ، وهي حالة تفاعل بين الحركة والحرف وأثر تقدميّ ورجعيّ، نحو : كِتَاب في الحالة الأولى ، ونحو : عَالِم في الحالة الثانية . واشترطوا في الحالة الأولى أن يفصل بين الكسرة والألف حرف أو حرفان .

٢ - تمال الفتحة صوب الكسرة إذا سبقت الكسرةُ الفتحةَ وكانت الفتحة قبل ألف يُراد إمالته ؛ لأنه يلزم إمالةَ الألف صوب الياء إمالةُ فتحة الألف نحو الكسرة؛ لأن الألف المحض لا يكون إلا بعد فتح محض ، والألف الممال لا يكون إلا بعد فتح ممال ويكون بقدره ، وهنا حالة تفاعل بين الحركات وأثر رجعي ، ومثال الفتحة الممالة كِتَاب وحِسَاب . وقد تمال الفتحة منفردة مع هاء التأنيث والراء كما في رَحْمَه والْكِبَرِ [٣] .

٣ - تمال الألف صوب الياء إذا سُبقت أو تُليت بياء. مثالها في الحالة الأولى:

---

(١) ذكرها ابن جني في المضارعة في الحروف والحركات وعدها إبراهيم أنيس من أنواع الإمالة . سر صناعة الإعراب ١/٥٠ ، ٥١ وما بعدها ، اللهجات العربية ، إبراهيم أنيس (٦٦) .

(٢) من النشر ٢/٣٢ وما بعدها ، ومن شرح شافية ابن الحاجب ٣/٥ . بتصرف .

(٣) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب ٣/ ٤ ، ٣٠ .

أيارِما ، الحيارِة . وفي الحالة الثانية نحو : مبارِيع ، وهي حالة تفاعل بين الحروف بأثر رجعيٍّ وتقدميٍّ .

٤ – تمال الألف أو الفتحة لأجل ألف أخرى أو فتحة أخرى ممالة ، وتُسمَّى إمالةً لأجل إمالةٍ . مثالها : رَأيتُ عِمَارِدارِ . فأمالوا الألف المبدلة من التنوين لأجل امالة الألف الأولى الممالة لأجل الكسرة .

أمّا الأسباب التي ترجع إلى الإشعار فثلاثة(١) :

أ – الإشعار بأصل الألف بإمالتها إذا كانت منقلبة عن ياء أو عن واو مكسورة ، نحو : (بَارِع و خَارِف) إذ تحركت الياء في ذلك وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا فكانت الإمالة لأجل الياء المقدرة في المحل الممال ، أما (خاف) فأصله (خَوِف) بكسر عين الكلمة وهي الواو فقلبت الواو ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها فكانت الإمالة لأجل الكسرة المقدرة في المحل الممال .

ب – الإشعار بما يعرض للكلمة في بعض المواضع من ظهور كسرة أو ياء حسب تصريفها دون الأصل، نحو : طَارِب و غزارِ ، فالفاء في طَاب تكسر إذا اتصل بها ضمير الرفع فتقول طِبْتُ ، والألف في غزا في الفعل المبني للمجهول تصبح ياءً فتقول : غُزِي .

جـ – الإشعار بالشَّبه فأمالوا ألف (الحسنى) لأنها تشبه ألف (الهدى) أي المنقلبة عن ياء . وهناك نوعان قال بهما ابن الجزري لأسباب الإمالة وهي كثرة الاستعمال كألف (الناس) وما أميل للفرق بين الاسم والحرف كإمالة ألف (باء و تاء) لأنها أسماء ما يُلفظ به .

وفي الحقيقة ما هذه الأسباب إلا تعليلٌ قال به النحاة لتفسير ظاهرة الخلاف الصوتي الناجم عن الفتح والإمالة ومحاولة تقعيده، وإلاّ فإنّ الفرق بين من يفتح ومن يميل ما هو إلا في وضع اللسان مع كلٍّ منهما، ولذلك قالوا : إنَّ فائدة الإمالة هي سهولة اللفظ وذلك أن اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة والانحدار أخف على

(١) رجعها ابن الحاجب إلى المناسبة أيضًا . ينظر : شرح شافية ابن الحاجب ٣/٤ .

اللسان من الارتفاع ، فلهذا أمال من أمال ، وأمَّا من فتح فإنه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل(١) . والمرجع في ذلك إلى قريحة العربي وتصوره لمواطن الخفَّة لا يطلب في ذلك موافقة قاعدة أو متابعة غيره ، وقد مرّ بك قول سيبويه : « واعلم أنه ليس كلٌّ من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممَّن يميل ، ولكنه قد يخالف كلٌّ واحد من الفريقين صاحبه ..» (٢).

أمّا القصد من الإمالة فهو تقريب صوت نطقك بحركةٍ أو حرفٍ من صوت نطقك لحركةٍ أخرى أو حرفٍ آخر ليحدث بين الصوتين إنسجام وتناسب ، ويقلُّ بذلك الجهد العضلي المبذول عند النطق بكلا الصوتين ، وهو ما سعت إليه كثير من القبائل التي عُرف عنها السرعة وطلب الخفة في كلامها . وفي هذا ما يرجِّح كِفَّة من قال بأصالة الفتح وفرعيَّةِ الإمالة(٣) .

---

(١) النشر ٢/٣٥ .

(٢) أوردنا النص كاملاً في القياس المستقل ، أسباب اختلاف لغات العرب ، في بحثنا ص (٣٧) . وفي الكتاب ٤/١٢٥ .

(٣) هناك فريق آخر يقول بأصالة الاثنين . ينظر حجج كل فريق في النشر ٢/٣٢ .

الفصل الثاني
المظهـر الصرفـي

أ - ما يتعلق بتصريف الأسماء .

ب - ما يتعلق بتصريف الأفعال .

الفصل الثاني
المظهر الصرفي

إن الخلاف بين اللهجات العربية في المظهر الصرفي يُعد امتداداً للخلاف في أصواتها وكثيراً ما كان الخلاف في بنية بعض الكلمات العربية ناشئًا عن الصفات الصوتية المختلفة بين اللهجات العربية ، ولهذا نجد بين المظهرين تداخلاً كبيراً يصعب معه وضع الحدود الفاصلة بينهما ، وكما يقول عبده الراجحي : « إن كثيراً من الموضوعات التي يدور حولها الصرف إنما تنبني على قوانين صوتية مرجعها ذلك التأثر المتبادل بين الحروف حين تتألف ويتصل بعضها ببعض »(١) .

وذلك لا يتعارض مع أنَّ اللّغة العربية لغة تحليلية متصرفة تتغير معاني كلماتها بتغيُّر أبنيتها فتقول : عِلْم للدلالة على المصدر ، وعَلِم للدلالة على الفعل في الماضي ، وعلَّم للدلالة على تعدي الفعل ، واعْلَم للدلالة على الأمر ، والعلوم للدلالة على جمع العلم ، والمعلوم للدلالة على ما وقع عليه العلم ، والعلامة للدلالة على وسيلة العلم ... وهلم جرا .

ومن ذلك ما عقده ابن قتيبة في باب اختلاف الأبنية في الحرف الواحد لاختلاف المعاني : « قالوا : (رَجُلُ مُبَطَّنُ) إذا كان خميص البَطْن ، و (بَطِين) إذا كان عظيم البطن [في صحة] ، و (مَبْطُونُ) إذا كان عليل البطن ، و (بَطِنُ) إذا كان منهومًا [نهمًا] ، و (مِبْطَانُ) إذا ضخم بطنه من كثرة ما يأكُل »(٢) .

ومما ذُكر في اختصاص الصيغ العربية بمعانٍ خاصة ما جاء في الخصائص وهو(٣) :

١ - نقل عن سيبويه قوله في المصادر التي جاءت على الفَعَلان : إنها تأتي للاضطراب والحركة ؛ نحو : النَقَزان ، والغليان والغثيان .

---

(١) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د . عبد الراجحي (١٥٩) ، وينظر أيضًا حديث د. إبراهيم أنيس في ذلك في اللهجات العربية (١٥٨) .

(٢) أدب الكاتب (٢٥١) .

(٣) الخصائص لابن جني ١٥٢/٢ . بتصرف .

٢ - ذكر ابن جني أن المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو: الزعزعة.

٣ - المصادر والصفات التي على وزن (الفَعَلَى) تأتي للسرعة نحو: البَشَكَى والجَمَزَى والوَلَقَى .

٤ - أنَّهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب نحو: استسقى واستطعم، فالزيادة قبل الأصول دلالة على السعي والتسبب لفعل الفعل .

٥ - تكرير العين في الفعل دليل على تكرير الفعل ، نحو : كسَّر ، قطَّع .

٦ - تكرير اللام مع العين للمبالغة ، نحو : دَمَكْمَك ، غَشَمْشَم .

ومن ذلك أيضًا استخدام صيغة (فَاعَلَ) للمشاركة والمغالبة (قاتل و خَاصَم)، و (افْتَعل) للمطاوعة نحو : كَسَّرَته فانكسر .

ومن صيغ الأسماء (فِعَالة) للدلالة على الحرفة (نجارة ، سباكة ، خياطة) و (مِفْعَلة) للآلة (مطرقة ، مرسمة ، مِئذنة) ، و (مَفْعَلة) للدلالة على المكان الذي يكثر فيه الشيء نحو : (مَزْرَعة ، مأسدة ، مَغْسلة) أماكن يكثر فيها الزرع والأسود والغسل . ناهيك عن الأوزان التي تدل على زمن الفعل وتعديه ولزومه ومصدره وأوزان الأسماء مفردها وجمعها القليل والكثير وتثنيتها وتصغيرها وكل ما يعرف بالتصريف والاشتقاق(١) .

وسنعرض لأشهر ما وقع من خلاف بين اللهجات العربية في المظهر الصرفي أو بعبارة أدق لتلك الكلمات التي رُويت لنا بوزنين فأكثر وترجع في اختلاف صيغها إلى اختلاف اللهجات مبتعدين قدر الإمكان عن موضوعات المظهر الصوتي وما يتعلق بها من ميول اللهجات إلى الحركة والسكون أو إلى نوع من الحركات دون الآخر ، وغير ذلك من الهمز والإبدال والإدغام والإمالة وما سبق ذكره حتى نجنِّب دراستنا آفة الملل بالإعادة والتكرار وإن نجم عنها اختلاف في المظهر الصرفي بل يعتبر الخلاف فيها - أحيانًا - خلافًا صرفيًا أيضًا إذ تختلف بعض الأوزان في نوع الحركة أو في الحركة والسكون فقط .

---

(١) للتوسع ينظر الأغراض التي تقصد من أحوال الأبنية في شرح شافية ابن الحاجب ٦٥/١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١١٢ ، ١٥١ .

الخلاف بين اللهجات العربية في المظهر الصرفي :

أ - ما يتعلق بتصريف الأسماء :

١ – اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين :

اختلفت اللهجات العربية في صياغة اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين سواء اليائي نحو : (باع وخاط وكال) أصله : (بيع وخيط وكيل)، أو الواوي نحو : (قال وصان وقاد) أصله : (قول وصون وقود) اختلفت في صياغة اسم المفعول منها على النحو التالي : أهل الحجاز وأكثر العرب يعلونه بالحذف وهو المشهور، فيقولون : (مَبِيع ، مَخِيط ، مَكِيل ، مَصُون ، مَقُول ، مَقُود) .

فيكون وزنه في هذه اللّهجة عند سيبويه : (اليائي على : مَفِعْل ، والواوي على : مَفُعْل) لأنه يرى أن المحذوف هو واو مَفْعُول نُقلت حركة العين إلى الساكن قبلها فالتقى ساكنان العين والواو فحذفت الواو ، أمَّا الضمة في الواوي فهي على الأصل، وأمَّا الكسرة في اليائي فهي منقلبة عن ضمة لتناسب الياء .

ووزنه في هذه اللّهجة عند الأخفش (اليائي : مَفِيل ، والواوي : مَفُول) إذ يرى أن المحذوف هو عين مَفْعُول نُقلت حركة العين إلى الفاء فالتقى ساكنان : العين والواو فحذف العين . والضمة في الواوي هي المنقولة من العين ، أمّا الكسرة في اليائي فهي منقلبة عن ضمة لتناسب الياء ثم تحذف الياء فتأتي الواو ساكنة قبلها كسرة فتقلب ياء ، وفي ذلك إطالة عند الأخفش[١].

أمَّا بنو تميم فيتمون اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين بالياء اطرادًا وبالواو شذوذًا عند بعضهم لثقل توالي الواوين ، وقد جاء في الخصائص[٢] : « فبنو تميم –على ما حكاه أبو عثمان عن الأصمعي– يُتمّون مفعولاً من اليائي فيقولون : مخيوط ومكيول ؛ قال :

قد كان قومُك يزعمونك سيِّدًا ... وإخـــالُ أنك سـيِّد معيـــون

وأنشد أبو عمرو بن العلاء : * وكأنها تفّاحة مطيوبة *

(١) الممتع في التصرف لابن عصفور ٢/٤٥٤ . بتصرف .

(٢) خصائص ابن جني ١/٢٦٠ .

وقال علقمة بن عبده :

* يوم رذاذٍ عليه الدَجْن مغيوم *

وربما تخطّوا الياء في هذه إلى الواو ، وأخرجوا مفعولاً منها على أصله ؛ وإن كان أثقل منه من الياء ، وذلك قول بعضهم : ثوب مَصْوُون ، وفرس مَقْوُود ، ورجل مَعْوُود من مرضه ، وأنشدوا فيه :

* والمسك من عنبرِه مَدْوُوف *

٢ - اسم المفعول من رَضِي :

رُوي اسم المفعول من رضي الواويِّ اللام مصححًا في لغة أهل الحجاز، ومعلاً عند غيرهم . قال الفراء في « قوله تعالى : ﴿ وكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾[(١)] : ولو أتت: مَرْضُوًّا كان صَوابًا (أيضًا) ؛ لأنّ أصلها الواو ؛ ألا ترى أن الرضوان بالواو ، والذين قالوا : مَرْضيًّا بنوه على رَضين ، و (مرضُوٌّ) لغة أهل الحجاز » [(٢)].

وقد جاء في اللسان عن ابن الأعرابي : « ورضَيتُ الشيءَ وارْتَضَيْتُه ، فهو مَرْضِيٌّ ، وقالوا : مرضُوٌّ ، فجاءوا به على الأصل »[(٣)] .

٣ - المصدر من فَعل إذا لم يسمع :

جاء في شافية ابن الحاجب : « وقال الفراء : إذا جاءَك فَعَل ممَّا لم يُسمع مصدره فاجعله فَعْلاً للحجاز و فُعُولاً لنجد » . وقال الرضي في شرحها : « يعني قياس أهل نجد أن يقولوا في مصدر ما لم يسمع مصدره من فَعَل : فُعُول ، متعديًا كان أو لازما ، وقياس الحجازيين فيه فَعْل ، متعديًا كان أو لا »[(٤)] .

وقد اعترض الشارح على قول الفراء بأنَّ المشهور في فَعْل أن يكون مصدرًا للمتعدي من أي باب كان نحو: قَتل قَتْلاً ، و ضَرَبَ ضَرْبًا ، و حَمِدَ حَمْدًا ، والمشهور في فُعُول أن يكون مصدرًا للازم نحو : دَخَل دُخُولاً وذلك هو الأغلب في السماع فيرد

---

(١) سورة مريم : ٥٥ .

(٢) معاني القرآن للفراء ١٦٩/٢ - ١٧٠ .

(٣) لسان العرب ٣٢٤/١٤.

(٤) شرح شافية ابن الحاجب ١٥١/١ ، ١٥٧ .

غير المسموع إلى الغالب[١] .

وقد فات الشارح أنَّ الفراء يصف لنا اختلاف مذهب اللهجتين في القياس عند صياغة المصدر من فَعَل إذا لم يسمع مصدره ولا يقصدالمشهور والأغلب عند النحاة؛ ويدلك على ذلك أن ابن الحاجب قدَّم ذكر الأغلب في متن الشافية قبل أن يذكر قول الفراء وليس في المتن ما يدل على اعتراضه على الفراء[٢] .

وذهب الشريف عبدالله البركاتي في الرَّد على اعتراض الرضي منحىً آخر ؛ إذ قال إنه اعترض على نص أبتر ، واستدل بنص نقله عن المصباح المنير رواه الفارسي ذكر فيه الفراء أن الفَعْل للمتعدي والفُعُول للازم ، وقد يشتركان نحو : عَبَرت النهر عَبْرًا وعُبُورًا ، وسكت سكتا وسكوتًا [٣].

٤ – الفَيْعَال والفَيْعُول :

نقل صاحب اللسان عن الفرّاء قوله : « صورة القَيُّوم من الفعل الفَيْعُول ، وصورة القَيَّام الفَيْعال ، وهما جميعًا مدح ، قال : وأهل الحجاز أكثر شيء قولاً للفَيعال من ذوات الثلاثة مثل الصواغ ، يقولون : الصَّيَّاغ »[٤] .

وقد جاء في معاني القرآن : « حدثنا محمد بن الجهم عن الفراء ﴿ الحيُّ القيُّوم ﴾[٥] قراءة العامة ، وقرأها عمر بن الخطاب وابن مسعود (القيَّام) »[٦] .

ونفهم من النصّين تميُّز لهجة أهل الحجاز بقلب عين فَيْعُول وفعَّال (الواو) ياءً مخالفين بذلك لغة غيرهم ممن يصححها من سائر العرب . ومثل هذا العمل يفسر لنا سبب تعدد الصيغ في بعض الكلمات دون أن ينجم عنه تغيرٌ في المعنى ، وقد رأيت كيف انتقل فَيْعُول إلى فَيْعَال عند أهل الحجاز ، ثم أصبح للكلمة صورتان .

---

(١) شرح الشافية ١/١٥٠ ، ١٥١ . بتصرف .

(٢) ينظر : متن الشافية ١/١٥١ .

(٣) ينظر : النحو والصرف بين التميميين والحجازيين ، د. عبدالله البركاتي (٢٢٠) .

(٤) لسان العرب ١٢/٥٠٤ .

(٥) سورة آل عمران : ٢ .

(٦) معاني القرآن للفراء ١/١٩٠ .

أمّا قولهم في صوّاغ : صيّاغ ، فقد ذكر ابن جني أنهم كرهوا التقاء الواوين -لا سيما فيما كثر استعماله- فأبدلوا الأولى من العينين ياءًا فانتقل من صوّاغ (فعّال) إلى صَيْوَاغ (فَيْعَال) كفَيْدَاق ، فلما التقت الواو والياء على هذه أبدلوا الواو للياء قبلها ، فقالوا (الصَّيَّاغ)[١] .

٥ – جمع أسير :

رُوي في جمع الأسير أربع صورٍ مختلفة وهي أُسَراء (فُعَلاء) ، أُسَارى (فُعَالى) ، أَسَارى (فَعَالى) ، و أَسْرى (فَعْلى) .

وقد علل القدماء للجمع على (فَعْلى) بأن الأسر ليس بعاهة حتى يجمع على فَعْلى ، ولكنه لما أصيب بالأسر صار كالجريح واللديغ ، فكُسِّرَ على فَعْلى كما كُسِّرَ الجريح ونحوه ، وعللوا للجمع على (فُعَالى و فَعَالى) بأنه جمع الجمع، أي : أَسْرى فجعلوه : أسير وأَسْرى وأُسَارى ، أي : جمع الجمع [٢]. ولكن ما القول في أُسَراء على فُعَلاء ؟ .

والذي نراه أنَّ كلَّ صورةٍ من هذه الصور كانت للهجة من اللهجات العربية بحيث نطقت كل لهجة بصورة منها ونطقت الأخرى بالصورة الثانية وهكذا ؛ بدليل أنَّ ابن فارس أورد الخلاف في صور الجمع من بين وجوه اختلاف لغات العرب فقال : « ومنها الاختلاف في صورة الجمع نحو : (أَسْرى) و (أُسَارى) »[٣] . وهذا لا يتعارض مع تعليل العلماء سابق الذكر لأنها – كما يقول ابن فارس – : « وإن كانت لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كُلٌّ »[٤] . فلا يستبعد أن هذا التخصيص والتعليل حدث من قبل العرب أنفسهم بعد انتشارها بين جميع العرب ؛ وأن الذي قام بهذا التصنيف هم شعراؤهم وخطباؤهم في اللغة الأدبية خاصة وهم من المساهمين في وحدتها وظهورها بهذه الصورة . فتلقفها رواة اللّغة ونحاتها وقد

(١) الخصائص ٢/٦٥ ، ٦٨ . بتصرف .

(٢) ينظر : لسان العرب ٤/١٩ .

(٣) الصاحبي (٣٠) .

(٤) المرجع السابق (٣١) .

اكتسبت المعاني التي ذكروها وعللوا لها ولم يفتعلوها من عند أنفسهم كما زعم بعضهم في إنكاره للإعراب[١] .

٦ – تأنيث سكران :

رُوي في مؤنث الصفات المنتهية بألف ونون زائدتين كـ (سكران) ثلاث صور وهي (سَكِرَةُ ، وسَكْرَى ، وسكرانة) ونسبت الأخيرة لبني أسد مما يدل على أن الصورتين السابقتين لغيرها من اللهجات العربية[٢] . والاختلاف في هذه الصيغ ينبئ عن اختلاف اللهجات في قياس اشتقاق المؤنث من سكران .

فبنو أسد اختاروا الطريقة المشهورة في تأنيث الصفات والأسماء في العربية فقاسوا عليها الصفة المنتهية بألف ونون زائدتين فقالوا : سكرانة (أي بزيادة تاء التأنيث على الصفة) ونسب لبني أسد أيضًا : غضبانة وملآنة .

أمَّا اللّهجة التي قالت سَكْرَى في مؤنث سكران فقداختارت الصيغة المشهورة في النعوت للمؤنث ، جاء عن ابن سيده : « إنَّ النعوت للمؤنث تأتي إمَّا بالفتح وإمَّا بالضم ، فالمفتوح مثل : سَكْرَى وعَطْشَى ، والمضموم مثل : أُنْثَى و حُبْلَى »[٣] .

أمَّا من أنَّث سكران على (سَكِرَةُ) فقد ظفر بفائدتين ، إحداهما : اختصار الصيغة بحذف الزيادة (الألف والنون) وإثبات تاء التأنيث للدلالة على صفة الأنوثة. والأخرى : تجنُّب بهذه الصيغة الالتباس الذي في صيغة فَعْلَى لأنها تقع في المؤنث والجمع نحو (أَسْرَى) جمع أسير ، ويقال في جمع سكران : سَكْرَى و سُكَارى .

والأمثلة كثيرة وافرة ، منها : الخلاف في القصر والمدّ نحو كلمة (الزِّنى) بالقصر للحجاز ، وتميم بالمد فيقولون : زِنَاء وما يتبعه من خلاف في النسبة حيث

---

(١) من هؤلاء : إبراهيم أنيس ، فقال : إن الإعراب من عمل النحاة . ينظر قصة الإعراب في كتابه أسرار اللّغة . وقال في كتابه : اللهجات العربية : « إنّ اللّغة النموذجية اتخذت أحوال المثنى من لهجات مختلفة ، ثم خصص النحاة الياء بالنصب والجر ، وحالة الألف بالرفع « (١٤٤) ، وقد خطأه كثير من فقهاء اللغة ، منهم : محمد محمد حسين في فقه اللّغة (٨٧) وما بعدها .

(٢) ينظر لسان العرب ٣٧٢/٤ .

(٣) نقلاً عن لسان العرب في سياق حديث ٣٦٨/٥ .

النسبة إلى المقصور (زِنَويٌّ) وإلى الممدود (زنائيٌّ) ، والخلاف في تصغير ما وسطه واو سواء أصلية أو ملحقة ، نحو : (أسود ، قسور) ، فتميم تقلبها ياءً وتدغمها في ياء التصغير فيقولون : (أُسَيِّد ، قُسَيِّر) ، أمّا سائر العرب فتصحح وتظهر فيقولون : (أُسَيْوِد ، قُسَيْوِر)، ومن ذ لك تصحيح أهل الحجاز لام فُعْلَى في الوصفية تنبيهًا على الأصل، نحو:(القصوى)، وقلبها عند تميم ياء على القياس (القُصْيا)[١].

ب ـ ما يتعلق بتصريف الأفعال :

بين فَعَل وأَفْعَل

من مظاهر الخلاف بين اللّهجات العربية في تصريف الأفعال تلك الكلمات التي رُويت لنا بوزنين ، أحدهما : على (فَعَل) ، والآخر على (أَفْعَل) دون أنْ يكون بينهما اختلاف في المعنى أو التعدية واللزوم وغير ذلك من أغراض الزيادة وتغيُّر الأوزان .

– من ذلك فَتَن وأَفْتَن بمعنى واحد وكلاهما متعد . جاء في اللسان : « وأهل الحجاز يقولون : فَتَنَتْه المرأة ، إذا ولَّهته وأحبها ، وأهل نجد يقولون : أَفْتَنَته ؛ قال أعشى همدان – فجاء باللغتين – :

لئِن فتنتني لَهْيَ بالأمسِ أَفْتَنَتْ سعيدًا ، فأمسى قد قلى كلَّ مُسْلم »[٢] .

فهي عند الحجازيين فَعَل ومضارعها يَفْعُل ، وعند أهل نجد أَفْعَل ومضارعها يَفْعِل ، وقد جاء في المزهر – نقلاً عن الجمهرة – : « وكان الأصمعي يشدد فيه ولا يجيز أكثره مما تكلمت به العرب من فعلت وأفعلت ، وطعن في الأبيات التي قالتها العرب .. »[٣] . وأكثر أهل العلم على خلافه ، جاء في الكتاب : « وقد يجيء فَعَلْت وأَفْعَلت ، المعنى فيهما واحد ، إلا أن اللغتين اختلفتا . زعم ذلك الخليل ، فيجيء به قوم على فعلت ، ويُلحق قوم فيه الألف فيبنونه على أَفْعلت »[٤].

---

(١) للتوسع ينظر : كتاب النحو والصرف بين التميميين والحجازيين ، د . عبدالله البركاتي .

(٢) لسان العرب ٣١٧/١٣ .

(٣) المزهر ٣٢٦/٢ .

(٤) كتاب سيبويه ٦١/٤ .

– ومن ذلك أيضاً : حَزَنَه وأَحْزَنه ، فقد نقل صاحب اللسان عن الجوهري قوله: « حَزَنَه لغة قريش ، وأَحْزَنَه لغة تميم ، وقد قُرئ بهما . وفي الحديث : أنه كان إذا حَزَنه أمر صلَّى ، أي أوقعه في الحُزن » (١).

– وقد تأتي الكلمة بثلاثة أوزان مختلفة والمعنى واحد وجميعها متعدية ، وهي : (فَعَل ، أَفْعَل ، فعّل) في نحو: (جَنَبَه الشيء : إذا نحَّاه عنه). جاء في اللسان : « ويقال : جَنَبْتَه الشَّرَّ وأَجْنَبْتُه وجَنَّبْتَه ، بمعنىً واحد ، قاله الفرَّاء والزَّجَّاج »(٢) .

وبرجوعنا إلى الفراء وجدنا (فَعَل) حجازية ، و (أفعل و فَعَّل) نجدية؛ إذ يقول في تفسير الآية من سورة إبراهيم : ﴿ واجْنُبْنِي وبنيَّ أَنْ نعبد الأصنام ﴾ : «أهل الحجاز يقولون : جَنَبني ، وهي خفيفة . وأهل نجد يقولون : أَجنبني شرَّه وجَنَّبني شرَّه(٣) .

– وقد تنعكس الحالة فتأتي بعض الكلمات على وزن فَعَل في لغة تميم حين تأتي في لغة عامة العرب على أَفْعَل ، من ذلك جَبَره وأَجْبَره بمعنى أكرهه . جاء في اللسان : « وجبر الرجلَ على الأمر يَجْبُرُه جبراً وجُبُوراً وأجبره : أكرهه ، والأخيرة أعلى . وقال اللحيانيُّ : « جبره لغة تميم وحدها ؛ قال : وعامة العرب يقولون : أَجْبَرَه »(٤) .

بين التعدِّي واللزوم

ونقصد به تلك الأفعال التي رُويت عن بعض اللهجات متعدية بنفسها في حين رُويت عن لهجات أخرى لازمة أو متعدية بغيرها ، من ذلك ما جاء في اللسان في مادة (هدى) : « وقال بعضهم : هداه اللّهُ الطريقَ ، وهي لغة أهل الحجاز ، وهداه للطَّريق ، وإلى الطريقِ هدايةً ، وهداه يَهْدِيه هدايةً: إذا دلَّه على الطريق . وهديته الطَّريقَ والبيت هِدَايةً ، أيْ : عرفَّته ، لغة أهل الحجاز ، وغيرهم يقول : هديته إلى

(١) لسان العرب لابن منظور ١٣/١١١ .
(٢) المرجع السابق ١/٢٧٨ .
(٣) معاني القرآن للفراء ٢/٧٨ .
(٤) لسان العرب ٤/١١٦ .

الطريق وإلى الدار ؛ حكاها الأخفش »(١) .

ومن المعروف أن المتعدي إلى مفعول واحد يكون بحكم اللازم بالنسبة للمتعدي لمفعولين . فتعدى (هدى) في لغة أهل الحجاز إلى مفعولين بنفسه بينما يتعدى في لغة غيرهم إلى مفعول واحد فقط ولذلك عدَّوه إلى المفعول الثاني بحرف الجر ، وقد نقل ابن منظور عن ابن بري كلاماً يفهم منه أنَّ القياس المستقل أو تفسير معنى (هدى) عند كلِّ فريق هو المُعوَّل عليه في هذا الاختلاف . قال ابن بري : « يقال : هديته الطريق بمعنى عرَّفته فيعدَّى إلى مفعولين ، ويقال : هديته إلى الطريق وللطريق على معنى أرشَدته إليها فيعدى بحرف الجر كأرْشَدْتُ » (٢) . ومن المعروف أن اللازم يتعدى إذا ضُمِّنَ معنى المتعدِّي وعكسه (٣).

ومن ذلك أيضاً : (كال و وزن) حيث جاءت في لغة أهل الحجاز متعدية وفي لغة غيرهم لازمة وقد جاء عن الفراء في تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ ﴾ : « الهاء في موضع نصب ، تقول : قد كِلتك طعاماً كثيرا ، وكِلْتني مثله . تريد كِلتَ لي و كِلت لك ، وسمعتُ أعرابية تقول إذا صدر الناس أتينا التاجر ، فيكيلنا المدَّ والمُدَّين إلى الموسم المقبل ، فهذا شاهد ، وهو من كلام أهل الحجاز ، ومن جاورهم من قيس » (٤).

بين فعّل وفاعل

من المشهور في فعّل أن يأتي للتكثير نحو : قَطَّعْتُ و غَلَّقْتُ ، والأمر منه قَطِّع و غَلِّق ، والمشهور في فاعل أن يأتي للمشاركة نحو : شَارَكتُهُ و ضَارَبْتُه ، والأمر منه شَارِك و ضَارِب(٥) .

---

(١) لسان العرب ١٥/٣٥٥ .

(٢) نقلاً عن المرجع السابق .

(٣) هذا أحد أسباب تعدي اللازم ولزوم المتعدي ؛ وهناك أسباب أخرى كزيادة الهمزة وتضعيف العين وزيادة ألف المفاعلة ، ويصبح المتعدي لازماً إذا ضمن معنى اللازم أو في الضرورة ونحوه وهي سماعية .

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٥) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب ١/٩٢ ، ٩٦ .

والعجيب في الأمر أن بعض الأفعال رُويت لنا بكلا الوزنين والمعنى واحد . من ذلك ما روته لنا كتب القراءات من اختلافهم في قراءة قوله تعالى : ﴿ولا تُصعِّر خدك﴾ ، كذلك قرأها ابن كثير وأبو جعفر وابن عامر وعاصم ويعقوب (بتشديد العين من غير ألف) وقرأها الباقون بتخفيفها وألف قبلها (ولا تصاعر)[١] .

واختلفوا في قراءة ﴿ربنا باعد﴾ ، فقرأ يعقوب برفع الباء من (ربُّنا) وفتح العين والدال وألف قبل العين ، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو وهشام بنصب الباء وكسر العين مشددة من غير ألف مع إسكان الدال ، وقرأ الباقون كذلك إلا أنهم بالألف وتخفيف العين[٢] . فالخلاف بين قراءة ابن كثير وأبي عمرو وهشام مع الباقين هو في الوزن فقط والمعنى واحد .

وقد جاء عن أبي علي في الحجة أنه قد يأتي هذان الوزنان والمعنى واحد ورجعه على معنى الطلب والدعاء ، [illegible] مجرى اللغتين فيهما [٣].

بين استحى واستحيا

جاء في اللسان : « وقال الأخفش : استحى بياء واحدة لغة تميم ، وبياءين لغة أهل الحجاز ، وهو الأصل ، لأنّ ما كان موضع لامه معتلاً لم يعلوُّا عينه ، ألا ترى أنهم قالوا : أحييت وحويتُ ؟ ويقولون : قُلْتُ ، بِعتُ ، فيعلوُّن العين لما لم تعلَّ اللامُ ، وإنما حذفوا الياء لكثرة استعمالهم لهذه الكلمة، كما قالوا: لا أدرِ في لا أدري »[٤]. فهي في لغة الحجازيين على وزن (اسْتَفْعَل) وفي لهجة التميميين (اسْتَفَل أو اسْتَفَع) ، بتحريك الحاء وحذف إحدى الياءين كما يقول الرضي . وقد اختلف

---

(١) النشر ٣٤٦/٢ . بتصرف .

(٢) النشر ٣٥٠/٢ .

(٣) ينظر : الحُجَّة للقرّاء للسبعة ١٩/٦ ، أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي . تحقيق بدر الدين قهوجي وبشير جويجاتي ، دار المأمون للتراث ط(٢) ١٤١٣هـ .

(٤) لسان العرب ٢١٩/١٤ .

العلماء في تعيين المحذوف في اسْتَحى – على لهجة تميم – على النحو التالي :

١ – منهم من أجاز أن يكون المحذوف عين الفعل أو لامه . فتحذف اللام لتطرفها والأطراف محل تغيير فنقلت حركة الياء (عين الكلمة) إلى الحاء قبلها (فاء الكلمة) وسكنت الياء . وتحذف العين إذا نُقلت حركتها إلى الفاء فالتقى ساكنان الياء التي هي عين الكلمة مع لامها[١] .

٢ – ومنهم من قال بأن المحذوف هو عين الكلمة وليس اللام ولكنهم اختلفوا في سبب الحذف فقال الخليل : إن العين حذفت لالتقاء الساكنين تحركت العين من حَييَ وفتح ما قبلها فقلبت ألفًا فصارت حاى مثل باع ، ثم حذفت حركة الياء إذ لم يوجد في كلامهم لام الماضي ياء متحركة ساكنًا ما قبلها ، فالتقى ساكنان فحذفت أولاهما . وضعفه الرضي لما فيه من ارتكابات مكروهة .

وذهب المازني إلى أن الحذف في العين لكثرة الاستعمال كما حُذف أوَّل المثلين في نحو : أحْسَسْت ، فقالوا : أحَسْت ، نقلوا حركة العين الأولى وحذفوها[٢] .

الأجوف بين التصحيح والإعلال

صحَّح الحجازيون عين الماضي والمضارع الواوية واليائية فقالوا : صَيِدَ يَصْيَد والأصيد هو الذي يرفع رأسه كِبرًا أو الذي لا يستطيع الالتفات من وراء ، وعَوِر يَعْوَر ؛ في حين أعلها غيرهم من العرب .

جاء في اللسان عن الليث :« وأهل الحجاز يثبتون الياء والواو نحو صَيِدَ وعَوِر، وغيرهم يقول : صادَ يصَاد ، وعار يعار »[٣] .

---

(١) من هؤلاء أبو حيان ، وانظر ما نقله عنه السيوطي في الأشباه والنظائر في النحو ٤٩/١ . ومنهم الرضي قال : (ولغة تميم اسْتَحِى يسْتَحِي ، بتحريك الحاء وحذف إحدى اليائين) ولكنه ضعَّف رأي الخليل – وسيأتي ذكره – . ينظر : (شرح شافية ابن الحاجب) ١١٩/٣ .

(٢) شرح شافية ابن الحاجب ١١٩/٣ . بتصرف .

(٣) لسان العرب ٢٦٢/٣ .

الخلاف في اختيار الباب لبعض الأفعال

إنَّ مجئ بعض الأفعال على غير باب واختلاف تصريفها هو نتيجة اختلاف اللهجات العربية في اختيار الباب لمثل هذه الأفعال وإخراجها بمقتضاه .

وقد يخضع هذا الاختيار لأسباب صوتية أو القياس الخاص لهذه اللهجة أو تلك، ومن ثم تحدث المخالفة عند تصريف هذه الأفعال لإفادة الزمان التي يرى ابن جني أنها واجبة إذ يقول : « وذلك أنه قد دلّت الدلالة على وجوب مخالفة صيغة الماضي لصيغة المضارع ، إذ الغرض في صيغ هذه المُثُل إنما هو لإفادة الأزمنة ، فجُعِل لكل زمان مثال مخالف لصاحبه ، وكلّما ازداد الخلاف كانت في ذلك قوة الدلالة على الزمان »[١] ، ويكثر حدوث ذلك[٢] في الأفعال الثلاثية لخفتها وكثرة تصرف العرب فيها ، يدلك على ذلك أنّ المعوَّل عليه في أبواب مضارع الثلاثي السماع ، مثلها في ذلك مصادر الثلاثي من الأفعال وجموعه من الأسماء ، فلا يعتمد في معرفتها على قاعدة معيَّنة أو ضابط مطَّرد .

من ذلك ما ذكره عبدالله البركاتي تحت عنوان (تصاريف بعض الأفعال) حيث ذكر أن الحجازيين جاءوا بالفعل (فرغ) على باب (نَصَر) فقالوا : فَرَغ يَفْرُغ فُرُغًا ، في حين جاءت به تميم على باب (فرح) فقالوا : فَرِغ يَفْرَغُ فرَاغًا .

وكذلك مجئ الفعل (حَرَص) عند الحجازيين على باب (ضرب) فقالوا : حَرَص يَحْرِص ، وفي لغةٍ أخرى جاء على باب (فَرِح) فتقول : (حَرِصَ يَحْرَص) ، وكذا : عَرَش يَعْرِش من باب (ضرب) عند الحجازيين ، وفي لغةٍ أخرى جاءت على باب (نصر) فقالوا : يَعْرُش ، وكذا الفعل (رَكِنَ يَرْكَن) من باب (فَرِحَ) عند الحجازيين وعند القيسيين والتميميين من باب : نصر (رَكَن يَرْكُن) ، ثم علق على من قَدّم اللّغة الحجازية بأن كلا الاستعمالين جائز ويعضده القياس إلاّ أن كل فريق استعمل الفعل من باب ورضي أن يكون التقديم لكثرة الاستعمال والشيوع[٣] .

---

(١) الخصائص ١/٣٧٥ .

(٢) (مجيء بعض الأفعال على أكثر من باب) .

(٣) النحو والصرف بين التميميين والحجازيين (٣٠٨ - ٣١١) . بتصرف .

ومن ذلك أيضاً المادة التي بنى ابن جني عليها باب تركُّب اللّغات وملخصه أنه يرى أن الفعل نَعم (من النعومة) (نَعِمَ يَنْعَم) في لغةٍ ما ؛ وفي لغة أخرى (نَعُمَ يَنْعُم) ثم تداخلت اللغتان ، فاستضاف من يقول : نَعِم لغة من يقول يَنْعُم ، فحدثت هناك لغة ثالثة[١] . أي (نَعِمَ يَنْعُم)، وهنا تداخلت لغتان ، الماضي من لهجة والمضارع من لهجة أخرى فتركب منهما لغة ثالثة .

ومجمل القول إن الخلاف بين اللهجات العربية في المظهر الصرفي من الكثرة بمكان بحيث يتعذر معها استقصاؤه في هذا المقام ، وحسبنا من ذلك ما قدمناه لأن الغرض هو الإشارة والتمثيل ، أمّا الاستقصاء فيحتاج إلى مجهود عدّة دارسين ، كما يحتاج إلى عدّة دراسات في هذا المجال ، وقد بدأ بهذه السنة الدكتور عبدالله البركاتي في كتابه (النحو والصرف بين التميميين والحجازيين) فأتى بثمان وثلاثين مسألة صرفية اختلفتا فيها مع تقاربهما فما بالك بسائر اللهجات العربية الأخرى شمالها وجنوبها .

---

(١) ينظر : الخصائص ٣٧٨/١ .

الفصل الثالث
المظهـــر النحـــوي

الفصل الثالث
المظهـــر النحــــوي

ومن مظاهر الخلاف بين اللهجات العربية المظهر النحوي والإعرابي (التراكيب) الذي يعول عليه في تفسير العلاقات بين عناصر الجملة العربية ، ويربط بين أجزائها، والذي يُعتبر مرادفًا للبنية في التعبير عن المعاني ، فإذا كانت البنية تهدي إلى معنى الكلمة في نفسها قبل التركيب فإن الإعراب يهدي إلى أحوالها بعد التركيب ويكشف عن علاقتها بغيرها وعلاقة غيرها بها .

فحدث الخلاف بين اللهجات العربية في عمل بعض الأدوات النحوية وإعراب بعض الكلمات منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ – إعمال (ما) عمل (ليس) :

أعمل الحجازيون أداة النفي(ما) عمل(ليس) في الجملة الاسمية –في بعض المواضع – فرفعوا بها الاسم اسمًا لها ونصبوا بها الخبر خبرًا لها ، أمَّا التميميون فلا يعملونها في شيء .

وقد جاء في الكتاب : « هذا باب ما أجرِيَ مُجْرَى لَيْسَ في بعض المواضع بلغة أهل الحجاز ، ثم يَصيرُ إلى أصله وذلك الحرف (ما) . تقول : ما عبدُ اللّه أخاك ، وما زيدُ منطلقًا . وأمّا بنو تميم فيجرونها مجرى أمَّا وهَلْ ، أي لا يعملونها في شيء وهو القياس ، لأنه ليس بفعلٍ وليس (ما) كـ (ليس) ، ولا يكون فيها إضمار . وأمّا أهل الحجاز فيشبهونها بـ (ليس) إذ كان معناها كمعناها »[١] . ويقصد بقوله (إذ كان معناها كمعناها) : شبه (ما) بـ (ليس) في نفي الحال عند الإطلاق ، ووجه حكمه على اللّغة التميمية بالقياس في عدم إعمالها هو عدم اختصاصها إذ تدخل على الجملة الاسمية والفعلية وما لا يختص حقه ألاَّ يعمل . وقد جاء القرآن

(١) الكتاب لسيبويه ٥٧/١ .

بلغة أهل الحجاز في إعمالها ، قال تعالى : ﴿ ما هذا بشرًا ﴾ (١) ﴿ ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِم ﴾ (٢) ، واشترط النحاة لعملها في لغة الحجازيين ستة شروط وهــي : ألاَّ يُزاد بعدها إنْ ، وألاَّ ينتقض النَّفي بإلا ، وألاَّ يتقدم خبرها على اسمها وهو غير ظرف أو جار ومجرور وفيه خلاف ، وألاَّ يتقدم معمول الخبر على الاسم وهو غير ظرف ولا جار ومجرور وفيه خلاف أيضًا ، وألاَّ تتكرر (ما) ، ألاَّ يبدل من خبرها موجب ، فإن وقع من ذلك شيء استوت اللغتان(٣) .

٢ – (ليتما) بين الإعمال والإهمال :

(ليت) من أخوات (إنَّ) المختصة بالجملة الاسمية تنصب المبتدأ اسمًا لها وترفع الخبر خبرًا لها فإذا دخلت (ما) عليها كفَّتها عن العمل سوى (ليت) فإنه يجوز فيها الإعمال والإهمال في حال دخولها عليها ، فنقول (ليتما زيدًا قائم) و (ليتما زيدٌ قائمٌ) ، وهي من اللغات غير المنسوبة إلا أن إعمالها وإهمالها مسموع عن العرب . من ذلك ما جاء عن ابن جني في (ليتما) : « ألا ترى أن بعضهم يركِّبهما جميعًا (أي يركب ليت و ما) ، فيسلُب بذلك عملها ، وبعضهم يلغي (ما) عنها فَيُقِرُّ عملها عليها : فمن ضمَّ (ما) إلى (ليت) وكفّها بها عن عملها ألحقها بأخواتها : مِن (كأنَّ) و (لعلّ) و (لكنَّ) .. ومن ألغى (ما) عنها وأقرّ عملها، جعلها كحرف الجرِّ في إلغاءِ(ما) معه؛ نحو قوله تعالى:﴿ فبما نَقْضِهِم مِيثاقهم ﴾ ، وقوله : ﴿ عما قليل ﴾ ، و ﴿ مما خطيئاتِهم ﴾ ونحو ذلك ، وفصل بينهما وبين (كأنَّ) و (لعلّ) بأنها أشبه بالفعل منهما ، ألا تراها مفردة وهما مركَّبتان ؟ ؛ لأن الكاف زائدة واللام زائدة »(٤) .

---

(١) سورة يوسف : ٣١ .

(٢) سورة المجادلة : ٢ .

(٣) ينظر : شرح بن عقيل على ألفية بن مالك ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد (١/ ٢٨٠ وما بعدها) .

(٤) الخصائص ١/ ١٦٨ .

٣ - (عسى) بين الإضمار فيها والتجريد :

(عسى) من أفعال المقاربة التي تدل على الرجاء وتكون تامة وناقصة ، أمّا الناقصة فهي التي تعمل عمل (كان) الناقصة فترفع المبتدأ اسمًا وتنصب الخبر خبرًا لها ، إلاّ أن خبر (عسى) يكون فعلاً مضارعًا مسبوقًا بـ (أن) ، وقلّما يأتي مجردًا وجاء في الشعر . وقد سُمع خبرها اسمًا نحو المثل المشهور (عسى الغويرُ أبؤسا) ، وليس هذا موضع الخلاف بين العرب .

أمّا التّامة فهي المسندة إلى أنْ والفعل ويكون في موضع رفع فاعل بـ(عسى) استغنت به عن المنصوب الذي هو خبرها نحو : (عسى أن يقومَ) .

وهنا يقع الخلاف إن سُبقت باسم نحو : (زيدٌ عسى أن يقومَ) حيث تقدر اللّغة التميمية فيها ضميرًا يعود على الاسم السابق ويعرب اسمًا لها ، وتصبح (أنْ والفعل) في موضع نصب بـ (عسى) ، وبهذا الإضمار تصبح (عسى) عند التميميين ناقصة . أمّا الحجازيون فيجردونها من الضمير ويصبح (أن يقومَ) في موضع رفع بـ (عسى) ، فتكون عند الحجازيين تامّة . ويظهر هذا الخلاف جليًا في التثنية والجمع والتأنيث على النحو التالي :

(عسى) عند التميميين ناقصة مُضْمرُ فيها	(عسى) عند الحجازيين تامّة مجردة
هند عسـتْ أن تقـوم	هند عسى أن تقـومَ
الزيدانِ عسـيا أن يقومـا	الزيدان عسى أن يقـوما
الزيدونَ عسوا أنْ يقومـوا	الذيدون عسى أن يقوموا
الهندانِ عستا أن تقـوما	الهندان عسى أن تقـوما
الهنداتُ عَسَيْنَ أن يَقُمْنَ	الهندات عسى أن يقمـن

ويبدو أن تجريد (عسى) من الضمير هو الأفصح وعليه جاء القرآن في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ﴾ (١) ، وقـد جاء عن أبي حيان قولـه :

---

(١) سورة الحجرات : ١١ .

« وقرأ عبدالله وأبي : عسوا أن يكونوا ، وعسين أن يكن ، فـ (عسى) ناقصة ، والجمهور : (عسى) فيهما تامّة ، وهي لغتان : الإضمار لغة تميم ، وتركه لغة الحجاز »[١] .

وقد وقع بين النحاة خلاف حول تمام (عسى) أو نقصها عند توسط الخبر بين (عسى) واسمها رجعه عبدالله البركاتي إلى خلاف اللهجات باعتبار أن تقدير التميميين في (عسى) ضميرًا يحرمهم من استعمالها تامّة فوافق ذلك تجويز المبرد والسيرافي والفارسي ظهور الضمير في نحو : (عسى أن يقوما الزيدان) ، أي : ألف المثنى في (يقوما) وإعرابه فاعلاً لـ (يقوم) ، ويُرفع الاسم الظاهر بعده اسمًا لـ (عسى) مؤخرًا ، و (أن يقوما) في موضع نصب خبرًا لـ (عسى) مقدمًا فتكون بذلك ناقصة ، في حين منع أبو علي الشلوبين ظهور الضمير نحو : (أن يقوما) لأنه رفع الاسم الظاهر بعده ، و (عسى) عنده تامّة فتقول: (عسى أن يقوم الزيدان)، و (أن يقوم) في محل رفع فاعل لـ (عسى) التامّة ، وهذا يوافق المذهب الحجازي ، ولذلك رجع البركاتي اختلاف النحاة فيها إلى اختلاف اللهجات[٢].

٤ - الاستثناء المنقطع :

ويطلق على المستثنى عندما لا يكون بعضًا من المستثنى منه ، وهو مما وقع في إعرابه خلاف بين الحجازيين والتميميين ، فنصبه الحجازيون على الاستثناء وهو الوجه فيه لأنه ليس من نوع الأول ، وأتبعه التميميون .

وقد جاء في الكتاب : « هذا باب يختار فيه النصب لأن الآخِر ليس من نوع الأول وهو لغة أهل الحجاز ، وذلك قولك : ما فيها أحدٌ إلاَّ حمارًا ، جاءوا به على معنى ولكنّ حمارًا ، وكرِهوا أن يَبدِلوا الآخِر من الأوَّل ، فيصيرَ كأنه من نوعه ، فحُمل على معنى ولكِنَّ ، وعمل فيه ما قبله كعمل العشرين في الدرهم .

وأمَّا بنو تميم فيقولون : لا أحد فيها إلاَّ حمارٌ ، أرادوا : ليس فيها إلاّ حمارٌ ،

---

(١) البحر المحيط ٥١٧/٩ .

(٢) قارن النحو والصرف بين التميميين والحجازيين (٨٨ ، ٨٩) مع شرح ابن عقيل ٣١٤/١ .

ولكنَّه ذكر أحدًا توكيدًا لأنه يُعلم أنْ ليس فيها آدميٌّ ، ثم أبدلَ فكأنه قال : ليس فيها إلاَّ حمارٌ »[١] .

وقد جاء في شرح ابن عقيل ما يشير إلى أن اللّغة التميمية خالفت في ذلك جمهور العرب إذ يقول : « وإن كان الاستثناء منقطعًا تعيَّن النصب عند جمهور العرب ، فتقول : (ما قام القوم إلاَّ حمارًا) ولا يجوز الإتباع ، وأجازه بنو تميم فتقول : (ما قام القومُ إلاّ حمارٌ ، وما ضربتُ القومَ إلا حمارًا ، وما مررت بالقومِ إلا حمارٍ) وهذا هو المراد بقوله – ابن مالك – :

... وانصب ما انقطع وعن تميم فيه إبدالٌ وقع »[٢] .

وأود هنا أن أسجل ملاحظتي على قول سيبويه : « وكرهوا أن يبدلوا الآخِر من الأول فيصيرَ كأنه من نوعه » وهي أن العرب اعتمدت في التفريق بين نوع المستثنى والمستثنى منه بتغيير الحركة الإعرابية وجعل المستثنى المنقطع منصوبًا دائمًا دلالةً على هذا المعنى ، ويؤيد ذلك قوله في تعليل اختيار النصب : « لأنَّ الآخِر ليس من نوع الأوَّل » . واللّه أعلم .

٥ – ضمير الفصل :

يأتي ضمير الفصل مع المعرفة للتأكيد ولا يكون له محلٌّ من الإعراب وذلك في نحو : (أظُنُّ زيدًا هو خيرًا منك) أو كما يقول سيبويه : « فصار هو وأخواتُها هنا بمنزلة (ما) إذا كانت لغوًا ، في أنَّها لا تغيِّر ما بعدها عن حاله قبل أن تُذكر »[٣].

إلاّ أن بعض العرب جعلوا لضمير الفصل محلاً من الإعراب فجعلوه بمنزلة اسم مبتدأ ورفعوا ما بعده خبرًا له ؛ فقالوا : (أظُنُّ زيدًا هو خيرُ منك) فأعربوا ضمير الفصل (هو) مبتدأ و (خير) خبر له .

قال سيبويه في ذلك : « وقد جعل ناسٌ كثير من العرب هو وأخواتها في هذا الباب بمنزلة اسمٍ مبتدأ وما بعده مبنيٌّ عليه ، فكأنك تقول: أظن زيدًا أبوه خير منه.

---

(١) الكتاب ٢/٣١٩ .

(٢) شرح ابن عقيل ١/٥٤٥ .

(٣) الكتاب ٢/٣٩١ .

فمن ذلك أنَّه بلغنا أن رؤبة كان يقول : أظن زيدًا هو خيرُ منك .

وحدثنا عيسى أن ناسًا كثيرًا يقرءونها :(وما ظَلَمْناهُم ولكن كَانُوا هُم الظَّالِمين) (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمون) . وقال الشاعر – قيس بن ذريح – :

تُبَكِّي على لبنى وأنتَ تركتَها وكنتَ عليها بالمَلاَ أنتَ أقدرُ [١]

(الشاهد فيه استعمال « أنت » مبتدأ ، ورفع « أقدرُ » على أنه خبر) .

وقد نقل أبو حيان عن أبي عمر الجرمي نسبة هذه اللهجة إذ قال : « وذكر أبو عمر الجرمي : أن لغة تميم جعل ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ ، ويرفعون ما بعده على الخبر . ونقل عن أبي زيد قوله سمعتهم يقرءون : (تجدوه عند الله هو خير وأعظم أجرًا) ، يعني : برفع خير وأعظم »[٢] .

٦ – تمييز (كم) الخبرية :

أكثر العرب يكسرون تمييز (كم) الخبرية على إضافة (كم) عليها مع إضمار (مِن) ، إلاّ قبيلة تميم تنصبه بها .

قال سيبويه : « واعلم أنَّ (كَمْ) في الخبر بمنزلة اسمٍ يتصرَّفُ في الكلام غير منون ، يَجرّ ما بعده إذا أسقط التنوين ، وذلك الاسمُ نحو مائتي درهمٍ ، فانجرَّ الدرهم لأن التنوين ذهب ودخل فيما قبله ، والمعنى معنى رُبَّ ، وذلك قولك : كم غلامٍ لك قد ذهب ... واعلم أنّ ناسًا من العرب يُعمِلُونَها فيما بعدها في الخبر كما يعملونها في الاستفهام ، فينصبون بها كأنَّها اسمٌ منون ... وبعض العرب يُنشِد قول الفرزدق :

كم عَمْةً لك يا جريرُ وخالةً فَدْعاءَ قد حَلَبَتْ عليَّ عِشاري

وهم كثيرُ ، فمنهم الفرزدق والبيتُ له .

وقد قال بعضُهم : كم على كلِّ حال منوّنة ، ولكن الذين جرُّوا في الخبر أضمروا مِنْ كما جاز لهم أن يضمروا رُبّ »[٣] .

---

(١) الكتاب ٢/٣٩٢ .

(٢) البحر المحيط ٩/٣٨٨ – ٣٨٩ .

(٣) الكتاب ٢/١٦١ – ١٦٢ .

الشاهد في البيت نصب تمييز (كم) الخبرية ، وهو يصف نساء جرير بأنَّهن راعيات له يَحْلِبن عليه عشاره من الإبل. وقد جاء في المغني نسبة النصب لتمييز(كم) الخبرية إلى تميم بقوله : « وزعم قوم أن لغة تميم جواز نصب تمييز (كم) الخبرية إذا كان الخبر مفردًا »[١] .

٧ – اللغات في إعراب (أب ، أخ ، حمٌ) :

من مظاهر الخلاف الإعرابي بين اللهجات العربية الخلاف في إعراب هذه الأسماء من الأسماء الستة حيث رُوي لنا إعرابها بثلاث لغات وهي[٢] :

١ – إعرابها بالحروف نيابة عن الحركات وهو المشهور وعليه أكثر العرب . فترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء في حال إضافتها إلى غير ياء المتكلم مكبرةً مفردةً ، فتقول : (جاء أبوه ، ورأيت أباه ، ومررت بأبيه) .

٢ – إعرابها بالحركات (النَّقْصُ وهو حذف الواو والألف والياء) وهو نادر قليل . فترفع بالضمة الظاهرة وتنصب بالفتحة وتُجر بالكسرة . نحو (هذا أبُهُ وأخُهُ وحَمُها ، ورأيت أبَهُ و أخَهُ و حَمَها ، ومررتُ بأبِهِ وأخِهِ و حَمِها) وعليه قوله :

بأَبِهِ اقْتَدَى عَدِيٌّ في الكَرَمْ وَمَنْ يُشابِهْ أَبَهُ فما ظَلَمْ

٣ – إعرابها بالألف مطلقًا (حركة مقدرة على الألف) وهي أشهر من النقص ، فترفع وتنصب وتجر بالألف نحو : (هذا أباهُ وأخاهُ وحَمَاهَا ، ورأيت أَبَاهُ وأَخَاهُ وحَمَاها ، ومررت بأَبَاهُ وأَخَاهُ وحَمَاهَا) وعليه قول الشاعر :

إن أَبَاهَا وَأَبا أباهَا قد بلغا في المجد غايَتاها

وقد قال عنها محمد محيي الدين عبد الحميد : « هذه لغة قوم بأعيانهم من العرب واشتهرت نسبتها إلى بني الحرث وخثعم وزبيد ، وكلهم ممن يُلزِمون المثنى الألف في أحواله كلها ، وقد تكلم بها في الموضعين النبي صلى اللّه عليه وسلم وذلك في قوله : « ما صنع أبا جهل » ، وقوله : « لا وتران في ليلة » ، وعلى هذه اللّغة قال أبو حنيفة : « لا قود في مثقل ولو ضربه بأبا قبيس »[٣] .

---

(١) مغني اللبيب لابن هشام ١/١٨٥ .

(٢) نقلاً عن شرح ابن عقيل بتصرف (٥١ وما بعدها) .

(٣) شرح ابن عقيل ١/٥٤ حاشية (١) .

٨ – (هَـلُـمَّ) :

اسم فعل أمر بمعنى : ائتِ و تعال ، وهي مركبة عند الخليل من (ها) التنبيه والفعل (لُـمَّ)، أي: لُـمَّ بنا ؛ ثم كثر استعمالها فحذفت الألف تخفيفًا فصارت (هلُمَّ)، وعند الفراء مركبة من (هل) زجر وحثّ ، دخلت على (أمَّ): كأنها كانت (هل أمَّ) أي : اعْجَل واقصد ، فأُلزمت الهمزة في (أم) التخفيف فقيل : هَـلُمَّ [١].

وبيت القصيد أن أهل الحجاز يلزمونها صورة واحدة في الواحد والاثنين والجمع وفي التأنيث فيقولون : هَلُمَّ يا رجل ، و هَلُمَّ يا امرأة ، وهَلُمَّ يا رجلان ويا امرأتان ، وهَلُمَّ يا رجال ويا نساء . فلا يظهرون فيها علامة المضمر وهو القياس[٢].

أما بنو تميم فإنَّهم يجعلونها بمنزلة الفعل المضاعف المتصرف (لُـمَّ) ويُجرُونها مجراه ، فيغيرونها بقدر المخاطب ، قال ابن جني فيقولون : هلمَّ ، وهلمَّا ، وهلمِّي، وهلُّموا ، وهَلْمُمْنَ يا نسوة . وأعلى اللغتين الحجازية ، وبها نزل القرآن ؛ ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ والقائِلِين لإخوانِهم هَلُمَّ إلينا ﴾ ، وحتى لا يتصور القارئ أنها فعلٌ عند التميميين يستطرد ابن جني فيقول : « وأما التميميون فإنها عندهم أيضًا اسم سمّى به الفعل ، وليست مبقاة على ما كانت عليه قبل التركيب والضم . يدلّ على ذلك أن بني تميم يختلفون في آخر الأمر من المضاعف ، فمنهم من يتبع فيقول : مُدُّ وفَرِّ وعَضَّ ، ومنهم من يكسر ، فيقول : مُدِّ وفِرِّ وعَضِّ ، ومنهم من يفتح لالتقاء الساكنين فيقول : مُدَّ و فِرَّ وعَضَّ ، ثم رأيناهم كلهم مع هذا مجتمعين على فتح آخر (هلمَّ) ، وليس أحد يكسر الميم أو يضمُّها . فدل على أنها قد خُلِجت عن طريق الفعلية وأُخلِصت اسمًا للفعل .. »[٣] .

فهاتان طريقتان مختلفتان في التعامل مع اسم الفعل (هَلُمَّ) عند كلٍّ من الحجازيين والتميميين .

---

(١) نقلاً عن الخصائص ٣/٣٥ ، ٣٦ . بتصرف .

(٢) ينظر : الكتاب ١/٢٤٢ .

(٣) الخصائص ٣/٣٦ ، ٣٧ .

٩ – (المثنّى) :

المشهور في إعراب المثنى وما يلحق به أن يرفع بالألف ويُنصب ويُجر ّ بالياء ، وعليه أكثر العرب إلاّ أن بعض القبائل العربية التزمت الألف في المثنى رفعًا ونصبًا وجرًا ، وعلى لغتهم جاء قوله تعالى: ﴿ إنَّ هذان لساحران ﴾[1] اختاره أبو حيان ، قال : « والذي نختاره في تخريج هذه القراءة أنها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثنى بالألف دئمًا وهي لغة لكنانة ، حكى ذلك أبو الخطاب ، ولبني الحارث بن كعب وخثعم وزبيد وأهل تلك الناحية ، حُكي ذلك عن الكسائي ، ولبني العنبر وبني الهجيم ومراد وعذرة . وقال أبو زيد : سمعت من العرب من يقلب كل ياء ينفتح ما قبلها ألفًا »[2] .

وفي حديث أبي زيد تعليل لعملهم هذا ، وقد استفاده من الخليل بن أحمد ، قال ابن جني : « أخبرنا أبو علي عن أبي بكر عن أبي العباس عن أبي عثمان عن أبي زيد قال : سألت خليلاً عن الذين قالوا : مررت بأخواك ، وضربت أخواك ، فقال : هؤلاء قولهم على قياس الذين قالوا في : ييأس : ياء س ؛ أبدلوا الياء لانفتاح ما قبلها »[3] .

وحتى لا يُخطئ القارئ في فهم قول الخليل فيعتقد بأنّ التزام الألف في المثنى هو القياس ، قال ابن جني : « ونحن نعلم أيضًا أن القياس مقتضٍ لصحّة لغة الكافّة ، وهي الياء في موضع الجرّ والنصب ، ألا ترى أنّ في ذلك فرقًا بين المرفوع وبينهما ، وهذا هو القياس في التثنية ، كما كان موجودًا في الواحد ، وكيف يكون القياس أن تجتمع أوجه الإعراب الثلاثة على صورة واحدة ! .. »[4] .

وقد نسب ابن جني التزام الألف في الأحوال الثلاثة إلى بني الحرث بن كعب ، وبطن من ربيعة قال : وأنشدوا في ذلك :

---

(١) سورة طه : ٦٣ .

(٢) البحر المحيط ٣٥٠/٧ .

(٣) الخصائص ١٤/٢ .

(٤) المرجع السابق ١٥/٢ .

تزوَّدَ منا بين أُذناهُ طعنــــــــةً   دعته إلى هابي الترابِ عقيـمِ

وقال الآخر :

فأطرق إطراق الشُّجاع ولو يـرى   مساغًا لِناباه الشجاعُ لَصَمَّما

(يريد : نابيه ، الشجاع : الحية الذكر ، المساغ : المدخل ، صمم : عضّ ونيّب فلم يرسل ما عض) ، وقال الآخر :

أعرف منها الجيد والعَيْنِانا   ومَنْخِرَينَ أَشْبَها ظَبْيــانا

يريد : العينين ، ثم إنه جاء بالمنخرين على اللّغة الفاشية ، وروينا عن قطرب:

هِيّاك أن تُمْنَى بشعشــعانِ   خبٍّ الفؤاد مائلِ اليــدانِ

(هيّاك : إياك) ، وقال الآخر :

إن أباهــــا وأبا أباهـــــا   قد بلَغَا في المجد غايتاها

وفيها : * واشدُد بمَثْنَى حَقَبٍ حقواها *[١]

(الحقب : حبل يُشد به الرحل إلى بطن البعير . الحقو : الخاصرة) .

١٠ – مطابقة الفعل والفاعل أو نائبه :

المشهور في العربية أن الفعل المتقدم على فاعله لا يطابقه تثنيةً وجمعًا وإنما هو مفرد على كلِّ حال ، وتحصل المطابقة في التذكير والتأنيث، وذلك نحو: (قال الرجل، قال الرجلان ، قال الرجال ، قالت هند ، قالت الهندان ، قالت الهندات) ، إلا أن بعض العرب طابقت بين الفعل وفاعله في التثنية والجمع تشبيهًا بالمطابقة في التأنيث والتذكير ، وقد أطلق عليها النحاة اسم (لغة أكلوني البراغيث) ، وتنسب إلى أزد شنوءه ، وعليها جاء قوله تعالى : ﴿ وأسَرُّوا النَّجْوَى الّذين ظلمُوا ﴾[٢]، جاء في البحر المحيط : « والواو في (أسروا) علامة للجمع على لغة «أكلوني البراغيث» ، قاله أبو عبيدة والأخفش وغيرهما . قيل : وهي لغة شاذة . قيل : والصحيح أنها لغة حسنة ، وهي من لغة أزد شنوءه ، وخرج عليه قوله : ﴿ ثـمْ عَمُوا وَصَمُّوا كَثيرٌ مِنْهُم ﴾[٣]، وعلى لغتهم جاء قول الشاعر :

---

(١) سر صناعة الإعراب ٢/٧٠٤ ، ٧٠٥ . (ما بين القوسين زيادة للشرح) .

(٢) سورة الأنبياء : ٣ .

(٣) سورة المائدة : ٧١ .

يلومونني في اشتراء النخيل أهلي وكلّهم ألوم[١]

وقد جاء في المغني : « واو علامة المذكرين في لغة طيئ أو أزد شنوءه أو بلحرث ، ومنه الحديث : (يتعاقبون فيكم ملائِكَةُ بالليل وملائكةُ بالنهار) .. قال : وهي عند سيبويه حرف دل على الجماعة ، كما أن التاء في (قالت) حرف دل على التأنيث ، وقيل هي اسم مرفوع على الفاعلية ، ثم قيل : إن ما بعدها بدل منها ، وقيل : مبتدأ والجملة خبر مقدم ، وكذا الخلاف في نحو : (قاما أخواك) و (قُمْنَ نِسْوَتك) » [٢]. ومن هذه اللّغة قول الشاعر :

تولى قِتَال المارقين بِنَفْسِه وقد أسلماهُ مُبْعَدُ وَحَمِيمُ

فالألف في (أسلماهُ) تدل على التثنية[٣] .

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان (٤٠٧/٧) .

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعارب ٣٦٥/٢ ، ٣٦٦ .

(٣) من الشواهد التي ذكرها ابن هشام في المغني ٣٦٧/٢ .

الفصل الرابع
المظهـــر الدلالـــي

الاختلاف الدلالي بين اللهجات العربية
وأثرها في تكوين ظواهر اللغة

١ - الترادف .

٢ - الاشتراك .

٣ - الأضداد وأسبابه .

الفصل الرابع
المظهر الدلالي

دلالة الكلمة معناها الذي تدل عليه . يقول إبراهيم أنيس : « كل كلمة من كلمات اللّغة لها دلالة معجمية أو اجتماعية ، تستقل عما يمكن أن توحيه أصوات هذه الكلمة أو صيغتها من دلالات زائدة على تلك الدلالة الأساسية التي يطلق عليها الدلالة الاجتماعية » (١).

فالهدف الأساسي من الكلام الدلالة على المعنى والوصول إلى الفهم والإفهام ، وهنا تكمن خطورة الخلاف بين اللهجات العربية في المظهر الدلالي إذ تنغلق الأفهام وتختلف المعاني وتتغير المقاصد ، فهذا عربيٌّ يؤمر بالجلوس بكلمة هي في لهجته بمعنى القفز ، وفي لهجة من أمره بمعنى الجلوس ، فيقفز من جبل كان عليه فيَهْلِك ، وذلك عندما قال له ملك حمير (ثب)(٢)، وآخر أسير أُتي به إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم يرعَد (من البرد) فقال لقوم : اذهبوا به فأدفوه ، فذهبوا به فقتلوه ، فوداه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم (دفع دِيَته إلى أهله) ، أراد الإدفاء من الدِّفءِ وأن يُدفأ بثوب فحسبوه بمعنى القتل في لغة أهل اليمن(٣) . (والإدفاء : القتل في لغة بعض العرب) ، وفي مخاطبته صلى اللّه عليه وسلم لوفود العرب بلغاتها وتصريح أحد الصحابة بعدم الفهم حين قال: (نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره!)(٤) في ذلك ما يكفي لتوضيح فكرتنا .

ونحن نرجِّح أن السِّر في اختلاف اللهجات العربية في المظهر الدلالي هو قابليَّتُها التطور المستمر(٥) ، ومن ثمَّ اختلاف مسيرة هذا التطور في بيئة لغوية دون

---

(١) دلالة الألفاظ (٤٨) .

(٢) تقدم ذكر القصة في أول الباب فارجع إليها، ص (٤٤) .

(٣) ينظر : اللسان ١/٧٦ .

(٤) ارجع (٢) .

(٥) حصر المحدثون التغييرات التي تطرأ على الدلالة في (تخصيص الدلالة ، وتعميم الدلالة ، وانحطاط الدلالة ، ورقي الدلالة ، وتغير مجال الاستعمال عن طريق المجاز) . ينظر : دلالة الألفاظ ، د . إبراهيم أنيس ١٥٢ – ١٦٥ .

أخرى خاصة إذا كَثُر متحدثوها ، واتسعت مناطق انتشارها ، وتقادم العهد عليها ، وقلّ الاتصال بين أهلها مما يحدُّ من تعهدهم لها بالنظر والمقارنة بين لهجاتها . فتتطور دلالة بعض الكلمات في لهجة دون أخرى حسب استعمال تلك الألفاظ في هذه اللهجة أو تلك أو حسب احتياجات كل لهجة إلى التعبير عن معانٍ جديدة أو تجديد بعض الألفاظ ، وإذا كان في هذا العمل خطورةٌ على اللهجات منفردةً فإن فيه مصلحة للّغة العربية (الموحَّدة) بشكل عام إذ نجم عنه الترادف ، والمشترك ، والتضاد ، مما وسَّع فيها أضرب القول والتعبير وأكسبها ثروةً من المفردات تقدمت بها على سائر اللغات وما كان ذلك ليحدث لولا إسهام مجيء الإسلام في توحيد لهجاتها بالإضافة إلى عوامل أخرى أدت إلى تقاربها قبل مجيئه حيث اعتبرت اللهجات العربية المادة التي تغذّت بها اللّغة الأدبية الموحدة فاستفادت ممَّا بينها من خلافات ومفارقات وحوَّلته إلى مصلحتها في تنويع فنون القول . لولا ذلك لسلكت كلُّ لهجة في تطورها طريقًا يخالف غيرها ثم لا تلبث أن تستحيل إلى لغات مختلفات، ولكان الخلاف بين اللهجات العربية في المظهر الدلاليِّ وبالاً عليها .

والآن سنرى كيف نجمت ظاهرة الترادف والاشتراك والأضداد عن اختلاف اللهجات العربية .

١ – الترادف :

هو الألفاظ الدالة على شيء واحد باعتبار واحد . بحيث ينوب أحدها عن الآخر في تأدية نفس المعنى .

وقد أشار ابن جني إلى أثر اللهجات في ظهور الترادف بقوله : « وإذا كثر على المعنى الواحد ألفاظ مختلفة فسُمِعت في لغة إنسان واحد فإن أخرى ذلك أن يكون قد أفاد أكثرها أو طرفًا منها ؛ من حيثُ كانت القبيلة الواحدة لا تتواطأ في المعنى الواحد على ذلك كلّه . هذا غالب الأمر ، وإن كان الآخَر في وجه من القياس جائزًا . وذلك كما جاء عنهم في أسماء الأسد والسيف والخمر وغير ذلك ، وكما تنحرف الصيغة واللفظ واحد ؛ نحو قولهم : هي رَغْوة اللبن ، ورُغْوته ، ورِغْوته ، ورُغاوته ، ورِغَاوته ، ورُغَايته ، ... وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن

تكون لغاتٍ لجماعات ، اجتمعت لإنسان واحد ، من هَنَّا ومن هَـنَّا » [١].

وقد أجاز قبل ذلك أن تضع القبيلة لفظتين أو أكثر لحاجتها إليها في أوزان أشعارها ، وسعة تصرف أقوالها ، هذا إذا كانت الكلمتان متساويتين في الاستعمال كثرتهما واحدة في كلام العربي ، كما أجاز أن تكون لغته في الأصل إحداهما ثم إنه استفاد الأخرى من قبيلة أخرى ، وطال بها عهده وكثر استعماله لها فلحقت –لطول المدّة واتصال استعمالها – بلغته الأولى . أمّا إذا كانت الثانية أقلَّ في الاستعمال فيجزم بأنها مُفادة من لهجة أخرى أو شاذةٌ عن قياسه إن كانت له ولقبيلته[٢] . ولكن غالب الأمر في تعدد الألفاظ على المعنى الواحد يرجع إلى تعدد اللهجات كما مرَّ بك في نص ابن جني . ومثل ذلك ما نقله السيوطي في المزهر إذ قال : « قال أهلُ الأصول لوقوع الألفاظ المترادفة سببان :

أحدهما : أن يكون من واضعين ، وهو الأكثر بأن تضع إحدى القبيلتين أحد الاسمين ، والأخرى الاسمَ الآخر للمُسَمَّى الواحد ، من غير أن تشعر إحداهما بالأخرى ، ثم يشتهر الوضعان ، ويخفى الواضعان ، أو يلتبس وضع أحدهما بوضع الآخر ؛ وهذا مبني على كون اللّغات اصطلاحية .

والثاني : أن يكون من واضع واحد ، وهو الأقل ؛ وله فوائد ، منها : أن تكثر الوسائل – أي الطرق – إلى الإخبار عما في النفس ؛ فإنَّه ربما نسي أحد اللفظين أو عسر عليه النطق به ... ومنها : التوسُّع في سلوك طرق الفصاحة ، وأساليب البلاغة في النَّظم والنثر ... » [٣].

وقد شهد القرن الرابع الهجري خلافًا بين علماء اللّغة في فكرة الترادف من منكر له ومغالٍ فيه ، وقد عرض السيوطي لآراء كل فريق وملخص الفكرة[٤] أن من أنكر الترادف وأكثرهم من الاشتقاقيين الذين تلمَّسوا الفروق الدقيقة بين الألفاظ

---

(١) الخصائص ٣٧٣/١ – ٣٧٤ .

(٢) ينظر المرجع السابق ٣٧٢/١ .

(٣) المزهر ٤٠٥/١ ، ٤٠٦ .

(٤) اعتمادًا على ما نقله السيوطي في المزهر ٤٠٢/١ وما بعدها .

المترادفة وقالوا إن ما يظن من المترادفات فهو من المتباينات التي تتباين بالصفات كما في الإنسان والبشر ؛ فإن الأوّل موضوع له باعتبار النسيان أو باعتبار أنه يُؤنِس ، والثاني باعتبار أنه بادي البشرة ، وخير من عَبَّر عن هذا المذهب أحمد بن فارس إذ يقول : « ويسمى الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو : (السيف والمهند والحسام) ، والذي نقوله في هذا : إن الاسم واحد وهو (السيف) وما بعده من الألقاب صفات . ومذهبنا أن كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى » وكذلك رأيهم في الأفعال نحو : (قعد وجلس) و (مضى وذهب وانطلق) و (رقد ونام وهجع) ، قال ابن فارس : « ونحن نقول في (قعد) معنى ليس في (جلس) ، ألا ترى أنا نقول : (قام ثم قعد) ، و (أخذه المقيمُ والمقْعَدُ) ، و (قعدت المرأة عن الحيض) .. ثم نقول : (كان مضطجعًا فجلس) فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس ؛ لأنّ (الجَلْسَ : المرتفع) ، فالجلوس (ارتفاع عمّا هو دونه وعلى هذا يجري الباب كلُّه) ، وهؤلاء لا يرون اختلاف اللفظتين وإنما يرون في أحدهما زيادة معنى على الأخرى ، ولذلك نجدهم يفخرون بسعة مفردات العربية وتعدد طرقها في التعبير عن المعنى الواحد ، من ذلك قول ابن فارس في تقديم العربية على غيرها من اللغات « ومما لا يمكن نقله البتَّة أوصاف السيف والأسد والرمح ، وغير ذلك من الأسماء المترادفة ، ومعلوم أن العجم لا تعرف للأسد اسمًا غير واحد ، فأما نحن فنخرج له خمسين ومائة اسم . وحدثني أحمد بن محمد بن بندار قال : سمعت أبا عبدالله بن خالويه الهمذاني يقول : جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحية مائتين » (١).

أما من غالى في الترادف فذكر له المئات والألوف ، من ذلك ما حكاه السيوطي عن تأليف الفيروزابادي كتابًا في الترادف سمّاه (الروض المسلوف فيما له اسمانِ إلى ألوف) فلا شك أنهم جمعوا حطبهم في ليل أليل فلم يفرِّقوا بين المعاني ولا بين ما هو اسم وصفة أو اسم صفة أو صفة صفة وأدخلو في الترادف انحراف الصيغ

---

(١) الصاحبي (٢١) ، وينظر أيضًا (١٧) ، وما سبق تجده ص١١٤ وما بعدها من نفس المرجع .

كـ (رُغْوة اللبن ، رِغْوته ، رَغْوته أو كقولهم في أسماء العسل : الضرب ، الضَّربه ، والضريب ، والحميت والتحموت)[١] وأدخلوا التطور الصوتي لبعض الحروف نحو (الصقر ، السقر ، الزقر) وهو ما سمّاه المحدثون توهم : الترادف ، وغير ذلك حتى تجمَّعت لهم هذه الأعداد المُهولة . ونحن إذ نلتمس لهم العذر فلأنَّهم نظروا إليها من حيث اتحاد دلالتها على الذات مهما كانت صورتها أو نوعها أو ما تحمله من زيادة معنى أو نقصان .

وفي الحقيقة إنَّ الترادفَ أمر مُسلَّمٌ به في اللّغة العربية ولم يلتفت علماؤها -عبر العصور- إلى منكريه وقالوا إن ذلك من تعسفات الاشتقاقين التي لا يشهد لها شُبهة فضلاً عن حُجَّة[٢] ، ويبدو أن الخلاف في إثباته أو عدمه كان بالنظر إلى اللهجة الواحدة . أما في لهجتين فلم يكن موضع خلاف ، وقد نقل السيوطي عن الأصفهاني قوله : « وينبغي أن يحمل كلام من منع على منعه في لغةٍ واحدة ، فأمّا في لغتين فلا ينكره عاقل »[٣] .

وقد وقع الترادف في القرآن الكريم وثبت أن بعض مترادفاته تنسب إلى اللهجات العربية من ذلك :

١ - قال تعالى:﴿ لقد قلنا إذن شططا ﴾[٤]، و﴿ قد افترينا على الله كذبا ﴾[٥] وقبيلة خثعم تسمي الكذب شططا [٦].

٢ - قال تعالى : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلةً ﴾[٧] ، و ﴿ فآتُوهُنَّ أجورهنَّ فريضة ﴾ [٨] ، قيس عيلان يسمون الفريضة نِحْلة[٩] .

---

(١) ينظر : المزهر ٤٠٧/١ وما بعدها .

(٢) قاله الرازي في المحصول ونقله السيوطي في المزهر ٤٠٣/١ .

(٣) المزهر ٤٠٥/١ (المحدثون على خلاف ذلك إذ يشترطون حدوثه في لهجة واحدة . وقد عكس الدكتور أنيس معنى مقولة الأصفهاني) . ينظر : اللهجات ١٧٥ .

(٤) سورة الكهف : ١٤ .

(٥) سورة الأعراف : ٨٩ .

(٦) نقله السيوطي في الاتقان تحت عنوان (فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز) ٢٨٥/١ .

(٧) سورة النساء : ٤ .

(٨) سورة النساء : ٢٤ .

(٩) الإتقان /٢٨٥ .

٣ – قال تعالى : ﴿ فلمّا كشفنا عَنْهُمُ الرِّجزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هُم ينكُثُون ﴾[١] ، و ﴿ فلما كشفنا عنهم العذابَ إذا هم ينكُثُونَ ﴾[٢] ، وبلغة هذيل الرجز : العذاب [٣].

٤ – قال تعالى : ﴿ يومِ يَخْرُجُون من الأجداثِ سراعًا كأنهم إلى نُصُبٍ يُوفِضُون ﴾[٤]، و ﴿ ونُفخ في الصُّورِ فإذا هُم من الأجداث إلى ربِّهِم يَنسِلُون ﴾ [٥]، في لغة جرهم ينسلون : يخرجون[٦] .

وقد أورد عبده الراجحي ما وقع من الترادف في القراءات ورجعها أيضًا إلى اللهجات ، منها ما ذكره عن مجيء الشطر والتلقاء بمعنى واحد وهو النحو والقصد قال : « قرأ الجمهور (فول وجهك شطر المسجد الحرام) ، وقرأ ابن أبي عبله : (فول وجهك تلقاء المسجد الحرام) ، وهذه القراءة تقدم لنا لفظتين بمعنى واحد ، وهما (شَطر) و (تلقاء) ، ويذكر أبو عبيد أن التلقاء معناها (النحو) في لهجة كنانة »[٧] . وذكر من القراءات استعمال لفظ العنب بمعنى الخمر ونسبها إلى عمان وهي قراءة ابن مسعود في قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ إني أراني أعصر خمرًا ﴾ ، واستعمال أحدهما بمعنى الآخر هو مجاز[٨] .

كما وقع الترادف في الحديث الشريف ومنه تلك الألفاظ التي جاءت في كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قبائل العرب أو في حديثه مع وفودها ولم تكن مألوفةً عند قومه علمًا بأن لديهم نظائرها (مرادفها) منها ما جاء في كتابه إلى وائل بن حجر (الحضرمي) وفيه : (إلى الأقيال العباهلة والأروا ع المشابيب) . الأقيال : السادة ، العباهلة : ملوك اليمن الذين أُقرِوا على ملكهم ، الأروا ع : حسان

(١) سورة الأعراف : ١٣٥ .
(٢) سورة الزخرف : ٣٤ .
(٣) الإتقان ٢٨٥/١ . .
(٤) سورة نوح : ٤٣ .
(٥) سورة يس : ٥ .
(٦) الإتقان ٢٨٥/١ .
(٧) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ١٩٥ .
(٨) ينظر : اللهجات العربية في القراءات القرآنية ١٩٧ .

الوجوه ، المشابيب : الأذكياء ، يُقال رجل مشبوب إذا كان ذكيَّ الفؤاد شهمًا [١].

وقد استبعد بعض المحدثين مثل هذا النوع من الترادف لعدم توافقه مع شروطٍ اشترطوها لوقوع الترادف حيث اشترطوا في حدوثه التطابق التام في المعنى ، والحدوث في اللهجة الواحدة أو مجموعة لهجات منسجمة(الاتحاد في البيئة اللغوية)، واتحاد العصر ، وألاّ يكون نتيجة التطور الصوتي[٢] . وهي غيرُ واقعيةٍ إذ لم يجدوا عند محاولة تطبيقها ما يمثلون به عليها في اللهجات العربية فرجعوا إلى اللّغة الأدبية الموحدة ، إذ نجد الدكتور إبراهيم أنيس يقول بعد سرد الشروط : « فإذا طُبقت هذه الشروط على اللّغة العربية اتضح لنا أن الترادف لا يكاد يوجد في اللهجات العربية القديمة ، وإنما يمكن أن يُلتمس في اللّغة النموذجية »[٣] ، وإنْ كان هذا يدلُ على صحة مذهبنا في القول بأنَّ اللّغة الموحدة هي صانعة الترادف باعتبار أنّك لا تكاد تجده في اللهجات منفردةً – كما يقول إبراهيم أنيس – فإننا نستنكر استبعادهم اختلاف اللهجات ! أليست هي المادة التي ألفت منها اللّغة النموذجية كلماتها المترادفة ؟ !

وقد روى لنا السيوطي عن أبي زيد قصةً نفهم منها أنَّ العربي يحمل في ذاكرته عدَّة ألفاظ في التعبير عن المعنى الذي يريد خاصة وأن العربي يراعي لغة غيره كما يراعي غيره لغته إذ يسمع هذا من ذاك وبالعكس ، فقد روى عن أبي زيد ما نصه : « قال أبو زيد : قلت لأعرابيٍّ ما المحبَنْطِئ ؟ قال : المتكأكئ . قلت : ما المتكأكئ ؟ قال : المتآزف . قلت : ما المتآزف ؟ قال : أنت أحمق »[٤] .

العوامل التي أدت إلى الترادف في العربية :

١ – التطور الدلالي وهو من أهمها ، لأن الحاجة وتنوع الاستعمال يقضي بتغير معاني بعض الألفاظ أو نقلها ، وقد حصر المحدثون أنواع التغيرات التي تصيب المعنى – على وجه التقريب – فوجدوها كالتالي :

---

(١) ينظر : لسان العرب ٤٨٢/١ ، ١٣٦/٨ ، ٥٧٦/١١ .
(٢) منهم : إبراهيم أنيس ، وينظر أدلة الترادف لدى المحدثين . (اللهجات العربية ١٧٨) .
(٣) اللهجات العربية ١٧٩ .
(٤) المزهر ٤١٣/١ .

- تخصيص الدلالة : أن تكون عامة فتخصص نحو الصلاة كانت لمطلق الدعاء فخصص الإسلام معناها على الصورة الشرعية المعروفة .

- تعميم الدلالة : أن تكون خاصة فتعمم . قال ابن فارس : كان الأصمعي يقول : أصل (الوِرْدِ) : إتيان الماء ، ثم صار إتيان كل شيء وردًا .

- انحطاط الدلالة : نحو كلمة (العامل) كانت تعني الوالي ، وهي اليوم تعني الأجير .

- رقي الدلالة : نحو كلمة (الرسول) كانت تعني كل مُوفد أو مرسول ، فأصبحت تعني المبلِّغ عن الله والداعي إليه .

- تغير مجال الاستعمال عن طريق المجاز . نحو كلمة (الفَحْل) هو الذكر من كل حيوان ثم أصبح يطلق على الرجال أو الشعراء أو الرواة لأنه مع طول فترة الاستعمال قد يُنسى الأصل الأول للكلمة أو أنها من قبيل المجاز فيصبح بمنزلة الأصل .

ويحدث الترادف هنا عند تغير مسيرة التطور الدلالي بين لهجة وأخرى ، أو عندما يتطور اللفظ في لهجة وينوب عنه غيره ويثبت في أخرى .

٢ - التعريب مع وجود العربي : عادة ما تقوم بهذه المهمة القبائل التي تسكن وتحاد أممًا أخرى ، وعرب الأطراف التي يكثر احتكاكها بالأمم الأخرى وتعاملها معهم ثم تدخل الكلمات المعرَّبة والدخيلة إلى عمق الجزيرة وسرعان ما تنتشر بين العربِ جميعًا فيصبح للمعنى الواحد لفظتان أحدهما العربي القديم ، والثاني المعرَّب وقد يشتهر المعرَّب لكثرة الاستعمال ويُهجر العربي ، وقد يشتهر الاستعمالان وهنا يقع الترادف . وقد عقد السيوطي فصلاً في المعرّب الذي له اسمٌ في لغة العرب نقل فيه عن جماعة من العلماء ، ومما نقله أنَّ الإبريق في لغة العرب يسمَّى التّامورة ، والبطّ عند العرب إوَز ، الهاوون يسمى المنحاز والمهراس ، والمِسْك عند العرب يسمى المشموم ، والنرجس يسمى العَبْهَر ، والباذنجان يسمى (الحدجَ ، الأَنَب ، المَغْد) ، والخيار عند العرب القَثَد ، والرَّصاص عند العرب الصرَّفان ، وجميع ذلك معرّب له نظير في العربية [1].

---

(١) ينظر : المزهر ٢٨٣/١ وما بعدها .

٣ - الوضع الجديد أو ارتجال بعض الألفاظ التي قد تكون في اللّغة إلا أنها هُجرت أو نُسيت لقلَّة استعمالها أو اختفاء معناها الذي تعبِّر عنه لسبب من الأسباب في لهجة ما مع بقائها في لهجة أخرى ، فتعمد تلك اللهجة عند ظهور المعنى من جديد إلى وضع كلمةٍ جديدة للتعبير عنه ، وذلك عن طريق الاشتقاق أو النحت أو الارتجال[١] ، هذا إذا لم تأخذه عن اللهجة الثانية التي ما زال مستخدمًا فيها ، وحينها يظهر الترادف .

وقد يكون الوضع لظهور معنى جديد ، فتعمد كل لهجة إلى وضع اللفظ المعبِّرِ عنه حسب نظرتها إليه والتي قد لا تتوافق مع غيرها من اللهجات الأخرى .

وقد يكون الوضع لمجرد التجديد في الألفاظ خاصة وأن العرب في جاهليتهم جروا في أشعارهم على معانٍ لم يتجاوزوها ، وكان من السَّمَاجةِ تكرارها بألفاظها فخالفوا بين الألفاظ والمعنى واحد . واللّه أعلم .

---

(١) الاشتقاق : شق كلمة جديدة من جذر موجود ، النحت : استخراج كلمة جديدة من كلمتين ، الارتجال: استحداث جذر جديد وهو قليل أو استحداث معنىً جديد للفظ قائم .

٢ - الاشـــتراك :

وهو اللفظ الواحد الدال على أكثر من معنى . ويُعدّ اختلاف اللهجات العربية من أهم مسبباته سواء عن طريق الوضع أو التطور الدلالي أو الصوتي عند بعضهم وسيأتي بيانه .

وقد رُويت لنا في كتب اللّغة والمعاجم العربية كثيرٌ من الألفاظ التي يُعبِّر كل منها عن أكثر من معنى ؛ لا يطعن في ذلك اختلاف العلماء في الإقرار به أو إنكاره ، علمًا أن الكثرة الساحقة تُقِرُّ بِهِ ؛ بل منهم من أوجب وقوعَه باعتبار أن الألفاظ متناهية ، والمعاني غير متناهية ، فدعتهم الحاجةُ إلى التعبير باللفظ الواحد عن أكثر من معنى[١] .

فهؤلاءِ نظروا إلى الاشتراك من ناحية واقعية وصفية وذلك لأنهم حين جمعوا اللّغة من القبائل العربية وجدوا أن بعض الألفاظ تعبر عن عِدَّة معانٍ فسجَّلوها في معاجمهم كما وجدوها .

أما من أنكره وعلى رأسهم ابن درستويه فقد أنكر أن يكون اللفظ موضوعًا في الأصل للدلالة على معنيين لما في ذلك من التعمية والإلباس ، وقد نزَّه الخالق عن هذا العمل باعتبار أنه من أصحاب التوقيف ؛ فتأوَّل ما جاء من ذلك بأن أحد المعنيين حقيقي والآخر مجازي أو وقع في الكلام حذف واختصار أدى إلى تشابه اللفظين وخفى على السامع السبب فيقال بالاشتراك ، وأجاز أن يقع في لغتين متباينتين[٢] .

ويبدو أن هؤلاء نظروا إلى أمثلة المشترك نظرة تاريخية وتتبعوها في عصورها المختلفة . وفي الحقيقة إن ما قالوه قد يكون صحيحًا فيما يتعلق ببعض أمثلة المشترك خاصة الاستعمال المجازي عندما يطول استعماله على المعنى الجديد ويكثر فيصبح بمنزلة الأصل له ، وهو كما نعرف شكل من أشكال التطور الدلالي ، والألفاظ

---

(١) نقله السيوطي في المزهر ١/٣٧ ، ٣٦٩ .

(٢) ينظر ما نقله السيوطي عن عبدالله بن جعفر (ابن درستويه) في المزهر ١/٣٨٤ ، ٣٨٥ .

عادة ما تكون رهينة الاستعمال ، ولكن ذلك لا ينطبق على جميع أمثلة المشترك ولا يسوِّغ لهم إنكاره وتكلفهم بتأويل ما لا يساور النفس شكٌّ في صحة وقوعه .

أمثلة المشترك في اللهجات العربية :

جاء في المزهر : « ومن المشترك بالنسبة إلى لغتين : قال في الغريب المصنَّف قال أبو زيد: الأَلْفَتُ في كلام قيس :الأحمق ، والأَلْفَتُ في كلام تميم : الأعسر . وقال الأصمعي: السَّليط عند عامة العرب: الزيت ، وعند أهل اليمن : دُهن السمسم »(١) .
وجاء في اللسان : « الهجِرِس : ولد الثعلب ، والهِجرس أيضًا : القِرد . أبو مالك : أهل الحجاز يقولون : الهِجرس : القرد ، وبنو تميم يجعلونه الثعلب ، والهجرس : اسم »(٢) .

فهذا الخلاف في معنى اللفظ بين اللهجات العربية قد يكون مادةً للّغة الأدبية الموحدة يصنع منه شاعرها محسِّنات لفظية فيكرر لفظ الأَلْفَت قاصداً به في المرة الأولى الأحمق كما هو عند قيس ، وفي المرة الثانية الأعسر كما هو عند تميم ، ويُعِينُ السياق على تعيين أحد المعاني المشتركة للفظ الواحد ، فانظر إلى كلمة (الغروب) في قول الخليل(٣) :

يا ويحَ قلبي من دَوَاعي الهوَى ... إذْ رَحَل الجيرانُ عند الغُرُوبْ
أَتبعتُهم طرفي وقد أَزْمَعُوا ... ودمعُ عينيَّ كفَيْض الغُروبْ
كانوا وفيهم طَفْلَة حرَّة ... تفترّ عن مِثلِ أقاصي الغُرُوبْ

فلا شك أننا نفهم من السياق أن لفظ (الغروب) في الأبيات الثلاثة مختلف المعاني ، فهو في الأوَّل : غروب الشمس ، وفي الثاني : الدلاء المملوءة ، وفي الثالث : الوِهاد المنخفضة .

---

(١) المزهر ١/٣٨١ .

(٢) لسان العرب ٦/٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(٣) هذا مثال ولم نزعم ان اختلاف معنى الغروب ينسب إلى اللهجات . وقد جاءت الأبيات في المزهر ١/٣٧٦ .

من أمثلة المشترك بشكل عام :

من ذلك ما رُوي في معاني العين . جاء في المزهر : « ومن الألفاظ المشتركة في معانٍ كثيرة : لفظ العَين ؛ قال الأصمعي في كتاب الأجناس : العَين : النَّقْد من الدراهم والدنانير ليس بعرض ، والعَيْنُ : مطر أيام لا يُقلِع ؛ يقال : أصاب أرض بني فلان عين ، والعين : عين الإنسان التي يَنْظُر بها . والعين : عين البئر ، وهو مخرج مائها . والعين : القناة التي تعمل حتى يظهر ماؤها . والعين الفوّارة التي تفور من غير عمل ، والعين : ماء عن يمين القِبلة قبلة أهل العراق ، ويقال نشأت السماءُ من العَيْن ، والعين : عين الميزان وهو ألاّ يستوي ، والعين : عين الدابة والرجلُ وهو الرجل نفسه ، أو الدابة نفسها ، أو المتاع نفسه ، يقال : لا أقبلُ منك إلاّ درهمًا بعينه ، أي : لا أقبل بدلاً ، وهو قول العرب : لا أَتْبَعُ أثرًا بعد عين ، والعين : عين الجيش الذي ينظرُ لهم ، والعين : عين الرّكْبة ؛ وهي النُّقرة التي عن يمين الرّضفة وشمالها ، وهي المشاشة التي على رأس الرُّكْبة ، والعين : عين النفس أن يَعِين الرَّجلُ الرجلَ ينظر إليه فيصيبه بعين ، والعين : السَّحابة التي تنشأ من القبلة قبلة أهل العراق ، والعين : عين اللصوص » [١].

وقد نقل السيوطي من كتاب (ما اتفق لفظه واختلف معناه) للمبرد قوله : « وأما اتِّفَاق اللفظين واختلاف المعنيين فقولك : وَجدت شيئًا :إذا أردت وِجْدَان الضَّالة ، ووجَدت على الرجل من المَوجِدَة ، ووجدتُ زيدًا كريمًا أَيْ : علمت ، وكذلك ضربتُ زيدًا ، وضربت مثلاً ، وضربتُ في الأرض : إذا أبعدت ... » [٢].

ويبدو أن القول بالتوقيف لم يمنع بعض من قال به من الإقرار بالاشتراك ، فهذا ابن فارس يقول به في القرآن الكريم ؛إذْ قال: « ومنه في كتاب الله جل ثناؤه : (قضى) بمعنى حَتَم كقوله تعالى : (قضى عليها الموتَ) ، و (قضى) بمعنى :

---

(١) المزهر ٣٧٢/١ ، ٣٧٣ .

(٢) المرجع السابق ٣٨٨/١ .

أمر كقوله جل ثناؤه : (وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلاّ إيَّاه) ، ويكون (قضى) بمعنى أعلَمَ كقوله جل ثناؤه : (وقضينا إلى بني إسرائيلَ في الكتاب) ، أي أعلمناهم ، و (قضى) بمعنى صنع كقوله تعالى : (فاقْضِ ما أنت قاضٍ) ، وكقوله جلّ ثناؤه : (ثم اقْضُو إليّ ولا تُنْظِرون) ، أي اعملوا ما أنتم عاملون ، و (قضى) فرغ ، ويقال للميت : قَضَى ، أي فرغ ، وهذه وإن اختلفت ألفاظها فالأصل واحد » [١].

أسباب وقوع الاشتراك :

اختلفت الآراء في أسباب وقوع الاشتراك باختلاف نظرة العلماء إليه وتأثرت في بعضها بنظرتهم إلى أصل اللغة ، وهي كالتالي :

١ - أنه وقع من واضعين ، وذلك أن يضع أحدهما لفظًا لمعنى ، ثم يضعُه الآخرُ لمعنى آخر ، ويشتهر ذلك اللفظ بين الطائفتين في إفادته المعنيين ؛ وهذا على أنّ اللّغات غير توقيفية[٢]. ويسهم في اشتهار المعنيين تداخل اللغات أو اللّغة الموحدة.

٢ - أنه من واضع واحد لغرض الإبهام على السامع ، أي جعلوا الإبهام غرضًا بحد ذاته . وهذه وجهة نظر نحترمها ولا تُعد قدحًا في اللّغة كما توهم بعضهم وذلك لما تمتاز به اللّغة فقد يحتاج الإنسان إلى الإبهام في الكلام كما يحتاج إلى البيان فيه لا سيما إذا كان فيه حرج عليه[٣] ، ناهيك عن الحاجة إليه حتَّى إن بعضهم أوجبه ؛ لأنَّ المعاني غير متناهية والألفاظ متناهية ، وإذا وُزِّعتِ الألفاظ على المعاني لزِم الاشتراك[٤] . وهنا يقوم السياق أو القرينة بإزالة الابهام .

---

(١) الصاحبي ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٢) نقل السيوطي رأيهم في المزهر ١٦٩/١ .

(٣) من النوادر في ذلك أن رجلاً ادعى النبوة فقال : أنا أحمد النبي ، وحين أُمر بقطع رأسه قال : أنا أَحْمَدُه أفلا تحمده أنت ؟ (وكان بحضرة الخليفة) فأحال المعنى على الشكر والحمد ، فضحك الخليفة وخلَّى سبيله .

(٤) ينظر : المزهر ١٦٩/١ .

٣ - يحدث الاشتراك نتيجة التطور الدلالي خاصة تغير مجال الاستعمال منه (المجاز) عندما يغلُب ويكثر استخدام اللّفظ على المعنى الجديد فيصير بمنزلة الأصل له ويُنسى المجاز فيه . وهذا رأي منكريه ؛ فهم لا ينكرون سماعه عن العرب ومجيئه بل ينكرون وقوعه في أصل الوضع وجذور اللّغة الأولى لما فيه من الإلباس والتعمية - من وجهة نظرهم - وهو ما لا يليق بالخالق جلَّ ثناؤه . ويقولون بوقوعه -ضمنًا- عن طريق المجاز والتشبيه والاستعارة بل يرون أن نقل اللفظ إلى عدّة مسميات عن طريق المجاز من موسِّعات اللّغة وضروراتها ، فهذا ابن درستويه ينكر على اللغويين تخصيصهم لفظ (الشفَة) على شَفَةِ الإنسان ، وعلل ذلك بقوله : « لأن أكثر اللّغة على التشبيه والاستعارة والاختصار والمجاز ، ولو حُظِر ذلك فيها لضاق الكلام علينا ، وعسُر البيان عما في نفوسنا . وقد زعم أهل اللّغة أن الشفَة لا تكون إلاّ للإنسان »(١) .

وقد اعتبر المحدثون المجاز المنسي من أسباب وقوع الاشتراك ؛ وذلك عندما يسهم في تطور معنى كلمةٍ في لهجة من اللهجات دون أن يطرأ عليه تغييرٌ في اللّهجات الأخرى ، قال إبراهيم أنيس : « وهنا نرى لهجات اللّغة الواحدة تستعمل كلماتٍ متحدة الصورة في معان مختلفة »(٢) .

٤ - ومن أسباب حدوث الاشتراك التي يُعزى القول بها إلى مُنكريه ؛ القول بالمعنى الجامع وهو رجع المعاني المختلفة للفظٍ ما إلى معنىً عام جامع يكون بمثابة الأصل لها وتكون هي الفروع ، يصلح أن ينطبق على كلٍّ منها ولو من بعيد . مثاله : رجع ابن درستويه معاني (وجد) إلى إصابة الشيء خيرًا كان أو شرًا(٣) .

وقد عدّه عبد الخالق عضيمة من أسباب حدوث الاشتراك قال : « أن يكون بين المعنيين معنى يجمعهما ، فتصلح الكلمة لكل منهما لذلك المعنى الجامع ، وهذا ما

---

(١) تصحيح الفصيح وشرحه ، ابن درستويه ، تحقيق : د. محمد بدوي المختون (٥٢٣) ، وزارة الأوقاف القاهرة ١٤١٩هـ .

(٢) في اللهجات العربية (١٩٧) وينظر (١٩٣ ، ١٩٤) .

(٣) نقله السيوطي في المزهر ٣٨٤/١ .

يسمونه بالاشتراك المعنويِّ ، وقد يغفل الناس ذلك المعنى الجامع ، فيظنون الكلمة من قبيل المشترك اللفظي »[1] .

٥ - ذكر السيوطي في المزهر فصلاً يمكن اعتباره سبباً من أسباب وقوع الاشتراك ، وإليك نصّه : « فصل - في ألفاظٍ مشهورة في الاستعمال لمعانٍ ، وهي فيها معرَّبة ، وهي عربية في معانٍ أخرى غير ما اشتهر على الألسنة ، من ذلك : الياسمين للزهر المعروف فارسي ، وهو اسم عربيّ للنمط يطرح على الهودج ، والوَرْد للمشموم فارسي ، وهو اسم عربي للفَرَس ، ومن أسماء الأسد » .

٦ - قد يحدث الاشتراك نتيجة التطور الصوتي ، كأن يتشابه لفظان مختلفا المعاني إلاّ في حرف واحد ثم يصيبه التطور في لهجة من اللهجات فتطابق صورته صورة اللفظ الآخَر ، ويكون الاشتراك نتيجة التغير الصوتي وليس نتيجة اشتراكهما في المعنى الأصلي . وممن قال بهذا السبب الدكتور إبراهيم أنيس وضرب له بعض الأمثلة التي تقوم على التصور والافتراض إلا أنها جديرة بالنظر ، منها قوله في سبب تعدد معاني (التغب) في الدلالة على الوسخ والدرن ، والقحط والجوع . قال : إنه أصلي في معنى الوسخ والدرن . أما في القحط والجوع فهو (السغب) تطورت السين تاء في لهجة من اللهجات حتى أصبحت (التغب) من المشترك اللفظي ، ومن المعروف أن قلب السين تاء من خصائص القبائل اليمنية إذ يقولون (النات) في (الناس)[2] . وقد حدث الاشتراك بعد جمع اللّغة وتوحدها أو على الأقل عند تداخلها .

---

(١) مذكرة في المعاجم العربية (مخطوطة) لمحمد عبد الخالق عضيمة (٩٨) .

(٢) في اللهجات العربية (١٩٧) وينظر أيضاً (٢٠١) .

٣ - الأضــــداد :

المتضاد هو نوع من المشترك يقع على مختلفين ضدين ، وأسباب وقوعه هي أسباب وقوع المشترك ، قال ابن فارس : « ومن سُنَن العرب في الأسماء أن يسموا المتضادَّين باسم واحد ، نحو (الجَوْن) للأسود ، و (الجون) للأبيض . وأنكر ناس هذا المذهب ، وأن العرب تأتي باسم واحد لشيء وضدِّه . وهذا ليس بشيء وذلك أن الذين رَوَوْا أن العرب تسمي السيف مهنّدًا والفَرَس طِرْفًا ، هم الذين رووا أن العرب تسمي المتضادَّين باسم واحدد . وقد جرَّدنا في هذا كتابًا ذكرنا فيه ما احتجوا به، وذكرنا رَدَّ ذلك ونقضه » [١].

وقد ألف في الأضداد جماعة من العلماء ذكر منهم السيوطي قطربًا ، والتوّزي، وأبا بكر الأنباري ، وأبا البركات بن الأنباري ، وابن الدهان ، والصغاني ، ونفهم من عبارة ابن فارس أن له منكرين ألف في الرَّد عليهم كتابًا . روى السيوطي أنّ منهم ابن درستويه حيث ألف كتابًا في إبطال الأضداد[٢] ، وحريٌّ بمن أنكر الاشتراك انكاره التضاد متى علمنا أنه فرع له ونوع من أنواعه .

وقد كان كتاب الأضداد لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت : ٣٢٨) من أشمل الكتب التي أُلفت في الأضداد وأوفاها حيث جمع ما يقرب من أربعمائة لفظٍ ؛ نقل أكثرها عن كتب القدماء ، ولهذا يقول في مقدمة كتابه : « وقد جمع قوم من أهل اللّغة الحروفَ المتضادَّة ، وصنّفوا في إحصائها كتبًا ، نظرت فيها فوجدت كلَّ واحد منهم أتى من الحروف بجزء ، وأسقط منها جزءًا ، وأكثرهم أمْسَك عن الاعتلال لها ، فرأيت أن أجمعها في كتابنا هذا على حَسَب معرفتي ومبلغ علمي ؛ ليستغني كاتبه والناظر فيه عن الكتب القديمة المؤلفة في مثل معناه ؛ إذ اشتمل على جميع ما فيها ، ولم يُعْدَمْ منه زيادةُ الفوائد ، وحسنُ البيان ، واستيفاءُ الاحتجاج ، واستقصاءُ الشواهد »[٣] .

---

(١) الصاحبي (١١٧) .

(٢) ينظر : المزهر ١/٣٩٧ - ٣٩٦ .

(٣) كتاب الأضداد للأنباري ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم (١٣) المكتبة العصرية .

من أمثلة التضاد التي ذكرها[1] :

١ - الظَنّ : بمعنى الشكّ وهو كثير ، وبمعنى اليقين ، منه قوله تعالى : (وأَنَّا ظننا أَنْ لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا) .

٢ - القُرْء : يقال : القرء للطهر ، وهو مذهب أهل الحجاز ، والقُرْءُ للحيض، وهو مذهب أهل العراق .

٣ - لمقته : بمعنى كتبته عند بني عقيل ، وبمعنى محوته عند سائر قيس .

٤ - السُّدفة : الظلمة عند بني تميم ، والضوء عند قيس .

٥ - السّامِد : اللاهي في كلام أهل اليمن ، وفي كلام طيئ الحزين .

٦ - الهاجد : بمعنى الساهر والنائم .

٧ - الصريم : يقال لليل صريم وللنهار صريم لأن كلّ واحد منهما يتصرم من صاحبه (ينقطع) .

٨ - وثب : وثب الرجل إذا نهض وطفَر من موضع إلى موضع ، وحمير تقول : وثب الرَّجُل إذا قعد .

٩ - طرب : إذا فرح أو إذا حزن والمأتم : يقال للنساء المجتمعات في الحزن أو في الفرح .

١٠ - المفازه : تقع على المنجاة وعلى المهلكة، والسليم: يقال للسالم والملدوغ . المولى : المعتِق والمعتَق .

١١- الناهل : العطشان والريّان . وزعموا أن الأصل فيه للريّ وإنما قيل للعطشان ناهلٌ ، تفاؤلاً بالرَّي .

١٢- نوع يشبه الأضداد قولهم مرحباً بفلان في حال رغبوا عنه ، ومنه : يا عاقل للجاهل إذا استهزأوا به .

ونحن نرى من خلال هذه الأمثلة المنتقاة أن من التضاد ما وقع نتيجة ظاهرة التفاؤل والتطير عند العرب ، منه : قولهم للمهلكة مفازة ، وللملدوغ سليم ،

---

(١) مختارة من كتاب الأضداد للأنباري باختصار .

وللعطشان ناهلٌ تفاؤلاً بأن ينجو الأوّل ويسلم الثاني ويُروَى الثالث .

وقد روى الأنباري عن الأصمعي وأبي عبيد قولهما : « إنَّما سُمِّي الملدوغ سليمًا على جهة التفاؤل بالسلامة ، كما سميت المهلكة مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز »(١) .

ومنه ما وقع نتيجة التهكُّم والاستهزاء ، كقولهم : يا مرحبًا بفلان ، وهم لا يريدون قدومه وجلوسه معهم ، وكقولهم : يا عاقل للجاهل أو المجنون ، وكقولهم للأسود : أبيض . وسمَّى الأنباريُّ هذا النوع بـ (ما يشبه التضاد)(٢) .

ومنه ما يقع سعيًا إلى التأدُّب في الخطاب ويفهم خلافه ، كقولهم للعبد مولى ، وللأعمى بصير ؛ لاشتهار لفظ العمى على القلوب في قوله جل ثناؤه : (فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)(٣) .

ونرى من خلال هذه الأمثلة أن من التضاد ما وقع نتيجة عموم المعنى الأصلي ، فهو حالة عامة تصلح للتعبير عن أكثر من معنى ، من تلك الألفاظ : القرء : ويعني في الأصل الوقت ، والسُّدفة : تعني الستر، والصريم : المجذوذ المقطوع ، والطرب : حالة تصيب الإنسان أو خفّة تلحق به ، والمأتم : اجتماع النساء . ويحدث التضاد عند اختلاف الناس في تخصيص هذه المعاني .

أما القرء فقد نقل صاحب اللسان عن الشافعي قوله : « القَرْء اسم للوقت فلما كان الحيض يجيء لوقت والطهر يجيء لوقت جاز أن تكون الأَقْراء حيضًا وأطهارًا »(٤) .

وأمّا السُّدفة والصريم فقد نقل الأنباري عمّن مذهبه في الأضداد أنّ الأصل لمعنى واحد ثم تداخل الاثنان على جهة الإتساع قولهم: « فَمِنْ ذلك: الصريم، يقال لليل صريم ، وللنهار صريم ، لأن الليل ينصرم من النهار ، والنهار ينصرم من

---

(١) الأضداد ١٠٦ .
(٢) ينظر : ٢٥٧ – ٢٥٨ من كتاب الأضداد .
(٣) سورة الحج : ٤٦ .
(٤) لسان العرب لابن منظور المصري ١/١٣١ .

الليل فأصل المعنيين من باب واحد ، وهو القطع ، ... وكذلك السُّدفة : الظلمة ، والسُّدفة : الضوء سميًا بذلك لأن أصل السدفة الستر ، فكأن النهار إذا أقبل ستر ضوءُه ظلمة الليل ، وكأن الليلَ إذا أقبل سترت ظلمتُه ضوءَ النهار » (١).

ونقل عنهم أيضًا : « والظن يكون بمعنى الشكّ والعلم ، لأن المشكوك فيه قد يعلم »(٢) ، وكأنهم جعلوا الظن بمعنى الشكّ ضربًا من العلم الذي لم يتيقن صاحبه منه ويكون عِلْمًا بعد اليقين .

الطرب والمأتم : قال الأنباري عن الطرب : « ليس هو الفرح ولا الحزن ، وإنما هو خِفَّة تلحق الإنسان في وقت فرحه وحَزَنه، فيقال:قد طرب إذا استُخِفّ »(٣). أمّا في المأتم فقد نقل عن قطرب قوله : « المأتم حرف من الأضداد ؛ يقال للنساء المجتمعات في الحزن : مأتم ، وللمجتمعات في الفرح مأتم ، نقل في خلافه : وغير قطرب يقول : المأتم ليس من الأضداد ؛ لأنّه إنما يُراد به النساء المجتمعات ، فاجتماعهنّ في الفرح كاجتماعهن في الحزن »(٤) .

ونرى من خلال هذه الأمثلة أيضًا أن اختلاف اللهجات العربية كانت البيئة التي ظهر فيها التضاد أو أسهمت في نشأة عددٍ لا بأس به من ألفاظه ، منها « لمقه بين بني عقيل وسائر قيس ، السُّدفة بين قيس وتميم ، وسامدون بين حمير وطيئ ، ووثب بين حمير وسائر العرب » واشترط بعضهم مجيء التضاد في لهجة واحدة ، فقد جاء في المزهر : « قال في الجمهرة : الشَّعْب : الافتراق ، والشَّعْب : الاجتماع؛ وليس من الأضداد ، وإنما هي لغة لقوم ؛ فأفاد بهذا أن شرط الأضداد أن يكون استعمال اللفظ في المعنيين في لغة واحدة » (٥). وأنكر هذا الشرط قوم رأوا استحالة وقوع التضاد إلا من خلال اللهجات ، جاء في الأضداد : « وقال آخرون : إذا وقع الحرف على معنيين متضادين ، فمحال أن يكون العربيّ أوقعه عليهما بمساواةٍ منه بينهما ولكن أحد المعنيين لحيٍّ من العرب ، والمعنى الآخر لحيٍّ غيره ، ثم سَمِعَ بعضهم لغة بعض ، فأخذ هؤلاءِ عن هؤلاءِ ، وهؤلاءِ عن هؤلاءِ ، قالوا :

(١) ، (٢) الأضداد ٨ – ٩ .
(٣) المرجع السابق ١٠٣ .
(٤) المرجع السابق ١٠٤ .
(٥) المزهر ٣٩٦/١ .

فالجَوْن الأبيض في لغة حيٍّ من العرب ، والجَوْن الأسود في لغة حيٍّ آخر ، ثم أخذ أحد الفريقين من الآخر ، كما قالت قريش حَسِبَ يحْسِبُ »[١] (أي تداخل اللغات) ، وهذا رأي أثبتت الرواية والنقل صحته في عددٍ من الألفاظ .

ومن ألفاظ التضاد ما لا نعلم لمعنييه علاقة أو صلة كالتعبير بلفظ الهاجد عن النائم والساهر ، وغيره كثير لا نقول فيه إلا كما قال القدماء : من العلل ما عرفناها فأخبرنا بها ومنها ما نجهله – لقدم العربية وسعة أسرارها – فلا نلزم العرب جهله.

لقد تعرّضنا في ملاحظاتنا على أمثلة التضاد إلى بعض الآراء المختلفة حول أسباب وقوعه التي منها التطور الدلالي ، والقول بعموم المعنى الأصلي ، واختلاف اللهجات العربية ، كما لاحظ مدى صدقها – على الأقل – على بعض الأمثلة . ولم يبق علينا سوى رأي واحد قال به قطرب ونقله الأنباري إذ يقول : « وقال قطرب : إنما أوقعت العرب اللفظتين على المعنى الواحد ليدلّوا على اتساعهم في كلامهم ، كما زاحفوا[٢] في أجزاء الشعر ، ليدلّوا على أن الكلام واسعٌ عندهم ، وأن مذاهبه لا تضيق عليهم عند الخطاب والإطالة والاطناب . وقولُ ابن الأعرابيّ هو الذي نذهب إليه ، للحجّة التي دَلَلْنا عليها ، والبرهان الذي أقمناه فيه »[٣] وهذا الرأي يشبه إلى حدٍ بعيد رأي من قال إن العرب أوقعت المشترك عن عمد[٤] .

ومهما كان سبب حدوث الأضداد فإنه يُعد من المشكلات التي حالت دون التفاهم والاتصال بين اللهجات العربية منفردةً ، ولم تصبح لها هذه الحسنة والميزة التي تفخر بها اللغة العربية إلا بعد توحدها أو على الأقل تداخل لهجاتها فعرف العربي أن كلمة (ثب) قد تعني الجلوس كما تعني القفز فاستعان بالقرينة أو السياق في تحديد معناها .

---

(١) الأضداد ١١ ، ١٢ .

(٢) الزحاف في الشعر : أن يسقط بين الحرفين حرف فيزحف أحدهما إلى الآخر . والشعر مزاحف . (من حاشية الأضداد) .

(٣) الأضداد ٨ .

(٤) ينظر السبب الثاني لوقوع المشترك في بحثنا ص(١١٣) .

الباب الثاني
أسباب الوحدة اللغوية
قبل الإسلام

الفصل الأول : عوامل التقارب اللغوي بين اللهجات العربية قبل الإسلام .

الفصل الثاني : مظاهر الوحدة اللغوية قبل الإسلام .

تمهيـــد :

سبق وأن أشرنا إلى خضوع اللغة لسنتين متضادتين ، تحدثنا عن الأولى منها وهي التي تسير باللغة صوب التفرُّق والاختلاف والتي لا يزيدها الزمن إلا تفتتًا وانفصالاً . وتحدثنا عن أثرها في ظهور اللهجات ومن ثم تحويلها إلى لغات مستقلة متى ما استحكمت عواملها ومسبباتها ولم تَجِدِ المقاومة الكافية للحدّ من أثرها على لغةٍ من اللغات . وقد ألمحنا إلى السنَّة الثانية التي تسير باللغة صوبَ التوحيد والاندماج متى ما وجدت العوامل المؤثرة والمساعدة على ذلك وذكرنا أن كلَ لغةٍ تقع بين هاتين السنتين وتخضع لهما ؛ أيهما قوي أثره سارت اللّغة صوبه[1] .

وقد تحدثنا عن سنة التفرّق والاختلاف وقوة تأثيرها على اللّغات بما فيه الكفاية؛ وسوف نتحدث في هذا المقام عن سُنّةِ التوحيد والاندماج وأثرها في التقريب بين اللهجات العربية ، والحد من اتساع شُـقَّة الخلاف بينها نتيجةً لتضافر عدّة عوامل أسهمت في ظهورِ لغة مشتركة مكَّنت اللّغة العربية من المحافظة على وظيفتها كوسيلة اتصال بين أبنائها قبيل الإسلام ، وقد ساعد ظهور الإسلام على ترسيخها وتعميمها على جميع مستويات المجتمع العربي بعد أن كانت محصورة في طبقة معيَّنة وفي مناسبات خاصة .

ونود أن نشير إلى رأي قال به الأستاذ فندريس استأنسنا به في التأكد من صحة ما ذهبنا إليه في شأن السنتين إذ يقول : « فهذان ميلان متعارضان يوجهان اللّغة في طريقين متباينين . وأحد هذين الميلين يتجه نحو التفريق . فتطور اللّغة على نحو ما أجملناه في الفصول السابقة يؤدي إلى انفصالات تزداد مع الزمن تعددًا ، وتكون النتيجة تفتت اللّغة تفتتًا يزداد بازدياد استعمالها ؛ إذ تضطرها إلى هذا التفتت مجاميع الأفراد التي تُترك وشأنها دون احتكاك بينها ، غير أن هذا التفريق لا يصل إطلاقًا إلى تمامه ، لأن سببًا حيويًا يوقفه في الطريق ؛ إذ بإمعانه التدريجي في الحد من امتداد المجموعات التي تستخدم اللّغة وسيلة للتفاهم بينها ، ينتهي بحرمان اللّغة قيمتها الجوهرية ؛ فتحطم اللّغة نفسها وتصير غير قادرة على إيصال

---

(١) ينظر ما ذكرناه في أسباب اختلاف لغات العرب ص (٤١)

الناس بعضهم ببعض . لذلك يقوم ميل آخر - يعمل دوامًا على مناهضة التفريق ، وهو الميل إلى التوحيد الذي يعيد التوازن . ومن صراع هذين الميلين تُنتج أنواع اللغات المختلفة من لهجات ولغات خاصة ولغات مشتركة » [١].وهو يرى في موضع آخر أن التوحيد اللغوي ضرورة اجتماعية إذ يقول : « ولولا مقاومة المجتمع للتفكك اللغوي لأصبح العالم أمام حشد من صور التكلم التي لا تزيدها الأيام إلا تفريقًا ، ولكن الذين يتكلمون إحدى اللغات يميلون دائمًا إلى المحافظة عليها كما هي ؛ وكذلك التبادل الكلامي الذي يحدث باستمرار بين أعضاء مجموعة اجتماعية واحدة يؤدي إلى توحيد اللّغة . ومن هنا تنشأ اللهجات ، وكذلك اللغات المشتركة التي تسير مع اللهجات جنبًا لجنب »[٢] .

وليس الأمر بالسهولة التي قد يتصورها القارئ في شأن التوحيد أو التفرّق والانفصال في اللغات الانسانية . وإنما هي عملية في غاية التعقيد ، وغالبًا ما تجري على اللّغات دون أن تشعر بها الشعوب والجماعات وتقف من ورائها عدّة عوامل ومسببات ، وتحدث عبر حقبٍ من التاريخ قد تصل إلى مئات السنين ، كما أن ظروف وقوعها يقوم على أساس مختلف من فترة إلى أخرى ، إذ بعد أن يتم التوحيد يحدث انفصال جديد طبقًا لسنن اللغات ، وهكذا تتوالى عملية التوحيد والانفصال ، ونحن لا نتوقع أن اللهجات التي نجمت عن الانفصال الثاني تكون هي نفسها اللهجات التي كانت قبل التوحيد لأنها بالتأكيد قد تشرّبت خصائص اللّغة المشتركة . والمثال على ذلك عندنا اختلاف اللّغة الحميرية في منتصف القرن الخامس الميلادي عن الحميرية الأولى (القديمة) ، فحميرية القرن الخامس لا تختلف عن الفصحى إلاّ في بعض الخصائص الصوتية وبعض المفردات فكان اختلافها في إطار اللهجات المختلفة للّغة الواحدة مما يدل على أنها تشربت خصائص الفصحى في طورها الثاني ؛ في حين نجد الحميرية الأولى (القديمة) التي نقلتها لنا النقوش بعيدة كل

---

(١) اللّغة ، فندريس (٣٠٧ - ٣٠٨) .

(٢) المرجع السابق (٣٢٦) .

البعد عن عربية الشمال مما أغرى بعضهم على القول في الشعر الجاهلي خاصة المنسوب إلى القحطانية عن جهل منه بسنن اللغات التي ذكرناها[١] بما لا يثبت عند النظر .

ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن سنة التوحيد والاندماج يتطلب حدوثها ظهور عوامل قوية الأثر لإحداث هذا النوع من التقارب بين اللهجات المختلفة وإلا فإنها تستمر في طريق التفرّق والانفصال حتى تستقل بذاتها وعندئذٍ يصعب رجوعها إلى أخواتها وتوحُّدها معهم ؛ لأن سنة التفرق والانفصال أقوى تأثيرًا من سنة التوحيد ولا يتطلب وقوعها تلك المُسبِّبات والعوامل التي يتطلبها حدوث التوحيد .

وتُعَدُّ العوامل السياسيّة ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والدينية ، من أهم العوامل التي يتطلبها حدوث التوحيد اللغويّ وظهور لغة مشتركة تمكِّن من تربطهم هذه العوامل أو بعضها من الالتقاء والتواصل اللغوي ، وتقرِّب بين لهجاتهم المختلفة وتحدّ من اتساع شُـقَّةِ الخلاف بينها ، وغالبًا ما تكون اللّغة المشتركة هي إحدى اللهجات الموجودة ؛ رشحتها تلك العوامل للانتشار والسيادة على سائر أقاليم اللهجات المختلفة ، وتم اتخاذها لغةً مشتركة من قِبَل أصحاب تلك اللهجات أو بعضهم بعد أن سلّموا لها بالسيادة والتقدم ، وبالطَبع فإنه بمجرد أن تُعتمد اللهجةُ لغةً مشتركة فإنها تفقد كثيرًا من صفاتها الموغلة في الخصوصية والذاتية ، وتكتسب بعض الخصائص الجديدة نتيجةً للصراع اللغوي الذي خاضته مع اللهجات الأخرى أثناء انتشارها وسيادتها ، أضف إلى ذلك تأثرها في ألسنة أصحاب تلك اللهجات بلهجاتهم القديمة عند النطق بها . وبالإجمال فإننا لا نتصور أن تخرج اللّغة أو اللهجة بعد صراعها مع غيرها كما دخلت دون أن تتأثر بهذا الصراع .

وسيجد القارئ عند عرضنا لهذه النظرة والتصور العام للتوحيد اللغوي على اللّغة العربية أنها تقدم لنا تفسيرًا منطقيًا لأسباب الوحدة اللغوية قبل الإسلام وظهور لغةٍ مشتركة أسهم في ظهورها عدِّة عوامل .

---

(١) ينظر : الحميرية القديمة (٢٠) ، وانقراض اللهجات اليمنية (٢٢) من بحثنا .

الفصل الأول
عوامل التقارب اللغوي
بين اللهجات العربية قبل الإسلام

أولاً : الحج .

ثانيًا : أسواق العرب .

ثالثًا : الهجرات البينية .

رابعًا : الحروب (أيام العرب) .

خامسًا : عمل الشعراء والخطباء .

الفصل الأول
عوامل التقارب اللغويّ
بين اللهجات العربية قبل الإسلام

على الرغم من أوجه الخلاف بين اللهجات العربية التي تطرقنا لها في الباب الأول ، فإن هناك عوامل أدت إلى التقارب اللغوي وظهرر لغة مشتركة وإنْ كانت على الصعيد الخاص وليس على الصعيد العام (الذي كفله مجيء الإسلام) ، وذلك لأنّ التوحيد اللغوي – حقًا – ضرورة اجتماعية ، وقد جاء عن ابن جني ما يؤكد ذلك في الخصائص إذ قال في باب العربيّ يسمع لغة غيره أيراعيها ويعتمدها ، أم يلغيها ويطرح حكمها ؟ قال : « فقد علمت بهذا أن صاحب لغة قد راعى لغة غيره ، وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيرًا منتشرين ، وخلقًا عظيمًا في أرض الله غير متحجرين ولا متضاغطين ؛ فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مَجْرى الجماعة في دار واحدة ، فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته ، كما يراعي ذلك من مُهمّ أمره ، فهذا هذا »(١) .

وقد أسهمت نزعة ملاحظة لغةالغير مع الزمن في التقريب بين اللهجات العربية، كما أسهم هذا التلاقي والتزاور في ظهور الحاجة إلى لغة مشتركة تصلهم ببعضهم وتمكّنهم من التفاهم دون أن تحول بينهم عوائق الخصوصية اللهجية .

هذا ويمكن أن نحدد أهم العوامل التي أدّت إلى التقارب اللُّغَوِيِّ بين اللهجات العربية في خمسةِ عواملَ وهي : الحجّ ، الأسواق ، الهجرات البينيّة ، الحروب ، عمل الشعراء والخطباء خاصة شعراء الحوليات .

---

(١) الخصائص ٢/١٥ ، ١٦ .

أولاً - الحـــج :

كانت الكعبة التي رفع قواعدها أبوانا إبراهيم وإسماعيل على رسولنا وعليهما السلام محوراً ومركزاً التفت حولها أمة العرب على اختلاف لهجاتها تحجُ إليها كل عام وتُجِلَّها وتُقدِّسها ، قال تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للنّاس وأمنًا واتَّخِذُوا من مقامِ إبراهيم مُصلًّى وعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّع السجود ﴾ (١).

جاء في البحر : « ومثابة ، قال مجاهد وابن جبير معناه : يثوبون إليه من كل جانب ، أي : يحجونه في كل عام ، فهم يتفرقون ثم يثوبون إليه أعيانهم أو أمثالهم ، ولا يقضي أحد منهم وطرًا ، وقال الشاعر :

جعل البيت مثابًا لهـــــم ليس منه الدهرُ يقضون الوطرَ

وقال ابن عباس : معاذاً وملجأ ، وقال قتادة والخليل: مجمعًا(٢). قال أبو حيان: « والأمر بتطهيره يقتضي سبق وجوده إلا إذا حملنا التطهير على البناء والتأسيس على الطهارة والتقوى . وقد تقدم أنه كان مبنيًا على عهد نوح » (٣).

وقال تعالى : ﴿ وأذِّن في الناس بالحَجِّ يأتوك رجالاً وعلى كُلِّ ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق ﴾ (٤).

فكان الحجُّ محفلاً دينيًا بشريًا هائلاً ، لا يوجد نظيره في أمة من الأمم غير الأمة العربية(٥) – ثم بعد ذلك الإسلامية – حيث جمع شتاتها من أقاصي بلاد العرب في شمال الجزيرة وجنوبها ، وشرقها وغربها ، على اختلاف لهجاتها في أيام معلومات ، وفي مكان واحد مخصوص ، وبصورةٍ منتظمةٍ في كل عام ، مما أتاح فرصة الاحتكاك اللغوي بين اللهجات العربية المختلفة ، ومكّن العرب من الشعور

---

(١) سورة البقرة : ١٢٥ .

(٢) البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٦٠٨/١ .

(٣) البحر المحيط ٦١١/١ .

(٤) سورة الحج : ٢٧ .

(٥) روى أن الفرس كانت تحج البيت وأن غزالي الذهب من قرابينهم كما جاء في مقدمة ابن خلدون ٨٥٦/٢.

والإحساس بواقعهم اللغوي ، ومدى الخلاف بين لهجاتهم ، فتنامت لديهم الرغبةُ بل الحاجة إلى إيجاد لغةٍ موحدةٍ يتحقق من خلالها التفاهم والتواصل فيما بينهم ، وليس هناك أكفأ من لغة قريش التي فيها اجتماعهم ، والتي اكتسبت مسحة القداسة والاحترام لمكانة مكة وأهلها في قلوب العرب فقد كان أهلها قطان حرمه وخدَّام بيته فيهم السقاية والرفادة والحجابة (السِّدانة) واللواء[١] ، للقيام بخدمة الحجاج حتى إنه روى أن بيوتهم لم تكن لها أبوابٌ لينزل الحاج حيث شاء ، ثم اتخذوها بعد ذلك حفاظًا على متاعهم[٢] ، وبما أنها لغة القائمين على الدين فقد اتبعتها العرب في كثير من مفرداتها وصوتياتها وطرائق تعبيرها ورضيت بها لغةً مشتركة دون أن تجد في أنفسها غضاضة من ذلك .

وقد سبق أن ذكرنا أنّ اللّغة المشتركة عادة ما تقوم على أساس لهجة أهلتها ظروف خاصة للسيادة والانتشار .

وفي الجانب الآخر تأثرت اللهجة القرشية بسائر لهجات العرب بل تعمَّد أهلها ذلك في كثير من الأحيان إذ نجد قريشًا تتخير من لغاتهم ما تستحسنه فتتكلم به ، وتلفظ وحشيّه وتتخلص منه فتم للغتهم بذلك الكمال والعذوبة والسهولة والجمال. أي أنها قامت بعملية تهذيب اللّغة وتنقيتها . وقد رجع الرافعي ذلك إلى طبعهم الحضري وميلهم التجاري حيث يقول : « ولو كانوا بادين كسائر القبائل ما فعلوه، ولكن نوع الحضارةالذي اكتسبوه من تاريخهم ألان من طباعهم وكسر من صلابتهم، فاتفقت في ذلك حياتهم اللغوية وحياتهم الاجتماعية القائمة بالتجارة وتبادل العروض مع أصناف الناس »[٣] .

وقد صرّح بهذا التهذيب والتخير الفراء حين قال : « كانت العرب تحضر الموسم في كل عام ، وتحجُّ البيت في الجاهلية ، وقريش يسمعون لغات العرب ، فما

---

(١) سقاية الحاج وإطعامه من مال تخرجه قريش لهذا الغرض ، وخدمة البيت والقيام على شئونه ، اللواء القيادة ورئاسة دار الندوة .

(٢) ينظر البحر المحيط ٤٩٩/٧ .

(٣) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ٩٣/١ ، ٩٤ .

استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ؛ فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ ؛ من ذلك : الكشكشةُ ... إلخ »[١]. ومثل ذلك ما رواه ابن فارس عن إجماع علماء العربية على تقديم لغة قريش وتقديم العرب لأهلها ،إذ روى أن العلماء أجمعوا على أنّ قريشًا أفصحُ العرب ألسنة ، وأصفاهم لغةً ، وسبب ذلك أنها مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها كانت قريش إذا أتتهم وفود العرب للحج تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزِهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب ، والدليل على ذلك أنه لا توجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي في أسد وقيس . وقد روى قبل ذلك ما يشير إلى مكانة قريش في قلوب العرب وأن الحجاج عندما يفدون إلى مكة للحج يتحاكمون إليها في أمورهم ، وكانت قريش تعلمهم مناسكهم وتحكم بينهم ، وأن العرب لم تزل تعرف لقريش فضلها عليهم وتسمّيها : أهل اللّه ؛ لأنهم الصريح من ولد إسماعيل وغير ذلك مما تجده في الصاحبي[٢] .

وقد أسهم هذا التهذيب والتخيّر من كلام العرب بالإضافة إلى المكانة الدينية لقريش في دفع العصبية اللهجية ودرئها ، إذ لم يجد العربي غضاضةً من اعتماده اللغة القرشية لغة مشتركة ؛ طالما أسهمت لغته في بنائها ، ناهيك عن حاجته إلى لغةٍ مشتركة وموحدة يتصل من خلالها مع غيره من أبناء اللهجات الأخرى .

---

(١) المزهر ١/٢٢١ .

(٢) ينظر : الصاحبي ، لأحمد بن فارس (٣٣ ، ٣٤) .

ثانيا - أسواق العـرب :

من العوامل الاقتصادية التي أدت إلى التقارب اللغوي بين اللهجات العربية ، وظهور اللّغة المشتركة قبل الإسلام أسواق العرب ، ويأتي على رأسها سوق عكاظ التي عدّها مؤرخو الأدب – كما قال سعيد الأفغاني – في أوّل ما وحَّد لهجات القبائل العربية قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن ، وهيأ لقريش خاصة تلك الزعامة والتحكم في اللّغة والانتقاء فسلمت من عيوب اللهجات(١) .

وقد نظرنا إلى أسواق العرب فوجدناها على ثلاثة أنواع أسهم كلٌ منها بتأثير خاص في اللّغة يختلف عن صاحبه ، وهي كما يلي :

١ – أسواق داخلية موسمية عامة ، تقام في قلب الجزيرة العربية على أطراف مكة ، وتؤمّها جميع العرب على اختلاف بلادهم ولهجاتهم لما بها من ميزات ، وهي سوق عكاظ ، وذو المجاز ، ومجنَّة ، فقد جاء في أخبار مكة للأزرقي قوله : «كانت قريش وغيرها من العرب تقول : (لا تحضروا سوق عكاظ ومجنة وذي المجاز إلا محرمين بالحج ، وكانوا يعظّمون أن يأتوا شيئًا من المحارم أو يعدو بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم) ، وهذه ميزة وصفة لا تتوفر لغيرها من الأسواق .

وهذا النوع من الأسواق هو الذي أسهم في التوحيد اللغوي بشكل مباشر ؛ لأن جميع العرب تحضره مما وسَّع دائرة الاحتكاك اللغوي بين لهجاتهم المختلفة وسمح بامتزاجها ، وفيه ظهرت الحاجة إلى اللّغة المشتركة ثم اسْتُعْمِلَتْ أداة اتصال بين مرتاديه .

٢ – أسواق إقليمية وإن شئت قلت محلِّيَة ، وهي تلك الأسواق التي تقام في كلِّ إقليم لتلبية احتياجاته ، ويؤمها أصحاب ذلك الإقليم ومن حوله من القبائل وغيرهم من العرب في الأقاليم الأخرى الذين يقصدونه لغرض الاتجار أو تمرُّ عليه قوافلهم كما هو معروف في رحلة الشتاء والصيف عند قريش . وهي أسواق متنوعة

(١) أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، سعيد الأفغاني (٣٣٨) . (دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ط٢ ، ١٤١٣هـ) . وعليه اعتمدنا في معرفة الأسواق .

منها الموسمي العام ومنها الدائم الخاص بمنتجات الإقليم . وقد روي أن في شبه الجزيرة العربية كانت تقام عدّة أسواق موسمية منها : سوق رابية حضرموت (١٥- ٣٠ ذي القعدة) ، وعدن (١ - ١٥ رمضان) ، وصنعاء (١٥ - ٣٠ رمضان) ، والشِّحر (١٥ شعبان) ، وكذلك سوق حباشه بتهامة في رجب ، وهو سوق مشترك بين الحجاز واليمن[1] ، وفي الجنوب الشرقي سوق عمان (جمادى الأولى) ، وصُحار (١ - ١٥ رجب) ، وفي شرق الجزيرة سوق المشقر (جمادى الثانية) ، وهجر البحرين (ربيع الثاني) ، وفي شمالها دومة الجندل (ربيع الأول)[2] .

وقد أسهم هذا النوع من الأسواق في تكتُّل اللهجات في كلِّ إقليم وتوحدها ، فمثلاً أسواق اليمن أسهمت في تقارب اللهجات اليمنية ، وكذا الأسواق في قلب الجزيرة وشمالها أسهمت في تكتُّل اللهجات الحجازية والتميمية ، فنحن نعلم أن الحجاز يضم عدّة قبائل منهم : قريش ، وهذيل ، وسليم ، وخزاعة ، وكنانة ، والأنصار ، وهوازن ، وثقيف ، وهذه القبائل يوجد بينها بعض الخلاف اللغوي بدليل أن القدماء قد نسبوا إليها بعض الخصائص فقالوا : الفحفحة في لغة هذيل (إبدال الحاء عينًا) ، واستعمال القول بمعنى الظن على لغة سُليم ، وكذا في لغة هوازن ، مع العلم أنها جميعًا حجازية ويضمها إقليم واحد .

والذي نريد أن نقوله : إنَّ الوحدة اللغوية تبدأ في الإقليم ثم تتوسع دائرتها على سائر الأقاليم ، وهنا يظهر الأثر الخطير لرحلة الشتاء والصيف التي تسافر فيها قريش إلى اليمن والشام ، فقد قامت بعمل وسائل الإعلام في وقتنا الحاضر ، فعرضت لغتها على تلك الأقاليم قبل أن تعرض عليهم تجارتها[3] ، ففرضت بذلك

---

(١) أي يقع بين القسم الحجازي واليمني . وقد كانت بلاد العرب خمسة أقسام (تهامة ، الحجاز ، نجد ، العروض ، اليمن) . ينظر : صفة جزيرة العرب (٨٥) .

(٢) ينظر : أسواق العرب التجارية والأدبية في الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي . د . محمود عصام الميداني (٦) (دار دمشق) .

(٣) نجد اليوم أن اللهجة المصرية من أكثر اللهجات المفهومة في جميع أقطار الوطن العربي وذلك لأمور كثيرة منها كثرة نتاجها الفنيّ . وكذلك أسهمت التجارة في انتشار اللغة الحجازية في جميع الأقاليم .

نفسها لغة يجب التفاعل معها واحتواؤها في كلِّ إقليم ، كما تتفاعل لهجاته فيه . فأصبح كل إقليم يفهم إلى جانب لهجاته لغة قريش .

٣ - أسواق حدودية مشتركة . وهي تلك الأسواق التي تؤمها العرب وغيرهم من الأمم الأخرى المجاورة لهم وترتبط معهم بعلاقات تجارية ، كالفرس والروم والحبشة وغيرهم . وهي أسواق إقليمية - في أغلب الأحيان - ساعدها موقعها الجغرافي على أطراف الجزيرة ، ووقوعها على سواحل البحر لتصبح أسواقًا مختلطة تؤُّمها تلك الأمم أو ترسل إليها مراكبها .

وقد جعلنا في هذا القسم ما جعله سعيد الأفغاني في قسمين ، أحدهما : أسواق خاضعة لنفوذ أجنبي تُدار بأيدي عمالهم من العرب ذكر منها الحيرة ، وهجر، والبحرين ، وعمان ، وهي تخضع للنفوذ الفارسي ، ومما يخضع للنفوذ الروماني سوق بصرى ، وأذرعات ، وغزة ، وأيله . وذكر من الأسواق الساحلية : عدن وصحار ودبي ، وقال إنها يجتمع فيها تجار الحبشة والهند والصين وفارس(١).

وقد أسهمت هذه الأسواق في ظهور ما يُعرف بالدّخيل والمعرّب في اللّغة العربية ، فتسرب خلالها كثير من الألفاظ الفارسية والرومية والحبشية إلى اللّغة العربية ، منها على سبيل المثال :

١ - من الفارسية : « من أسماء الأواني: الكوز، الإبريق ، الطّشْت ، الخِوان، الطبق ، ومن الملابس : الخزّ ، الديباج ، السُّنْدُس ، ومن الجواهر : الفيروزج ، البلّور ، الياقوت ، ومن الحلوى : الفالوذج واللوزينج ... »(٢) .

٢ - من الرومية : « الفِرْدَوس : البستان ، القِسْطَاس: الميزان ، السجَنْجَل : المرآة ، البطاقة : رقعة فيها رقم المتاع ، القنطار : اثنا عشر ألف أوقية ، القراميد: الآجر ، الترياق : دواء السموم .. »(٣) .

---

(١) ينظر : أسواق العرب ص ٢١٢ - ٢١٣ . وقد خالفنا تقسيمه للأسواق واخترنا تقسيمًا يخدم درسنا اللغوي ويظهر أثر الأسواق في اللّغة .

(٢) ، (٣) فقه اللّغة وسر العربية ، لأبي منصور الثعالبي (٣٠٥ - ٣٠٦) .

٣ - من الحبشة : « المشكاة : الكوة ، ناشئة الليل : قيام الليل ، المنسأة : العصا »[١].

٤ - من السريانية : « اليم ، الطور ، الربانيُّون »[٢].

وفي الحقيقة لم يقف أثر هذه الأسواق عند هذا الحد ، ولكن كان لها - في كثير من الأحيان - أثر مغاير للقسمين السابقين ، إذ كان من أثر هذا النوع من الاختلاط (الأجنبي) ضرب للوحدة اللغوية وشقّها حيث تأثرت اللهجات العربية في تلك المناطق والمرتادة لمثل هذه الأسواق بلغات تلك الأمم مما أدخل عليها الضيم والتخلف عن ركب الفصاحة المعروفة في قلب الجزيرة العربية ، وهذه العلة هي التي دعت علماء اللّغة فيما بعد إلى عدم الثقة بها أو الأخذ عنها لتطرفها ومجاورتها للأمم الأخرى . ونجد طرفًا من ذلك في وصف الرحالة العرب للغات أصحاب تلك المناطق ، فهذا المقدسي (من علماء القرن الرابع) يصف لغة أهل صحار فيقول : « إن نداءهم وكلامهم بالفارسيّة ، وأكثر أهل عدن وجدّة فرس إلا أن اللّغة عربية ، وبطرف الحميري قبيلة من العرب لا يفهم كلامهم ، وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه ، وليديه يدينه وقس عليه ، ويجعلون الجيم كافًا فيقولون لـ (رجب) (ركب)، و لـ (رجل) (ركل) ... أهل الأحقاف لسانهم وحش »[٣].

هذا الذي ذكرناه هو أبرز الآثار العامة لأنواع الأسواق المختلفة على اللّغة العربية ، وبقي علينا أن نفسّر سبب تميز سوق عكاظ وتبوئه مكانةً مكّنته من الاسهام في التوحيد اللغوي ، وترقيق الألفاظ العربية ، ونمو الروح النقدية عند العرب .

سوق عكاظ :

عكاظ نخل بوادٍ على مرحلتين من مكة ومرحلة من الطائف ، وهو من أعظم أسواق العرب ، ويُقام في شهر ذي القعدة ، وهو من الأسماء التي وقع الخلاف في

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢٩٦/١ .

(٢) ينظر : الصاحبي (٤٥) .

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي (٩١) .

صرفها بين اللهجة التميمية والحجازية فيصرفه أهل الحجاز ويمنعه بنو تميم .

وعكاظ اسم مشتق من العكظ ، وله عدة معانٍ منها: الحبس ، والعرك ، والقهر، والتفاخر . يقال : تعكظ القوم تعكظًا :إذا تحبَّسوا لينظروا في أمورهم . ومنه سميت عُكاظ ، ويقال : سميت عكاظًا لأن العرب كانت تجتمع فيها فيعكظ بعضهم بعضًا بالمفاخرة[1] . وهو من أسواق العرب في الجاهلية واستمر حتى نهبه الخوارج الحرورية في عام ١٢٩ هـ ، وكان بذلك زواله حتى اليوم .

وتكمن أهمية هذا السوق في جمعه لكافة القبائل العربية فيحضره النجدي واليمني والتهامي ومن بأطراف الشام والعراق من العرب ، ناهيك عن أهل الحجاز، وذلك لتميزه بالأمن ووقوعه في طريق الحجاج .

وما كان هذا التجمع ليقتصر على النشاط التجاري وحده وما ينبغي له ، وإنما كان يلازمه نشاط لغويٌ لا يقل أهمية عنه ، ناهيك عن الأنشطة الاجتماعية والسياسية التي كانت تترتب عن هذا الاجتماع العربي الذي يبلغ الألوف على حد قول أبي ذؤيب الهذلي :

إذا بنى القباب على عكـاظٍ ... وقام البيع واجتمع الألوفُ

فمن كان له أسير سعى إلى فكاكه في عكاظ ، ومن كان له إتاوته على قوم تواعدوا في عكاظ لتسليمها له ، ومن كان له خصومة مع أحد ارتفعا إلى مُحَكَّمين يقضون بين الناس في عكاظ ، ومن له ثأر عند أحد أرسل عريفه يتوسمه في سوق عكاظ حتى يعرفه فيظفر به بعد ذلك ، قال طريف العنبري :

أوكلما وردت عكاظ قبيلـة ... بعثوا إليَّ عريفهم يتوسمُ

وفي هذا السوق كان ينشد الشاعر الفحل قصيدته فلا تلبث أن تسيرَ مع الركبان إلى بلادهِم ، وفيه يلقى الخطيب البليغ كلمته ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إليه لنشر دعوته .

---

(١) ينظر : لسان العرب ، مادة (عكظ) ٤٤٧/٧ .

هذا وقد نشأت بذرة النقد الأدبي واللغوي في سوق عكاظ ، فهذا النابغة الذبياني تضرب له قبة من أدم يحكم فيها بين شعراء العرب أيهم أجود شعرًا ، وقد أتاه الأعشى والخنساء وحسان في قصة مشهورة ، حكم فيها للأعشى بأنه أشعر العرب، وللخنساء بأنها أشهر من كل ذات مثانة (النساء) ، وأخذ على حسان تقليل جفانه وفخره بمن ولد لا بمن ولده ، في قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابنى محرّق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

وهذا نقدٌ راقٍ نشمُّ من ورائه رائحة النحاة ، لأن وجه النقد أنه استعمل جمع القلّة (جفنات) ولو استعمل جمع الكثرة (جفان) لكان أحسن وأكثر . ولكن لا يُستبعد ذلك من شاعر فحل مثل النابغة وهو من أصحاب المعلقات ومحكّم الشعراء ، كما لا يستبعد أن يكون هذا التصنيف للجموع من عمل الشعراء كما فعلوا في الوزن والقافية الواحدة فقد كانت من صناعتهم أيضًا[1] .

هذا ونحوه يدلنا على أن هناك عملية نخل للّغة وغربلة وتنقيح تُسقط المرذول من الألفاظ والمعاني ، وتتخير الجيد والفصيح في لغةٍ رُوعي فيها العذوبة والانتشار ، كيما يفهمها أكثر العرب ، ويتسنّى معها توحُّد المعيار النقدي بعيدًا عن عوائق الخصوصية اللهجية أو تعدد اللهجات .

وبذلك أصبح التجمع العربي في سوق عكاظ دافعًا قويًا أسهم في ظهور اللّغة المشتركة التي ظهرت نتيجةً لامتزاج اللهجات العربية المختلفة ، ودخولها في صراع لغوي تمخضت عن إحدى لهجاته المنتصرة ألا وهي القرشية الحجازية بعد أن تأثرت بسائر اللهجات مما أفقدها بعض خصائصها الموغلة في الخصوصية[2] إيذانًا باعتمادها لغة أدبية مشتركة عند خواص العرب وطالبي الثقافة العربية ممن كان

(١) سيأتي الحديث عن أثر الشعراء (إن شاء الله) . وهذا طرف اقتضاه المقام .

(٢) من أشهرها ظاهرة تسهيل الهمز وبعدها عن التوافق الحركة في نحو (بِهُ ، عليهُ) فهي في القرشية دون الفصحى المشتركة .

عليهم أن يشهدوا الأسواق والمحافل بأنفسهم لتحصيلها[١] ، أو تلقيها عن الرواة الذين يحملونها إلى سائر البلاد العربية في صورة أعمال أدبية .

وقد عدّ الرافعي دور عكاظ من العوامل التي اقتضت الوحدة اللغوية وأسهمت في تهذيب اللّغة وانتشار الفصحى وذلك حيث يقول : « ولا يخفى أن مثل هذا الاجتماع العام حالة من أحوال الحضارة ، ولذلك اقتضى الصناعة اللسانية ؛ فكان العرب يرجعون إلى منطق قريش ، كما كان هؤلاء يبالغون في انتقاد اللهجات وانتقاء الأفصح منها . وهذا هو الدور الأخير من أدوار التهذيب اللغوي إذ يدخل في حالة عامة يشيع فيها المنطق الفصيح وتبلغ بها اللّغة درجة عالية من النشوء ليس بعدها إلا موت الضعيف وتحوّله إلى شكل أثري لا منفعة فيه للمجموع المكوّن على هذه الطريقة ولكنه يدل على أصل التكوين »[٢] .

(١) قال د. إبراهيم أنيس في دلالة الألفاظ : (إن طالبي الثقافة من العرب القدماء كان عليهم أن يشهدوا الأسواق والمحافل بأنفسهم ، وأن يتجشموا في ذلك من التنقل والأسفار ما لم يكن في وسع كل منهم) بقصد الثقافة اللغوية ، ينظر (١٩٤) .

(٢) تاريخ آداب العرب ، مصطفى الرافعي ١/٩٧ .

ثالثا - الهجرات البينيّة :

تُعد هجرات القبائل العربية وتنقُّلها فيما بينها والتي نجمت عن أسباب سياسية واقتصادية من أبرز العوامل التي أدت إلى التقارب اللغوي بين لهجاتها المختلفة قبل مجيء الإسلام .

ويظهر هذا الأثر جليًا في لهجات القبائل اليمنية التي هاجرت إلى قلب الجزيرة العربية وشمالها وشرقها في العروض ، حيث تميَّزت عن أخواتها التي بقيت في جنوب الجزيرة العربية ولم تهاجر ، بقربها من العربية الفصحى ، بل كانت إحدى لغاتها وهي لغة طيئ من اللغات التي أقر لها علماء اللّغة بالفصاحة والتقدم فنقلوا عنها عند تقعيدهم اللّغة . هذا في حين كانت لغة أخواتها التي لم تحتك بغيرها حميرية غير مفهومة أو غتمة تشاكل لغة العجم أو غير فصيحة مثل لغة مهرة التي علل القدماء بعدها عن العربية بعدم احتكاكها مع غيرها وانقطاعها ، فقال بعضهم : « مهرة انقطعوا بالشِّحر ، فبقيت لغتهم الأولى الحميرية لهم ، يتكلمون بها إلى هذا اليوم »(٢) .

ولم تكن الهجرات تنطلق من الجنوب إلى الشمال فقط ، بل كانت تنطلق من الشمال إلى الجنوب أيضًا ، فقد جاء عن ابن عباس أن من أبناء معدّ من نزل تهائم اليمن فاتخذوها منزلاً ومسرحًا لأنعامهم وماشيتهم بعد أن كثروا في مكة وما والاها(٣) . ومن المهاجرة قبائل عكّ فقد جاء في المفصَّل : « ويلاحظ أن معظم قبائل عكّ وبطونها ، هي في اليمن ، بينما هي قبائل عدنانية على أكثرية النسّابين . وقد علّل بعض النسابين ذلك بقوله : (وإنما كثرت قبائل عكّ بن عدنان باليمن ، لأن عكًّا تزوّج بنت أشعر ، فأولد فيهم ، فكانت الدار واحدة لذلك السبب) »(٤). فأسهم هؤلاء في دخول لغة الشمال إلى اليمن ، وقد لمسنا ذلك من وصف الهمداني للغات العرب

---

(١) ذكرهم الفارسي فيمن أخذت عنهم اللّغة ، وهم (قيس ، تميم ، أسد ، ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين) ، المزهر : ٢١١/١ .

(٢) نقلاً عن المفصَّل ٤٢٢/٤ .

(٣) ينظر : باب ما جاء عن ابن عباس في ذكر جزيرة العرب في كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني(٨٣).

(٤) ٥٠٦/٤ .

إذ وصف لغة شمال اليمن بالفصاحة – وهي التي تجاور عرب الشمال – ثم تقِلّ نسبة الفصاحة في وصفه كلما اتجه إلى عمق اليمن وجنوبها ، فهذه صنعاء مختلفة اللّغات وفيها نبذ من كلام حمير ، وذمار حميرية ، وحضرموت ليسو بفصحاء ، وعدن لغتهم رديئة مولدة ، أما مهرة فغتم يشاكلون العجم(١) .

هذا بالنسبة لأثرالهجرات البينية في تقارب قسمي العربية(الشمالية والجنوبية)، أمّا بالنسبة لأثرها في اللهجات الشمالية فقد كان أشد وقعًا وأبلغ أثرًا ، وذلك لأن أكثرهم بدو رُحَّل يتنقلون من مكان إلى آخر سعيًا وراء الخصب والمياه ، وقد كانت جزيرة العرب قاحلةً قليلةَ الموارد فلا تلبث القبيلة أن تستقر في موطنٍ حتى تقلَّ خيراته فيرحلون إلى موطنٍ آخر أكثر خصبًا ، ولذلك اتخذوا بيوتهم من شعر ليسهل نقلها معهم ، وقد أثر هذا الترحال على أدبهم وأشعارهم فوقفوا على الأطلال وبكوها ووصفوا الأسفار وطولها ، وتغنوا بخيلهم ونوقهم وصبرها على أسفارهم .

والدارس لمواطن القبائل العربية قلما يجد قبيلةً منها استقرت في مكان واحد ولم تنتقل منه أو إليه منذ أن عُرفت إلاّ في بعض المدن كمكة ويثرب ومملكة الغساسنة في جنوب سورية والمناذرة في جنوب العراق وفي الحيرة . فهذه بكر بن وائل هاجرت من تهامة إلى اليمامة ثم البحرين ثم العراق واتصلت منازلهم بكنده التي حكمتهم فترة بعد التبابعة ، وقد لاقى منهم الفرس الويل والثبور حتى إن سابور ملك الفرس حاربهم وأجلى بعضًا منهم إلى الأهواز وكرمان(٢) . وتلك قبيلة تغلب هاجرت من تهامة أيضًا ثم انتشرت فنزلت الحجاز ونجدًا والبحرين ثم سكنت في العراق وبادية الشام واتصلت منازلهم بالغساسنة والمناذرة والروم والفرس(٣) ، وهذه إياد كانت منازلها في تهامة من أرض مضر إلى نجران رحلت بسبب الحروب إلى الشام والعراق (الأنبار ، تكريت ..) ورحل قسم منهم إلى البحرين حيث انضموا إلى قضاعة(٤) . ودوس التي في الأزد يقال كانت ديارهم بالطائف ثم تركوها بعد

---

(١) صفة جزيرة العرب ، ص٢٤٨، ينظر انقراض اللهجات اليمنية وسيادة الفصحى ص(٢٢) .

(٢) ينظر : المفصل ٤/٥٠٠ .

(٣) المرجع السابق ٤/٤٨٩ .

(٤) المرجع السابق ٤/٤٧٠ .

نزول ثقيف فيها وارتحلوا إلى تهامة[١] ، وهوازن من القبائل العربية الضخمة التي تفرعت منها عدّة قبائل كبيرة ، سكنت في مواضع متعددة من نجد على حدود اليمن وفي الحجاز[٢] .

وقد نجم عن هذا التنقل والترحال أن تجاورت كل قبيلة مع عدّة قبائل في كل موضع رحلت إليه وتفاعلت مع غير لهجة وامتزجت بها، وكذلك سائر القبائل العربية، فصاحب الامتزاج البشري امتزاج لغوي واحتكاك أسهم بالتأكيد في إذابة كثير من الفوارق اللهجية إلى حدٍ كبير .

وقد جاء في الخصائص لابن جني في مثل هذا المعنى : « فقد علمت بهذا أن صاحب لغة قد راعى لغة غيره ، وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيرًا منتشرين ، وخلقًا عظيمًا في أرض الله غير متحجرين ولا متضاغطين ، فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة . فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته ، كما يراعي ذلك من مُهمّ أمره . فهذا هذا »[٣] .

---

(١) ينظر : المفصل ٤/٥٠٧ .

(٢) ينظر المرجع السابق ٤/٥١٦ .

(٣) ٢/١٥ ، ١٦ .

رابعًا - الحروب (أيام العرب) :

أسهمت الحروب في الوحدة اللّغوية التي ظهرت بوادرها في أوائل القرن الخامس الميلادي في جزيرة العرب ، والتي نجم عنها نهضة لغوية تتمثل في الأدب الجاهلي الموحد شعرًا ونثرًا .

« فالنهضة في الشعر أو الأدب أو العلم تحدث على أثر انقلاب سياسي من فتح أو حرب أو نصر، أو تغير اجتماعي على أثر نكبة أو نازلة أو كل ما يثير العواطف ، وهي قاعدة تشمل طبائع البشر في كل زمان ومكان»[١] .

وقد كان لاستقلال عرب الحجاز ونجد عن سيطرة الحكم اليمني أثر عظيم في إلهاب المشاعر وإيقاظ روح التعصب والحزبية بين العدنانيين والقحطانيين وقد كان المُلك في أيدي القحطانيين سواء في جنوب الجزيرة حيث كان لأبناء حميرأبو الملوك التبابعة أو خارجها حيث كان لبني كهلان (أخو حمير وابن سبأ) أبو الملوك من الأزد من بني جفنة ومن لخم الذين حكموا عرب الشام والعراق ويثرب[٢] ، واستمر ذلك فترة من الزمن حتى كان يوم (خزاز)[٣] فانتصر أولاد معدٍّ على أولاد قحطان واستقلوا بذلك عن الحكم اليمني وملّكوا كُليبَ وائل قائدهم ورئيسهم في هذا اليوم وجعلوا له التاج والحكم على كافة معدّ ، وأخذت القبائل العدنانية تستقل الواحدة تلو الأخرى وتمتنع عن الإتاوات التي كانت تدفعها لملوك اليمن نظير النجعة والكلأ والمرعى ، وكان والد امرئ القيس وهو حجر بن الحارث بن حجر (آكل المرار) بن عمرو الكندي أحد ضحايا تلك الثورات حين قتله بنو أسد مما أشعل الحرب بينهم وبين ولده امرئ القيس الذي ملأ الدنيا أشعارًا تحكى إلى جانب غزلِه أيامه مع بني

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ٦٣/١ (مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٩٢م) .

(٢) ينظر : المفصّل ٤١٧/٤ .

(٣) جبل في نجدٍ دارت حوله معركة بين ملك من ملوك اليمن وقبائل معدّ انتصرت فيها . ينظر : أيام العرب قبل الإسلام ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيميّ ، جمع وتحقيق : د . عادل البياتي ص٢٩ (مكتبة النهضة) ، وينظر في تحديد موقعه صفة جزيرة العرب للهمداني (٣٣٩) .

أسد وسعيه إلى ثأره حتى هلك دونه ؛ بل حتى كليب وائل وهو عدناني لقي نفس المصير عندما اشتط وبغى على قومه فقتله جساس بن مرة ، وقامت بسببه حرب (البسوس) التي استمرت بين تغلب وبكر أربعين عاماً نبغ فيها عدي بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم ، فرثى أخاه كليباً في قصائد طوال وقد كان الشعر قبل ذلك عبارة عن أبيات قليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة . فسمي بذلك مُهَلْهِلاً . قال أبو عبيدة : « وإنما سمي مهلهلاً ، لأنه هلهل بالشعر ، ويعني سلسل بناءه كما يُقال ثوب مهلهل إذا كان خفيفاً (١). وقد حوت قصائده الفخر والحماسة وكانت ملحمةً سجلت الوقائع بين بكر وتغلب . وهكذا كانت أيام العرب وحروبها من العوامل التي أدت إلى نبوغ الشعراء وتأجج عواطفهم ، ومنحتهم المادة التي ينظمون فيها أشعارهم من فخر وهجاء ورثاء ، وقد فطن القدماء إلى ذلك فهذا ابن سلام الجمحي يعزو قلَّة شعر قريش إلى عدم اشتغالها بالحروب إذ يقول : « إنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يُغيرون ويُغار عليهم ، والذي قلّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا وذلك الذي قلّل شعر عمان وأهل الطائف »(٢) .

ووجه العلاقة بين الحروب واللّغة المشتركة هو استخدامها في الكلمة التي يقدمها القادة والزعماء بين يدي الحرب تفاخراً وتباهياً وشحذاً لهمم رجالهم وتثبيطاً لأعدائهم ، وهي لغة المحافل يستخدمونها في صلحهم ومعاهداتهم التي تحضرها في الغالب أطرافٌ أخرى سعت في صلحهم أو شهدت على معاهداتهم وتوسطت بينهم .

أضف إلى ذلك أن اشتباك قبيلتين مختلفتي اللهجة في حروب طويلة الأمد يوفر فرصة الاحتكاك اللغوي بين لهجتيها فتنتقل بعض الآثار اللغوية بينهما خاصة مع وجود الأسرى عند كل فريق ، وبذلك تكون الحروب قد أسهمت في امتزاج اللهجات

---

(١) أيام العرب قبل الإسلام ، لأبي عبيدة ، جمع وتحقيق : د. عادل البياتي (١٦٥) ، وانظر قول ابن سلام في طبقات الشعراء (٢٩) .

(٢) طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : محمد سويد (١٢٦) . (دار إحياء العلوم) .

العربية من جهة وفي انتشار اللغة القرشية بعد اعتمادها من قبل العرب لغة مشتركة تستعمل في المحافل والمناسبات الرسمية من جهة أخرى . أمّا بالنسبة لأيام العرب فكثيرة حتى إن أبا عبيدة صنف فيها كتابًا اشتمل على ألف ومائتي يوم [١]، والذي يهمنا منها هو أثرها في نهضة اللّغة وامتزاج اللهجات العربية وقد تحدثنا عنه .

(١) اسمه (أيام العرب) ولم يصل إلينا . أمّا الكتاب المسمى أيام العرب قبل الإسلام والمنسوب لأبي عبيدة فهو مجموع من عدة كتب نقلت عنه جمعها د. عادل البياتي وحققها ونشره تحت هذا الاسم .

خامسًا - عمل الشعراء والخطباء :

كان للشعر والخطابة دور اجتماعي في حياة العرب في الجاهلية ، وذلك لأن الشاعر والخطيب هو لسان قبيلته الذي يخلّد مآثرها ويسجّل أمجادها ويرفع ذكرها ويذود عن حماها وعرضها .

وقد روي أن القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنّأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس وتتباشر الرجال والولدان ؛ لأنه حماية لأعراضهم وذبٌّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم وإشادةٌ لذكْرِهم [١].

فأسهم هذا الدور الاجتماعي للشعر والخطابة من قبل الشعراء والخطباء في اختيار المشترك من الألفاظ واختيار اللّغة المنتشرة التي تعرفها أكثر العرب وهي القرشية ، فاعتمدوها في التعبير عن أغراضهم وأفكارهم حرصًا منهم على أن يفهمها أكثر العرب ، فينتشر بانتشارها أدبهم وشعرهم الذي يحمل فخر الشاعر بقبيلته أو هجاءه لخصمه وقهره إلى سائر العرب على اختلاف لهجاتهم . وبذلك اقتضى الدور الاجتماعي للشعر والخطابة وجود اللّغة الموحدة .

فحدث بين اللّهجة القرشية وأدباء العصر الجاهلي[٢] تبادل منافع استفادت منه اللّغة العربية بشكل عام ونجمت عنه اللّغة العربية الفصحى في صورتها الأدبية المشتركة الموحدة . وذلك حين استفاد أدباء العصر الجاهلي من انتشار اللهجة القرشية بحكم وضعها الديني والاقتصادي فنظموا بها أعمالهم الأدبية مما أكسبها تهذيبًا يفوق التهذيْب الذي قام به أهلها لا سيما وهم ملوك الكلام وإليهم تدين اللغة بعبقريتها وجمالها ، لأنهم يحدّدون معاني الألفاظ ويقلّبونها حيث شاءوا فيكسبون الألفاظ معاني جديدة كما يستحدثون لها الألفاظ ، ويصوغونها في تراكيب وأساليب يعجز عنها سواهم فتتخذ فيما بعد مثلاً أعلى يحاول محاكاتها مما يسهم في رقي اللّغة . فحفظ الأدباء اللّهجة القرشية من الابتذال الذي قد يصيبها جرّاء انتشارها

---

(١) المزهر ٢/٤٧٣ .

(٢) أقصد الشعراء والخطباء والكهنة .

واتخاذها لغة مشتركة لجميع العرب مما يحمّلها بعض العناصر التي قد تنزل بمستواها [١]، وذلك حين اعْتُمِدت اللّهجة القرشية لغةً أدبية إلى جانب كونها لغة مشتركة .

أمّا بالنسبة لدور الشعراء في اللّغة فهو يتعدى توحيدها إلى تهذيبها وتوسيع أضرب القول فيها ، وهذا ما نلحظه في وصف القدماء لشعراء الجاهلية .

فوصفوا المهلهل بأنه أول من أرقّ الشعر (أي لغته) وسلسل بناءه ، ونقل السيوطي عن العلماء بالشعر قولهم في امرئ القيس : « إنَّه لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ؛ ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء ، واتّبعوه فيها ؛ لأنه أوّل من لطّف المعاني ، ومن استوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبيْض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصي، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيدة، وقرب مأخذ الكلام ؛ فقيد الأوابد وأجاد الاستعارة والتشبيه »[٢] ، ووصف زهير بن أبي سلمى وأصحاب مدرسته الحوليّة بأنهم عبيد الشعر ، لأنَّهم - كما يقول الأصمعي - نقّحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين ، وقد قسّم القدماء الشعراء إلى مطبوع ومتكلّف ، قال ابن قتيبة : « فالمتكلف هو الذي قوَّم شعره بالثقاف ونقَّحه بطول التفتيش وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة . وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحوليُّ المنقّح المحكَّك . وكان زهير يسمّى كُبْرَ قصائده الحوليّات»[٣] لأنه يستغرق في نظمها وتنقيحها حولاً كاملاً .

وقد نادى شوقي ضيف بتلقي هذا التقسيم بشيء من الحذر إذ يقول : « فإن هؤلاء المطبوعين لم يكونوا يلغون التكلف إلغاء ، كما أن هؤلاء المتكلفين لم يكونوا

---

(١) ذكر فندريس أن اللغة المشتركة قد تستعير بعض العناصر من الطبقات السفلى جراء انتشارها فتصير بالتدرج رتيبة لا لون لها وتتميز بالضعف والسوقية كما ذكر أن الأعمال الفنية هي رد فعل دائم للغة المشتركة . اللّغة ، فندريس ٣٤١ . بتصرف . ومن هنا كان لاستعمال الفصحى لغة أدبية إلى جانب كونها لغة مشتركة كان سبباً في عدم النزول بمستواها .

(٢) المزهر ٤٧٨/٢ - ٤٧٩ .

(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة (٣٣) .

يلغون الطبع إلغاء ، ولذلك كنا نرى أن نعمِّم التكلف في الشعر القديم ونجعله على درجات يبلغ أعلاها عند زهير وأصحابه الذين يعملون شعرهم عملاً ، ويأخذونه بالتفكير الدقيق ، والبحث والتحقيق » (١).

ونحن وإن ضممنا صوتنا لصوت الدكتور ضيف إلاّ أننا نقف مع أنفسنا وقفة تأمل ونسألها : علام كانت هذه المبالغة في التثقيف والتنقيح من أصحاب المدرسة الحوليّة ؟ وتزداد الإجابة غموضًا عندما يُروى عن زعيمها زهير بن أبي سلمى –إن صحّت الرواية عنه أمّا المعنى فصحيح – قوله :

ما أرانا نقول إلا معــارا أو معادا من لفظنا مُكْرورا

أيقول هذا من مكث عامًا يثقِّف وينقِّح ؟ وبرجوعنا إلى شعره نجده صادقًا فيما قال فهو كغيره يسير على الطريقة التقليدية لشعراء عصره إذ يبدأ بالوقوف على الأطلال وبكاء الدِّمَن ، ثم يصف سفره ورحلات صيده ، ثم ينتقل إلى وصف راحلته ، وقد يستطرد ثم ينفذ إلى غرضه من مدح أو هجاء وغيره ، وكذلك يلتزم الوزن والقافية التي يلتزم بها غيره . فالشعر في عصر زهير مكتمل المعالم تقريبًا فالشاعر في عصره كان يخضع لتقاليد ثابتة في بناء القصيدة سواء من حيث الشكل أو المضمون .

والذي يحدُّ من حيرتنا وتساؤلاتنا أنَّ أصحاب المدرسة الحوليّة اشتهروا بتهذيب الألفاظ وانتقاء السهل الفصيح والبعد عن الوحشيّ الغريب وتليين اللّغة ، فأنت لا تجد في شعر زهير تلك الألفاظ التي قد تجدها في شعر امرئ القيس فلا تستطيع أن تنطق بها إلا بصعوبة . ويبدو أن القدماء عرفوا لزهير ذلك إذ جاء عن عمر بن الخطاب أنه قال لابن عباس : أنشدنا لشاعر الشعراء ، قال : ومن هو ؟ قال : الذي لا يعاظل بين القول ولا يتتبع حوشيّ الكلام . قال : ومن هو ؟

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د . شوقي ضيف ٢١ (دار المعارف ط ١٢) .

قال : زهير[١] .

ونحن وإن خصصنا شعراء الحوليات بالتقديم فذلك لاشتهارهم بتهذيب اللّغة وتنقِّيح الألفاظ وتثقيفها ومجاهرتهم بذلك ، فانظر إلى كعب بن زهير يمدح نفسه ويدخل معه الحطيئة حيث يقول[٢] :

فمن للقوافِي شانُها من يَحُوكُها ... إذا ما ثوى كعبٌ وفَوَّزَ جَرْوَلُ

كَفَيتُك لا تَلْقَى من الناس واحِداً ... تَنَخَّل منها مِثْلَ ما يَتَنَخَّلُ

يُثَقِّفُها حتَّى تَلِينَ كُعُوبُها ... فيُقْصِرَ عنها من يُسيءُ ويَعْمَلُ

(يحوك الشعر : ينسجه ويلائم بين أجزائه . تَنَخَّل الشيء إذا استقصى أفضله وتخيَّره ويقال أيضاً اختاره وصفّاه . يثقف الشيء : يقوِّمه ويَحْذِقَه ويهذِّبه) .

وهذا لا يعني أن غيرهم من الشعراء لم يسهموا في هذه المهمَّة ، ولكنَّهم كانوا الأبرز . وسوف نبيّن للقارئ كيف تمكَّن الشاعر من الإسهام في التقارب اللغوي وصناعة اللّغة المشتركة ، ونموّها ، ثم نشرها وتعميمها لغة أدبية مشتركة .

إنَّ التقاليد والقواعد التي ابتكرها شعراء الجاهلية والتزموها في بناء قصائدهم من حيثُ الشكل والمضمون قد شكَّلت قيوداً حدت من حرية الشاعر وتصرفه في بناء قصيدته إلى حدٍّ بعيد .

وقد يعجب القارئ إذا قلنا له : إنَّ هذه القيود هي التي مكّنت الشاعر من الإسهام في التقريب بين اللهجات العربية المختلفة ، وصناعة اللّغة المشتركة وإثرائها وتنميتها ! . وإليك بيانه :

---

(١) لا يعاظل الكلام أي لا يحمل بعضه على بعض ولا يتكلم بالرجيع من القول ، ولم يكرر اللفظ والمعنى.
حوشي الكلام : وحشيّه وغريبه ، لسان العرب ١١/٤٥٧ .

(٢) الشعر والشعراء (٤٦) .

إنَّ نظام الوزن والقافية الواحدة تطَّلَّب من الشاعر الاستعانة بسائر اللهجات العربية وعدم الاقتصار على القرشية في سبيل إقامة هذا النظام فلا ينكسر وزنه أو يختلف رويُّه .

وقد يتعدى مفهوم الاستعانة هذا مستوى المفردات إلى غيره في كثير من الأحيان ، وتدخل بعض حالاتها فيما يعرف بالضرورة الشعرية كقصر الممدود ، وصرف الممنوع ، وتسكين المتحرك ، والوقف على المنون المنصوب بحذف الألف ، فهذه وإن كانت ضرورة شعرية فهي في نفس الوقت سمات لهجية ؛ فقد كان القصر والمدّ في بعض الألفاظ من مظاهر الخلاف بين الحجازيين والتميميين ، منها لفظ (الزِّنى) مقصوراً في الحجازية ممدوداً عند تميم [١]، وفي هذه الحالة لا بدَّ أن أصله كان على صفةٍ خالفته إحداهما ، أما صرف الممنوع فهو من سمات لهجة بني أسد إذ روى عنهم الصرف مطلقاً[٢]، وجاء تسكين المتحرك عند تميم طلبًا للخفة[٣]، أمّا الوقف على المنون المنصوب بحذف الألف فقد رُوي جوازه في ربيعة[٤] . وهذا لا يعني أنَّ جميع الضرائر لغات وإنما يشير إلى أنَّ منها ما هو لغات كما أنَّ من سمات اللهجات ما أصبح من سمات اللّغة المشتركة ولم يأخذ شكل الضرورة كظاهرة الهمز عند تميم [٥].

ومما يعزى الإسهام فيه لموسيقى الشعر العربي هو هذا الثراء اللّغوي الذي تزخر به اللّغة العربية الفصحى (المشتركة) والمكتسب من لهجاتها المختلفة .

فوحدة الرويّ في كامل القصيدة التي قد تربو على مائةِ بيتٍ في بعض حالاتها

(١) ذكرناه في آخر تصريف الأسماء فارجع إليه (٨٠) .

(٢) ينظر : ضرائر الشعر لابن عصفور الإشبيلي ، تحقيق : إبراهيم محمد (٢٥) ط ٢ ، ١٤٠٢هـ .

(٣) ذكرناه في الاختلاف الصوتي (بين الحركة والسكون) فارجع إليه (٤٩).

(٤) ينظر : شرح شافية ابن الحاجب للرضي ٢/٢٧٢ .

(٥) ذكرناه في الاختلاف الصوتي (الهمز بين التحقيق والتخفيف) فارجع إليه (٥٥) .

يتطلَّبُ قَدْرَها من الألفاظ التي تنتهي بحرف واحد يحمل نفس الحركة الإعرابية ، وهذا أمر يصعب الاعتماد فيه على لهجة واحدة وإن اختلفت معاني الألفاظ ومقدِّمتها أو كانت اللّهجة غنية كالقرشية . ولو فرضنا جدلاً أنَّ ذلك ممكن لتطلَّب معرفةً بدقائقٍ لا يعرفها إلاَّ أبناء تلك اللهجة ، ونحن نعلم أن أكثر شعراء الجاهلية لم يكونوا من قريش فيسهل عليهم ذلك دون الرجوع إلى لهجاتهم أو غيرهم ممن احتكُّوا بهم . وقد استدعى ذلك من الشاعر الاعتماد على اختلاف ألفاظ المعاني واختلاف معاني الألفاظ بين اللهجات العربية المختلفة مما أسهم في نشوء ظاهرة الترادف والاشتراك والتضاد ، وقد سبق أن أشرنا عند دراستها إلى أنها ظهرت بشكل واضح في اللّغة الأدبية الموّحدة(١) .

وإلى النتيجة نفسها تقفنا دراسة معانيهم التي قيَّدتها الحسيَّةُ عند العرب وميلُهم إلى وصف الأشياء من حولهم وتصويرها كما هي ، حتى تلك المعاني والتشبيهات التي ابتكرها بعضهم تناقلوها عنهم وجروا فيها على طريقة واحدة ، فما قاله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله غيره من الشعراء وما قاله زهير في الحكمة يقوله غيره ، واقرأ حماسية كمعلَّقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء لا يكادون يأتون بمعنى جديد ، وقل ذلك في غزلهم ومديحهم ورثائهم وجميع أغراضهم حتى إنك لتجدُ ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء يذكر ما سبق إليه كلُّ شاعر – كتب عنه – من المعاني والتشبيهات مع الإشارة إلى من أخذه عنه من الشعراء .

وقد نجم عن تقيد معانيهم وشبه توحدها أن مال الشعراء إلى تغيير الألفاظ وتنويعها حتى لا يُسأم الشعر ويُبتذل معتمدين في ذلك على اختلاف اللهجات تارة وعلى الاستعمال المجازي تارة أخرى فتراكمت تلك المجاميع اللفظية في محيط واحد من المعاني .

---

(١) ينظر ص : ١٠٢ ، ١٠٧ من بحثنا .

فهذه القيود كما رأيت جعلت من الشعر ساحةً امتزجت فيها اللهجات العربية ، وانتشرت من خلاله بعض خصائصها وكثير من مفرداتها التي شق الشعرُ طريقها إلى اللّغة المشتركة فأسهمت في بنائها وتنميتها، فتعددت صيغها ، وكثرت مفرداتها، وتنوَّعت ظواهرها ، واتسعت بها أضرب القول وطرقه .

ومع رحابة البيئة اللغوية حظي الشعراء بقدر من الحرية مكّنتهم من التصرُّف والاختيار ، ومع ما يملكونه من شفافيةٍ وحسٍّ لغوي مرهف أصبح بيدهم سلطان اللّغة ، فشرعوا في تنظيم أصولها ، وتحديد مدلولاتها ، وتنويع تراكيبها ، وذلك وفق نظام متناسق ومنهج حال دون وقوع الفوضى التي قد تحدثها كثرة الصيغ والمفردات في اللّغة المشتركة .

ويبدو أنّ هذا العمل استغرق منهم صناعةً طويلة ، وجهودًا متتابعة ، تلاحقت على فتراتٍ تتعدى – في رأينا – الجاهلية التي نعرفها[١] ، لأن الشعر الذي نظم فيها لا يعبِّر عن بداياته وذلك لما به من تكامل جعله مَحَطَّ إعجاب الكثير ، يقول المستشرق (جويدي) : « إنَّ قصائد القرن السادس الميلادي الجديرة بالإعجاب تنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة » . ويقول الدكتور شوقي ضيف الذي نقلنا عنه عبارة (جويدي) : «فإن ما فيها من كثرة القواعد والأصول في لغتها ونحوها وتراكيبها وأوزانها يجعل الباحث يؤمن بأنه لم تستوِ لها تلك الصورة الجاهلية إلا بعد جهود عنيفة بذلها الشعراء في صناعتها »[٢].

---

(١) وهي التي حددها العلماء بمئة وخمسين عامًا قبل الإسلام .

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (١٤) .

الفصل الثاني
مظاهر الوحدة اللغوية
قبل الإسلام

الفصل الثاني
مظاهر الوحدة اللغوية قبل الإسلام

تتجلى مظاهر الوحدة اللغوية في اللّغة الأدبية الموحدة وإن شئت قلت اللّغة الفصحى أو اللّغة المشتركة فجميعها تعبِّرعن تلك اللّغة التي جاءت بمقتضاها أشعار العرب، وخطبهم ، وأمثالهم ، وأسجاع كهانهم ، والتي اتخذت لغة رسمية في محافل العرب وأنديتهم وأسواقهم العامة ذات السمتين الأدبية والتجارية .

فهذه اللّغة فصيحة في ذاتها وموحدة في خصائصها ومشتركة في استعمالها من قبل مجموعة من الأشخاص الذين ينتمون إلى قبائل ذات لهجات مختلفة ، أما قولنا أدبية فلكونها اللّغة المُعتَمدة في إنتاج الأعمال الأدبية المتنوِّعة .

وقد تحدثنا فيما سبق من دراستنا عن هويّةِ هذه اللّغة ، ومستويات تهذيبها ، وعوامل انتشارها ، وطريقة نموها وثرائها ، وسنتحدث عنها ، ولكن قبل ذلك نود أن نشير إلى تلك الآراء التي عارض بها بعض المستشرقين ومن تبعهم من المحدثين الفكرة الراسخة عند القدماء وكثيرٍ من المحدثين في تعيين هذه اللّغة ورجع أصلها إلى القرشية .

وإليك هذه الآراء نقلاً عن الدكتور شوقي ضيف الذي أحسن جمعها وتلخيصها حيث يقول : « وقد اختلفت آراء المستشرقين في هذه اللّهجة التي كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، فقال (نولدكه) إن الاختلافات بين اللهجات في الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، كانت قليلة، وقد تركبت منها جميعًا هذه اللّهجة الفصحى . وتبعه (جويدي) يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها ، إنما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم . وذهب فيشر إلى أنها لهجة معيَّنة ، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل . وذهب (نالينو) إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر والتي جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللّغوية وشواهدهم ، وهي قبائل معدّ التي جمع ملوك كنده كلمتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي . وفي رأيه أنها تولدت من إحدى

اللهجات النجدية ، وتهذبت في زمن مملكة كنده ، وصارت اللّغة الأدبية السائدة بين العرب . ويرى (هارتمان و فولرز) أنها لهجة أعراب نجد واليمامه وقد أدخل فيها الشعراء تغييرات كثيرةٍ ، ومضى (فولرز) يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ... ، وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غذتها جميعًا . وعلى ضوء من رأي (نالينو) حاول (بلاشير) أن يقيم حدودًا لهذه اللّغة الأدبية معتمدًا على القبائل التي كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهي : تميم وقيس وأسد وهذيل وعليا هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطّين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متجهًا شمال الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن معًا وأن القرآن لا يستند على اللّهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهي لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التي تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميها ، ومضى يشكك في أن تكون لهجة قريش هي التي حققت لنفسها هذا التسامي » [١].

أما من تبعهم من المحدثين وهم قلّة فلم يجرؤوا على نسبتها إلى أعراب نجد واليمامة ، وإنما اكتفوا بهدم فكرة قيامها على أساس اللّهجة القرشية ومنهجها وقالوا إنها لغة مشتركة تكونت على مر الزمن بطريقة لا سبيل لهم الآن إلى تبينها ، وإنَّ ما قيل عن نسبتها إلى قريش إنَّما هو على سبيل المجاملة والتمجيد لقبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم[٢] .

ونحن نعلم أنها لغةٌ مشتركةٌ كما نعلم أن الموضوعية التي يتمحكون بها هم وأساتذتهم ترفض فكرة قيام لغة مشتركة تتسم بالإنتشار دون أن يكون من ورائها عوامل دينية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية وحضارية تبعث على انتشارها واستبقائها ، كما ترفض الموضوعية قيام لغة مشتركة من العدم أو التآلف العشوائي

---

(١) العصر الجاهلي ، د . شوقي ضيف (١٣١ - ١٣٢) .

(٢) قال بهذا الرأي الدكتور عبده الراجحي في كتابه : اللهجات العربية في القراءات (٤٨) .

الذي لا يقوم على منهج واحد واضح[١] إذن لتميزت بالفوضى وعدم الاطراد ، وهذا ما لا نشهد به على العربية الفصحى ولا أنفسهم به يشهدون .

« فاللّغات المشتركة تقوم دائمًا على أساس لغة موجودة، حيث تُتّخذ هذه اللّغة الموجودة لغة مشتركة من جانب أفراد مختلفي التكلم . وتفسر الظروف التاريخية تغلب هذه اللّغة التي اتُخذت أساسًا وتعلل انتشارها في جميع مناطق التكلم المحلي المختلفة . ولكن على العالم اللّغوي أن يبدأ بالعمل لتحديد هذه اللّغة»[٢] .

ونحن نرى أصحابنا قاموا بعكس ما نصح به فندريس علماء اللّغة ! ، وليت شعري فإن عاملاً واحدًا من العوامل التي ذكرنا أنها توفرت للّهجة القرشية وأدت إلى انتشارها واتخاذها لغة أدبية مشتركة كفيل بظهور لغة مشتركة في غيرها ، كما أن أكثر اللّغات المشتركة كانت في أصلها لهجة محلية . وهذا ما أثبتته الدراسات اللّغوية المقارنة وقاله علماء الغرب في لغاتهم المشتركة . إليك بعض الأمثلة[٣] :

١ – لغة الاغريق الهلّينستية ليست في جوهرها إلا اللّهجة الأتيكية وقد كانت لغة محليّة لإقليم منعزل لا يكاد يرحل إليه أحد من الأجانب ، وقد هيأتها ظروف سياسية وأدبية لتصبح لغة مشتركة تستعملها لهجات ولغات مختلفة .

٢ – اللّغة اللاتينية كانت في الأصل لغة روما ثم أصبحت لغة إيطاليا القديمة ثم لغة العالم الغربي بأسره ، وقد هيأتها المدنية لتبوء هذه المكانة والانتشار على لغة الريف من حولها .

٣ – اللّغة الفرنسية المشتركة كانت في الأصل لهجة الطبقة البرجوازية من العاصمة باريس رجّحتها ظروف سياسية .

---

(١) قال الدكتور نهاد الموسى في كتابه : العربية وأبناؤها : (إن العربية بناء ائتلافي قد أقيم على لهجات متعددة تلتقي على قدر مشترك من الظواهر وتختلف في أشياء من ذلك)(١٩) ، ولكنه لم يشر إلى المنهج الذي تم وفقه هذا التأليف حتى ظهر في تلك الصورة المطردة المشاهدة في العربية الفصحى .
ومما ينفي قيام الفصحى على التآلف العشوائي قول ابن جني في الخصائص ٤٤/١ : (ولو كانت هذه اللّغة حشوًا مكيلاً ، وحثوًا مهيلاً ، لكثر خلافها ، وتعادت أوصافها ..) .

(٢) اللّغة ، فندريس (٣٢٨) .

(٣) عن المرجع السابق (٣٢٨ – ٣٣٥) . بتصرف .

٤ – اللّغة الإسبانية المشتركة خرجت من لهجة من لهجات الشمال ، لهجة قسطلة القديمة ، أظهرتها ظروف سياسية ثم صارت لغة أدبية مما دعم انتشارها .

٥ – اللّغة الانجليزية المشتركة نشأت من لهجة العاصمة لندن التي كانت في نقطة تجعلها ملتقى لمختلف اللهجات مما أدى إلى شحن لغتها المشتركة بآثار اللهجات المختلفة .

٦ – الألمانية المشتركة كانت لغة كتابة وتدين بنجاحها إلى أسباب دينية . فبحركة الإصلاح انتشرت ألمانية لوثر في المنطقة الألمانية السفلى بأسرها ؛ وفي نهاية القرن السادس عشر الميلادي كان لا يستعمل في هذا المجال لغة مكتوبة أخرى غير اللّغة الأدبية المشتركة .

٧ – اللّغة الروسية الأدبية نشأت عن أصل ديني حيث كانت لغة الكنيسة وهي اللّغة السلافونية التي استعملها مترجمو الكتاب المقدس الأقدمون وظلت كذلك طوال العصور الوسطى .

٨ – اللّغة الإيطالية المشتركة كانت أولاً وقبل كل شيء لغة مدينة فلورنسا –المجتمع الراقي منها– رفعها دانتي إلى مرتبة اللّغة الأدبية .

ففي هذه الأمثلة دلالة واضحة على أن اللغات المشتركة تنطلق عادة من لهجة محلية ساعدتها ظروف خاصة على التوسع والانتشار ، كما تبرز قدرة العامل الواحد في إنشاء لغة مشتركة . فكيف بعد ذلك ينكرون على اللّغة القرشية سيادتها وقيام الفصحى على أساسها وهي التي توفّرت لها جميع العوامل التي تنجم عن إحداها اللّغات المشتركة ؟؟

أمّا ما قيل عن نسبة الفصحى إلى القرشية بأنه كان على سبيل المجاملة والتمجيد لرهط النبي عليه الصلاة والسلام ، فهو طعن في نزاهة علماء العربية وجهل بمقاصد كلامهم إن لم يكن بطبيعة تكوّن الفصحى . والذي أوقعهم في ذلك هو تصريح العلماء بفصاحة لغة قريش ثم جمعهم اللّغة من غيرها[1] ، وفي ذلك من

---

(١) يقول الدكتور تمام حسان في كتابه الأصول : (إن النحاة لم يأخذوا اللّغة عن قريش ، فكيف تكون الفصحى لهم في أصلها ؟) (١١٢) .

التناقض – في وجهة نظرهم – ما فيه دون أن يفرّقوا بين الحديث عن نشأة الفصحى وارتكازها على اللّهجة القرشية كأساس قام عليه منهجها واختياراتها وأصل انطلقت منه ، وبين حديثهم عن جمع اللّغة الذي حدث في وقت متأخر (القرن الثاني الهجري) وهو وقت تسرّب اللحن فيه إلى حواضر الحجاز . وحينئذٍ لم يكن أمام العلماء سوى جمع اللّغة من القبائل البدوية في نجد والحجاز ، ولكن بعد أن انتظم لهم المثال والنموذج الأعلى فجمعت اللّغة وفق منهجه ، وتم استخدامه في قياس غائب اللّغة بحاضرها ، كما استخدم في التحقق من صحة المنقول وفصاحته .

فالفرق بين حديثهم عن الفصاحة ونشأتها وبين قصر الجمع على بعض القبائل سببه واضح مفهوم يتجلى في قول الفارابي : « كانت قريشٌ أجودَ العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانةً عما في النفس ؛ والذين عنهم نقلت العربية وبهم اقتُدِي ، وعنهم أُخِذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخِذ ومعظمه ، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ؛ ثم هذيل ، وبعض كِنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضريٍّ قطّ ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكنُ أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ من لخم ... ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللّغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم .. »[١] .

فأين المجاملة أو التعارض في هذا الكلام ؟ وحريٌ بمن أراد المجاملة أن يسكت عن حواضر الحجاز التي منها مكة لا أن يصف ألسنة أهلها بالفساد – وقت الجمع– بسبب الإختلاط .

ومن جهة أخرى فإن جميع الروايات التي نسبت الفصاحة إلى قريش استندت إلى سبب موضوعي اتفقت جميعها عليه ، وهو انتقاء قريش للألفاظ وانتقادها

---

(١) المزهر ١/٢١١ ، ٢١٢ . النص غير موجود في كتاب الحروف للفاربي .

واختيارها لأحسن كلام العرب والتكلم به مما جعلهم أفصح العرب .

أمّا الدليل الذي ادعى المنكرون عدمه فهو خُلو لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ وعيوب النطق وجميع ما يندرج تحت عنوان اللّغات المذمومة ، وهو أمر لم تسلم منه لهجة عربية وعلى رأسها تلك القبائل المعوّل عليها في جمع اللّغة . قال ابن فارس في الدلالة على فصاحة لغة قريش : « ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس » .

ومما يشير إلى أن الفصحى قامت وفق المنهج القرشي خلوها من هذه اللّغات وتقديم النحاة والقراء المذهب الحجازي على غيره ، واعتمادها مبدأ التخيُّر والانتقاء، فانظر إلى موقف ابن جني إزاء التعامل مع هذه العيوب في اللّهجات المعتمدة ، إذ يقول : « فإذا كان الأمر في اللّغة المعوّل عليها هكذا وعلى هذا فيجب أن يقل استعمالها ، وأن يُتخيَّر ما هو أقوى وأشيع منها ؛ إلا أنَّ إنسانًا لو استعملها لم يكن مخطئًا لكلام العرب ، ولكنه كان يكون مخطئًا لأجود اللغتين . فأمّا إن احتاج إلى ذلك في شعرٍ أو سجعٍ فإنه مقبول منه ، غير مَنعِيّ عليه »[١] .

ويدلنا كلام ابن جني أن العربي لم يكن يتكلم بالفصحى دون أن يشعر بمنهجها وخصائصها بل على العكس من ذلك كان يشعر بنواحي القوة والجمال فيها ويتطلع إلى إجادتها وتحسينها ويرتفع بها عن مستوى التخاطب العادي أو مستوى اللّهجة المحليّة وإن هو فعل ذلك عابه عليه المجتمع ونعى عليه ذلك .

وبإتباع هذا المنهج ظهرت اللّغة الأدبية في صورة موحدة لا تشتمل على تلك الخصائص اللهجية الذاتية ، ويبدو أن الوحدة اللغوية لم تكن ضرورة اجتماعية فقط بل كانت ضرورة أدبية أيضًا ، ليتوحد مع توحدها معيار النقد والمفاضلة في النّتاج الأدبيّ . وأنت تجد أنه بالرغم من تنقل الشعر بين القبائل العربية المختلفة كـ (ربيعة ثم قيس ثم تميم) فإن أيّاً منها لم تحاول أن تفرض لهجتها على لغته[٢] ، بل إنك

---

(١) الخصائص ١٢/٢ .

(٢) أكثر ما دخل من اللهجات إما ضرورة أو تم اختياره لفصاحته فيصبح بذلك من خصائص الفصحى.

لا تستطيع أن تفرِّق بين شعر العدناني من القحطاني ، أو بين شعر التميمي من الحجازي بالرغم من أوجه الخلاف الواضحة بين اللهجات العربية [١]. فهذا التوحد في اللّغة الأدبية لا يتأتى إلا مع وجود منهج متوحد لا يقل الاتفاق عليه عن اتفاقهم على الوزن والقافية ونظام البناء الذي قامت عليه قصائدهم .

ونحن لا نقول إن اللّغة القرشية هي ذاتها اللّغة الأدبية بقدر ما نقول بأنها القاعدة التي قامت عليها ، لأننا نجد في اللّغة الأدبية الفصحى بعض الخصائص التي لا نجدها في اللّغة القرشية من أبرزها ظاهرة الهمز[٢] ، والتوافق الحركي أو الاتباع في نحو بِهِ وعليهِ[٣] ، وكذلك تعدد الصيغ والأوزان وكثرة الترادف والمشترك والتضاد في الفصحى وهي ظواهر يستحيل تكوّنها من لهجة واحدة[٤] ووجودها في لهجة واحدة .

فاللّغة الفصحى هي اللّغة القرشية عندما تعدت حدود مكة فأصبحت لغة مشتركة ، وعندما أصبحت لغة أدبية أسهم في تهذيبها وتنميتها ملوك الكلام فأضفوا عليها من المحاسن ما لم يستطعه أهلها ، وأضافوا إليها من مفردات لهجاتهم وبعض خصائصها ما أصبح من مكوّناتها . وبذلك أصبح للّغة الأدبية الفصحى نظامها الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي الخاص بها ، فأصبحت منهجًا بعد أن بدأت لهجةً ، وارتفعت عن مستويات اللهجات الخاصة بما فيها القرشية نفسها ، برغم سيطرة خصائصها على اللّغة الفصحى وقيامها على منهجها .

وبهذا نستطيع أن نفسر وصف أئمة النحو واللّغة لغة أهل الحجاز باللغة الفصحى القدمى كما وصفها ابن جني[٥] ، واللّغة الأولى القدمى كما وصفها

---

(١) تتبع الدكتور إبراهيم أنيس الخصائص اللهجية المعروفة عن هذيل في ديوان الهذليين فلم يجد لها أثرًا وكل ما وجده هو بضع كلمات . ينظر : اللهجات ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) ينظر من بحثنا ص (٥٥ ، ٣٢٤).

(٣) ينظر ص(٣٢٥) من بحثنا .

(٤) ينظر :عمل الشعراء في التوحيد اللغوي (أثر القيود في نمو اللّغة) ص(١٤٦).

(٥) الخصائص ١/٢٦٠ .

سيبويه[١] ، وفي موضع آخر يصفها باللّغة العربيـة القديمة الجيدة[٢] ، وفي آخـر الحجازية الجيدة[٣] .

أمّا اتّباع العرب لمنهج واحد أو حرصهم على اتباعه فقد صرّح به ابن جني في باب (أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها ، وحملناه عليها) إذ يقول : « [إن العرب] تكلّفت [في لغتها] ما تكلّفته : من استمرارها على وتيرةٍ واحدة ، وتقريها منهجًا واحدًا ، تراعيه وتلاحظه ، وتتعمّل لذلك مشاقّه وكُلَفه ، وتعتذر عن تقصير إن جرى وقتًا منها في شيء منه . وليس يجوز أن يكون ذلك كله في كل لغة لهم ، وعند كلّ قوم منهم ، حتى لا يختلف ولا ينتقض ، ولا يتهاجر ، على كثرتهم ، وسعة بلادهم ، وطول عهد زمان هذه اللّغة لهم ، وتصرّفها على ألسنتهم ، اتّفاقًا وقع ، حتى لا يختلف فيه اثنان ، ولا تنازعه فريقان ، إلاّ وهم له مريدون ، وبسياقه على أوضاعهم فيه معنيُّون؛ ألا ترى إلى اطّراد رفع الفاعل، ونصب المفعول، والجر بحروف الجرّ ، والإضافة والنسب ، والتحقير ، وما يطول شرحُه ؛ فهل يحسُن بذي لبّ أن يعتقد أنّ هذا كله اتفاق وقع ، وتوارد اتّجه ؟ »[٤]، وهو لذلك يرى أن اتّباع العرب لهذا المنهج الواحد سواء كان مصدره الوضع أو التوقيف قد حد من اتساع شقة الخلاف في لغة العرب ، فلم يظهر في أصولها وإنما اقتصر ظهوره في الفروع على قلة وندرة[٥] .

ونحن إذ نوافقه الرأي فلكوننا راعينا عصره (القرن الرابع الهجري) وهو عصر استحكم فيه أثر الإسلام في توحيد اللّغة وقدّم للعرب المثل الأعلى والنموذج الموحد فاستطاعوا محاكاته وعرض لغاتهم عليه مما أسهم في التقريب بين لهجاتهم المختلفة .

أمّا قبل ذلك فإننا نتحفظ عن مجاراته لا سيما وقد نقل بنفسه في الحديث عن

---

(١) الكتاب ٢٧٨/٣ .

(٢) المرجع السابق ٤٧٣/٤ .

(٣) المرجع السابق ٤٨٢/٤ .

(٤) الخصائص ٢٣٧/١ – ٢٣٨ . وما بين القوسين المعقوفين زيادة لبيان المعنى .

(٥) ينظر : الخصائص ٢٤٤/١ .

أغلاط العرب قول أبي علي الفارسي : « إنما دخل هذا النحو في كلامهم ؛ لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ، ولا قوانين يعتصمون بها . وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ؛ فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد »(١) . ومع عدم وجود القوانين والأصول فإننا لا نعوِّل على الطبع العربي – مع أهميته – لأنه عرضة للتغير الجماعي وقد مرّ بك أن من لغات العرب اللّغات اليمنية القديمة والعربية الشمالية البائدة حتى العربية الشمالية الباقية تحوي عدَّة لهجات تختلف فيما بينها على درجات متفاوتة تتسع بين العدنانية والقحطانية وتقل بين اللّهجات العدنانية ، وقد مرّ بنا قول الجاحظ : « فقد تخالفت عليا تميم وسفلى قيس وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللّغة وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير وسكان مخاليف اليمن»(٢) ، بل حتى اللهجات العدنانية منها ما نقل عنها ومنها ما ترك الأخذ منه لفساده أو لبعده عن الفصاحة .

فأين هذه اللّغات في عصر ابن جني ؟ نعم . انقرض منها ما انقرض وذابت لهجات في لهجات ، وساد بعضها على بعض ، وتقاربت وتوحدت . فحكم بقلَّة الخلاف بينها انطلاقًا من منهجه الوصفي وقد صدق .

ونحن باتباعنا المنهج التاريخي علمنا أن الفروق بين اللهجات قديمًا كانت شاسعةً فتقاربت في عصره . وأن اللّغة الأدبية الموحدة كانت مقصورة على طبقة المثقفين فعممها مجيء الإسلام على جميع طبقات العرب .

وقد جاء عن إبراهيم أنيس قوله : « فقبل الإسلام استمسكت كل قبيلة بصفاتها الكلامية ، في حديثها العادي وفي لهجات التخاطب ، ولكن الخاصة من الناس من تلك القبائل قد لجأ إلى تلك اللّغة النموذجية التي نشأت في مكة ، في شئونهم الجدية يخطبون بها وينظمون الشعر ، وينفرون من صفات اللهجات في مثل هذا المجال . حتى إذا عادوا إلى بيئتهم تحدثوا إلى الناس في الشئون العامة بمثل لهجتهم ، لئلا تنفر منهم النفوس »(٣) .

---

(١) الخصائص ٣/٢٧٣ .
(٢) رسائل الجاحظ ١/١٠ .
(٣) اللهجات العربية (٤٦) .

ولو كانت اللّغة الأدبية الفصحى في متناول جميع العرب قبل الإسلام ، أو كانت الفروق بين اللّهجات العربية طفيفة ، فلِمَ نزل القرآن على سبعة أحرف كما سيتبين لك . وعلامَ ظهرت تلك الدعـوات التي تقول ببعد لغة حمير وأقاصي اليمن ؟ ولماذا كان بعض الصحابة لا يفهم أكثر ما يحدِّث به الرسول صلى الله عليه وسلم وفود العرب ؟ ناهيك عما سقناه من أمثلة تكشف عن مظاهر الخلاف بين اللهجات العربية وكما رأينا فقد اشتملت على جميع مستويات اللّغة (الصوتية ، الصرفية ، النحوية ، الدلالية) وإن كانت بعضها فروقًا يسيرة فلكونها المتوفرة بين أيدينا ، وفي ذلك أعظم الدلالة على أثر الإسلام في توحيد اللّغة وإذابة الفروق بين لهجاتها المختلفة ، لأن أكثر الفروق رُصدت ودونت من قبل العلماء في عصر التدوين (القرن الثاني الهجري) أي بعد مجيء الإسلام بقرنين ، ولم يخدمنا الشعر الجاهلي في دراسة اللّهجات لأنه نظم باللّغة الأدبية الموحدة سوى بعض الأبيات التي لا تتجاوز عدد أصابع اليدين ، والتي ذكرها علماء اللّغـة على استحياء لأنهم تعمدوا إماتتها ودثرها كما سيأتي بيانـه ، ولولا حاجتهم إلى الدلالة على فصاحة لغة قريش ما ذكروها ، وقد ذكرنا في بداية الباب الأوّل أن منهجهم قام على جمـع اللغات الفصيحة القريبة من لغة القرآن، ووضعوا لجمع اللّغة الكثير من الاستثناءات والأسس والضوابط ، فاقتصروا على القبائل الحجازية والنجدية ، وهما أقرب اللهجات إلى بعضهما ، وفي أرضهم نشأت الفصحى وبالرغم من ذلك رُصدت بينهما الفروق والخلافات اللّغوية فما بالنا بسائر اللهجات العربية البعيدة عن لغة القرآن .

الباب الثالث
أسباب الوحدة اللغوية بعد الإسلام ومظاهرها

الفصل الأول : أسباب الوحدة اللغوية بعد الإسلام .

الفصل الثاني : مظاهر الوحدة اللغوية بعد الإسلام .

تقتضي منا الموضوعية القول بأن الوحدة اللغوية بدأت في الظهور قبل مجيء الإسلام نتيجة لتضافر العوامل : الدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والأدبية سالفة الذكر .

وكان أثر الإسلام في التوحيد اللغوي أحد هذه العوامل وهو العامل الديني ولكنه يختلف من حيث تأثيره قبل الإسلام عنه بعد الإسلام إذ لم يكن للعامل الديني كتاب يُتعبد بتلاوته ومثل أعلى ونموذج موحد تتوقف عنده المغامرات اللغوية من قبل العرب في سبيل صناعة اللّغة الموحدة . فليس بعده زيادة لمستزيد أو إضافة لمضيف، فهو الغاية والمنتهى وما على طالب الوحدة اللغوية إلا متابعة لغته والسير على اختياراته فهو الحَكَم ومقياس الفصاحة . يقول ابن خالويه في شرح الفصيح : « قد أجمع الناس جميعًا أن اللّغة إذا وردت في القرآن فهي أفصحُ مما في غير القرآن ، لا خلاف في ذلك »[١] .

وسرعان ما أصبح الإسلام من وراء جميع العوامل الأخرى الاجتماعية والسياسية لأنها قامت على أساسه واشتقت أنظمتها منه وفي ذلك يقول لوبون : « كانت الدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم الدين والتي اشتقت منه جميع أنظمتها السياسية والاجتماعية »[٢] .

فالوحدة اللغوية لم تتحقق بمفهومها الشامل إلا بعد مجيء الإسلام إذ كانت قبل ذلك محصورة في طبقة المثقفين والأدباء من العرب الذين حازوا قدرًا من الثقافة اللغوية بارتيادهم الأسواق والمحافل العامة والأندية والأسفار والمواسم الدينية وهم الخاصة من العرب كمشايخ القبائل وأدبائها وساداتها ووجهائها وكل من لعب دورًا اجتماعيًا بشكل أو بآخر لأن اللّغة الأدبية المتمثلة فيها وحدة اللّغة كان إتقانها –كما يقول إبراهيم أنيس– موضع فخر رؤساء القبائل والخاصة من الناس ، يحاولون اتقانها والتفنن في نواحي القول بها[٣] .

(١) المزهر ١/٢١٣ .

(٢) جوستاف لوبون (حضارة العرب) بواسطة كتاب الحضارة العربية ، علي حسني الخربوطلي(٧٥).

(٣) في اللهجات العربية (٤٠) .

أمّا العامّة وأكثرهم من الشيوخ والنساء والأطفال وغيرهم ممن انعزل داخل القبيلة فلم يحظَ بقدر وافر من الثقافة اللغوية الموحدة والمشتركة ، فقد تمسك بلهجة قبيلته وهم في ذلك بين ثلاث حالات : فمنهم من إذا توفرت له فرصة الاحتكاك اللغوي وسمع لغة غيره أو اللّغة الأدبية الفصحى لصقت به وأسرع في قبولها ووجدت في كلامه ، ومنهم من يتطلب الأمر معه كثرة السماع وطول المدة مع الدربة والممارسة ، ومنهم من يعتصم بلغته فلا يطيق التحول عنها .

وعند مجيء الإسلام عمل على ترسيخ الوحدة اللغوية وتعميم اللغة الأدبية الموحدة بين جميع العرب على اختلاف مستوياتهم الثقافية سواء كانوا من الخاصة أو العامة ، بل عَمِلَ على نشرها بين غير العرب من الأمم الأخرى وأسهم في خلودها وعالميتها وذلك أسمى مراحل التأثير التي عرفتها اللغات الإنسانية على مرِّ العصور.

وقد جاء عمله بشكل متدرِّج وطريقة مباشرة وغير مباشرة . أما المباشرة فهي تلك الأعمال التي قدمها الإسلام وأسهمت في توحيد اللّغة أهمها نزول القرآن باللّغة الأدبية الموحدة وما تبعه من ترسيخها ونشرها وتعميمها بين جميع العرب . وأمّا غير المباشرة فهي تلك الأعمال التي قام بها خلفاء المسلمين وعلماؤهم وأدت إلى التوحيد اللغوي ولكنها قامت في الأصل لخدمة الإسلام أو بسببه مثل جمع اللّغة وتقعيدها أو تلك العوامل السياسية والاجتماعية التي اشتقت أنظمتها من الإسلام وعمل على ترجيحها فحسبناها عليه .

الفصل الأول

أسباب الوحدة اللغوية

بعد الإسلام

أولاً : نزول القرآن على سبعة أحرف ، من باب التدرج في توحيد اللغة والتيسير على أهلها .

ثانيًا : معسكرات الجهاد وإذابة الفروق اللغوية .

ثالثًا : جمع عثمان (رضي الله عنه) الناس على مصحف واحد (القرشي) وحرق سائر المصاحف .

رابعًا : قيام علماء الإسلام بجمع اللغة وتقعيدها على أساس اللغة الأدبية (لغة القرآن) .

خامسًا : العامل الاجتماعي .

سادسًا : التسامي إلى المثل الأعلى والنموذج الموّحد في اتباع لغة القرآن .

سابعًا : الوحدة السياسية تبعتها وحدة لغوية .

الفصل الأول
أسباب الوحدة اللغوية بعد الإسلام

أولاً - نزول القرآن على سبعة أحرف ، من باب التدرج في توحيد اللغة والتيسير على أهلها :

وسببه التيسير على العرب والتدرج في توحيد لغاتهم لاختلافها ، وتباينها ، وعدم مقدرة بعضهم التحوّل عن لغته خاصة أولئك الذين انعزلوا في مناطقهم وداخل قبائلهم فلم يتمكنوا من اللّغة الأدبية الموحدة . وكما راعى الإسلام ما رسخ في حياتهم من عادات سيئة فتدرج في تحريمها ، كذلك راعى اختلاف لغاتهم فتدرج في توحيدها بأن أجاز لهم القراءة على الأحرف السبعة ولم يلزم العرب بتلك اللّغة الأدبية - في أوّل الأمر - مراعاةً لواقعهم اللغوي ، ولأنه جاء للعامة والخاصة بل للناس كافّة .

يتجلى ذلك فيما رواه ابن الجزري حيث يقول : « فأما سبب وروده على سبعة أحرف فللتخفيف على هذه الأمة وإرادة اليسر بها والتهوين عليها شرفًا لها وتوسعة ورحمة وخصوصية لفضلها وإجابة لقصد نبيها أفضل الخلق وحبيب الحق حيث أتاه جبريل فقال له : « إن اللّه يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : اسأل اللّه معافاته ومعونته إن أمتي لا تطيق ذلك ، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف » . ويُصرح بذلك في رواية أخرى تقول : « إن القرآن نزل من سبعة أبواب على سبعة أحرف ، وإن الكتاب قبله كان ينزل من باب واحد على حرف واحد ؛ وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبعثون إلى قومهم الخاصين بهم ، والنبي صلى اللّه عليه وسلم بُعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها ، عربيها وعجميها ؛ وكان العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة ، وألسنتهم شتى ، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج لا سيما الشيخ والمرأة ومن

لم يقرأ كتابًا كما أشار صلى الله عليه وسلم[١] . فلو كلِفوا العدول عن لغتهم والانتقال من ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع » [٢].

وبمثل هذا قال ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن : « فكان من تيسير الله تعالى: أن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يُقرئ كل أمة بلغتهم وما جرت عليه عادتهم : فالهذلي يقرأ (عَتَّى حين) يريد (حَتَّى) لأنه هكذا يلفظ بها ويستعملها ، والأسدي يقرأ: (تِعْلمون ، وتِعلم ، وتِسْوَدُّ وُجُوُه ، وأَلَمْ إِعْهَدْ إِلَيكُم)، والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز ... ولو أن كلَّ فريق من هؤلاء أُمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئًا وكهلاً -لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضةٍ للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة . فأراد الله برحمته ولطفه، أن يجعل لهم متسعًا في اللغات ومتصرفًا في الحركات كتيسيره عليهم في الدين »[٣] .

معنى الأحرف السبعة

لا يفرِّق الكثير من العامة بين الأحرف السبعة والقراءات السبع التي هي من قراءات القراء السبعة الذين جمع ابن مجاهد قراءاتهم في المائة الرابعة من الهجرة . لأن الأحرف السبعة كانت قبل أن يُخلقوا وقد أحرق عثمان المصاحف التي كتبت بها. وقد رجع بعضهم هذا التلبيس على ابن مجاهد مسبع السبعة ، وليس مدخل اللبس من هنا كما هو من اختلاف العلماء حول معنى الأحرف السبعة إذ بلغت آراؤهم في تفسيرها أربعين رأيًا[٤]؛ فُسرت في أكثرها بما جاءت به القراءات السبع، والذي عليه أكثر أهل العلم أنها لغاتٌ ثم اختلفوا في تعيينها . جاء في الصاحبي عن ابن عباس قوله : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، أو قال سبع لغات ، منها خمس

---

(١) يقصد قول النبي صلى الله عليه وسلم حين أتاه جبريل بالأمر : (إني بعثت إلى أمة أميين فيهم الشيخ الفاني والعجوز الكبير والغلام قال : فمرهم فليقرءوا القرآن على سبعة أحرف) النشر ١/ ٢٠ .

(٢) النشر في القراءات العشر . ابن الجزري ١/ ٢٢ .

(٣) تأويل مشكل القرآن (٣٩) ، تحقيق : السيد أحمد صقر.

(٤) أوردها السيوطي في كتابه : الاتقان في علوم القرآن ١/ ١٠٠ فارجع إليه .

بلغة العَجُزِ من هَوازِن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن وهي خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجُشَمُ بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » [١] ، وجاء في النشر عن تعيينها : « فقال أبو عبيد : قريش ، وهذيل ، وثقيف ، وهوازن ، وكنانة ، وتميم ، واليمن ؛ وقال غيره خمس لغات في أكناف هوازن : سعد وثقيف ، وكنانة وهذيل وقريش ، ولغتان على جميع ألسنة العرب وقال أبو عبيد أحمد بن محمد بن الهروي : يعني على سبع لغات من لغات العرب أنها متفرقة في القرآن فبعضه بلغة قريش وبعضه بلغة هذيل وبعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة اليمن » [٢].

وقد اعترض ابن الجزري على تفسير معنى الحروف في الحديث باللغات بقوله : « وهذه الأقوال مدخولة فإن عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم اختلفا في قراءة سورة الفرقان كما ثبت في الصحيح وكلاهما قرشيان من لغة واحدة وقبيلة واحدة »[٣] ، وهو اعتراض مرفوض عندنا لأن النص الذي قام عليه الاعتراض لم يذكر الآية موضع الخلاف أو يحدد نوع ذلك الخلاف وكذلك جميع النصوص التي عزى فيها الخلاف إلى اختلاف الحروف لم تشر إلى ذلك ، فانظر إلى نص الحديث كما جاء في البخاري قال : « حدثنا سعيد بن عفير قال حدثني الليث قال حدثني عقيل بن شهاب قال حدثني عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة وعبدالرحمن بن عبد القاري حدثاه أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول : ثم سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فكدت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلَّم فلببته بردائه فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقلت : كذبت، فإن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان

---

(١) الصاحبي ، أحمد بن فارس (٤١) .

(٢) ، (٣) النشر ٢٤/١ .

على حروف لم تقرئنيها فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أرسله اقرأ يا هشام فقرأعليه القراءة التي سمعته يقرأ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كذلك أنزلت، ثم قال اقرأ يا عمر ، فقرأت القراءة التي أقرأني فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه ».

فهذا النص كما ترى لم يذكر اللفظ موضوع الخلاف ولم يكشف عن نوعه أكان خلافًا صوتيًا أو صرفيًا أو نحويًا أو دلاليًا وما أدرانا أن الخلاف قد يكون في تلك الخصائص التي عرفتها القرشية بعد أن أصبحت لغة أدبية فصحى ، كظاهرة الهمز أو التوافق الحركي ، وهي قبل ذلك لا تعرفه إذ يقرءون قوله تعالى : (فخسفنا به وبداره الأرض) : (فخسفنا بهو وبدارهو الأرض) ، فالفصحى وإن قامت على منهج القرشية فقد تسامت عليها عندما أصبحت لغة أدبية مشتركة ، وأسهم في صناعتها ملوك الكلام من الشعراء والخطباء ، فأدخلوا عليها ما حسُنَ من خصائص لهجاتهم ، وما لطف من استعمالاتهم وتراكيبهم .

وبهذا نستطيع أن نتفهم طبيعة الخلاف الذي حدث بين عمر وهشام وإن كانا من قبيلة واحدة ولهجة واحدة . وهناك رأي آخر قال به القرطبي في تفسيره (فصل في ذكر معنى حديث عمر وهشام) فأخرج الخلاف بينهما على التزام كلٍّ منهما بما أقرأه الرسول وقال : إن التيسير لا يعني جواز إبدال الصحابي اللفظة من غيرها في اللغات وإنما يلتزم بالحرف الذي أقرأه به الرسول صلى اللّه عليه وسلم ومن هنا جاء الخلاف[١] .

أما حقيقة الاختلاف بين الأحرف السبعة فهو كما يقول ابن الجزري : « فإن الاختلاف المشار إليه في ذلك اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض؛ فإن هذا محال أن يكون في كلام اللّه تعالى ، قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا)»[٢] .

---

(١) ينظر : تفسير القرطبي ١/٤٧ .

(٢) النشر ١/٤٩ .

وأما حقيقة العدد فقد اختلف فيه العلماء فمنهم من قال إن أصول قبائل العرب تنتهي إلى سبعة أو أن اللغات الفصحى سبع ، وقال آخرون : ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد أو ينقص بل المراد السعة والتيسير وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب لأن اللّه أذن لهم في ذلك . والعرب تطلق السبعة والسبعين والسبعمائة تريد الكثرة والمبالغة وليس العدد ، واعلم أن القراءات تربطها علاقة وثيقة بالأحرف السبعة سنذكرها في عمل عثمان إن شاء اللّه .

ثانيا - معسكرات الجهاد وإذابة الفوارق اللغوية :

كان امتزاج القبائل العربية في معسكرات الجهاد من أهم العوامل التي أدت إلى التوحيد اللغوي وأسهمت في إذابة الفروق بين لهجاتها المختلفة .

ومن المعروف أن مما يوحِّد الألسنة وينفي الفروق اللغوية–كما يقول يوهان فك– التجنيد في الخدمة العسكرية ، إذ يجمع الرجال من المناطق اللغوية المختلفة في حياة واحدة [(١)].

وقد تحقق ذلك عندما فرض الإسلام الجهاد على المستطيع من المسلمين لنشره والدفاع عنه ، فتحققت بالجهاد الوحدة الدينية والسياسية في جزيرة العرب ، خاصة بعد فتح مكة وهي العاصمة الدينية والسياسية قبل الإسلام فأقبلت العرب على دخول الإسلام أفواجًا وجماعات ، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمهم أمور دينهم ويقرأ عليهم القرآن بحروفه السبعة تسهيلاً وتيسيرًا عليهم مراعيًا بذلك واقعهم اللغوي إذ كانت الغاية الفهم والتبليغ ، فتساهل في شأن اختلاف اللغات بل وخاطب وفود العرب بلغاتهم ولم يقبل من الصحابة اختلافهم في القراءة وقال – كما جاء عن عمرو بن العاص – : « فأي ذلك قرأتم فقد أصبتم ولا تماروا فيه فإن المراء فيه كفر)[(٢)] ، وسعى صلى الله عليه وسلم إلى انتزاع العصبية القبلية من نفوسهم وأخمد النعرات الجاهلية والتعصب للقبيلة ، وأصبح ولاء العرب للإسلام دون غيره حتى إن الرجل منهم قد يلقى أباه في المعركة فيقتله أو يأسره نصرة لدينه ، وقد حارب المهاجرون آباءهم وإخوانهم من قريش في معركة بدر وغيرها من المعارك . وبذلك أصبح الجيش الإسلامي يضم جميع قبائل العرب الحجازي واليمني والنجدي والعماني وهنا توفرت فرصة الاحتكاك اللغوي بين لهجاتهم المختلفة ، وذابت مع

---

(١) ينظر كتابه : العربية. دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة د. رمضان عبد التواب (٢٤١).

(٢) النشر ٢١/١ .

الزمن فروقها اللغوية .

وفي الحقيقة إن العصر الذهبي للوحدة اللغوية حدث بعد خروجها من بلاد العرب وسيرها مع ركاب الجيوش العربية وهجرات قبائلها في البلاد المفتوحة إذ أحسُّوا هنالك بانتمائهم القومي بالرغم من اختلاف لهجاتهم فحنوا على بعضهم وتماسكوا فيما بينهم ولم يختلطوا بأصحاب تلك البلاد في أوّل أمرهم ، ولو فعلوه لذابوا فيهم وانتهى أمرهم وأمر لغتهم كما حدث في الهجرات السامية الأولى خاصة والعرب أقل عدداً وحضارة من أصحاب تلك البلاد . ويرجع الفضل في ذلك إلى السياسة التي قام بها عمر بن الخطاب – بتوفيق الله – إذ منع الجيوش الإسلامية من التملُّك والسكن في مدن البلاد المفتوحة ، وأنشأ مدنًا خاصةً بهم ، وفي نفس الوقت نهاهم عن تعلم لغة الأعاجم فقد روي عنه : « لا تعلموا لغة الأعاجم ولا تدخلوا عليهم كنائسهم فإن السخط ينزل عليهم » ، وقد روي عن ابن خلدون قوله إن صنيع عمر هدف إلى الحفاظ على اللّغة العربية[١] ، وقد صدق لأن العربية مفتاح الإسلام وبابه .

وقد قال بمثل ذلك يوهان فك فجاء في كتابه (العربية) : « فهذه الخصائص اللهجية ، قد صُقلت إلى حد بعيد في عهد الفتوحات التي وحَّدت القادرين على حمل السلاح من مختلف القبائل في سبيل التعاون في الجهاد . يُضاف إلى ذلك أن السياسة الواسعة الأفق التي امتاز بها الخليفة الثاني عمر العبقري ، قامت بقسط لا يستهان به في سبيل توحيد اللّغة ، وإنشاء لسان مشترك بين قبائل البدو جميعًا؛ كما حفظت العربية من الاضمحلال والانحلال »[٢] .

وبعد أن استقر أمر تلك البلاد وتوحدت كلمة المسلمين وألسنتهم سمح لهم

---

(١) ينظرالحضارة العربية الإسلامية ، د . حسني الخربوطلي (٦٩) .
(٢) العربية . يوهان فك (١٩) .

بالاختلاط والامتزاج في الأمم من حولهم ليتحقق بذلك الهدف الذي خرجوا من أجله وهو نشر الدعوة وإعلاء كلمة التوحيد وتبليغ الناس ما أُنزل إليهم من ربهم . وأوكل بهذه المهمة إلى القراء وهم أقدم المعلمين في الإسلام فبعث عبدالله بن مسعود إلى الكوفة ، ومعاذا وعبادة إلى فلسطين ، وأبا الدرداء إلى دمشق معلمين ومرشدين ، وقد حرص بأن يعلموا أهل الأمصار القرآن بلغته الأدبية الموحدة التي نزل بها وذلك ليمنع أهل الأمصار الإسلامية من الوقوع في متاهة الاختلاف اللهجي التي كانت بين العرب ؛ والتي اقتضت نزول القرآن على سبعة أحرف لعدم مقدرة بعضهم التحول عن لهجته ، أمّا أهل الأمصار المفتوحة فليسوا عربًا – في أكثرهم – ولذلك يسهل عليهم تعلم اللّغة الأدبية الموحدة . وبذلك اختصر عليهم مرحلةً من مرحلتين، وهما: خروجهم عن لغتهم الأصلية وتعلم اللهجة ثم تعلم اللغة الأدبية .

فاختصر عليهم المرحلة الأولى ، يظهر ذلك في منعه عبدالله بن مسعود من أن يقرئ الناس (عتى حين) وهي هذليّة ، جاء في اللسان : « وفي حديث عمر رضي الله عنه : بلغه أنَّ ابن مسعود (رضي الله عنه) ، يقرئ الناس (عتَّى حين) ، يريد : (حتى حين) ، فقال : إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش ، كلُّ العرب يقولون (حتى) إلاّ هذيلاً وثقيفًا فإنهم يقولون (عتَّى) » [(١)].

وبالرغم من الإسهامات التي قام بها عمر بن الخطاب في سبيل توحيد اللّغة العربية فإنها لم تحظ بالنجاح التام ، فخرجت اللّغة العربية إلى تلك الأمصار في صورتين : إحداهما موحدة منسجمة وهي لغة الآثار الأدبية والقرآن الكريم ، والأخرى تشتمل على بعض الخصائص اللهجية التي لم تنجح عوامل الاحتكاك اللغوي في صقلها وإذابتها ، أو لم تخضع لتأثيرها ، فظهرت بفعل الهجرات القبليّة إلى تلك الأمصار ، وقد أشار الجاحظ إلى مثل ذلك فقال : « وأهل الأمصار إنَّما يتكلَّمون على لغة النازلة فيهم من العرب . ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل

---

(١) لسان العرب ٢٨/١٥ .

الكوفة والبصرة والشام ومصر » [١].

وبمناسبة حديثنا عن عمل معسكرات الجهاد في توحيد اللّغة نود الإجابة عن سؤال مهم وهو : هل فُرضت اللّغة العربية على الأمصار الإسلامية بقوة السلاح ؟

والجواب سهل واضح ، فالعرب لم يفرضوا الإسلام الذي خرجوا لنشره وتبليغه بقوة السلاح ، وكل ما فعلوه هو ترك الحرية لأهل الأمصار إن شاءوا أسلموا وإن شاءوا بقوا على دينهم ودفعوا الجزية نظير الحماية والإعفاء من التجنيد ، وهي أقل من الضرائب التي كانوا يدفعونها لحكامهم ، وتقارب ما يدفعه المسلمون من زكاة وخراج ، وإذا كانوا لم يفرضوا الإسلام بقوة السلاح فكيف يفرضون لغتهم بقوة السلاح ؟ !

ويكمن سر انتشار اللغة العربية وسيادتها خارج بلاد العرب في ارتباطها بالإسلام ، قال تعالى : (إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون) [٢] ، وقال عزّ من قائل: (وما أرسلناك إلاَّ كافَّةً للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر النّاس لا يعلمون)[٣] ، فالآية من سورة يوسف تدل على لغة القرآن وأنها سبيل تعقُّله وفهمه ، والآية من سورة سبأ تدل على عالمية الإسلام وأن النبي صلى اللّه عليه وسلم بُعث للناس كافَّة .

ولذلك كان الأئمة من الصحابة الراشدين ومن تلاهم من التابعين – كما يقول الزبيدي – : « يحضون على تعلم العربية وحفظها ، والرعاية لمعانيها ؛ إذ هي من الدين بالمكان المعلوم ، فيها أنزل اللّه كتابه المهيمن على سائر كتبه ، وبها بلّغ رسوله عليه السلام وظائف طاعته ، وشرائع أمره ونهيه[٤] » .

وقد حثّ خلفاء المسلمين أهل الأمصار على تعلم العربية حتى يفهموا أمور دينهم ويقرءوا كتاب اللّه، فقد جاء في طبقات النحويين عن أبي عثمان النهدي قوله :

---

(١) البيان والتبيين ١٧/١ .

(٢) سورة يوسف : ٢ .

(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

(٤) طبقات النحويين ، لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (١٢) .

« إنَّ كتاب عمر بن الخطاب أتاهم وهم بأذربيجان يأمرهم بأشياء وذكر فيه : «تعلموا العربية» [١] ، ورُوي فيه عن عمر قوله : « تعلموا العربية فإنها تشبب العقل ، وتزيد في المروءة » وقوله أيضًا : « تعلموا الفرائض والسنَّة واللحن كما تتعلمون القرآن »[٢] .

فاللّغة العربية مفتاح الإسلام وقد كان أهل الأمصار - كما يقول ديمومبين - يزدادون إسلامية كلما اقتربت لغتهم من لغة القرآن[٣] . فكيف بعد ذلك لا يحرص العرب على نشر لغتهم طالما ترتب على نشرها انتشار الإسلام .

وقد كان الدين الإسلامي هو الطالب الأوّل للغة العربية ، فلا يلبث الإسلام أن يدخل في بلد حتى تتعرب ألسنة أهلها كما حدث في بلاد الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب العربي وقد كانت قبل ذلك مواطن للغاتٍ مختلفة ، وهي (الآرامية والقبطية والبربرية) وإذا لم تتعرب الألسنة تمامًا تعربت حروف الكتابة في لغاتها واحتلت الألفاظ العربية نصف مفرداتها كما حدث مع الفارسية والتركية[٤] ، وقد استعملت الحروف العربية سبع وثلاثون لغة منها ما هو أوربي وآسيوي وأفريقي[٥] ، منها ما بقي إلى الآن ومنها ما قامت الحكومات العلمانية باستبداله ، وقد انتشر الإسلام والحرف العربي في بعض هذه البلاد مع تجّار العرب والمسلمين أي سلمًا بغير حرب ، منها جزيرة جاوة العظيمة ومعظم بلاد أفريقيا السوداء ومنها ما أصبح من الدول العربية . ويعود الفضل في ذلك إلى الإسلام إذ جعل من الجنسية العربية انتماءً لغويًا وليس قومية عرقية ، مما شجع أهل الأمصار على تعلم العربية

---

(١) طبقات النحويين (١٢) . (أبو عثمان النهدي هو عبدالرحمن بن مل البصري ، أدرك زمن النبي وشهد اليرموك ، توفي سنة ١٠٠ ، أذربيجان اقليم جنوب الديلم) .

(٢) المرجع السابق (١٣) .

(٣) ينظر كتابه (النظم الإسلامية) (١١) ، ترجمة صالح الشماع وفيصل السامر (بغداد ١٩٥٢) .

(٤) كانت التركية قبل قيام الدولة العلمانية تكتب بالحرف العربي ، استبدل به (مصطفى كمال - أتاتورك) الحرف اللاتيني عام ١٩٢٨م .

(٥) لمعرفة أسماء هذه اللغات انظر كتاب (غرائب اللغة العربية) الأب رفائيل نخله اليسوعي (١٢٤) (طه دار المشرق ببيروت) .

وإجادتها فأصبحوا بذلك عربًا لا تقل عروبتهم عن عرب الجزيرة . ويشهد على صحة زعمنا الشرع والعقل ودلالة الحال أو التاريخ .

أما مصداقه من الشرع فما رواه الإمام مالك قال : « جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي فقال : هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا ؟ (مشيرًا إلى سلمان الفارسي) فقام إليه معاذ بن جبل فأخذ تلبيبه ، ثم أتى به إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبره بمقالته ، فقام النبي – صلى الله عليه وسلم – قائمًا يجر رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودي : إن الصلاة جامعة ، وقال : ياأيها الناس إنَّ الربَّ واحد والأب واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ؛ فمن تكلم بالعربية فهو عربي »[١] .

ومصداقه من العقل يؤخذ من قول الجاحظ حين تساءل عن إسماعيل عليه السلام فقال : « وكيف صار عربيًا أعجمي الأبوين ؟ وأوّل من عليه أن يقر بهذا القحطاني ، فإنه لا بدّ من أن يكون له أب كان أول عربي من جميع بني آدم صلى الله عليه وسلم . ولو لم يكن ذلك كذلك وكان لا يكون عربيًا حتى يكون أبوه عربيًا وكذلك أبوه وكذلك جده . كان ذلك موجبًا لأن يكون نوح صلى الله عليه وسلم عربيًا ، وكذلك آدم صلى الله عليه وسلم »[٢].

أمّا مصداقه من التاريخ ودلالة الحال فهو قولنا : إن العروبة لو كانت عرقية لاقتصرت على أبناء يعرب بن قحطان – باعتبار النسب – ولما كان العدنانيون عربًا وهم في قلب جزيرة العرب وشرقها وشمالها ، وهذا أمر ينفيه الواقع فالقرآن نزل بلغة قريش وهو عربي والرسول من قريش وهو عربي ، وقد كان مقياس العروبة بين العدنانية والقحطانية لغويًا ، فمن العدنانية من يعيِّر ولد قحطان ويتهمونهم بأنهم ليسوا عربًا لأنهم يسمُّون بعض الأشياء بغير اسمها في لغتهم ، وكذلك القحطانيون

---

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير . ابن عساكر (٢٠٠/٦) ط ٢ ، دار المسيرة ، بيروت .

(٢) البيان والتبيين ، الجاحظ ٥/٤ .

يعيِّرون العدنانيين بأنهم متعرِّبون وأن أباهم بلسانهم نطق وإنما كانت لغة أبيه إبراهيم عليهما السلام غير العربية[١].

وبالعودة إلى العلاقة الوثيقة التي نشأت بين الدين الإسلامي واللّغة العربية نلاحظ أن غربة اللّغة تتبع غربة الدين وغربة الدين تتبع غربة اللّغة . وإليك بيانه :

أما قولنا إن غربة اللّغة تتبع غربة الدين الإسلامي ، فيفسره قول ابن خلدون في الفصل الذي عقده في لغات أهل الأمصار إذ يقول : « ولما تملك العجم من الديلم والسلجوقية بعدهم بالمشرق ، وزناته والبربر بالمغرب ، وصار الملك والاستيلاء على جميع الممالك الإسلامية ، فسد اللسان العربي لذلك ، وكاد يذهب لولا ما حفظه من عناية المسلمين بالكتاب والسنة اللذين بهما حفظ الدين ، وصار ذلك مرجعًا لبقاء اللّغة العربية المضرية من الشعر والكلام إلا قليلاً بالأمصار . فلما ملك التتر والمغول بالمشرق ولم يكونوا على دين الإسلام ذهب ذلك المرجِّح ، وفسدت اللّغة العربية على الإطلاق ، ولم يبق لها رسم في الممالك الإسلامية بالعراق (يقصد فارس وما وراءها) وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلادالشمال وبلاد الروم، وذهبت أساليب اللّغة العربية من الشعر والكلام إلا قليلاً يقع تعليمه صناعيًا بالقوانين المتدارسة من كلام العرب وحفظ كلامهم لمن يسره الله تعالى لذلك . وربما بقيت اللّغة العربية المضرية بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين طلبًا لها ، فانخفضت بعض الشيء . وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق لها أثر ولا عين ، حتى إن كتب العلوم صارت تكتب باللسان العجمي وكذا تدريسه في المجالس »[٢].

ونضيف على مقالة ابن خلدون ما فاته بوفاته وهو أن اللّغة العربية كما دخلت إلى الأندلس مع الإسلام فإنها خرجت منها بخروجه إثر حملات دواوين التفتيش الكاثوليكية التي تتبعت العرب والمسلمين في بلاد الأندلس وطردتهم ومنعت التحدث بالعربية واعتبرتها ضربًا من الإلحاد ، وقد كان أهل الأندلس قبل ذلك لا يحسنون

---

(١) ينظر : الصاحبي (٣٨) .

(٢) مقدمة ابن خلدون ٢/٩٠٣ - ٩٠٤ .

غيرها ، العامّة منهم والخاصة حتى رجال الدين المسيحي أقدموا على ترجمة كتب الكنيسة إلى اللّغة العربية لجهلهم باللّغة اللاتينية[١] .

وأمّا قولنا إن غربة الدين تتبع غربة اللّغة فهو أمر أسهب في بيانه كثير من العلماء قديمًا وحديثًا ، فتكلم عنه ابن جني في باب فيما يؤمنه علم العربيّة من الاعتقادات الدينيّة فقال : « وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها ، وحاد عن الطريقة المثلى إليها ، فإنما استهواه واستخف حلمه ضعفه في هذه اللّغة الكريمة الشريفة ، التي خوطب الكافة بها ، وعرضت عليها الجنة والنار من حواشيها وأحنانها »[٢] ، ولذلك حرص خلفاء المسلمين وعلماؤهم على تعليم أهل الأمصار المفتوحة العربية ، كما حرصوا على نشر الإسلام بينهم ، واعتبرت إجادة العربية (علومها) من شروط الاجتهاد والتفسير والإفتاء ، وهو أمر لا يكاد يخلو منه كتاب في الدين أو العربية .

وقد تصدى لهذا الموضوع من المحدثين حجة العربية مصطفى الرافعي فقال : «إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكمًا حتى يتأذن اللّه بانقراض الخلق وطيِّ هذه البسيطة ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس وردَّهم إليها وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامي ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء اللّه ، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية »[٣] .

وقال في تاريخ آداب العرب : « وما فرط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم إلا منذ فرطوا في لغته ، فأصبحوا لا يفهمون كلمه ، ولا يدركون حكمه ، ولا ينزعون أخلاقه وشيمه ؛ وصاروا إلى ما هم عليه من عربية كانت شرًا من العجمة الخالصة واللكنة الممزوجة ، فلا يقرءون هذا الكتاب إلا أحرفًا »[٤].

---

(١) جاء ذلك في كتاب اللحن في اللّغة مظاهره ومقاييسه ، د. عبد الفتاح سليم (١٢٩) .

(٢) الخصائص ٣/٢٤٥ .

(٣) تحت راية القرآن (٥٠ ، ٥١) .

(٤) تاريخ آداب العرب ٢/١٠٤ ، ١٠٥ .

وقال في حاشيته : « من الثابت البين أن من لم يحكم فهم القرآن فهمًا صحيحًا لا تتم له فضائل هذا الدين . وفي بعض الشعوب المسلمة التي لا عربية لها ولم يتخولها علماء العربية من أهلها وغير أهلها بالتثقيف والموعظة لا ترى الإسلام إلا تهذيبًا لأديانهم وعاداتهم القديمة ليس غير. ففي بلاد الدكن ، وعند قبائل دراقان، يؤلهون النبي عليه السلام ويعبدونه ، وفي بعض جهات الهند وفارس أصبح شطر الإسلام من العقائد الوثنية . وإنك لترى هذا الأمر فاشيًا في الشعوب العربية العامية كالجزائر في بعض جهاتها ، ومراكش ، ومصر ، والسودان ، وغيرها ، وما من شعب منها إلا له عادات تاريخية يمزجها بالدين ويراها منه ، فما تزال غربة الدين تتبع غربة العربية » (١).

ومتى ما عرفنا العلاقة الوثيقة التي قامت بين اللّغة العربية والدين الإسلامي انكشف لنا سرُّ خلودها وانتشارها وسيادتها خارج جزيرة العرب .

أمّا ما قيل من سطوة لغة الغالب فهو لا ينطبق على اللّغة العربية بشهادة ابن خلدون صاحب هذه النظرية (المقولة) ، فقد تملك غير العرب أغلب الأمصار الإسلامية ومع ذلك بقيت اللّغة العربية لبقاء الدين طالبًا لها . كما لم نرَ للّغة التتر أثرًا يذكر في العراق برغم تغلُّبهم عليها . وفي عصرنا هذا حاول الاحتلال الغربي فرض لغته على الوطن العربي فلم تلبث أن خرجت بخروجه .

أضف إلى ذلك أن من شروط سيادة لغة الغالب التقدم الحضاري أو التفوق العددي حتى ينبهر الشعب المغلوب بحضارته فيتبنى لغته أو يذوب في شعبه الذي يفوقه عددًا ، وهذا ما لم يتوفر في الشعب العربي عند خروجه من شبه الجزيرة(٢).

وقد وعى أعداء الأمة هذه العلاقة العكسية فاستهدفوا اللّغة العربية وسيلة غير مباشرة لضرب الإسلام لمّا كان الهجوم المباشر على الإسلام يحرك ضمير

---

(١) تاريخ آداب العربية ، حاشية ١٠٥/٢ .

(٢) أقصد الحضارة المادية ، أمّا الحضارة الفكرية فقد كفلها مجيء الإسلام الذي أتم موروثها وصحح فاسدها وشجّع على بناء حضارة مادية يدين بها العالم الحديث للعرب .

الأمة ويوحد صفها في الدفاع عنه ؛ فشرعوا في ضرب اللّغة العربية ووحدتها بالدعوة إلى تبنيّ اللغات العامية وهجر الفصحى حتى ينغلق فهم القرآن وهو روح الإسلام ومصدر تشريعه الأول ، فيسدّدون بذلك طعنة تزهق روح الأمة وتتركها جسدًا هامدًا ، والأنكى أن هذا الهدف يمكن تحقيقه في صورة درس لغوي يوصف -زيفًا- بالموضوعية ويهدف إلى الإصلاح اللغوي ، وتذليل صعوبة العربية الفصحى التي باتت -في زعمهم- عقيمة ميتة غير قادرة على مواكبة الحضارة ، وما اللهجات العامية إلا امتداد لها وجدول تفرع عن نهرها ، وقد تزامن مع الدعوة إلى العامية الدعوة إلى استبدال الحرف اللاتيني بالعربي لصعوبته على حد زعمهم ، وبذلك تكتمل عناصر المخطط الذي أقرت به مجلة (عالم المسلمين) التنصيرية حيث تقول : « لقد قام المنصرون الألمان في شرقي أفريقيا باستبدال الحرف العربي الذي تكتب به اللّغة السواحلية إلى الحرف اللاتيني ، وذلك كوسيلة لوقف الزحف الإسلامي ، ووقف عملية التعريب المستمرة في هذه البلاد ، ويعتبر هذا التغيير ضربة قاسية للإسلام في شرق أفريقيا »[١] . وقد أثبتت نجاح هذه الوسيلة التجربة التركية حيث يقول المستشرق (كامغماير) مسرورًا : « إن قراءة القرآن العربي وكتب الشريعة الإسلامية قد أصبحت الآن مستحيلة بعد استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية »[٢] .

---

(١) ، (٢) نقلاً من كتاب (اللسان العربي والإسلام معًا في معركة المواجهة) ، د . السيد رزق الطويل (١٠٣) ، سلسلة دعوة الحق ، العدد ٦٠ ، رابطة العالم الإسلامي .

ثالثا - جمع عثمان (رضي الله عنه) الناس على مصحف واحد (القرشي) وحرق سائر المصاحف :

لقد كان توحيد المصحف وكتابته بلغة قريش بأمر عثمان رضي الله عنه من أهم الأعمال التي أدت إلى توحيد اللّغة العربية وأسهمت في نشرها موحدة مطردة ، وهو عمل عاد على المسلمين واللّغة العربية بفائدة عظيمة حفظت لغتهم وقلوبهم من الاختلاف ، وذلك بعد أن دبّ الخلاف بينهم على قراءته بحروفه السبعة في الأمصار الإسلامية تبعًا للقراء الذين نزلوا فيها وعلّموا أهلها ، ولما كان أهل تلك الأمصار حديثي عهد بالإسلام والعروبة لم يدركو الحكمة من الترخيص في قراءته على حروفه السبعة ، بل أكثرهم لا يعرفها حتى يقارن بينها أو يستفيد من رخصتها خاصة وأنَّ تعلُّم اللّغة الأدبية أو اللهجة العربية سيان عند أهل الأمصار لأن كلتاهما تمثل لغة ثانية بل كان تعلّم اللّغة الأدبية أهون عليهم لأنها مقننةٌ ويتكلمها جميع العرب ، فانتفت بذلك الحكمة المرخصة لقراءة القرآن بحروفه السبعة التي تحمل في طياتها اختلاف اللهجات ، ومن غير الحكمة نقل الاختلافات اللهجية إلى خارج جزيرة العرب طالما يستطيع أهل تلك الأمصار تعلم اللّغة الأدبية الموحدة ، وهذا أمر التفت إليه عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه عندما قال لابن مسعود : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل فأقرئ الناس بلغة قريش » [١].

أما بالنسبة للهجات القبائل في داخل الجزيرة العربية فقد صقلت في عهد عثمان بحيث يمكن حملهم على حرف واحد ، جاء في النشر : « قال بعضهم إن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أوّل الإسلام فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرًا عليهم وهو أوفق لهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة » [٢].

وفي رأينا أن هذا تفسيرٌ لغويٌ يتوافق مع سنن اللغات وتدرجها في سبيل

---

(١) وقد كان بلغه أن ابن مسعود يقرئ الناس (عتّى حين) ذكرنا النص ومناسبته في عمل معسكرات الجهاد ، فارجع إليه .

(٢) النشر في القراءات العشر ٣٢/١ .

الوحدة اللغوية عندما تتسع فرصة الاحتكاك بين لهجاتها المختلفة ، أمَّا التفسير الشرعي الذي نظر إليه عثمان (رضي الله عنه) ففسره ابن جرير الطبري حيث يقول : « إن القراءة على الأحرف السبعة لم تكن واجبة على الأمة وإنما كان ذلك جائزًا لهم ومرخصًا فيه وقد جعل لهم الاختيار في أي حرف قرءوا به كما في الأحاديث الصحيحة فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إذا لم يجتمعوا على حرف واحد اجتمعوا على ذلك اجتماعًا سائغًا وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ولم يكن في ذلك تركٌ لواجب ولا فعلٌ لمحظور »(١) .

وقد روى البخاري قصة جمع القرآن وكتابته بلغة قريش عن أنس فقال : « إن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف ، وقال للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق »(٢) .

واعلم أن القرآن قد جمع قبل ذلك في عهد أبي بكر – رضي الله عنه – ولكنه جمع احتوى على الأحرف السبعة ، وقد نقل السيوطي عن ابن التين وغيره كلامًا في التفريق بين الجمعين جاء فيه : « إن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته (في حروب الردة) ، لأنه لم يكن مجموعًا في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتبًا لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي صلى الله عليه

---

(١) ينظر : النشر ٣١/١ .

(٢) الإتقان ١٣٠/١ .

وسلم ، وجمع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القرآة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره ، واقتصر من سائر اللّغات على لغة قريش محتجًا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسِّع في قراءته بلغة غيرهم رفعًا للحرج والمشقة في بداية الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة »(١) .

أثر توحيد المصاحف في اللّغة بالتوحد :

كان توحيد المصاحف وكتابتها بلغة قريش بأمر عثمان – رضي اللّه عنه – العامود الفقري للوحدة اللغوية حيث ازدادت اللهجة القرشية رفعة وشمولاً وفرضت على العامّة والخاصّة بعد أن كانت خيارًا رضيه الخاصّة من العرب لغة أدبية مشتركة .

وما كان هذا ليحدث لولا أن الرغبة الدينية وقوة الشعور الديني – كما يقول إبراهيم أنيس – قد دعا كثيرًا من العامّة إلى تفهم الكتاب الكريم والتعبد به(٢) .

وما كان لعثمان وكبار الصحابة رضوان اللّه عليهم أن يجمعوا على كتابته بلغة قريش ويحرقوا سائر المصاحف لو لم يكن نزل بلغتها حقًا ويقينًا خاصة وأن لهذا العمل تبعاتٍ عملية تتعلق بكتابته واختياراته وقراءته .

إليك بعض الأمثلة :

١ – عندما اختلف الثلاثة القرشيون مع زيد بن ثابت في كتابة التابوت ، فقال النفر القرشيون هو التابوت وقال زيد هو التابوه (بلغة الأنصار) وعند ترافعهم إلى عثمان قال : اكتبوا التابوت فإنما أنزل القرآن على لسان قريش(٣) .

٢ – روى السيوطي(٤) عن ابن مجاهد قوله : « إن شك القارئ في حرف هل

(١) الإتقان ١/١٣١ .

(٢) في اللّهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس (٤١) بتصرف .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن (النوع الخامس والعشرون) ، الزركشي .

(٤) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ١/٢٣٤ .

هو مهموز أو غير مهموز فليترك الهمز » وقد علمت أن تسهيل الهمز أو تركه من سمات لغة قريش . هذا بالرغم من كون الهمز من سمات الفصحى اكتسبته عن تميم[١] .

٣ - وجاء أيضًا : « إن شك القارئ في حرف هل هو ممدود أو مقصور فليقرأ بالقصر » وقد مر بك أن القصر من اختيار قريش[٢] .

٤ - جاء عن السيوطي : « ويستحب قراءته (القرآن) بالتفخيم لحديث الحاكم (نزل القرآن بالتفخيم) . قال الحلبي : معناه لا يخضع الصوت فيه ككلام النساء ، ولا يدخل في ذلك كراهة الإمالة التي هي من اختيار بعض القراء ، وقد يجوز أن يكون القرآن نزل بالتفخيم فرخص مع ذلك في إمالة ما يحسن إمالته »[٣].

وبهذا الإحتمال نقول إن التفخيم من سمات اللّغة القرشية والحجازية بشكل عام كما مرَّ بنا ، وقد علمت أنه مقدم في القراءة وحسبك أنه لا يحتاج في وقوعه لسبب بعكس الإمالة التي لا تحدث إلا لسبب ، ومع ذلك فكل ممال يفتح وليس العكس[٤] .

٥ - روى عن عثمان أنه قال لما عُرضت عليه المصاحف : « إن فيه لحنًا ستقيمه العرب بألسنتها » ، وعن عروة قال : « سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله: ﴿ إن هَذانِ لساحران ﴾ وعن قوله : ﴿ والمقيمين الصلاَةَ والمؤتونَ الزَّكَاةَ ﴾ وعن قوله : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئونَ ﴾ فقالت : « يا ابن أختي : هذا عملُ الكُتَّابِ أخطئوا في الكتاب » أخرجهما (أبو عبيد) في (فضائله) . وقد أخرج ابن أشته في كتاب (المصاحف) عن طريق عبد الأعلى بن عبدالله بن عامر

---

(١) ينظر : الهمز بين التحقيق والتخفيف في دراستنا ص (٥٥) ، ومثل ذلك يحدث في الشعر أيضًا قال ابن قتيبة : (وأما ترك الهمز من المهموز فكثير واسع لا عيب فيه على الشاعر والذي لا يجوز هو أن يهمز غير المهموز) ، الشعر والشعراء ، ص ٤٩ .

(٢) ينظر ص (٨٠) من بحثنا ، نهاية تصريف الأسماء (زنى قريش ، زناء تميمي) .

(٣) الإتقان ٢٢٣/١ .

(٤) ينظر : الإمالة في دراستنا ص (٦٩) .

قال : « لما فُرِغ من المصحف، أتي به (عثمان) فنظر فيه ، فقال: أحسنتم وأجملتم ، أرى شيئًا سنقيمه بألسنتنا »(١) .

وقد ضل من اعتقد أن اللحن المقصود في الروايات هو اللحن النحوي المعروف عند أهل الصناعة والمفسَّر بالخطأ اللغوي أي ضد الصواب . ومن الثابت عند أهل العلم أن هذه الكلمة من الكلمات التي نالها التطور الدلالي فأصبحت من الكلمات المشتركة ، فهي في الأصل تعني اللهجة الخاصة ثم الرمز والإشارة في الحديث بحيث يفهمه المقصود به فقط ثم الخطأ النحوي عند أهل الصناعة النحوية ثم الموسيقى في أداء الكلمات عند أهل الغناء والفن في يومنا هذا .

فاللحن في هذه الروايات يعني اللهجة المخالفة للحن قريش ، قال السيوطي : « فكأنه عرض عليه (المصحف) عقب الفراغ من كتابته فرأى فيها شيئًا كتب على غير لسان قريش كما وقع في (التابوه والتابوت) ، فوعد بأنه سيقيمه على لسان قريش ، ثم وفى بذلك عند العرض والتقويم ولم يترك فيه شيئًا » (٢).

ونقل عن ابن أشته الجواب عن معنى قول عائشة – رضي الله عنها – أخطأوا أي الكتاب فقال : « أي في اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه ، لا أن الذي كتبوا من ذلك خطأ لا يجوز » (٣).

وقد مرَّ بنا أن إجراء المثنى بالألف في أحواله الثلاثة لغة لكنانة وبني الحرث بن كعب وخثعم وزبيد وبني العنبر وبني الهجيم ومراد وعذرة مع اختلاف الرواة في نسبتها(٤) .

أما نصب (المقيمين) ورفع (الصابئون) فجائز مقبول في الصناعة النحوية وهو من سنن العرب في كلامهم ، فالنصب لأنه مقطوع إلى المدح بتقدير أمدح وهو أبلغ . والرفع في (الصابئون) لأنه مبتدأ حُذف خبره أي والصابئون كذلك . وفيها

---

(١) الاقتراح للسيوطي (٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠) .

(٢) الإتقان ١/٣٩١ . الفهم الآخر لحديث عثمان (رضي الله عنه) : أن الاعتماد في قراءة القرآن على الرسم لا يفي بالغرض ويوقع قارئه في الخطأ وإنما يجب تلقيه بالرواية المصاحبة للقراءة . ينظر في ذلك ص ٣٢٢ من بحثنا .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ينظر : المظهر التركيبي في دراستنا (المثنى) (٩٧) .

تخريجات أخرى(١) .

ولو لم يكن القرآن نزل يقيناً بلغة قريش لما كانت خياراً مقدماً عند اختلافهم في كتابته أو قراءته خاصة وهو دستور المسلمين ويعتبر المساس به أو تحريفه أو تغيير حرف من حروفه من المحظورات التي يستحيل استباحتها وعلى البسيطة من يقول : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ناهيك عن تكفّل الله بحفظه إذ يقول عز وجل : ﴿ إنَّا نحنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لحافظُونَ ﴾ (٢).

ومن المعلوم أن كتابة القرآن بلغة قريش لا يعني خلوّه من لغات العرب الأخرى لأن الأمر باعتمادها – كما يظهر في نص عثمان – كان عند اختلاف الصحابة في قراءته وهو قليل بالنسبة إلى المتفق عليه ، يقول ابن الجزري : « والقراءات التي تواترت عندنا عن عثمان وعن علي وعن ابن مسعود وأبي وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم لم يكن بينهم فيها إلا لخلاف اليسير المحفوظ بين القراء ؛ ثم إن الصحابة رضي الله عنهم لما كتبوا تلك المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن في العرضة الأخيرة مما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوّين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين فإن الصحابة رضوان الله عليهم تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمره الله بتبليغه إليهم من القرآن لفظه ومعناه ولم يكونوا ليسقطوا شيئاً من القرآن الثابت عنه صلى الله عليه وسلم ولا يمنعوا من القراءة به » (٣).

أضف إلى ذلك أن اللّغة القرشية تأثرت بسائر اللهجات العربية عندما استُعملت لغة مشتركة وأصبحت لغةً أدبيةً فلا غرو أن تظهر فيها بعض خصائص اللهجات الأخرى ومفرداتها ، وعند مجيء الإسلام ونزول القرآن بلغتها أضاف إليها ما حسن من خصائص ومفردات اللهجات الأخرى فأضفى عليها من الحسن والكمال ما رفعها عن مستوى فصحاء قريش أنفسهم .

(١) ينظر : الإتقان ١/٣٩٢ .

(٢) الحِجْر ، آية ٩ .

(٣) النشر ١/٣٣ .

فهذا ابن عبَّاس حبر الأمة يقول : « كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما :" أنا فطرتها ، يقول أنا ابتدأتها » ، وقال أيضًا : « ما كنت أدري ما قوله ﴿ ربَّنَا افتح بيننا وبين قومِنَا بالحق ﴾ حتى سمعت قول بنت ذي يزن : تعالَ أفاتحك ، تريد أخاصمك » ، وكذلك أبو بكر سئل عن قوله تعالى ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فقال :« أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب اللّه ما لا أعلم » ، وكذلك عمر كان لا يعرف معنى الأب في الآية[١] .

وقد جمع السيوطي في كتابه (الإتقان) كثيرًا من الكلمات التي لا تنتمي إلى اللغة القرشية ومع ذلك جاء بها القرآن وقدمها على مرادفها في لهجة قريش[٢] ، وكذلك قام بتعميم بعض الخصائص اللهجية التي أخذت طريقها إلى الفصحى بفضله وبذلك تحققت الوحدة اللغوية في القرآن على أكمل صورها وأسمى درجاتها فكان المثل الأعلى والنموذج الموحد الذي تنزع إلى لغته خاصة العرب وعامتها بعد أن بهرتهم قوة فصاحته ، وتناهى بلاغته ، فما كان منهم إلا اتباع اختياراته ومحاكاة أساليبه وألفاظه وتركيب جملهم وكلماتهم على منواله ، فنجم عن هذا التوجه العام وحدة لغوية راسخة ذات قاعدة واسعة شملت جميع العرب على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم وما جرت عليه ألسنتهم من عادات لغوية أو صوتية .

وقد دلَّنا على هذا التوجه العام عند القبائل العربية في متابعة لغة القرآن وترك ما خلفها في لغاتهم قول سيبويه في إعمال (ما) عمل (ليس) : « وبنو تميم يرفعونها[٣] إلا من درى كيف هي في الصحف »[٤] ، وفي هذا العمل دلالة واضحة

---

(١) ينظر : الإتقان ١/٢٤٥ .

(٢) لمعرفة هذه الكلمات انظر (الإتقان) الباب السابع والثلاثون (ما وقع فيه بغير لغة الحجاز) وينظر في بحثنا (تعميم بعض الظواهر اللغوية) تجد طرفًا منه ص(٣٢٨).

(٣) المقصود لا يعملونها في شيء فلا تنصب الخبر اسمًا لها كما هي في لغة الحجاز التي جاء بها قوله تعالى : (ما هذا بشرًا) .

(٤) الكتاب ١/٢٩ .

على إذعـان العـرب وانقيـادهـم للّغـة للقـرآن التي مـثلت أسـمى درجـات الكمـال في اعتقادهم وكذلك هي .

وفي هذا المعنى يقول الرافعي : « ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن قد جمع أولئك العرب على لغة واحدة بما استجمع فيها من محاسن هذه الفطرة اللغوية التي جعلت أهل كل لسان يأخذون بها ولا يجدون لهم عنها مَرغَبًا ، إذ يرونها كمالاً لما في أنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية مما وقفوا على حد الرغبة فيه من مذاهبها دون أن يقفوا على سبيل القدرة عليه . ومن شأن الكمال المطلوب إذا هو اتفق في شيء من الأشياء - كهذا الكمال البياني في القرآن - أن يجمع عليه طالبيه مهما فرّقت بينهم الأسباب المتباينة ، والصفات المتعادية ... وقد كان العرب على حال يتوهم فيها كلُّ قبيل منهم أنه أسلمُ فطرةً في اللّغة وأبين مذهبًا في البيان ، لأنهم لا يجدون من ذلك إلا أمثلة ترجع إلى الفطرة وتختلف باختلافها ، ولا يجدون المثال الفطري الكامل الذي تقاس إليه القدرة والعجز في ذلك قياسًا لا يلتاث ولا يختلف ، ولا يحطُّ من صنفٍ حَقُّه أن يزاد فيه ، ولا يزيد في صنف حَقُّه أن يحطَّ منه »(١) .

العلاقة بين القراءات والأحرف السبعة :

أشرنا في دراستنا إلى أن الأحرف السبعة المذكورة في الأحاديث الصحيحة ليست هي القراءات السبع كما يتصور بعض العامة ، وذكرنا أن اتفاق العدد بينهما ومجيء بعض التفسيرات للأحرف السبعة بما جاءت به القراءات كان سببًا في هذا الاعتقاد ، لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن ننفي العلاقة والتداخل بينهما ، فإذا قلنا إن القراءات السبع منبثقة من المصحف العثماني باعتبار أن موافقتها لرسمه شرط في صحتها وقبولها فإن هذه المصاحف العثمانية - كما يقول ابن الجزري - مشتملة على ما يحتمله رسمها من الأحرف السبعة فقط جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل عليه السلام متضمنة لها لم تترك حرفًا منها(٢) .

---

(١) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي (٧٨) .

(٢) ينظر : النشر ٣١/١ .

وقد نقل عن ابن تيمية قوله : « إن القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم ليست هي الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها وذلك باتفاق علماء السلف والخلف ، وكذلك ليست هذه القراءات السبع هي مجموع حرف واحد من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعتبرين .. » [١]. فالعلاقة بين القراءات والأحرف هي علاقة الجزء بالكل ولو لم تشمل المصاحف العثمانية بعض الأحرف السبعة واقتصرت على اللّغة القرشية فقط ؛ فكيف نفسر نشأة القراءات التي تحمل بعضها سمات اللهجات غير القرشية مع هذا المصحف ؟

نعم لقد ذكرنا أن اللهجة القرشية اشتملت على كثيرٍ من خصائص اللهجات الأخرى عندما أصبحت لغة أدبية مشتركة منها الهمز والتوافق الحركي وكثير من الألفاظ والاستعمالات ، وليس هذا ما نقصد ، وإنما نقصد ما جاءت به القراءات خاصة الشاذة مع وجود ما هو أقوى منه وأفشى في قراءة أخرى ، من ذلك القراءة بكسر حروف المضارعة في نحو (نَسْتَعين) جاء في البحر:« وفتح نون (نستعين) قرأ بها الجمهور ، وهي لغة الحجاز ، وهي الفصحى ، وقرأ عبيد بن عمير الليثي ، وزر بن حبيش ، ويحيى بن وثاب ، والنخعي ، والأعمش بكسرها ، وهي لغة قيس ، وتميم ، وأسد ، وربيعة ، وكذلك حكم حروف المضارعة في هذا الفعل وما أشبهه »[٢]، وقرأ حمزة بإشمام الصاد زايًا في (الصراط) على لغة قيس ، والجمهور قرأها بإبدال السين في أصلها صادًا وهي الفصحى ، وهي لغة قريش وبها كتبت في المصحف ، وقرأ قنبل ورويس بالسين جريًا على الأصل إذ قالوا إنها من السرط وهو اللقم ومنه سُمِّيَ الطريق لقمًا[٣] .

وقد صرح ابن الجزري بنسبة القراءات إلى الأحرف السبعة إذ يقول : « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من

---

(١) النشر ١/٤٠ .

(٢) البحر المحيط ١/٤٢ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ١/٤٥ .

الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن وأوجب على الناس قبولها ، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين ؛ ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة .. »[١] .

أما حقيقة القراءات وسبب حصرها ووجوه اختلافها فسنذكرها كما هي عند أصحاب هذا العلم ليعلم القارئ مدى اتفاقها واختلافها مع الأحرف السبعة .

القراءات : اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف أو كيفيتها من تخفيف وتشديد وغيرهما[٢] .

سبب حصرها : « لما كثر الاختلاف فيما يحتمله رسم المصاحف العثمانية التي وجه بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار (الشام واليمن والبصرة والكوفة ومكة والبحرين) وحبس بالمدينة واحداً وأمسك لنفسه واحداً الذي يقال له الإمام فصار أهل البدع والأهواء يقرءون بما لا تحل تلاوته وفاقاً لبدعتهم أجمع رأي المسلمين أن يتفقوا على قراءات أئمة ثقات تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم فاختاروا من كل مصر وجه إليها مصحف أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدراية وكمال العلم أفنوا عمرهم في القراءة والإقراء واشتهر أمرهم وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم »[٣] فكان في المدينة نافع ، وفي مكة ابن كثير ، وفي الكوفة عاصم بن أبي النجود ، وفي الشام ابن عامر ، وفي البصرة أبو عمرو بن العلاء ، وفي الكوفة أيضاً حمزة والكسائي . والعشرة بزيادة ثلاثة هم خلف وأبو جعفر يزيد بن القعقاع ، ويعقوب بن إسحق ، والأربعة عشر قراءة بزيادة ابن محيصن والحسن البصري واليزيدي والأعمش ، وهؤلاء الأربعة قراءتهم شاذة باتفاق العلماء[٤] .

---

(١) النشر ٩/١ .

(٢) إتحاف فضلاء البشر في القراآت الأربع عشر ، الشيخ أحمد بن محمد الدمياطي الشهير بالبناء (٥)، دار الندوة ، بيروت .

(٣) المرجع السابق .

(٤) ينظر : كتاب (إتحاف فضلاء البشر) (٧) .

وقد ذكر ابن الجزري في الرد على من أوهمه اتفاق العدد بين القراءات والحروف باتحادهما أو بأن القراءات التي يقرأ بها في الأمصار جميع الأحرف السبعة فقال : « وأنت ترى ما في هذا القول فإن القراءات المشهورة اليوم من السبعة والعشرة والثلاثة عشر بالنسبة إلى ما كان مشهوراً في الأعصار الأول قل من كثر ونزر من بحر فإن من له اطلاع على ذلك يعرف علمه العلم اليقين وذلك أن القراء الذين أخذوا عن أولئك الأئمة المتقدمين من السبعة وغيرهم كانوا أمماً لا تحصى وطوائف لا تستقصى ، والذين أخذوا عنهم أيضاً أكثر وهلم جراً » .

ثم ذكر أن الاقتصار على هؤلاء السبعة هو من اختيار ابن مجاهد وإلا فإن أول إمام معتبر جمع القراءات قبله في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام وجعلهم خمسة وعشرين قارئًا مع هؤلاء السبعة ، ثم جاء أحمد بن جبير ابن محمد الكوفي فجمع كتاباً في قراءات الخمسة من كل مصر ، وكان بعده القاضي إسماعيل بن اسحاق المالكي ألف كتاباً في القراءات جمع فيه قراءة عشرين إماماً منهم هؤلاء السبعة ، ثم كان بعده أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صنع كتابه الجامع فيه نيف وعشرون قراءة ، وبعيده أبو بكر محمد ابن أحمد الداجوني جمع كتاباً في القراءات وأدخل معهم أبا جعفر أحد القراء العشرة ، وجاء أبو بكر أحمد بن موسى بن مجاهد بعد هؤلاء واقتصر على القرّاء السبعة فقط[1] .

أما وجوه اختلاف القراءات فقد تتبعها أصحاب هذا العلم ورجعها أكثرهم إلى سبعة وجوه نكتفي برأي ابن الجزري فيها ، قال : « إني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها وضعيفها ومنكرها فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها وذلك إما في الحركات بلا تغير في المعنى والصورة نحو : (البخل) بأربعة و (يحسب) بوجهين ، أو بتغير في المعنى فقط نحو : (فتلقى آدم من ربه كلمات) ، (وادكر بعد أَمَـةٍ) ، و (أمَّةٍ) ، وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو (تبلو) ، و (تتلو) ، و (ننجيك ببدناك لتكون لمن خلفك) و (ننحيك ببدنك) ، أو عكس ذلك نحو : (بصطة وبسطة) ، و (الصراط والسراط) ، أو

---

(١) النشر ٣٤/١ بتصرف .

بتغيرهما نحو : (أشد منكم ومنهم) و (يأتل ويتألّ) ، و (فامضوا – فاسعوا – إلى ذكر اللّه) ، وإما في التقديم والتأخير نحو : (فيقتلون ويقتلون) ، و (جاءت سكرت الحق بالموت) (سكرة الموت بالحق) ، أو في الزيادة والنقصان نحو : (وأوصى ووصى) ، (والذكر والأنثى) ، فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها، وأما نحو اختلاف الإظهار ، والإدغام ، والروم ، والإشمام ، والتفخيم ، والترقيق ، والمد والقصر ، والإمالة ، والفتح ، والتحقيق والتسهيل ، والإبدال ، والنقل مما يعبر عنه بالأصول فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظًا واحدًا ولئن فرض فيكون من الأول »[١] .

وعندما نعرض وجوه اختلاف القراءات على ما نقله السيوطي في كتابه (الإتقان)[٢] عن آراء العلماء حول تفسير معنى الأحرف السبعة ستجد أنها ذكرت في بعض آرائهم كتفسير للأحرف السبعة ، هذا بخلاف ذكرها في رأي ابن الجزري ، فالرأي الثالث يفسر الأحرف بالقراءات ، والخامس والسادس والسابع ببعض وجوه اختلافها . وما هذا إلا للتداخل الذي ذكرناه بين القراءات والأحرف .

(١) النشر ١/٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الإتقان ١/١٠٠ .

رابعاً - قيام علماء الإسلام بجمع اللغة العربية وتقعيدها على أساس اللغة الأدبية بدافع ديني :

كان الدافع الديني هو المحرك الأساسي الذي دفع علماء الإسلام إلى جمع اللّغة وتقعيدها للأسباب الآتية :

١ - معرفة معنى لفظ غريب جاء في القرآن أو الحديث، والاستعانة بها على فهم نصوص الشريعة .

٢ - إثبات أن القرآن نزل وفق سنن العرب في كلامها ، وحرصهم على إثبات ذلك .

٣ - تعليم العربية للمسلمين من غير العرب. ولا سبيل إلى ذلك إلا بتقعيدها .

٤ - مخافة وقوع اللحن في القرآن الكريم ، خاصة بعد انتشار الإسلام وتفشي اللحن .

ولهذه الأسباب وجدنا أن أوّل من جمع اللّغة هم المفسرون وعلى رأسهم عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وأوّل من قعّدها هم أئمة القرّاء وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي ، وعبدالله الحضرمي ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعيسى بن عمر ، وغيرهم من علماء العلمين (اللّغة والشريعة) لأنها كانت مشتركة في أوّل الأمر ثم انفصلت بعد ذلك مع ارتباطها . وقد أسهم هذا العمل في التوحيد اللغوي عندما اعتمدت لغة القرآن وهي اللّغة الأدبية أساساً قام عليه جمع اللّغة وتقعيدها وباتت مثلاً أعلى يحتذى به متكلموها من العرب والمسلمين .

هذا ما أردنا إجماله ، وإليك تفصيل الأسباب وبيانها بعد وضع الأوّل والثاني تحت جمع اللّغة، والثالث والرابع تحت تقعيدها علماً بأن الجمع يشمل مفردات اللّغة، وأبنيتها ، وتراكيبها ، وأساليبها .

١ - جمع اللّغة العربية بدافع ديني :

السبب الأوّل : لمعرفة معنى لفظٍ غريب جاء في القرآن أو الحديث والاستعانة بها على فهم نصوص الشريعة . وهو استجابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة مرفوعًا : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » (١). قال السيوطي :

(١) الاتقان ٢٤٤/١ . قال عبدالله النيسابوري في المستدرك على الصحيحين (هذا حديث صحيح الإسناد على مذهب جماعة من أئمتنا ولم يخرجاه) رقم الحديث (٣٦٤٤) .

« المراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن ، لأن القراءة مع فقده ليست قراءة ولا ثواب فيها ، وعلى الخائض في ذلك التثبت والرجوع إلى كتب أهل الفن وعدم الخوض بالظن ، فهذه الصحابة وهم العرب العرباء وأصحاب اللّغة الفصحى ومن نزل القرآن بلغتهم توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئًا »(١) .

أما المراد بالغريب هنا فيوضحه لنا الرافعي بقوله : « وفي القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب ؛ وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة ، فإن القرآن تنزه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل ؛ بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس »(٢) ، وذكر أيضًا أن من منشأ الغرابة فيما عدُّوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة(٣) .

وقد روى ابن عباس أن رجلاً سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : أي علم القرآن أفضل ؟ فقال عليه السلام : « عربيته فالتمسوها في الشعر »(٤) ، ولم يكن الغريب مستحدثًا في عهد التابعين أو في العهود التي جاءت من بعدهم ، بل كان في القرآن الكريم كلمات تحتاج إلى إيضاح على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكان الرسول يوضح هذا الغامض ويبينه لصحابته إلا أنه قليلٌ نادرٌ ويتعلق أكثره بما لا يعلمه غيره، أي: تلقاه عن ربه، وأوكلهم فيما عدا ذلك إلى عربيتهم، وحثَّهم على التماسه في الشعر كما في الحديث ، ولأن جيل الصحابة كانوا من العرب الفصحاء فقد قلّ ما يجهلوه ، ومع ذلك فلم يعتمدوا على فصاحتهم؛ لأنَّ القرآن جاءهم بما هو أفصحْ فاعتمدوا على الحفظ والمدارسة ، وقد ثبت أن عبداللّه بن عبّاس استعان بحفظ الكثير من أشعار العرب لبيان ما في القرآن من غرائب اللّغة ؛ وكان يقول :

---

(١) الإتقان ٢٤٤/١ .

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي (٧١) ، دار الكتاب العربي ١٤١٠هـ .

(٣) ينظر السابق .

(٤) البحر المحيط ٢٥/١ .

« الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه » ، ومن قوله أيضاً : « إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب »[١] .

وفي قصته مع ابن الأزرق رأس الأزارقة الخوارج (ت ٦٥) دليل دامغ على هذا التوجُّه العام في تفسير القرآن عندما لا يكون فيه نصٌ مأثور عن الله عز وجل أو عن نبيه لأنه كما يقول تعالى : ﴿ بلسان عربيٍّ مبين ﴾ ، وقد أورد صاحب الإتقان القصة وإليك أوّلها :

« قال : بينا عبدالله بن عبّاس قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر : قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما إليه فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربيّ مبين ، فقال ابن عبّاس : سلوني كما بدا لكما ، فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾[٢]، قال : العزون : حلق الرفاق . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا

وقد بلغت المسائل أكثر من مائتي مسألة ألقاها ابن الأزرق على ابن عبّاس وهو يجيبه عليها مستشهداً بشعر العرب وهي المشهورة بمسائل ابن الأزرق[٣] .

هذا ولم يقتصر الأمر على الحفظ والمدارسة ، بل امتد إلى تتبع لغات العرب لمعرفة معاني ما وقع منها في لغة القرآن ، لأن القرآن كما أشرنا سابقًا أضفى على اللّغة القرشية الأدبية ما حسن من خصائص ومفردات اللهجات الأخرى ، فكان كلُّ ذي لهجة يرى في لغة القرآن الكريم جانبًا من لهجته وبذلك تحققت الوحدة اللغوية

---

(١) الإتقان ٢٥٥/١ .

(٢) سورة المعارج : ٣٧ .

(٣) ينظر تتمة القصة في الإتقان ٢٥٥/١ .

في أسمى درجاتها ووقعت الحجّة على العرب على اختلاف لهجاتها وشملها إعجازه.

ولذلك كان ابن عباس رضي الله عنهما يتتبع غريب القرآن في لهجات العرب المختلفة للسبب الذي ذكرناه مما أكسبه ثقافة واسعة في لغات العرب يدل على ذلك موروثه العظيم منها ، ولذا نعده في رأينا أوّل عالم لغوي في تاريخ العربية ، وسنذكر للقارئ الكريم بعض النماذج والأمثلة التي تدل على تتبعه ومعرفته الواسعة بلغات العرب :

١ - حدد اللغات التي نزل بها القرآن أو جاءت في ثناياه ، فقال : « نزل القرآن على سبعة أحرف ، أو قال سبع لغات ، منها خمس بلغة العجز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن وهي خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » [١].

٢ - تتبع الغريب الناتج عن اللّهجات العربية غير القرشية وحدد لهجته . من ذلك قال في قوله تعالى : ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال : الغناء وهي يمانية ، وفي قوله تعالى ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ قال : ربًا بلغة أهل اليمن ، وقال (الوزر) : ولد الولد بلغة هذيل ، وقال (يفتنكم) : (يضلكم) بلغة هوازن ، و (بورا) هلكى بلغة عمان ، (فنقبوا) : هربوا بلغة اليمن ، وفي قوله تعالى : ﴿ في الكتاب مسطورا ﴾ قال : مكتوبًا ، وهي لغة حميرية يسمون الكتاب أسطورا ، وفي مسائله مع ابن الأزرق قال في قوله تعالى : (لا يلتكم) : (لا ينقصكم) بلغة بني عبس ، وفيها (مراغما) : (منفسحًا) بلغة هذيل[٢] .

والأمثلة على ذلك كثيرة لا يمكن حصرها ، وحسبك أنه استوعب تفسير غريب القرآن وإليه يرجع في ذلك وإلى الآخذين عنه كما قال السيوطي[٣] .

٣ - كان يتناول المسائل اللغوية وبعض التراكيب النحوية بالشرح والتفسير على أنها جزءٌ من التفسير ، وقد رُوي عنه ما يشير إلى دقة إدراكه للفروق بين

---

(١) الصاحبي (٤١) .

(٢) الإتقان للسيوطي ١/٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٣) ينظر : الإتقان ١/٢٤٥ (في معرفة غريبه) .

المعاني في الألفاظ ، وإدراكه لعمل الأدوات فيما بعدها .

من ذلك تعليقه على الآيـة ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [١] ، قال ابن عباس : لو قالوا : نعم لكفروا[٢] .

فانظر كيف فرّق ابن عبّاس بين معنى (بلى و نعم) فجعل (بلى) حرف جواب وقع بعد النفي لإبطاله واعتبر أنَّ (نعم) تصديق للمخبِرِ بنفي أو إيجاب ولذلك عد الجواب بها عن الآية كفراً . وهذا هو عين ما قاله النحاة بعد ذلك في التفريق بين الحرفين .

ومن ذلك أيضاً تعليقه على الآية :﴿ إنَّ هذان لساحران ﴾ [٣] فقال :« هي لغة بني الحارث »[٤] .

وهذه مقولة تدل على وعي لغوي ونحوي متقدم ؛ فهو يعرف عمل إنَّ وأنها تنصب المبتدأ وترفع الخبر ، وفي عدم عملها في الآية تتبع السبب في ذلك ورجعه إلى اختلاف اللغات بل حدد اللهجة التي تُجري المثنى على الألف فقال هي لغة بني الحرث .

وفي عمل ابن عبّاس دلالة واضحة على أن القرآن قد دعا الصحابة وعلماء الشريعة إلى النظر المبكر في اللّغة ودفعهم إلى جمع شواهدها للاستعانة بها في الكشف من معنى غامض أو لفظ غريب ، ولم يكن فريداً في هذا المجال فعند غيره من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم علم كثير بهذا الجانب خاصة وأن الرجوع إلى اللّغة هو منهجهم في التفسير إذا لم يكن فيه نصٌ مأثور .

وقد جاء في تفسير الطبري خبر عن عمر بن الخطاب قال عنه محقق الكتاب محمود شاكر : « هذا خبر عزيز جداً في بيان رواية اللّغة وشرحها ، وسؤال الأعراب

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٢ .

(٢) مغني اللبيب ١/١١٣ .

(٣) سورة طه : ٦٣ .

(٤) حاشية الجابردي على الشافية ١/٢٧٧ .

والرعاة عنها » . وفي الخبر : « أن عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ﴿ ومن يُرِد أن يُضلَّه يجعل صدره ضيقًا حَرَجًا ﴾ [١] بنصب الراء . وقرأ بعض من عنده من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم (ضيقًا حَرِجًا) .

فقال عمر : أبغوني رجلاً من كنانة ، واجعلوه راعيًا ، وليكن مُدْلِجيا (فخذ من كنانة) . فأتوا به فقال عمر : يا فتى ما الحرجةُ ؟ قال : الحرجةُ فينا : الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعيةٌ ولا وحشيةٌ ولا شيء . قال عمر : كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير»[٢] .

ومع هذا فإن ابن عبّاس كان الأبرز من بين الصحابة في تتبع لغة العرب والرجوع إليها لمعرفة معاني القرآن وغريبه وهو القائل : « إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب » ، وقد مرَّ بك قول السيوطي أنه استوعب تفسير غريب القرآن ومنه أُخذ ، وقال في كتابه (الوسائل) : « إن أوَّل من صنَّف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى أخذ ذلك عن أسئلة نافع بن الأزرق لابن عبّاس »[٣] .

وفي ذلك يقول الرافعي : « فكان هذا الصنيع من ابن عبّاس داعيًا إلى اعتبار اللّغة اعتبارًا علميًا ؛ إذ نظر إلى لغات العرب من وجه واحد واعتبرها مادة واحدة في الاستشهاد ، وسمَّى هذه المادة (لغة العرب) »[٤] .

ومن هنا أصبحت معرفة اللّغة هي الوسيلة الوحيدة لفهم النصوص الشرعية وتفسيرها بعد توقف الوحي ووفاة الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فكان الإقبال على تفهمها - كما يقول الثعالبي - من الديانة ؛ إذ هي أداة العلِم ومفتاح التفقُّه في الدين[٥] .

فكان الدافع الحقيقي لجمع اللّغة بشكل عام والشعربشكل خاص هو الاستعانة بها على فهم النصوص الشرعية ، وقد كان هذا الدافع يزاد عند علماء المسلمين

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٥ .

(٢) تفسير الطبري المسمّى (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، تحقيق : محمود شاكر ١٠٤/١٢ . ينظر تعليقه في الحاشية رقم (٤) . (دار المعارف بمصر) .

(٣) الوسائل في مسامرة الأوائل (١١٢) ، تحقيق : د. أسعد طلس ١٣٦٩هـ ، مطبعة النجاح ، بغداد .

(٤) تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ٣٢٣/١ .

(٥) ينظر مقدمة فقه اللّغة وسر العربية للثعالبي (١) .

كلما ابتعدوا عن عصر الفصاحة زمن الرسول عليه السلام والصحابة الكرام ، قال أبو عبيدة[١] :«إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، وتصداق ذلك في آية من القرآن، وقال في آية أخرى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ﴾ فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن ، فاستغنوا بعلمهم عن المسألة عن معانيه ، وعما فيه لما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص . وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب ، ومن الغريب ، والمعاني »[٢] .

وإذا تجاوزنا ابن عباس وجدنا أن معظم علماء اللّغة صرّحوا بأن فهم الدين دعاهم إلى طلب اللّغة حتى إن أبا عمرو بن العلاء كان يقول : « لعلم العربية هو الدين بعينه »[٣] ، وقد عدّه السيوطي من فروض الكفايات فقال : « ولا شك أن علم اللّغة من الدِّين، لأنه من فروض الكفايات ، وبه تعرف معاني ألفاظ القرآن والسنّة » .

ونقل عن الفارابي قوله في خطبة ديوان الأدب :

« القرآن كلام اللّه وتنزيله ، فَصّل فيه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم . مما يأتون ويذرون ، ولا سبيل إلى علمه وإدراك معانيه إلا بالتبحر في علم هذه اللّغة . وقال بعض أهل العلم :

حفظ اللّغات علينا   فرض كفرض الصلاة
فليس يضبط دين   إلا بحفظ اللّغات

وقال ثعلب في أماليه : الفقيه يحتاج إلى اللّغة حاجة شديدة »[٤] .

وجاء عن ابن جني ما مفاده ان علم العربية خادم للقرآن والسنّة وعون على فهمهما ومعرفة ما أُمر به ونهى عنه الثقلان[٥] . وكذلك اعتبره ابن خلدون من علوم

---

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ، ولد ١١٠ وتوفي ٢١٠ هـ وهو من كبار اللغويين في عصره .

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٨/١ ، تحقيق : د . محمد فؤاد سزكين (مكتبة الخانجي) .

(٣) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ١٠/١ .

(٤) المزهر ٣٠٢/٢ (النوع الحادي والأربعون) .

(٥) ينظر : الخصائص ١٩٠/١ .

الآلة التي يتوصل بها إلى فهم الشرعيات[١] ، وحسبك أنك لا تكاد تجد كتاباً في العربية إلا وصاحبه يقدم بين يديه طلب الثواب والأجر من الله لأنه إنما أراد منه خدمة الدين بصيانة لسانه أو التمكين من فهمه وتعلمه .

السبب الثاني لجمع اللغة : إثبات أن القرآن نزل وفق سنن العرب في كلامها .

وهو ما يعرف بالاحتجاج على القرآن ، فقد حرص علماء الإسلام على جمع اللّغة خاصة من جهة سنن العرب في كلامها وبيان أساليبها لإثبات أن القرآن الكريم نزل وفق هذه السنن وذلك للتأكيد على عربيته ، وبيان إعجازه ، والرَّد على الطاعنين فيه .

أما التأكيد على عربيته فهو أمر ذكره وأكده الحق سبحانه وتعالى في عشر سور متنوِّعة اهتماماً به وتأكيداً عليه فقال تعالى : ﴿ لسان الّذي يُلْحِدُون إليه أعجمي وهذا لِسان عربيٌّ مبين﴾[٢] ، ﴿ بلسان عربي مبين ﴾[٣] ، ﴿ إنا أنزلناه قرءانًا عربيًا لعلكم تعقلون ﴾[٤] ، ﴿ وكذلك أنزلناه حكمًا عربيًا ﴾[٥] ، ﴿ وكذلك أنزلناه قرءانًا عربيًا ﴾[٦] ، ﴿ قرءانًا عربيًا غيرَ ذي عِوَجٍ ﴾[٧] ، ﴿ قرءانًا عربيًا لقوم يعلمون ﴾[٨] ، ﴿ قرءانًا عربيًا لتنذر أُم القرى ﴾[٩] ، ﴿ إنا جعلناه قرءانًا عربيًا ﴾[١٠] ، ﴿ وهذا كتاب مصدِّقٌ لسانًا عربيًا ﴾[١١] .

جاء في البحر المحيط عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قرءانًا عربيًا لقوم يعلمون ﴾:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٢٤٨/٣ .

(٢) سورة النحل : ١٠٣ .

(٣) سورة الشعراء : ١٩٥ .

(٤) سورة يوسف : ٢ .

(٥) سورة الرعد : ٣٧ .

(٦) سورة طه : ١١٣ .

(٧) سورة الزمر : ٢٨ .

(٨) سورة فصلت : ٣ .

(٩) سورة الشورى : ٧ .

(١٠) سورة الزخرف : ٣ .

(١١) سورة الأحقاف : ١٢ .

«أي كائنا لقوم يعلمون ألفاظه ويتحققون أنه لم يخرج عن نمط كلامهم ، وكأنه رد على من زعم أن في القرآن ما ليس من كلام العرب»[١] .

ومن هنا كان اهتمام علماء المسلمين منذُ العصر الأول الهجري على التأكيد على عروبته وتأصل هذه الفكرة لديهم كما يتضح من قصة مسائل ابن الأزرق لابن عبّاس حين يقول : « إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب اللّه فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقه من كلام العرب ، فإن اللّه تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين » وكذلك تأكيده بعد كل آية على هذا المعنى حيث يقول : وهل تعرف العرب ذلك ، فيقول ابن عبّاس : نعم ، ثم يذكر شاهده من الشعر .

وعند بداية التأليف في القرن الثاني الهجري واستقلال العلوم وظهور التخصص حمل علماء اللّغة هذه المهمة على عاتقهم ؛ فشرعوا في التأكيد على عربية القرآن بشكل عملي دقيق فجمعوا سنن العرب في كلامها وعرضوها على القرآن وعرضوا القرآن عليها ليظهروا أن القرآن نزل بمقتضاها وأكدوا على ذلك وأشاروا إليه وكان هدفًا مباشرًا لهم في دراساتهم القرآنية في كتب معاني القرآن وإعرابه والتي ألف فيها أكثر علماء اللّغة والنحو منهم : أبان بن تغلب بن رباح (ت١٤١ هـ)، وأبو جعفر الرؤاسي ، والفراء ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري (ت ٢١٠هـ) ، والأخفش الأوسط سعيد بن مسعده ، وقطرب ، وابن قتيبة ، وغيرهم كثير، لا يمكن إحصاؤهم في هذا المقام [٢].

وقد نص على ذلك أبو عبيدة في مجاز القرآن فقال : « ففي القرآن ما في الكلام العربي من الغريب والمعاني ، ومن المحتمل من مجاز ما اختُصِرَ ومجاز ما حذف ، ومجاز ما كُفَّ من خبرِهِ ، ومجاز ما جاء لفظه لفظ الواحد ووقع على الجمع، ومجاز ما جاء على الجمع ووقع معناه على الاثنين .. »[٣] وهو يقصد بالمجاز سنن

---

(١) البحر المحيط ٢٨٤/٧ .

(٢) ينظر في ذلك : الفهرست لابن النديم (٥٤ ، ٥٥) ، وينظر : النحو وكتب التفسير ، د . إبراهيم عبداللّه رفيده (١١٨ - ١٣٦) .

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق : د . فؤاد سزكين ١٨/١ ، وانظر أيضًا (١٧) ففيه رأي من زعم أن القرآن فيه غير العربية فقد أعظم القول .

العرب في كلامها وطرقها من ذكر وحذف وإفراد وجمع وتقديم وتأخير وليس فقط المجاز المقابل للحقيقة وكذلك قال ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن : « القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها في الإيجاز والاختصار ، والإطالة والتوكيد ، والإشارة إلى الشيء ، وإغماض بعض المعاني حتى لا يظهر عليه إلا اللقن ، وإظهار بعضها ، وضرب الأمثال لما خَفِي »[١] .

ولهذا كانوا يسوقون الشاهد مع الأسلوب القرآني من لغة العرب فيوردونه قبل الآية أو بعدها من ذلك قول ابن قتيبة في باب مخالفة ظاهر اللّفظ معناه : « ومنه واحد يراد به جميع كقوله تعالى: ﴿ هؤلاءِ ضيفي فلا تفضحون ﴾ ، والعرب تقول : فلان كثير الدرهم والدينار ، يريدون الدراهم والدنانير ، وقال الشاعر :

هـم الـمَوْلى وإن جَنَفُوا عَلَينا ... وإنَّا من لِقَائِهِـم لَـزُور[٢]

وبعكسه فعل في الاستعارة إذ شرحها وبيَّن مذاهب العرب فيها ثم شرع في بيان ما في كتاب الله منها[٣] .

ولم تقتصر جهود اللّغويين في التأكيد على نزول القرآن وفق سنن العرب والنص عليه في دراساتهم القرآنية فقط ، بل امتد إلى دراساتهم اللغويةالصرفة[٤] مما يدل على أنها قامت بأثر ديني ، فهذا ابن فارس يقول في باب الحقيقة والمجاز : « وجاء هذان البابان في نظوم كتاب الله جلّ ثناؤه ؛ وكذلك ما يجئ بعدهما ما نذكره من سنن العرب ؛ لتكون حُجَّة الله جلّ اسمه عليهم آكد ، ولئلا يقولوا : إنما عجزنا عن الإتيان بمثله لأنه بغير لغتنا وبغير السُّنن التي نستنُّها . لا بل أنزله جل ثناؤه بالحروف التي يعرفونها وبالسنن التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم ؛ ليكون

---

(١) تأويل مشكل القرآن ٨٦ .

(٢) تأويل مشكل القرآن ٢٨٤ .

(٣) ينظر المرجع السابق ١٣٥ – ١٣٧ .

(٤) اعتبر الدكتور مساعد الطيار التأليف اللغوي مشاركة غير مباشرة في تفسير القرآن . انظر كتابه (التفسير اللغوي للقرآن الكريم ١١٤) ، (ط ١ ، دار ابن الجوزي) ، ويدل على ذلك ما قاله ابن هشام حين قيل له هلاّ فسّرت القرآن أو أعربته فقال : أغناني المغني . يريد أن في كتابه (المغنى) ما يفيد ذلك .

عجزهم عن الاتيان بمثله أظهر وأشهر »[١] .

ومن هنا ننفذ إلى السبب الثاني وهو بيان إعجاز القرآن ، فهو بالرغم من عروبته ونزوله وفق سنن العرب في كلامهم ومع علم العرب بذلك عجز كُفَّار العرب عن الإتيان بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة من مثله كما جاء في تحدي الله لهم ، هذا مع وجود الدافع القوي لذلك ؛ إذْ كانت معارضته كفيلةً بإبطال الدعوة وحفظ المال والدم الذي بذلوه في محاولة إبطالها ، ولو لم يتيقنوا – وهم العرب الفصحاء – من عجزهم ما بذلوها .

وقد صدق ابن قتيبة إذ يقول : « إنما يعرف (فضل القرآن) من كثر نظره ، واتسع علمه ، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب ، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات » [٢].

فالقرآن هو معجزة محمد صلى الله عليه وسلم الخالدة ودليل نبوّته ما دامت الحياة ولا أقول مثل قول ابن قتيبة زمن البيان[٣] إلا إذا قصد الإعجازاللغوي لأن في القرآن أيضًا الإعجاز العلمي والغيبي والتنظيمي لشئون الحياة وغير ذلك من ضروب الإعجاز .

وقد قصدت من الإشارة إلى مقولة ابن قتيبة إظهار ما رسخ في عقول علماء المسلمين من أن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم مرهون ببقاء البيان العربي –والعكس صحيح[٤] أيضًا– ولذا كان من المنطقي أن تُجمع لغة العرب وأساليبها ليبقى إعجاز القرآن ماثلاً في قلب الأمّة مع بقاء لغتها فتيَّة قوية ، وهو هدفٌ يستحق من علماء اللّغة جهودهم التي بذلوها في سبيل تحقيقه[٥] .

---

(١) الصاحبي ، لأحمد بن فارس (٣٢٣) .

(٢) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة (١٢) .

(٣) ينظر المرجع السابق ، آخر سطر من نفس الصفحة .

(٤) أي أن بقاء القرآن هو سبب بقاء البيان العربي (سأشرح هذه الفكرة في حديثي عن الاحتجاج بالقرآن إن شاء الله) .

(٥) ينظر في هذا المعنى : مقدمة الثعالبي في كتابه : فقه اللّغة وسر العربية ، وينظر : مقدمة ابن خلدون ١٢٧٦/٣ (إن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن ..) .

وهو أيضًا مطلب شرعي إذ بها يُتُوصل إلى فهم النصوص الشرعيَّة وتفسير الآيات القرآنية والجلوس للفتيا وغير ذلك . يقول ابن فارس : « إن العلم بلغة العرب واجب على كل متعلق من العلم بالقرآن والسنَّة والفتيا بسبب ، حتى لا غناءَ بأحد منهم عنه . وذلك أن القرآن نازل بلغة العرب، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عربي. فمن أراد معرفة ما في كتاب اللّه جلَّ وعز وما في سنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، من كل كلمة غريبة أو نظم عجيب – لم يجد من العلم باللّغة بُدّاً .

ولسنا نقول : إن الذي يلزمه من ذلك الإحاطة بكل ما قالته العرب ؛ لأن ذلك غير مقدور عليه ، ولا يكون إلا لنبي ، كما قلناه أولاً . بل الواجب علم أصول اللّغة والسنن التي بأكثرها نزل القرآن وجاءت السنة »[(١)] .

وبالعودة إلى ما قلتُه عن حرص علماء الإسلام على بقاء البيان العربي ليبقى الإعجاز اللغوي في القرآن ماثلاً في قلب الأمة فتتضح أهميته ودواعيه في السبب الثالث من أسباب جمع اللّغة وهو الرَّد على الطاعنين في القرآن إذ كان تدنِّي مستوى الفصاحة والبيان في الأمة الإسلامية والعربية بسبب الاختلاط وفساد اللّغة سببًا في ظهور طبقة من الملاحدة وأهل الزيغ والضلال والمجَّان طعنت في القرآن وحكمت عليه بالتناقض واللحن وفساد النظم ، وما ذلك إلا لقصورهم اللغوي وجهلهم بأساليب العرب وسننها .

وقد انبرى للرَّد على هؤلاءِ وأمثالهم علماء اللّغة بأسلوب علمي وعملي، بحيث جمعوا فيه اللّغة وقيدوا سننها وعرضوها على القرآن، وعرضوا القرآن عليها سواء في كتبهم المتخصصة بحيث يشيرون إلى كلِّ مفردةٍ أو أسلوبٍ جاء في القرآن أثناء دراستهم اللغوية لها، وهو ما سمَّاه الدكتور الطيار المشاركة غير المباشرة في تفسير القرآن ، أو من خلال دراستهم اللغوية للقرآن الكريم في كتب المعاني والغريب التي

---

(١) الصاحبي لابن فارس (٥٠) .

صرّح بعض مؤلفيها بأن الدفاع عن القرآن والرّد على الطاعنين فيه هدفهم من التأليف فيها ، ومن أبرز هؤلاءِ عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت : ٢٧٦) الذي يقول في سبب تأليفه (تأويل مشكل القرآن) : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه ، وهجروا ، واتبعوا ﴿ ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾[(١)] بأفهام كليلةٍ ، وأبصار عليلةٍ ، ونظر مدخول ، فحرَّفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سُبُله. ثم قضوا عليه بالتناقض، والاستحالة، واللحن، وفساد النظم، والاختلاف. وأدلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف الغُمر ، والحدث الغِرّ ، واعترضت بالشبه في القلوب ، وقدحت بالشكوك في الصدور . ولو كانوا ما نحلوا إليه على تقريرهم وتأوُّلهم – لسبق إلى الطعن به من لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحتج عليه بالقرآن ، ويجعله العَلَم لنبوته ، والدليل على صدقه ، ويتحداه في موطن بعد موطن ، على أن يأتي بسورةٍ من مثله . وهم الفصحاء والبلغاء ، والخطباء ، والشعراء، والمخصصون من بين جميع الأنام بالألسنة الحِداد ، واللَّدَد في الخصام ، مع اللُّب والنُّهى وأصالة الرأي ، وقد وصفهم الله بذلك في غير موضع من الكتاب ، وكانوا مرَّة يقولون : هو سحر ، ومرَّة يقولون : هو قول الكهنة ، ومرَّة : أساطير الأولين .

ولم يحك الله تعالى عنهم،ولا بلغنا في شيء من الروايات أنهم جدبوه من الجهة التي جدبه[(٢)] منها الطاعنون . فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمي من ورائه بالحجج النيِّرة ، والبراهين البيّنة ، وأكشف للناس ما يَلبِسون . فألّفت هذا الكتاب ، جامعًا لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطًا ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح ، وحاملاً ما لم أعلم فيه مقالاً لإمام مُطَّلِع على لغات العرب ، لأرِي به المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأي ، أو أقضي عليه بتأويل »[(٣)] .

---

(١) سورة آل عمران : ٧ .

(٢) جدب : عاب .

(٣) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحقيق : السيد أحمد صقر (٢٢ – ٢٣) . ولقطرب (محمد بن المستنير) كتاب اختص به الملاحدة اسمه (الرد على الملحدين في متشابه القرآن) .

فكان الرَّد على هؤلاء – كما يتضح من كلام ابن قتيبة – يستدعي من العلماء الاحتجاج على لغة القرآن من كلام العرب ومعرفة سنن كلامها ولا سبيل إلى ذلك إلا بجمعها والكشف عن أساليها[١] .

وقد اخترت للقارئ مثالاً يعبر عما نحن بصدده وما نصبوا إلى بيانه وهو في روايتين نقلها الثعالبي في كتابه فقه اللّغة وسر العربية جاء فيه : « قال الصُّوليّ : ما رأيت أحدًا أشد بذخًا بالكفر من أبي فِراس ، ولا أكثر إظهارًا له منه ، ولا أدوم تعبثًا بالقرآن ، قال يومًا ، وكنّا في دار الوزير أبي العبّاس أحمد بن الحسين ننتظر مجيئه : هل تعرف للعرب إرادة لغير مميز ؟ فقلت : إن العرب تعبر عن الجمادات بقول ولا قول لها ، كما قال الشاعر : * امتلأ الحَوْضُ وقال قطنِي *

وليس ثَمَّ قول ، قال : لم أرد هذا ، وإنما أريد في اللّغة إرادة لغير مميِّز ، وإنما عرّض بقوله عز وجل : ﴿ فوجدا فيها جدار يُريدُ أن ينقضَّ فأَقامَهُ ﴾[٢] فأيدّني اللّه عز وجل بأن تذكرت قول الراعي :

في مَهْمَـهٍ فُلِقَتْ بـهِ هامَـاتـها ... فَلْقَ الفئـوسِ إذا أردن نصُـولا

فكأني ألقمته الحجر ، وسُرَّ بذلك من كان صحيح النيِّة ، وسود اللّه وجه أبي فِراس .

والعرب تسمي التهيؤ للفعلِ ، والاحتياج إليه : إرادة . قال أبو محمد اليزيدي : كنت والكسائي عند العبّاس بن الحسن العلوي ، فجاء غلام له ، وقال يا مولاي ، كنت عند فلان فإذا هو يريد أن يموت . فضحكنا . فقال : مِمَّ ضحكتما ؟ قلنا من قوله : يريد أن يموت ، وهل يريد الإنسان أن يموت ؟ فقال العبّاس : قد قال

---

(١) كذلك كان إثبات نزول القرآن وفق سنن العرب ردًا على أصحاب المذاهب الفاسدة من الباطنية وغيرهم ممن يرى في معاني ألفاظ القرآن معاني باطنة لا تفيدها اللّغة بشكل من الأشكال وكان يفسرها لهم أئمتهم وأدعياؤهم ، ولترويج مذاهبهم الباطلة وتسويغ تأويلاتهم الفاسدة أنكروا إمكانية الوقوف على معاني القرآن من اللّغة التي نزل بها حتى لا يظهر خطأ تأويلاتهم الفاسدة . انظر : التفسير اللغوي للقرآن الكريم ، د. مساعد الطيار (٤٨ وما بعدها) .

(٢) سورة الكهف : الآية (٧٧) .

الله تعالى : ﴿ فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقضَّ فأقامه ﴾ وإنما هذا مكان يكاد ، فتنبهنا . والله أعلم »[١] .

وتكمن أهمية الروايتين في الدلالة على اتجاهين يجب على كل باحث أن يفرِّق بينهما ، الأول : وهــو الاتجاه نحو الاحتجاج على لغة القرآن من كلام العرب وقد تقدم بيانه .

أما الاتجاه الآخر فهو معاكس له ومعاصر لزمانه إذ نشأ مع نشوء الدراسات اللغوية وظهور ما يعرف بعلم العربية ، ألا وهو الاحتجاج بلغة القرآن وهو المصدر الأوَّل من المصادر التي تثبت بها اللّغة وأصحها على الإطلاق ، ثم يأتي بعده الحديث وكلام العرب الفصحاء .

وقد أسهبت كتب الأصول في الحديث عن هذه المصادر وعرضت لمذاهب العلماء فيها بما يسوغ لنا تجاوزها وإحالة القارئ إليها[٢] .

والذي نود أن نلفت الانتباه إليه هو أن الاحتجاج بلغة القرآن أسهما إسهامًا عظيمًا في توحيد اللّغة وبقاء البيان العربي خالدًا عبر العصور، وذلك لاعتماد العلماء عليه في معرفة الفصيح ، وتصحيح الأخطاء ، واستخراج الأساليب العربية ، وبناء القواعد . أما اعتمادهم عليه في معرفة الفصيح فلكونهم أجمعوا على فصاحة لغة القرآن سواء ما جاء منها على لغة قريش التي نزل بأكثرها أو ما اختاره من غيرها . قال ابن خالويه في شرح الفصيح : « أجمع الناس جميعًا أن اللّغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك »[٣] .

وقد جعلوه معيارًا للفصاحة واعتمدوه في المفاضلة والاختيار، يقول المبرّد:« كل عربي لم تتغير لغته فصيح على مذهب قومه وإنما يقال : بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش، على أن القرآن نزل بكل لغات العرب »[٤].

(١) فقه اللّغة وسر العربية ، لأبي منصور الثعالبي (٣٦٠) (المكتبة الفيصلية) .

(٢) ينظر : الاقتراح للسيوطي (السماع) ، وينظر : كتاب في أصول النحو ، سعيد الأفغاني (ما يحتج به) (٢٨) .

(٣) المزهر ٢١٣/١ .

(٤) الفاضل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرّد (١١٣) ، تحقيق : عبد العزيز الميمني (القاهرة – دار الكتب المصرية ١٣٧٥هـ) .

وكذلك كان استخدامه عند علماء اللّغة في تصحيح الأخطاء والاستشهاد على صحة القول وسلامة المذهب في تقرير اللّغة وإثباتها . فقد كان القرآن الكريم المرجع الأصيل في تصحيح الأخطاء وتقويمها ، من ذلك ما روى عن أبي عمرو بن العلاء (ت : ١٥٤) أنه سمع رجلاً ينشد : * ومن يَغْوَ لا يَعْدَم على الغيّ لائما *

فقال : أقوِّمك أم أتركُك في طُمتك ؟ فقال : قوّمني . فقال قل : ومن يغوِ (بكسر الواو) ، ألا ترى إلى قول الله عز وجل ﴿ فَغَوَى ﴾ ، من قوله تعالى : ﴿ فعصى آدم ربَّه فَغَوَى ﴾ [١].

وفي مقابل ذلك خطّأ الأصمعي الاستعمال اللّغوي (زوجة) بالتاء للمؤنث اعتزازًا بالاستعمال القرآني لها (زوج) وذلك بالرغم من كونها لغة لتميم .

جاء في اللسان :« بنو تميم يقولون : هي زوجته ، وأبى الأصمعي فقال : زوج لا غير ، واحتج بقوله تعالى : ﴿ أسكن أنت وزوجك الجنَّة ﴾ فقيل له : نعم ، كذلك قال الله تعالى ، فهل قال عز وجل : لا يقال زوجه ؟ وكانت من الأصمعي في هذا شدّة وعسر »[٢]. وقد كان تصحيح الأخطاء بالقرآن منهجًا مشهورًا اتبعه أكثر علماء العربية كما كان أكثر ما حكم بخطئه القدماء موافقًا للهجة أو أخرى ولكن معيار التخطئة عندهم كان مراعيًا لاستعمالها في اللّغة الفصحى التي نزل بها القرآن وجاء بمقتضاهاالتراث بعد الارتضاء والتوحيد أي بعد توحيد هذه اللهجات في لغة واحدة[٣] .

وكذلك اعتمد علماء العربية على لغة القرآن في الدلالة على صحة القول وسلامة المذهب في تقرير اللّغة وإثباتها وهو واسع كثير في جميع كتب اللّغة والنحو كأن يقولوا : « ومن ذلك قوله تعالى ، وتصديق ذلك قوله جلّ ثناؤه ، وبه جاء القرآن ، وهو كثير في القرآن »[٤] وما ذلك إلا لأن القرآنَ الكريم أصحُ المصادر وأفصحُها فكان بمثابة الدليل على صحة معطيات المصادر الأخرى وفصاحتها عند استقراء لغة

---

(١) طبقات النحويين للزبيدي (٣٦) . والآية من سورة طه : ١٢١ .
(٢) لسان العرب ٢/٢٩٢ .
(٣) ينظر : المعيار في التخطئة والتصويب ، د . عبد الفتاح سليم (٥٦) .
(٤) ينظر مثلاً كتاب سيبويه وهو عمدة كتب النحو ، تجد هذه العبارات في أكثر من موضع (١/١٤٠ ، ١/١٢٢ ، ٢/٢٩ وغيرها) ، أما في اللّغة فحدث ولا حرج .

العرب لتقنينها وجمعها .

وقد كان الفراء يقول : « والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر » [١].

ومن مجالات الاستفادة من لغة القرآن اعتماد العلماء عليها في جمعهم اللّغة اعتماداً كبيراً حيث اشتملت على مفردات واستعمالات كانت أصح المصادر وأفصحها في جمع اللّغة ، يقول الراغب الأصفهاني : « ألفاظ القرآن الكريم هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، وما عداها ، وما عدا الألفاظ المتفرعات عنها ، والمنتقاة منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة » [٢].

والقرآن هو نص عربي بذاته يكفي مجيء الكلمة فيه للدلالة على عروبتها وفصاحتها ، وقد وردت بعض الألفاظ القرآنية التي ليس لها شاهد عربي ولم يعرف مدلولها أهل اللّغة إلا منه ولم تسمع في كلام الجاهلين ، كلفظ (التفث) في قوله تعالى : ﴿ ثم ليقضوا تَفَثَهُم ﴾ [٣]، يقول الزجاج (ت ٣١١) : « والتفث في التفسير جاء ، وأهل اللّغة لا يعرفونه إلا من التفسير ، قالوا : التفث الأخذ من الشارب وتقليم الأظافر ونتف الأبْطِ وحلق العانة والأخذ من الشَّعر ، كأنه الخروج من الإحرام إلى الإحلال » [٤].

أما اعتمادهم على لغة القرآن في استخراج الأساليب العربية وبناء القواعد فهو أمر ثابت لا مراء فيه ، يقول السيوطي في مقدمة كتابه (الإتقان) : « إن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها ، ودائرة شمسها ومطلعها ، أودع اللّه فيه علم كل شيء وأبان فيه كل هدى وغيّ ، فترى كل ذي فن منه يستمد ، وعليه يعتمد . فالفقيه يستنبط منه الأحكام ، ويستخرج حكم الحلال والحرام . والنحوي يبني منه قواعد إعرابه . ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه . والبيانيّ به يهتدي إلى حسن

(١) معاني القرآن للفراء ١/١٤ .

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني (١٠) (دار بيروت) .

(٣) سورة الحج : ٢٩ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/٤٢٣ ، تحقيق : د. عبد الجليل شلبي (عالم الكتب) .

النظام . ويعتبر مسلك البلاغة في صوغ الكلام .. » ونقل في الاقتراح عن صاحب كتاب (ثمار الصناعة) : « النحو علم يستنبط بالقياس والاستقراء من القرآن وكلام العرب » [١] وكذلك اعتمد العلماء على لغة القرآن في إثبات سنن العرب في كلامها وكشف أساليبها مما كفل خلودها وحفظها من الانحطاط والاندثار مع مرور الزمن وتدنّي مستوى البيان العربي ، فكان أصل فنون البلاغة، منه استُنبطت ، وعليه اعتمدت ، ولبيان إعجازه نشأت ، فانظر إلى قول الثعالبي مشيرًا إلى اعتماده على القرآن في إثبات سنن العرب في عنوان القسم الثاني من كتاب فقه اللّغة : « القسم الثاني مما اشتمل عليه الكتاب ، وهو سرّ العربية في مجاري كلام العرب وسننها ، والاستشهاد بالقرآن على أكثرها » [٢]، ثم أخذ يثبت سنن العرب ويستشهد على ما أثبته بالقرآن كقوله « فصل في تقديم المؤخر وتأخير المقدم : العرب تبتدئ بذكر الشيء والمقدَّم غيره ، كما قال عز وجل : ﴿ يا مريم اقنتي لربِّك واسجُدي واركعي مع الراكعين ﴾ » وكذلك فعل في أكثر الفصول .

ولأهمية القرآن في معرفة سنن العرب وأساليبها سمّاه الرافعي المعجم التركيبي فقال : « إن العرب أوجدوا اللّغة مفردات فانية ، وأوجدها القرآن تراكيبَ خالدة ؛ وإن لهذه اللّغة معاجم كثيرةً تجمع مفرداتها وأبنيتها ، ولكن ليس لها معجم تركيبي غير القرآن ، لأنه أصل فنون البلاغة كلها فما يكون في المنطق العربي نوع بليغ إلا هو فيه على أحسن ما يمكن أن يتفق على جهته الكلام ... ولقد كان هذا القرآن الكريم بما استجمع من ذلك ، هو (علم البلاغة) عند أولئك العرب الذين كانت البلاغة فيهم إحساسًا محضًا ، ثم صار من بعدهم بلاغة هذا العلم في المولدين ، وهو على ذلك ما بقيت الأرض » [٣].

وقد نتج عن هذا التوجه وحدة لغوية حققها نزول القرآن وذلك عندما أصبحت لغته محورًا يدور حولها النحاة واللغويون والبلاغيون ، والشعراء والأدباء ، والكتاب والمؤلفون ، يتبعون اختياراتها ، ويقتدون بأسلوبها ، ويحتكمون إلى قواعدها .

---

(١) الاقتراح للسيوطي (٤٣) .
(٢) فقه اللغة للثعالبي (٣٢٢) .
(٣) إعجاز القرآن ، مصطفى صادق الرافعي (٢٥٢ ، ٢٥٣) .

إن احتجاج علماء اللّغة بالقرآن كان نابعًا من اعتزازهم به فهو كلام ربِّ العالمين الذي له الكمال ، وقد أُخِذوا بفصاحة الكتاب وبيانه وقدموه على كل بيان عرفوه في شعر أو نثر ، ولذلك اعتبروه مَثلهم الأعلى والنموذج الموحد للغتهم الفصحى . وعند جمعهم اللّغة اعتمدوا عليه في معرفة الفصيح من الأصوات والألفاظ والتراكيب خاصة وأن للعرب لهجاتٍ متعددة تختلف في بعض خصائصها ، وكما كان اعتماد الفقهاء على القرآن الكريم في معرفة الأحكام الشرعية ؛ كذلك كان اعتماد اللغويين عليه في معرفة الفصيح ، وقد مرَّ بك قولنا أنهم جعلوه معيارًا للفصاحة كما يفهم من قول المبرِّد : « يقال بنو فلان أفصح من بني فلان ، أي : أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش »(١) ، وقول ابن خالويه عن إجماع الناس على « أن اللّغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غيره »(٢) .

ومن هذا المنطلق لم يعتمد علماء اللّغة على جميع اللهجات العربية في أخذ اللّغة ، كما أنهم لم يأخذوا كل شيء عن اللهجات المعتمدة ، واتخذوا من لغة القرآن مثلاً أعلى سارت عليه اختياراتهم في جمع اللّغة(٣) ممَّا أسهم في توحيد اللّغة ونشرها وتعميمها وفق اختيارات لغة القرآن (العربية الفصحى) .

وللتأكد من ذلك عملوا ما يلي :

أ - تشدد العلماء في جمع اللّغة لحرصهم على لغة القرآن .

رأيت أنه لولا القرآن لما جمعت اللّغة بشكل عام والشعر بشكل خاص ، ولمَّا كان الهدف من جمع اللّغة - في أوَّل الأمر - دينيًا ، وسبب جمعها كذلك ديني فقد تشدد العلماء في جمعها وكان لهذا التشدد عدَّة وجوه :

١ - التشدد في اختيار المادة اللغوية من حيث تقديم الأفصح على الفصيح .

٢ - التشدد في تحديد اللهجات التي جُمعت منها المادة من حيث قربها من لغة القرآن وعدم تغيرها .

٣ - التشدد في تحديد زمن جمع المادة والاحتجاج بها .

(١) الفاضل (١١٣) .

(٢) المزهر ٢١٣/١ .

(٣) أقصد اللّغة بمفهومها العام . (أوزانها وألفاظها وتراكيبها وأساليبها ودلالتها) .

٤ – أخذ اللّغة وفق منهج علوم الشريعة في تحملها وطرق نقلها .

وفي الحقيقة نحن لا نزعم أن جميع علماء العربية من نحاة ولغويين ساروا على مستوى واحد من التشدد والتقيد بهذا المنهج ، إذ تفاوتوا في ذلك بحسب مدارسهم اللغوية والنحوية من كوفية وبصرية وبغدادية وأندلسية وغير ذلك مما يعزى الاختلاف والتوسع فيه إلى الثراء الفكري وتشبُّع البحوث اللغوية والنحوية مما دعى بعضهم إلى التوسع في المنهج حتى يجد مادة جديدة تصلح للبحث ، وهنا أصبحت دراسة اللّغة لمجرد اللّغة وكثرت الماحكات والمناقشات والمناظرات التي باتت عبئًا ثقيلاً على كتب التراث وكثرت على إثرها القواعد والتفريعات والاستثناءات(١) .

أما اللغويون والنحاة القدماء فقد تشدد أكثرهم في لغة القرآن (العربية الفصحى) وسعوا إلى توحيد وطرد قواعدها وتعميمها من خلال الوجوه التي ذكرناها . وهذا بيانه :

١ – التشدد في اختيار مادة اللّغة من حيث تقديم الأفصح على الفصيح :

سار القدماء على منهج متوازن يراعي الأفصح كما يراعي الكثرة والشيوع وموافقة القياس ، وكان بعضهم يعتمد الأفصح ويَعُدُّ ما سواه لحنًا أو خطأ أو غير فصيح وإن وافق لهجة من اللهجات العربية (٢) ، وكان تحديد الأفصح يسند إلى القرآن في أكثر الأحيان وإلى منظوم العرب باللّغة الفصحى مع مراعاة تقديم المذهب الحجازي والقرشي لأنها أساسُ الفصحى وبها نزل القرآن وهو المثل الأعلى . ولذا كان الأصمعي يقول أفصح اللغات ويلغى ما سواها ، وقد مرّ بنا أنه خطّأ الاستعمال اللغوي (زوجة) اعتمادًا على لغة القرآن ولغة قريش فهم يضعون (زوج) للمذكر والمؤنث ، ولأنها من اختيار القرآن اختارها الأصمعي (٣).

---

(١) ينظر مقدمة ابن خلدون ١٢٦٦/٣من قوله(ثم طال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها ... وطرق التعليم فيها مختلفة ، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين).

(٢) قال الدكتور عبد العزيز مطر في (لحن العامة) : مقياس الصواب عند المتشددين هو الأفصح وما عداه لحن [أكثرهم من القدماء] وعند المتساهلين : كل ما تكلمت به العرب وما قيس على كلام العرب فهو صواب [أكثرهم من المتأخرين] ص ٤٧ .

(٣) راجع (٢٠٧) من بحثنا .

وكان الأصمعي لا يتكلم في شيء جاء في القرآن لشدة تألهه إيثارًا للاستعمال القرآني للّغة على أي استعمال ، وفي ذلك قال المبرِّد في الكامل : « وكان الأصمعي لا يفسر من الشعر ما فيه ذكر الأنواء ، بل كان لا يسمع ما فيه هجاء أو كان فيه ذكر النجوم ، ولا يفسر ما وافق تفسيره بعض ما في القرآن إلا ساهيًا ويروى أنه سئل عن غير شيء من ذلك فأباه وزجر السائل »(١) .

ومن الثابت عند علماء العربية أن للفصيح رتبًا متفاوتة، قال السيوطي: « ففيها فصيح وأفصح ، ونظيرُ ذلك في علوم الحديث تتفاوت رتب الصحيح ؛ ففيها صحيح وأصحُّ . ومن أمثلة ذلك : قال في الجمهرة : البُرُّ أفصح من قولهم القمح والحنطة . وأنصبه المرض أعلى من نصبه . وغلب غَلَبًا أفصح من غَلْبًا . واللُّغوب أفصح من اللَّغْب »(٢) .

وقد نقل عن ابن خالويه ما يدل على اعتماد المجتمع على لغة القرآن في معرفة الفصيح في أسمى درجاته ، قال : قال ابن خالويه في شرح الفصيح : « قد أجمع الناس جميعًا أن اللّغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن ، لا خلاف في ذلك »(٣) .

وقد اعتمد اللغويون على الأفصح لإنهاء الخلاف في اللّغات العربية ، فذكر ابن فارس في باب انتهاء الخلاف في اللغات أنه يقع في الكلمة الواحدة لغتان أو ثلاث لغات أو أربع أو خمس أو ست، وعند غيره أكثر من ذلك إذ وقع في (أصبع) عشر لغات وفي (أف) أربعون لغة ، ثم ذكر أن الكلام بعد ذلك أربعة أبواب : مجمعٌ عليه لا خلاف فيه وهو الأكثر والأعم مثل الحمد والشكر ، وما فيه لغتان وأكثر إلا أن

---

(١) الكامل في اللّغة والأدب ، لأبي العبّاس محمد بن يزيد المعروف بالمبرِّد ٢/٢٣٥ ، وينظر المزهر ٢/٣٢٥ إلى ٣٢٨ .

(٢) المزهر ١/٢١٢ .

(٣) المرجع السابق ١/٢١٣ .

إحدى اللغات أفصح وأصح وغيرها صحيح، فصيح نحو (بغدان ، بغداد ، بغداذ) فبغداد أصح وأفصح في كلام العرب . و (ثالث) فيه لغتان أو ثلاثة وهي متساوية في الفصاحة فأيًا ما قال القائل فصحيح فصيح ، و (رابع) فيه لغة واحدة حرَّفها المولدون وقالوا بغيرها . وقال إن أبا العباس ثعلبًا بنى كتابه (فصيح الكلام) على الأبواب الثلاثة الأخيرة ليعرف المتكلم أيها يختار فيكون فصيحًا(١) .

ولأن القرآن لم يشمل جميع المفردات العربية – وإن شمل أكثر أصولها وأفصحها – فإن علماء اللّغة اعتمدوا على معيار مصاحب له ومستنبط منه في معرفة الفصيح مما لم يرد فيه ، وهو كثرة الاستعمال والشيوع في كلام العرب وموافقة القياس الذي وضعوه بعد استقراء القرآن استقراءًا كاملاً استطاعوا من خلاله استقراء كلام العرب استقراءًا ناقصًا لاستحالة إجراء الاستقراء التام عليه .

والدليل عندي على أنهم اعتمدوا على القرآن في استقراء كلام العرب أنهم اقتصروا على لهجات معيَّنة في أخذ اللّغة وهي الفصيحة – دون غيرها – التي عرفوا فصاحتها بما تجمع بين أيديهم من أمثلة عالية ونماذج سامية من لغة القرآن وفصيح منظوم كلام العرب باللّغة الفصحى ، اهتدوا بها إلى هذه اللهجات وعرفوا من خلالها مكانتها من الفصاحة .

ولم يكن جمع اللّغة عملاً يتسم بالفوضى والعشوائية كأن يهيم العالم في الصحارى فيكتب عمن هبَّ ودَبّ ، وإنما خرجوا وفق منهج واضح له ضوابط جغرافية وزمانية محددة ساعدتهم النماذج العالية على وضعها ، وقد مرّ بنا قول المبرِّد : « كل عربيّ ... »(٢) . وفي هذا دليل على أنهم حكموا القرآن في معرفة الفصيح من اللغات بل في المفاضلة بين اللهجات ، ولهذا اقتصروا على بعض اللهجات في أخذ اللّغة دون بعض انطلاقًا من شبهها بلغة القرآن وعدم تغيرها ، وسيأتي تفصيل الحديث عن هذه اللهجات عند ذكر الضوابط الجغرافية والزمانية في وجوه التشدد الأخرى .

---

(١) الصاحبي (٦٧ ، ٦٨) بتصرف .

(٢) راجع (٢٠٦) من بحثنا .

والمعياران الآخران عند قدماء النحاة واللغويين في معرفة الفصيح هو كثرة استعماله في كلام العرب الفصحاء وموافقة القياس الذي وضعوه وفق الكثرة والشيوع أيضًا ، أي : استنبطوه من كلام العرب ولم يكن أحكامًا مسبقة خارجة عن سنن كلام العرب ، ومع ذلك لم يتفق العلماء في هذين المعيارين اتفاقهم في لغة القرآن على حد قول ابن خالويه في ذلك ، فمنهم من قدَّم الكثرة والشيوع وعلى رأسهم أبو عمرو بن العلاء وثعلب ، ومنهم من قدَّم القياس وعلى رأسهم الحضرمي وابن درستويه ، وقد لا نبالغ إذا قلنا إن تحديد الفصيح من أعقد قضايا اللّغة وأشكلها ، ليس في مجال اللّغة والنحو فقط ، بل في مجال البلاغة أيضًا إذ جاء في المثل السائر عن الفصاحة : « اعلم أن هذه باب متعذر الولوج ، ومسلك متوعر على الناهج ، ولم يزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه، ولم أجد من ذلك ما يعول عليه إلا القليل »(١) .

أما أبو عمرو فكان يقدم الكثير الواسع في كلام العرب ويبني عليه أحكامه ، جاء في طبقات النحويين لأبي بكر الزبيدي : « قال ابن نوفل : سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء : أخبرني عما وضعت مِمَّا سميت عربيه ، أيدخل فيها كلام العرب كلّه ؟ فقال : لا ، فقلت : كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حُجَّة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمِّي ما خالفنى لغات »(٢) .

وجاء في المزهر عن السيوطي قوله : « والمفهوم من كلام ثعلب أن مدار الفصاحة في الكلمة على كثرة استعمال العرب لها ؛ فإنه قال في أوَّل فصيحة : هذا كتاب اختيار الفصيح ، مما يجري في كلام الناس وكتبهم ؛ فمنه ما فيه لغة واحدة والناس على خلافها، فأخبرنا بصواب ذلك ؛ ومنه ما فيه لغتان وثلاث وأكثر من ذلك، فاخترنا أفصحَهنَّ ، ومنه ما فيه لغتان كثُرتا واستعملتا ، فلم تكن إحداهما أكثر من الأخرى ، فأخبرنا بهما » (٣). وعلق السيوطي بقوله : « ولا شك في أن ذلك هو مدار

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين نصر الله بن الأثير ، تحقيق : كامل عويصة (٧٤/١) (الفصل السابع) .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٣٩) .

(٣) المزهر ١٨٥/١ .

الفصاحة » يعني كثرة استعمالها وهو على رأيهم .

وقد ظهر لي أن أصحاب الكثرة والشيوع اتبعوا هذا المنهج لاعتقادهم بأنه منهج لغة القرآن ، ظهر ذلك جليًا في قول ابن جني « إلا أنك إذا استعملت أنت شيئًا من ذلك فالوجه أن تحمله على ما كثر استعماله ، وهو اللّغة الحجازية ألا ترى أن القرآن بها نزل »[1] .

أما عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧٦) فكان يقدم القياس حتى عُرف به وقيل إنه أوّل من مدَّ القياس ، قال يونس : « قلت له : هل يقول أحد (الصويق) ؟ يعني (السويق) ، قال : نعم ، عمرو بن تميم تقولها ، وما تريد إلى هذا ؟ عليك بباب من النحو يطرّد وينقاس»[2] .

وكان يطعن على العرب الفصحاء إذا جاء في كلامهم ما يخالف قياس النحو ، وقصته مع الفرزدق معروفة وما زال يفرض سلطان النحو حتى خضع الشعراء لسلطانه ، فرُوي أنه « أخذ على الفرزدق بيتًا في شعره ، فقال : أين هذا الذي يَجُرُّ خصييه في المسجد ؟ ألا يصلحه - يعني الحضرمي » [3].

وصرَّح عبدالله بن جعفر بن درستويه (ت : ٣٤٧) بأن مدار الفصاحة موافقة القياس ، فقال : « إنما الفصيح ما أفصح عن المعنى ، واستقام على القياس ، لا ما كثر استعماله »[4] .

وقد لا يلتزم أصحاب الكثرة والشيوع بمعيارهم في اختيار الفصيح ولا أصحاب القياس بقياسهم ، مما يجعلنا نجزم بأن لغة القرآن والتراث الأدبي كانت من وراء اختياراتهم ، فهي المعيار الذي تعرف به صلاحية الكثير أو المقيس ليحكم عليه بالفصاحة دون غيره .

فثعلب مثلاً ممن اعتمد الكثرة والشيوع ومع هذا فلم يعتمده في اختيار بعض

---

(١) الخصائص ١٢٥/١ ، ومثل ذلك قول ابن مالك في شواهد التوضيح (٩٩) (إلا أن وقوع « كاد » غير مقترنًا بـ « أن » أكثر وأشهر ، ولذلك لم يقع في القرآن إلا غير مقرن بـ « أن ») .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٣٢) .

(٣) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٣٣) .

(٤) تصحيح الفصيح وشرحه لابن درستويه (٣٦) تحقيق : محمد المختون .

المفردات ، قال ابن درستويه : « وأما اختياره -يعني ثعلبًا- في نَطح الكبش يَنطِح، ونَبحَ الكلبُ يَنْبِح، ونَحَت يَنْحِت؛ فإن الفتح في مستقبلها أكثر وأعم في الاستعمال، لما فيها من حروف الحلق ، ولكن الكسرة في كلام أهل الفصاحة والبصر بالأبنية وتصاريفها أكثر ، وهو الأصل وكلاهما قياس »[1] .

وكذلك القياس إذا تعارض مع السماع فلا قيمة له وعندئذٍ يُلتزم السماع ، قال ابن جني في باب تعارض القياس بالسماع : « إذا تعارضا نطقت بالمسموع على ما جاء عليه ، ولم تقسه في غيره ، وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ [2] فهذا ليس بقياس ؛ لكنه لا بدّ من قبوله ؛ لأنك إنما تنطق بلغتهم وتحتذي في جمع ذلك أمثلتهم » ، وقد يعدل عن قياس إلى قياسٍ آخر جاء بمقتضاه السماع ، يقول ابن جني : « واعلم أنك إذا أدّاك القياس إلى شيء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيءٍ آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه »[3].

وقد قال الشيخ بهاء الدين السبكي في عروس الأفراح ردًا على من أنكر فصاحة كلِّ ما خالف القياس فقال : «ما خالف القياس وكَثُر استعماله ، فورد في القرآن ؛ فإنه فصيح مثل (استحوذ)»[4] .

ونلمح من هذه الأمثلة أن لغة القرآن واختياراته هي أكثر ما يعوَّل عليه في اختيار الفصيح عند أكثر العلماء ، بل يرى بعضهم وجوب اتِّباعها في المفاضلة والاختيار ، يقول ابن درستويه في صداق المرأة : « فقد حكى فيها أبو عبيد عن الكسائي أربعة أوجه : صَداق ، وصِداق ، بفتح الصاد وكسرها ، وصَدُقة وصَدْقة ، بضم الدال وسكونها ... وأما الصَدُقة بضم الدال فهو لفظ القرآن ويجب أن يكون ذلك المختار » [5].

---

(١) تصحيح الفصيح وشرحه لابن درستويه (٣٧) .

(٢) ، (٣) الخصائص ١/١١٧ ، ١٢٥ .

(٤) نقلاً عن المزهر ١/١٨٨ .

(٥) تصحيح الفصيح لابن درستويه (٢٦٧) .

٢ – التشدد في تحديد اللهجات التي جمعت منها اللّغة من حيث فصاحتها وعدم تغيرها :

سبق أن ذكرنا في الوجه الأول من وجوه التشدد أن جمع اللّغة لم يكن عملاً عشوائيًا وإنما كان وفق منهج له ضوابط جغرافية وزمانية اعتمد العلماء في وضعها على تلك النماذج والمثل العليا التي تجمَّعت في أيديهم من لغة القرآن وفصيح كلام العرب ومنظومه باللغة الفصحى ، ومن خلال تلك النماذج تمكنوا من تحديد اللهجات العربية الفصيحة وعرفوا بها مكانتها من الفصاحة فاقتصروا في أخذ اللّغة عنها دون غيرها من اللهجات العربية الأخرى .

كما استطاعوا من خلال تلك النماذج اختبار الأعراب القادمين من البادية لمعرفة مكانتهم من الفصاحة ثم تقدير ما إذا أمكن أخذ اللّغة عنهم أو تركه لتغيرٍ حلَّ بلغاتهم أو فساد ، من ذلك ما حُكي عن أبي عمرو ابن العلاء « أنه استضعف فصاحة أبي خيرة لما سأله فقال : كيف تقول استأصل اللّه عرْقاتِهم ، ففتح أبو خيرة التاء (أي نصب جمع المؤنث بالفتحة) فقال له أبو عمرو : هيهات أبا خيرة ، لانَ جلدُك »[١] .

وكان معيار القدماء في معرفة اللهجات الفصيحة وتحديدها هو شبهها بلغة القرآن وعدم تغيرها ؛ كما يُفهم من قول المبرِّد : « كل عربي ... »[٢] .

وقد التزم قدماء اللغويين والنحاة الأخذ عن أفصح العرب ومن اعتقدوا بعدم تغير لغاتهم مهتدين إلى معرفتهم وتحديدهم من بين سائر العرب بتلك الأمثلة والنماذج العالية من لغة القرآن وفصيح مأثور كلام العرب من شعر أو نثر .

فكان أبو عمرو بن العلاء يقول: « أفصح العرب عليا هوازن ، وسفلى تميم »[٣]، وكان أبو زيد الأنصاري (ت : ٢١٥) يقول : « لست أقول : قالت العرب ، إلا إذا

---

(١) الخصائص لابن جني ١٣/٢ .

(٢) راجع (٢٠٦) من بحثنا .

(٣) الصاحبي (٤١) .

سمعته من هؤلاء : بكر بن هوازن ، وبني كلاب ، وبني هلال ، أو من عالية السافلة أو سافلة العالية ، وإلا لم أقل : قالت العرب » (١).

ولحرصهم على الأخذ عن الفصحاء الذين لم تتغير لغتهم اقتصروا في الأخذ عن قبائل قلب الجزيرة العربية ، وقد حددهم الفارابي بقوله : « والذين عنهم نقلت اللّغة العربية وبهم اقتدي ، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وتميم ، وأسد ؛ فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثرُ ما أُخِذ ومعظمه ، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتَّصريف ؛ ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »(٢) .

واقتضى معيارهم الذي التزموه ترك الأخذ عن الحواضر العربية أو القبائل المجاورة للأمم الأخرى ، وفي ذلك يقول الفارابي : « وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا من سكَّان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا مِن لخم ، ولا من جذام ؛ لمجاورتهم أهل مصر والقِبْط ؛ ولا من قضاعة ، وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية ؛ ولا من تغلب والنَّمر ؛ فإنهم كانوا في الجزيرة مجاورين لليونان ؛ ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ؛ ولا من عبد القيس وأَزْد عمان ؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفُرس ؛ ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة؛ ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ؛ ولا من حاضرة الحجاز ؛ لأن الذين نقلوا اللّغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم ، وفسدت ألسنتهم .. » (٣).

وقد ذكر ابن جنّي عِلَّة ترك الأخذ عن الحواضر في باب ترك الأخذ عن أهل المَدَرِ كما أخذ عن أهل الوبر ، فقال : « عِلَّة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المَدَر من الاختلال والفساد والخطل . ولو عُلم أن أهل مدينة باقون على

---

(١) المزهر ١/١٥١ .

(٢) ، (٣) نقلاً عن المزهر ١/٢١١ – ٢١٢ . والنص غير موجود في كتاب الحروف للفارابي ، أمّا معناه فموجود في (١٤٧) .

فصاحتهم ، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم ، لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر .

وكذلك أيضًا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها ، وترك تلقي ما يرد عنها . وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا ؛ لأنا لا نكاد نرى بدويًا فصيحًا »[١] .

وانطلاقًا من هذا المنهج الراقي والفهم الصحيح أجمع العلماء على القول بفصاحة قريش ثم أخذوا اللّغة عن غيرها ؛ ولم يجدوا في ذلك حرجًا أو تناقضًا لما قرروه .

وتفسير ذلك أنهم حكموا بفصاحتهم اعتمادًا على أصول لغتهم التي خلدها نزول القرآن بها ومجيء التراث الأدبي بمقتضاها ولكنّهم حين شرعوا في أخذ اللّغة وتدوينها وجدوا واقعهم اللغوي قد اختلف عن ماضيهم ، وأن ألسنة أهلها وفصاحتها قد تغيرت بسبب المخالطة عن أصول لغتهم التي وضعها القرآن وفصيح مأثور كلام العرب بها بين يدي العلماء ، وعندئذٍ ترك العلماء الأخذ عنهم مع الاعتماد على أصول لغتهم ، وأخذوا عمَّن التزم هذه الأصول أو وجدت في كلامه ممَّن حولهم وحكموا لهم بالفصاحة .

ملحوظة :

راجع هذا المعنى وأطل النظر فيه ، فإن الجهل به قد أوقع بعض المحدثين في الزلل والتقوُّل على الفصحى والسلف بما ليس فيهما[٢] .

واعلم أن إجماع العلماء على القول بفصاحة قريش ورجع الفصحى إلى أصولها القرشية والحجازية لم تكن أقوالاً مجردة ، بل ترتب عليها مجموعة من الأحكام والأعمال الهامة في تأصيل العربية بشكل عام .

---

(١) الخصائص ٢/٥ .

(٢) ينظر (١٥٢) من بحثنا .

أمّا الأقوال فهي منثورة في كتب النحو واللّغة وهي كثيرة ، وحسبنا من ذلك ما نقله ابن فارس عن إجماع العلماء على القول بفصاحة قريش ، فقد جاء في الصاحبي : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم ، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالِّهم أن قريشًا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغةً ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيَّروا من كلامهم وأشعارهم أحسنِ لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيَّروا من تلك اللّغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب » ، واستدل على صحة ذلك بقوله : « ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ، ولا عجرفية قيس ، ولا كشكشة أسد ، ولا كسكسة ربيعة ، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس »[١] .

وهذا الذي وُصِف به القرشيون من الانتقاء والتخير للفصيح من لغات العرب ، وإدخاله في لغتهم وطرد المستبشع والمرذول منها ، هو نفس ما جاءت به اللّغة العربية الفصحى ، فهي ليست في حقيقتها إلا لغةً تشمل أفصح الأصوات والصيغ والمفردات وأفصح التراكيب والأساليب العربية ولهذا سميت بالفصحى وظهرت في خصائصها بعض خصائص اللهجات التي أسهمت في بنائها .

وأمّا الأعمال والأحكام التي ترتبت على تلك الأقوال فهي دقيقةٌ وهامَّةٌ في تأصيل العربية بشكل عام . منها على سبيل المثال :

١ - جعلوا من لغة القرآن ولغة قريش معيارًا تُعرف به فصاحة اللهجات العربية ويهتدى به إلى أفصح العرب ومن ثم أخذ اللّغة عنهم لأنهم التزموا في جمع اللّغة أخذها عن العرب الفصحاء ممَّن لم تتغير لغتهم ، وهؤلاء يصعب تحديدهم

---

(١) الصاحبي (٣٣ - ٣٤) .

ومعرفتهم بدون عرض لغتهم على أصولٍ تكون بمثابة معيار تقاس به فصاحة اللّغة أو تغيرها .

وهذه الأصول هي القرآن الكريم ومأثور كلام العرب ومنظومها باللّغة الأدبية التي هي في أصلها لغة قريش ، وقد عبَّر المبرِّد عن منهجهم المعياري كما مرّ بنا مع العلم أن فصاحة اللهجة وصحتها عند أهلها يحكمها جريانها على مألوفهم اللغوي وعدم خروجها عنه ، أما بالنسبة لعلماء اللّغة فهي مرهونة بموافقتها للّغة الأدبية المشتركة أو مخالفتها ، وهذا الذي عوّل عليه العلماء في الحكم على فصاحة اللّغة وصحتها .

٢ - تحكيم عثمان للّغة قريش عند اختلاف القراء في شيء من القرآن وكتابته بلغتها بدعوى نزوله بلغة قريش . قال للرهط من قريش : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنَّما أنزل بلسانهم »[١]. وهذا - كما ترى - أمر يمسّ العقيدة وأصل التشريع ، وما كان لعثمان - رضي الله عنه - أن يأمر به لو أن القرآن لم ينزل بلغة قريش يقينًا .

والقرآن - كما تعلم - أهم المصادر في معرفة اللّغة الأدبية وأصحها ولغته تمثل اللّغة الأدبية في أرقى مستوياتها .

٣ - تقديم العلماء للمذهب الحجازي - غالبًا - على غيره من المذاهب في اللّغة والنحو ، فكانوا يرون أن لغة الحجاز هي اللّغة الأولى والأصل الذي تفرعت عنه اللهجات العربية كما يفهم من أقوالهم عنها ، فمثلاً قال سيبويه : « والحجازية هي اللّغة الأولى القدمى »[٢]، وفي موضع آخر : « وهي اللّغة العربية القديمة الجيدة »[٣].

---

(١) الفهرست ، ابن النديم (٤٠) . والنفر القرشيون هم : (عبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحرث بن هشام) وقد ضربنا الأمثلة على هذا العنصر وشرحناه ، راجع (١٨٢) من بحثنا.

(٢) الكتاب ٢٧٨/٣ .

(٣) المرجع السابق ٤٧٣/٤ .

وكذلك وصفها ابن جني فقال : « هي اللّغة الفصحى القدمى »[١] ، وقال : « ... لأن أصله فُعُل . وهي اللّغة الحجازية القويّة » [١].

ونقل الرافعي عن ابن سيده قوله : « وإنما صارت لغتهم الأصل ، لأن العربية أصلها إسماعيل عليه السلام ، وكان مسكنه مكة » واعتبر أن قول القدماء بأصالة لغة الحجاز كان سبباً في تقديم مذهبهم[٢] .

٣ - التشدد في تحديد زمن الجمع والاحتجاج به :

وهو الضابط الزماني في جمع اللّغة وإثباتها ، وقد تم وضعه من قبل علماء العربية ورواتها لضمان جمعها في أزهى عصورها ، وقت الفصاحة وقبل التغير والفساد اللّغوي .

فاحتج علماء العربية بكلام العرب في إثبات ألفاظ اللّغة ومبانيها وعمل قواعدها ومعرفة أساليبها في فترةٍ زمنية محدَّدة ، واعتبروا ما حدث بعدها مولداً ومحدثاً لا يحتج به في اللّغة والعربية ، واستثنوا من ذلك المعاني ، قال ابن جني : « فإن المعاني يتناهبها المولدون كما يتناهبها المتقدمون »[٣] ، قال ذلك معللاً لاستشهاده بشعر معاصره المتنبي في المعنى دون اللّفظ ، وقد روى البغدادي في خزانة الأدب : « علوم الأدب ستة : اللّغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ، والثلاثة الأولى لا يستشهد عليها إلا بكلام العرب (يعني القدماء) دون الثلاثة الأخيرة فإنه يستشهد عليها بكلام المولدين لأنها راجعة إلى المعاني ، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم إذ هو أمر راجع إلى العقل ، ولذلك قُبل من أهل هذا الفن الاستشهاد بكلام البحتري وأبي تمام وأبي الطيب وهلم جرا »[٤] .

وقد حدد العلماء فترة قبول الاحتجاج بكلام العرب في إثبات اللّغة وهي تبدأ من أوَّل ما وصل إليهم من نصوص العصر الجاهلي وتنتهي في منتصف القرن الثاني الهجري في الحواضر العربية ، أما أهل البادية فقد استمر العلماء يدونون لغاتهم حتى فسدت سلائقهم في منتصف القرن الرابع الهجري .

(١) الخصائص ٢٦٠/١ ، ٣٣٥/٢ .
(٢) ينظر : تاريخ آداب العرب ٨٨/١ ، وانظر الحاشية (١) .
(٣) الخصائص ٢٤/١ .
(٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، عبد القادر البغدادي (٥/١) . تحقيق : عبد السلام هارون ، ط٣ (١٤٠٩هـ) ، الخانجي القاهرة .

والمعيار في تحديد الزمن هو نفس المعيار في تحديد اللهجات وهو الفصاحة وعدم التغير ، وهو كذلك يقوم على عرض المادة على الأمثلة والنماذج العالية التي بين أيدي العلماء من لغة القرآن وفصيح مأثور كلام العرب ، فمتى ما انحرفت اللّغة عن تلك الأصول المستنبطة منها توقفوا عن الاحتجاج بها أو نقلها والأخذ عنها .

وقد مرّ بنا في الضابط المكاني كيف جعل ابن جني علّة ترك الأخذ عن أهل المدر كما أُخِذ عن أهل الوبر في انتقاض الفصاحة والخطل والفساد في لغتهم ، ولذا كان ترك الأخذ عن الحواضر قبل أهل البادية ، واستمر الأخذ من أهل البادية حتى فسدت لغتهم في عصره إذ يقول : « وكذلك أيضًا لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدَرِ من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها ، وترك تلقّي ما يَرِد عنها . وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا ؛ لأنا لا نكاد نرى بدويًا فصيحًا . وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه ، لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه ، وينال ويغض منه »[1] ، ثم ذكر قصته مع الأعرابي ومنها يفهم القارئ ما نقصده بالمعيار في أخذ اللّغة وعرض المادة على النماذج العالية إذا لم يكن فهمها مما قدّمناه سابقًا ، قال : « وقد كان طرأ علينا من يدّعي الفصاحة البدوية ، ويتباعد عن الضعفة الحضرية ، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزّناه تمييزًا حَسُن في النفوس موقعه ، إلى أن أنشدني يومًا شِعرًا لنفسه يقول في بعض قوافيه : أشئؤها ، وأدأؤها بوزن أشععها وأدعها فجمع بين الهمزتين كما ترى ، واستأنف من ذلك ما لا أصل له ، ولا قياس يسوّغه . نعم ، وأبدل إلى الهمز حرفًا لا حظّ في الهمز له، بضدّ ما يجب؛ لأنه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير إحداهما، فكيف أن يقلب إلى الهمز قلبًا ساذجًا على غير صنعة ما لا حظّ له في الهمز ، ثم يحقق الهمزتين جميعًا ؟ هذا ما لا يبيحه قياس، ولا ورد بمثله سماع»[1].

ومع وجود المعيار والمثل العالي تمكّنوا من إسقاط الاحتجاج ببعض الجاهليين كأمية بن أبي الصلت وعدي بن زيد العبادي وحتى الأعشى عند بعضهم [2]، بل

(١) الخصائص ٢/٥ ، ٦ .

(٢) جاء في الشعر والشعراء لابن قتيبة : كان أمية يأتي بألفاظ كثيرة لا تعرفها العرب ، وعدى ، علماؤنا لا يرون شعره حجة ، والأعشى ، كثرت الألفاظ الفارسية في كلامه لكثرة خروجه إليها . ينظر على التوالي (٣٠٥ ، ١٣٥ ، ١٦٠) ط ٦ ، دار إحياء العلوم .

وُجِد من بين العلماء من كان يطعن على العرب كما عُرِف عن الحضرمي وعيسى بن عمر[١] ، في حين جوز فريق منهم الاحتجاج بكلام الشافعي المتوفَّى في القرن الثالث للهجرة ، فكان قوم من أهل العربية يجلسون إلى حلقته لسماع لغته ، وقال عنه ابن هشام النحوي : « الشافعي كلامه لغة يحتجّ بها »، ومثله قول الإمام أحمد بن حنبل: « كلام الشافعي في اللّغة حجة » ، وكان الأصمعي يقول : « صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي » [٢].

واعلم أن التزام العلماء بالضابط الزماني كان على درجات متفاوتة ، فكان النحاة أكثرَ تشدداً من اللغويين ، كما كان بعضُ اللغويين أكثرَ تشدداً من بعض ولكنه في ظل تلك الفترة .

فكان أبو عمرو بن العلاء لايستشهد بشعر إسلامي،روى الجاحظ عن الأصمعي قوله :« جلست إلى أبي عمرو بن العلاء عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي »، قال : وقال مرة :« لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممت أن آمر فتياننا بروايته»[٣] يعني شعر جرير ، والفرزدق وأشباههما .

وكان الأصمعي يقول : « خُتِم الشعر بإبراهيم بن هَرْمَه ، وهو آخر الحجج»[٤]، وقد كان العلماء صنَّفوا الشعراء من جهة الاحتجاج إلى أربعة أصناف : جاهليين لم يدركوا الإسلام، ومخضرمين أدركوا الجاهلية والإسلام،وإسلاميين لم يدركوا الجاهلية آخرهم ابن هَرْمَة، ومحدثين. قال السيوطي: « أوَّلهم بشار بن برد » وقال : « أجمعوا (أي العلماء) على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين في اللّغة والعربية»[٥] .

---

(١) ينظر : طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٣٢) .

(٢) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ٢٤٠٢/٦ .

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ٢١٤/١ .

(٤) الاقتراح للسيوطي (٥٥) ، وإبراهيم هذا توفيٍّ سنة ١٧٦ هـ واسمه إبراهيم بن علي بن مسلمة بن هرمة الكناني .

(٥) المرجع السابق (٥٤ ، ٥٥) ، وينظر في هذا التقسيم مقدمة البغدادي في خزانة الأدب ٥/١ ، وكتاب سعيد الأفغاني (في أصول النحو) (١٩) .

وقد كانت البادية هي الملاذ الوحيد لعلماء العربية بعد فساد لغة الحواضر العربية فرحل إليها الرواة فمنهم من كان نحوياً فبلغ بذلك الغاية والإمامة كالخليل بن أحمد (ت : ١٧٥) ، ويونس بن حبيب الضبي (ت : ١٨٣) ، والكسائي (ت:١٨٩)، ومنهم من كان لغوياً فقط لا ينشط للقياس كالأصمعي فاكتفى بإثباتها وتبليغها ورواياتها وأفاد منها النحاة في الحواضر ، وقد كان سيبويه مثلاً ينقل عن أبي زيد الأنصاري اللّغة ؛ قال أبو زيد : « فإذا سمعته يقول حدثني من أثق بعربيته ، فإنما يريدني »[١] .

وفصل بعض المتأخرين بين وظيفة اللغوي والنحوي ، فنقل السيوطي عن عبداللطيف البغدادي في شرح الخطب النباتية قوله : « اعلم أن اللّغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه ؛ وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينْقُله اللغوي ، ويقيس عليه ، ومثالهما المحدِّث والفقيه »[٢] .

واستمر خروج بعض اللغويين إلى البادية حتى أواخر القرن الرابع الهجري ، منهم الأزهري (ت : ٣٧٠) صاحب معجم تهذيب اللّغة ، فنقل عن الأعراب الذين وقع في سهمهم حين أسرته العرب في فتنة القرامطة وهم من هوازن وتميم وذكر أنهم : « لا يكاد يوجد في منطقهم لحن أو خطأ فاحش » [٣].

ومنهم أيضاً الجوهري إسماعيل بن حماد (ت : ٣٩٨) مؤلف معجم (تاج اللّغة وصحاح العربية) واعتمد فيه على مشافهة (العرب العاربة في ديارهم بالبادية) على حدّ قوله ، ومع أنه أصحُ المعاجم وأدقُّها وأثبتها إلا أنهم لم يقبلوا ما تفرَّد به . جاء في المزهر : « وقال الشيخ تقي الدين بن الصلاح في شرح مشكلات الوسيط : إنه لا يقبل ما تفرَّد به (يعني الجوهري) ، وكان علَّة ذلك ما ذكره في أوّل كتابه من أنه ينقل عن العرب الذين سمع منهم ، فإن زمانه كانت اللّغة فيه قد فسدت » [٤].

---

(١) مراتب النحويين ، أبو الطيب اللغوي (٦٩) .

(٢) المزهر ٥٩/١ .

(٣) تهذيب اللغة ، الأزهري ٧/١ .

(٤) المزهر للسيوطي ١٣٦/١ ، وينظر ٩٧/١ .

٤ - أخذ اللّغة وفق منهج العلوم الشرعية في طرق نقلها وتحملها :

وهو الوجه الرابع من وجوه التشدد في جمع اللّغة وإثباتها لضمان صحتها وثبوتها ، وذلك لأن الهدف من جمع اللّغة - في أوّل الأمر - ديني ، والذين قاموا بهذه المهمة هم علماء الشريعة من قرّاء ومفسرين ، وكانوا يرون - كما جاء عن أبي عمرو بن العلاء - « أن علم العربية هو الدين بعينه »(١) ، وهي بفروعها المتعددة من علوم الآلة التي يتوصل بها إلى فهم الشرعيات ، ولذا فقد اكتسبت منهج علوم الشريعة المستعمل من قبل علمائها في تحري الصحة والثبوت، والإسناد في الرواية، وحصر طرق الأخذ والتحمُّل .

وهو أمر ليس بمستغرب بل يقتضيه العقل والمنطق ، إذ كيف تعالج نصوص الشريعة بآلة ليس لها من سلامةالمنهج ووضوحه ما يكفل صحة نتائجها وتقريراتها؟! خاصةً وأن مأخذ أدلَّة علوم الشريعة وأحكامها من الكتاب والسنة ، وهما واردان بلغة العرب وسننها . ولهذا كان أئمة القراء والمفسرين والمشتغلين بالقرآن الكريم هم أوّل من مهَّد لظهور علم اللّغة والعربية بشكل عام وهم أوّل من جمع اللّغة ونظر في النحو كابن عبّاس(٢) وأبي الأسود الدؤلي الذي وضع الحركات الإعرابية للقرآن (ت:٦٩) ، ونصر بن عاصم (ت : ٨٥) ، وعبدالرحمن بن هرمز (ت : ١١٧) ، ويحيى بن يعمر الذي أخذ عنه نقط الإعجام لحروف الكتاب العزيز (ت : ١٢٩) ، وأبي عمرو بن العلاء (ت : ١٥٤) ، وهؤلاء جميعًا كانوا من قراء الذكر الحكيم ، دعاهم توجيه القراءة واختيارها وطلب تفسير غريب القرآن ومعانيه إلى النظر المبكر في اللّغة والنحو ، فكانوا بذلك أئمتها الذين فتقوا رتقها ، ومهَّدوا طريقها ، ورسموا حدودها لمن جاءوا بعدهم وتخصص في علم العربية بعد أن استقلوا بها عن علوم القرآن(٣) والشريعة ، وكانت قبل ذلك ممتزجة بها ، فلا غرو أن تتأثر بمنهجها وتُجرى

---

(١) معجم الأدباء ، ياقوت ١/١٠ (المقدمة) .

(٢) جمع ما يتعلق بتفسير بعض ألفاظ القرآن وغريبه ، ويعد المرحلة الأولى من مراحل جمع اللّغة (سيأتي ذِكرها) .

(٣) ينظر ما نقله السيوطي في الإتقان : (العلوم المستنبطة من القرآن) وينظر ما نقله عن أبي الفضل المرسي في تفسيره عن ظهور التخصص في علوم القرآن من بداية قوله (ثم تقاصرت الهمم ..) وقد كان السيوطي قال في مقدمة كتابه (إن القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها) اتقان ٢/٢٧٣ . وينظر : الخصائص ٣/٣١٠ .

من مصطلحاتها عليها ، خاصة من الفقه والحديث وأصولهما . وهذا المنهج يقوم علـى الآتي :

١ - جعلوا من اللّغة متنًا وسندًا ، فالمتن عند علماء العربية هو « ألفاظ اللّغة وأبنيتها وتراكيبها وأساليبها » وهـي ما يتكون منها الكلام العربي ، واشترطوا في صـحة المتن أن يكون عن العرب الفصحاء وفق ضوابط زمانية ومكانية محددة . (سبق ذكرها) .

أمّا السند فهو سلسلة الرجال الموصلة للمتن بطريقة من طرق الأخذ والتحمل ، وهي كما ذكرها السيوطي ستة :

١ - السماع من لفظ الشيخ أو العربي ، ٢ - القراءة على الشيخ ، ٣-السماع على الشيخ بقراءة غيره ، ٤- الإجازة ، ٥- المكاتبة ، ٦ - الوجادة [١].

٢ - أوجبوا الإسناد في نقل اللّغة وقسموا النقل إلى متواتر وآحاد . ولبيان ذلك نسوق للقارئ ما نقله السيوطي عن ابن الأنباري في الاقتراح : « فالنقل هو الكلام العربي الفصيح المنقول بالنقل الصحيح الخارج عن حدّ القِلّة إلى حدِّ الكثرة ، وعلى هذا يخرج ما جاء من كلام غير العرب من المولدين وغيرهم ، وما جاء شاذًا في كلامهم ، نحو الجزم بـ (لن) والنصب بـ (لم) والجر بـ (لعلّ) ونصب الجزئين بها و بـ (لَيْتَ) ، وهو ينقسم إلى تواترٍ وآحاد ، فأما التواتر فلغة القرآن وما تواتر من السُّنَّة وكلام العرب ، وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم .

أمّا الآحاد فما تفرد بنقله بعض أهل اللّغة ولم يوجد فيه شرط التواتر وهو دليل مأخوذ به ، والأكثرون على أنه يفيد الظن ، وشرط التواتر أن يبلغ عدد ناقليه عددًا لا يجوز على مثلهم الاتفاق على الكذب ، وأمّا الآحاد فأن يكون ناقله عدلاً رجلاً كان أو امرأة ، حرّاً كان أو عبدًا ، كما يشترط في نقل الحديث ، لأن باللّغة معرفة تفسيره وتأويله فاشتُرِط في نقلها ما اشتُرِط في نقله »[٢] .

---

(١) ينظر في معانيها وأمثلتها المزهر ١٤٦/١ - ١٦٧ .

(٢) الاقتراح (٥٤ - ٦٥) .

٣ - تحروا الصحة والثبوت عن العرب :

قال ابن فارس:« تؤخذ اللّغة اعتياداً كالصبي العربي يسمع من أبويه وغيرهما، فهو يأخذ اللّغة عنهم على مرِّ الأوقات ، وتؤخذ تلقناً من مُلَقِّن ، وتؤخذ سماعاً من الرواة الثقات ذوي الصدق والأمانة ، ويتقى المظنون . فحدثنا علي بن إبراهيم عن المعدانيّ عن أبيه عن أبي معاذ معروف بن حسان ، عن الليث ، عن الخليل قال : إن النَّحارير ربما أدخلوا على الناس ما ليس من كلام العرب إرادة اللَّبس والتعنيت . قلنا : فليتحرّ آخذ اللّغة وغيرها من العلوم أهل الأمانة والثقة والصدق والعدالة ، فقد بلغنا من أمر بعض مشيخة بغداد ما بلغنا »[(١)] .

وقد ذكر السيوطي أن ضابط الصحيح من اللّغة « ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه على حدِّ الصحيح من الحديث »[(٢)] .

ولهذا قال (في معرفة ما رُوِيَ ولم يصحّ ولم يثبت) : « إن السبب في عدم ثبوت هذا النوع عدم اتصال سنده لسقوط راوٍ منه ، أوْ جهالته ، أو عدم الوثوق بروايته ؛ لفقد شرط القبول فيه[(٣)] (وهو العدالة فلا تقبل رواية من كان فاسقاً) . وهذا - في الأغلب - لا يحتج بمتنه خوفاً أن يكون لمولد أو من لا يوثق بفصاحته ، ولهذا نجدهم تساهلوا مع ما أرسل أو أُسنِد إلى مجهول في عصر الاحتجاج ففي شواهد سيبويه خمسون بيتاً مجهولة القائلين . وقبلوا نقل العدل الواحد وأهل الأهواء إلا أن يكونوا ممن يتديَّن بالكذب[(٤)] .

ويبدو أن تحري العلماء صحة اللّغة وثبوتها كان لغرض ديني ، وقد صرّح بعضهم بذلك في سياق حديثه عن إثبات اللّغة بأخبار الآحاد فقال : « لأن إثباتها إنما يراد للعمل في الشرع »[(٥)].

---

(١) الصاحبي (٤٨) ، النحرير : الحاذق الماهر المجرب .

(٢) المزهر ٥٨/١ .

(٣) المرجع السابق ١٠٣/١ .

(٤) ينظر لمع الأدلة لابن الأنباري (٨٧) .

(٥) نقله السيوطي في المزهر عن القاضي عبد الوهاب المالكي ١٢٠/١ .

وهذا لا يعني أن رواة اللّغة وعلماءها التزموا الصحة والثبوت في كل رواياتهم ونقلهم وما أثبتوه في كتبهم ولكنهم تحروه ونبّهوا على ما لم يثبت . قال السيوطي : « وغالب هذه الكتب (اللّغة والمعاجم) لم يلتزم فيها مؤلّفوها الصحيح ، بل جمعوا فيها ما صحّ وغيره ، وينبِّهون على ما لم يثبت غالبًا . وأول من التزم الصحيح مقتصرًا عليه الإمام أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ، ولهذا سميّ كتابه بالصحاح »[١] .

فتنبيه العلماء والرواة على ما لم يثبت أو يصح مما نقلوه هو قمّة الموضوعية والتحري ، حتى تُعلم درجته ومكانته فلا يفوتهم بتركه ، وفي الوقت نفسه يكون القارئ على بصيرة من أمره .

وقد أورد السيوطي بعض الأمثلة على تنبيه أصحاب المعاجم على ما لم يصح ويثبت ، فقال : « وأمثلة هذا النوع كثيرة ؛ منها ما في الجمهرة لابن دريد ، قال : زعموا أن الشَّطْشاط : طائر ، وليس بثبت . وفيها : في بعض اللّغات : ثَبَطَت شفةُ الإنسان ثبطًا إذا ورمت ، وليس بثبت ... وفيها : الهيق نبت زعموا ولا أدري ما صحّته . وفيها : القَلْس : حبل من ليفٍ أو خُوص ، ولا أدري ما صحّته ..»[٢] .

ولم يقف الرواة وعلماء العربية عند هذا الحد من التنبيه على ما لم يصح ويثبت بل نبهوا إلى ما رواه الأفراد الثقات دون غيرهم ومع أن حكمه القبول إلا أن تنبيههم إليه زيادة في التحرِّي وإشارة إلى القارئ حتى يكون على بصيرة من أمره، فلا يقدِّمه على ما نُقل متواترًا ، فمثاله : « قال في الجمهرة : المَنْشَة : المال ، هكذا قال أبو زيد (الأوسي الأنصاري ت : ٢١٥) ولم يقله غيره ... ومن أفراد الخليل – قال في الجمهرة : الرَّتُّ ، والجمع : رُتُوت ، وهي الخنازير الذكور ، ولم يجئ به غير الخليل»[٣].

ولم يَفُتْ علماء العربية التنبيه على تلك الأخبار والأشعار المصنوعة والمدسوسة

---

(١) المزهر ٩٧/١ . ملاحظة : (كان الأزهريُّ قبله ت : ٣٧٠هـ ، وقد التزم الصحيح في معجمه تهذيب اللغة) .

(٢) المزهر ١٠٣/١ وما بعدها .

(٣) جمهرة اللغة ، ابن دريد ٧٨/١ . .

من قبل بعض الرواة لأسباب سياسية قبلية عندما استقلت بعض القبائل أشعارها وذكر مآثرها فقالوا على ألسنة شعرائهم ، أو ما وضعه الرواة لنصرة مذهب نحوي على آخر وتوجيه رأي صدر عن أحد أئمّتها ، أو دسه عليهم المولدون فاحتجّوا بها ظنًا أنها للعرب .

فنبّه العلماء إلى تلك الأخبار والأشعار وأعرضوا عن الاحتجاج بما فيها من لغة وغريب وأسقطوا ما كان تسرب إلى بعض النحاة منها وبينوا فساده وصناعته[١] .

وتأسّوا بما كان عند علماء الحديث في علم الجرح والتعديل فبحثوا في أحوال اللغات ورواتها ، قال السيوطي : « إن أهل اللّغة والأخبار لم يهملوا البحث عن أحوال اللّغات ورواتها جرحًا وتعديلاً ؛ بل فحصوا عن ذلك وبيّنوه ، كما بينوا ذلك في رواة الأخبار ، ومن طالع الكتب المؤلفة في طبقات اللغويين والنحاة وأخبارهم وجد ذلك . وقد ألف أبو الطيب اللغوي كتاب (مراتب النحويين) بيّن فيه ذلك وميّز أهل الصدق من أهل الكذب والوضع »[٢].

فكان من الرواة كذابون يزيدون في أشعار العرب كحماد الراوية (ت : ١٥٥)، وخلف الأحمر (ت : ١٧٥) بيّنهم العلماء وحذّروا من الوثوق بما تفردوا به ، ومن الرواة – وهم الأكثر – ثقات يسجلون ملاحظاتهم على نقولهم وينتقدونها حتى مُدِحو بذلك فقيل : « رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعًا كثيرًا ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون : هذا مصنوع »[٣] . والسبب في ذلك أنّ للّغة والشعر أقيسة وصناعة معروفة فما شذّ عنها أو خالفها فهو مطروح قطعًا إلا ما رُوِيَ عن ثقة فيوردونه في الأفراد والنوادر ، أما سوى ذلك فإن اللّغة لم تحظ بنصف ما حظي به الحديث من الضبط والتحري ، وقد رأيت أنّ منهجها محمول على منهج علماء الشريعة وأهل الفقه والحديث خاصة .

---

(١) ينظر في ذلك الاقتراح للسيوطي (٤٨) من قوله : (وقد وضع المولدون أشعارًا ودسّوها ..) ، وينظر أول طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي (المقدمة) ، وينظر أمثلة ذلك في الشعر والألفاظ في المزهر (معرفة المصنوع) ١/ ١٧١ وما بعدها .

(٢) المزهر ١/ ١٢٠ .

(٣) ذيل الأمالي والنوادر ، أبو علي إسماعيل القالي (١٠٥) (دار الكتب العلمية بيروت) .

وقد عقد ابن جني بابًا في خصائصه في صدق النقلة وثقة الرُواة والحملة تتم الفائدة من كلامنا برجوع القارئ إليه[١] .

ب – إماتة اللهجات الخاصة :

وهي عملية منظمة مقصودة قام بها علماء العربية ورواتها لحرصهم على لغة القرآن اللّغة الأدبية ، المشتركة ، فسعوا إلى تعميمها ونشرها من خلال جعلها مجالاً للدرس ، وميدانًا للنظر والجمع .

أمّا اللهجات الخاصة التي كانت القبائل تتكلم بها في بيئاتها المحلِّية وشئونها اليومية داخل حدود القبيلة ، والتي تتميز ببعض الخصائص الذاتية والعادات الخاصة، فإنها لم تكن محط اهتمام علماء العربية ورواتها فلم يلتفتوا إليها بشكل مقصود ، بل عملوا على إماتتها لضمان وحدتها والحيلولة دون التعصب لها ، فأعرضوا عن تسجيل خصائصها وإثبات لغتها إلا ما جاء على سبيل ذكر عيوبها وبيان اختلافها لإبراز فضل الفصحى عليها على نحو ما ذكره ابن فارس في بابي اللّغات المذمومة واختلاف اللغات ، أو للإشارة إلى ما استعمله القرآن وهو يرجع إلى إحدى خصائص هذه اللهجات فأشار إليها العلماء لذلك ، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ إنَّ هذان لساحران ﴾[٢] فذكروا أنها لغة بني الحرث، أو على غرار ما نقله السيوطي في الإتقان في النوع السابع والثلاثين (فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز) .

ويدخل في ذلك أيضًا إشارتهم إلى ما حسن من هذه الخصائص فأصبح من سمات الفصحى ، كخاصية الهمز عند تميم والتميمية بشكل عام تحظى باحترام العلماء بعد الحجازية وكثيرًا ما يستدركون بها عليها .

ومن هذا المنطلق يمكننا القول : بأنَّهم لم يتوافروا على دراسة لهجة كاملة من اللهجات العربية الخاصة ، ولم يخلِّفوا لنا كتابًا يفردونه بجمع خصائص هذه اللهجة أو تلك على غرار جمعهم أشعار القبائل كأشعار بني هذيل وطيئ وأسد والأزد وكنانة وغير ذلك مما ذكره ابن النديم[٣] مع أنها نظمت بالفصحى كما يتضح مما وصل

(١) ينظر الخصائص ٣/٣٠٩ .

(٢) طـه (٦٣) . (٣) الفهرست ، ابن النديم (٢٥٦) .

منها وهو ديوان هذيل .

فكل ما جاء عن اللهجات الخاصة هو بعض الملاحظات التي سجلها العلماء في سياق دراستهم للغة الأدبية وإثباتها وذلك حين يطلبها الشاهد وتقتضيها النادرة ، لأن جميع كتب النحو واللغة بأنواعها المتعددة قامت أساسًا على تتبع اللّغة الأدبية، ولأن علماء العربية ورواتها كما يقول الرافعي : « اعتبروا لهجات العرب لعهدهم كأنها أنواع منحطة خرجت عن أصلها القرشي بما طرأ عليها من تقادم العهد وعبث التاريخ ، فلم يجيئوا ببعضها إلا شاهدًا على الفصاحة الأصلية في العربية وخلّوها من التنافر والشذوذ ، وتمامًا على الذي جمعوه من أصول العربية ، وتفصيلاً لكل شيء إلا التاريخ » [١].

نعم ، ذكر لنا ابن النديم أنهم عرفوا نوعًا من الكتب أطلقوا عليها (كتاب اللّغات) وأخرى أطلقوا عليها (لغات القرآن) ألف فيها جماعة من النحويين والرواة ، وممّن ألف كتابًا في اللّغات يونس بن حبيب (ت : ١٨٢) ، أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت : ٢١٠)، الأصمعي عبدالملك بن قريب (ت : ٢١٥) ، يحيى بن زياد الفراء (ت : ٢٠٧) ، محمد بن الحسن بن دريد (ت : ٢٣١)[٢] .

أمّا الكتب في لغات القرآن فذكر من مؤلفيها الفراء وأبا زيد والأصمعي ، والهيثم بن عدي ويحيى القطيعي وابن دريد[٣] وهناك كتاب ينسب لابن عباس عن لغات القرآن .

فكتب لغات القرآن لا تخرج عما ذكرناه من إشارتهم إلى ما استعمله القرآن وهو يرجع إلى صفات إحدى اللهجات الخاصة[٤] ، أما كتب اللّغات التي يمكن التعويل عليها فلم يصلنا كتاب منها بيد أن بعض البحثة ، منهم : عبده الراجحي تتبع ما نقله ابن دريد من كتاب اللّغات لأبي زيد ، منها : « ويقال النَّكر والنُّكر

(١) تاريخ آداب العرب ١٣٧/١ .

(٢) فهرست : على التوالي (٦٧، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ٩٧) .

(٣) فهرست (٥٥) .

(٤) وصلنا منها رسالة لأبي عبيد القاسم بن سلام وهي بعنوان (ما ورد في القرآن من لغات القبائل) نقل منها السيوطي في الاتقان ، وطبعت على هامش تفسير الجلالين .

والفَكر والفِكر والفِكرة ويقال سَرق سْرقا وسرَقا وسرِقا » فاستنتج من ذلك أنها لم تكن من الكتب المتخصصة في دراسة اللهجات العربية القديمة بل كانت نوعًا من المعاجم وأن مؤلفيها لم يكونوا يهتمون – إلاّ قليلاً – بعزو اللّغات إلى أصحابها[١] .

وقد أشرنا في غير هذا المقام إلى نوعي الروايات التي تكلمت عن اللهجات وذكرنا أن أحدها نص على نسبة صفات اللهجات إلى قبائلها ملقبة وغير ملقبة ، والأخرى تجاهلت نسبة صفات اللهجات واكتفت بإثبات الخلاف بينها وتنوعها وذكرنا أن النوع الثاني هو الكثير الغالب ومثّلنا لكلا النوعين[٢] .

غير أننا نود أن نبيّن لمن تباكى على إهمال علماء اللّغة القدامى دراسة اللّهجات الخاصة واعتبر عدم إثباتهم لخصائصها تقصيرًا أو خللاً في منهجهم نود أن نعرفه بأن اللهجات الخاصة لم تكن من أولوياتهم[٣] ، ولذا لم يهتموا بنسبة لغاتها وحالوا دون تسربها إلى اللّغة الأدبية بما ضربوه دونها من ضوابط جغرافية وزمانية واختيار للفصيح وتشدد في طرق نقلها .

وقد أخطأ من تصور أن العلماء أخذوا عن القبائل المعتمدة (قيس ، أسد ، تميم ، هذيل ، بعض كنانة وبعض الطائيين) وفق معطيات لهجاتهم أو أثبتوا اللّغة وقعّدوها بمقتضاها دون رقابة من الفصحى عليها أو عندما لا تتوافق معها . فكما أن العلماء لم يأخذوا اللّغة عن جميع اللهجات العربية ، فإنهم كذلك لم يأخذوا كلّ شيء عن اللهجات المعتمدة وقد مرّ بنا أنهم طعنوا في فصاحتها بسبب بعض العيوب الصوتية وأدخلوها بذلك حيز اللّغات المذمومة فذكروا عنعنة تميم ، وعجرفية قيس ، وكشكشة أسد ، وكسكسة ربيعة ومضر ، وفحفحة هذيل ، وكسر حروف المضارعة

(١) ينظر : اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د . عبده الراجحي (٥٠ – ٥١) .

(٢) ينظر مظاهر الاختلاف اللغوي ص (٤٥) الباب الأول .

(٣) قال الدكتور تمام حسان في (الأصول) : (إن النحاة العرب قد اختاروا هذه اللّغة الأدبية دون سواها ليستخرجوا منها النحو .. فإنهم لم يتصدوا لهذه المهمة الجليلة إلا لخدمة القرآن ، فكان على من يود المحافظة على القرآن أن يدرس اللّغة التي نزل بها (الأدبية) . ولو أن النحاة استخرجوا النحو من لغة التخاطب (اللهجات) لما وصلوا إلى ما يريدون ، ولكان ذلك منهم خيانة للغاية التي سعوا إليها ، وإجهاضًا للغرض النبيل الذي عملوا من أجله) ، أصول (١٠٩ ، ١١٠) .

عند قيس وأسد[١] ، واستُهجِنت هذه العيوب في مجال الاستعمال حتى عند أولئك المتساهلين الذين يرون اللّغات على اختلافها حجَّة ، فهذا ابن جني يقول بعد أن ذكر عيوب اللهجات المعتمدة : « فإذا كان الأمر في اللّغة المعوّل عليها هكذا وعلى هذا فيجب أن يقل استعمالها وأن يتخيَّر ما هو أقوى وأشيع منها ؛ إلا أنّ إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب ، لكنه كان يكون مخطئاً لأجود اللغتين »[٢] .

أما المتشددون فقد خطّأوا بعض ما جاءت به اللهجات المعتمدة مخالفاً للّغة الأدبية ناهيك عن اللهجات الأخرى ، مما يدل على أنهم إنما تتبعوا اللّغة الأدبية ودثروا كل ما يخالفها من اللهجات الخاصة بالمنع تارة والتخطئة أو الطعن في فصاحتها تارة أخرى . ومصداق ذلك عندهم ، قول الفراء : « اعلم أن كثيراً مما نهيتك من الكلام به - من شاذّ اللّغات ومستكره الكلام - لو توسَّعْتُ بإجازته لرخَّصتُ لك أن تقول : رأيت رجلان (لغة من يلزم الألف في المثنى) ، ولقلت : أردت عَن تقول ذاك (عنعنة تميم) ، ولكنا وضعنا ما يتكلم به أهل الحجاز وفصحاء أهل الأمصار ، فلا تلتفت إلى من قال : يجوز ؛ فإنا قد سمعناه، إلا أنَّا نجيز للعربي الذي لا يتخير، ولا نجيز لأهل الحضر والفصاحة أن يقولوا: السلام إليكم ، ولا : جئت إلى عندك ، وأشباهه ، مما لا نحصيه من القبيح المرفوض »[٣] .

وقد أورد صاحب كتاب المعيار بعض الأمثلة لما خطّأه العلماء وهو يرجع إلى اللهجات العربية ومن بينها اللهجات المعتمدة . ومما ذكره :

١ - تخطئة الكسائي من يقول : « جُدَد في جمع جديد - بفتح الدال الأولى- مع أن ذلك لغة بني ضبه . وعدَّ من غير الفصاحة تعدية الفعل (شكر) بنفسه ، لأنه يُعدى بحرف الجر (اللام) على نحو قوله تعالى : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ مع أن تعديته بنفسه لغة .

---

(١) ينظر في معناها وأمثلتها (٦٠) من بحثنا.

(٢) الخصائص لابن جني ١٢/٢ .

(٣) تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة (٥) ، أبومنصور موهوب بن أحمد الجواليقي ، تحقيق : عز الدين التنوخي ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ، تصوير طهران ١٩٦٦م .

٢ - والأصمعي خطّأ الاستعمال اللغوي (زوجه) بدلاً من زوج في اللّغة الأدبية مع أنها لهجةٌ تميميةٌ نجديةٌ .

٣ - وابن السكيت (ت : ٢٤٤) خطّأ تسهيل الهمز مع أنها عادة قديمة لأهل الحجاز إلا أن الفصحى بخلافها .

٤ - والسجستاني (ت : ٢٤٨) خطّأ جمع الريح على (أرياح) والصواب عنده (أرواح) لأنه الوارد ولأن الياء في (ريح) أصلها الواو ، والجمع يرد الأشياء إلى أصولها ، مع أن (الأرياح) لغة لبني أسد .

واستمر يستعرض بعض ما جاء في كتب الملحنين القدماء من تخطئة لبعض اللهجات العربية[١] ، وعلل لهذه التخطئة بقوله : « وإنما هذه التخطئة عندهم مُرَاعىً فيها استعمال هذه اللهجة (اللهجاتِ) بعد التوحيد والارتضاء ، أي بعد توحيد هذه اللهجات في لهجة واحدة هي اللهجة الأدبية الفصحى »[٢] وحريّ بهذا الصنيع أن يؤدي إلى موت اللهجات الخاصة وأن يسهم في تعميم اللّغة الأدبية .

ومما تقدم يتَّضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن علماء اللّغة - خاصة القدماء منهم - لم يأخذوا اللّغة أو يثبتوها عن القبائل المعتمدة وفق معطيات لهجاتهم الخاصة - على الأقل فيما اعتبروه منافياً للفصاحة - وأن من خصائص لهجاتهم ما استُهجِن في مجال الاستعمال وحُجِب عن ميدان التقعيد - إلا قليلاً عند المتساهلين من المتأخرين عنهم - مما يدل على أنهم أخذوا اللّغة وأثبتوها وفق اختيارات اللّغة الأدبية وأصواتها .

حتى تلك الألفاظ التي استأنس بعض اللغويين بنقلها عن القبائل البعيدة عن مركز الفصاحة في قلب الجزيرة ، أو اضطروا إلى أخذها عن غير لهجة لأنها تقدم مادة دسمة ، وبيئة خصبة للترادف والتضاد والاشتراك ، فإنهم اقتصروا في نقلها -كما يقول سليمان العايد - : « على الكلمة المفردة ، دون النظر إلى تركيبها مع غيرها أو أحكامها التركيبية ، قال : وهكذا صار لزاماً على من يدرس اللغة العربية أو ينشد تعلمها ، ويرغب في إتقانها أن يتعلمها على هذه الصورة ، متجاوزاً كل ما

---

(١) ينظر : المعيار في التخطئة ، د . عبد الفتالح سليم ، ص (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) .
(٢) المعيار (٥٦) .

خالفها من لغاتٍ لبعض القبائل خاصة)[١] .

هذا ما يتعلق بدور علماء العربية من نحاة ولغويين في دثر اللهجات وتعميم اللّغة الأدبية .

وهناك سبب آخر أسهم في موت اللهجات الخاصة وهو في رأينا أهم من السبب الأول ، لأنه نابعٌ من العرب أنفسهم ، وذلك حين اتبعوا لغة القرآن وهجروا ما يخالفها من لهجاتهم الخاصة .

وقد دلّنا على هذا التوجه عند القبائل العربية قول سيبويه في إعمال (ما) عمل (ليس) عند الحجازيين : « ومثل ذلك قوله عزّ وجلّ : ﴿ ما هذا بشرًا ﴾ في لغة أهل الحجاز . وبنو تميم يرفعونها إلا من دَرى كيف هي في المصحف » [٢].

فلغة القرآن – كما يشير نص سيبويه – متبعة عند العرب ، فتميم التي لا تعمل (ما) في شيء حسب قواعد لهجتها إذا عرفت أن لغة القرآن أعملتها فنصبت بها الخبر ، تركت ما عليه لهجتها واتبعت لغة القرآن ، حتى إنَّ الفرزدق – وهو تميمي – نصب خبرها مع تقدمه اعتقادًا منه أن الحجازية تنصبه في جميع الحالات فقال :

فأصبحوا قد أعاد اللّه نِعْمَتَهُمْ   إذ هم قريش وإذ ما مِثْلَهُمْ بَشَرُ

وقد استنكر سيبويه نصب خبرها مع تقدمه فقال : « وهذا لا يكاد يُعرف »[٣].

ويبدو أن الحسين بن المهذب المصري اللغوي (ت : ٦٥٠) تحدث عن سبب موت اللهجات أوانحسارها كما يتضح من اسم كتابه(السبب في حصرلغات العرب)، قال الرافعي : « والذي يبادر الظن من معنى هذه التسمية–إن لم تكن لفظة (السبب) قد جيئ بها للسجع – أن الكتاب يتناول الكلام عن تأثير القرآن في حصر اللغات وتغليب القرشية عليها ؛ فإن كانت اللفظة للسجع فالكتاب في حصر ما يسمونه باللّغات ، من نحو المصنوع والضعيف والمنكر .. » [٤].

وانطلاقًا من عمل العلماء وتوجه القبائل فنحن نعتقد بالرأي الأول .

---

(١) من محاضرة مصورة ألقاها د. سليمان بن إبراهيم العايد في نادي مكة الثقافي باسم (علاقة اللّغة المنطوقة باللّغة المكتوبة في اللّغة العربية) ص ٥ – ٦ .

(٢) الكتاب ٥٩/١ .

(٣) الكتاب ٦٠/١ ، وينظر شروط إعمال (ما) عند الحجازيين في بحثنا (المظهر التركيبي) الباب الأول (٨٩) .

(٤) تاريخ آداب العرب ١٣٩/١ .

مراحل جمع اللّغة :

وسنعرض للقارئ في هذا المقام مراحل جمع اللّغة باختصار شديد ؛ لتنظيم مادتنا التي نشرناها في ثنايا موضوعنا عن جمع اللّغة ، وليدرك من خلالها أهمية الأثر الديني في أسباب جمعها وأهدافه لأنها عبَّرت عن ذلك خير تعبير .

فإن جمع اللّغة مرَّ بثلاث مراحل،مرحلة سابقة تمثل بداية الاهتمام بجمع اللّغة، ومرحلتان متزامنتان ومتداخلتان ليس بينهما فواصلُ زمنيةٌ ، والمراحل جميعها مترابطة لأن جمع اللّغة لم يأخذ شكله النهائي بعمل المعاجم العربية الضخمة إلا إثر تراكمات أوّلية أفضت إلى عملها واعتمدت في تكوين مادتها عليها ، فكان نشوؤها وفقَ حركة طبيعية تشترك في سننها مع سائر العلوم حين تبدأ بحوثها محدودة مقتصرة ثم لا تلبث أن تتطور وتتفرع وتأخذ شكلها النهائي كعلم مستقل بذاته يحقق كافة أهدافه المنشودة إن لم يصبح هدفًا بحد ذاته .

وتتلخص المراحل فيما يلي :

١ - المرحلة الأولى وبدأت على يد علماء الشريعة في القرن الأول الهجري حين دعتهم النصوص الشرعية إلى الرجوع إلى لغة العرب وشعرها لتفسير معانيها وشرح غريبها ، وهو استجابة لدعوة الرسول صلى اللّه عليه وسلم : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » ، ولهذا كان بداية جمعها في رحاب الشريعة ، وقد مثل ابن عبّاس هذه المرحلة خير تمثيل ، إذ استعان بحفظ أشعار العرب وتتبع لغاتهم لتحقيق هذا الهدف[١] .

وتميزت هذه المرحلة بالحفظ والرواية في تسجيل مواد اللّغة ، كما اعتمدت على مبدأ الانتقاء فلم تأخذ من اللّغة سوى ما يُساعد على فهم النصوص وتفسيرها لأن هدف الجمع في هذه المرحلة ديني ، فعملوا على انتقاد المادة وترجيح أحد معانيها إذا كان لها غير معنى ، وهو في الغالب ما يتماشى وسياق النص وسببه ؛ لأن سعة العربية قد يحمّلها المتناقضَ والمختلفَ .

٢ - المرحلة الثانية وفيها ظهر التخصص في رواية اللّغة والاعتماد على التدوين في جمعها ، وبدأت على يد الرواة وأوائل علماء اللّغة الذين كان أكثرهم من

(١) ينظر : جمع اللّغة بدافع ديني في بحثنا (١٩٥) .

قراء الذكر الحكيم ، ولهذا اتسم جمعها وأخذها عن العرب بشيء من التحفُّظ والحيطة والحذر فتشدَّدوا في أخذها - كما مرَّ بنا في وجوه التشدد - لأنهم إنما طلبوا اللّغة الأدبية التي نزل بها القرآن والتي تساعد على فهمه وتفسيره .

وقد توسع العلماء في جمع اللّغة فخرجوا إلى البوادي واستقبلوا الأعراب الفصحاء للأخذ عنهم ، وعملوا على جمع مفردات اللّغة وشرح معانيها وتدوينها في كتب ورسائل متفرقة جمعت المفردات بحسب المعاني أو الموضوعات كتلك الكتب التي ألفها جماعة من رواة اللّغة وعلمائها كـ (كتاب خلق الإنسان ، وكتاب النبات ، والإبل ، والخيل ، والوحوش ، والنحل والعسل ، والحشرات ، والأضداد ، والهمز ، وفَعَلَ وأفْعَل ، وكتاب ما اختلف لفظه واتفق معناه ، وعكسه ونحو ذلك من الكتب)[1].

ويدخل ضمن هذه المرحلة ما ألفه العلماء في النوادر وفيها تُسرد المفردات الغريبة والأمثال النادرة بلا ترتيب أو نظام يجمعها إلا الغرابة والندرة وذكر ابن النديم من مؤلفيها جماعة منهم أبو عمرو ابن العلاء وأبو عمرو الشيباني وأبو زيد والأصمعي والكسائي، وابن الأعرابي واللحياني وأبو مسحل من الأعراب وغيرهم[2].

ويدخل ضمن هذه المرحلة أيضًا كتب معاني القرآن والحديث وغريبهما ، فجميع هذه الكتب التي ذكرناها اهتمت بجمع المفردات وشرحها ومهدت الطريق لظهور المعجم العربي الذي تغذى بها واعتمد في تكوين مادته عليها .

٣ - المرحلة الثالثة وفيها وضع المعجم اللغوي ليشمل جميع ألفاظ اللّغة بعد شرحها وترتيبها وفق نظام خاص أو طريقة معينة يسهل معها الرجوع إليه للبحث عن معنى كلمة أو نحوه .

وهذه المرحلة تمثل النضج اللّغوي عند علماء اللّغة ، حيث سعوا إلى ابتكار طريقة تنظِّم عرض مادتهم التي جمعوها وتمكّنهم من حصر جميع المفردات دون أن يفوتهم شيء منها ، وليس أدل على ذلك من أسلوب الحصر العقلي الرياضي الذي استعمله الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت : ١٧٥) في بناء معجمه (العين) أول

(١) من أبرزهم الأصمعي وأبو عبيدة ، وأبو زيد وأبو عمرو الشيباني ، وينظر أسماء كتبهم في الفهرست لابن النديم (٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٧ وتجدها عند غيرهم أيضًا) .

(٢) ينظر : الفهرست (١٤٠) .

معاجم العربية ، فاستطاع من خلال عملية حسابية عقلية[١] حصر غاية ما قد يبلغه عدد مفردات اللّغة وهو يزيد على اثنى عشر مليون مفردة ، منها ما هو مستعمل ومنها مهمل قد يكون مهجوراً أو لم يستعمل أصلاً أو مستثقلاً في لغة العرب ولكنها تحتمله نظريًا وبعضه ممتنع الوقوع لمخالفته سننهم كمجيء الرباعي والخماسي خاليًا من حروف الذلق والشفهية[٢] .

وتوالت بعد ذلك المعاجم وتنوعت فمنها معاجم الألفاظ وتفيد في شرح معاني الألفاظ وأخرى تسمى معاجم الموضوعات أو المعاني وتفيد في إيجاد لفظ لمعنى من المعاني ، وتعددت المدارس فمنها مدرسة التقليبات بنوعيها الصوتية والأبجدية ، وثانية تنظر في آخر حروف الكلمة تسمى مدرسة القافية ، والثالثة مدرسة الأبجدية العادية[٣] .

ويبدو أن الهدف من جمع اللّغة في هذه المرحلة قد اتسع عن المراحل السابقة ليشمل حصر اللّغة حصراً كليًا للحفاظ عليها من الضياع والفساد ، كما لا يخفى على القارئ الهدف التعليمي والإرشادي الذي تدلُّ عليه طريقة بناء المعاجم وتبويبها ليسهل رجوع المتعلم إليها .

وقد أشار ابن خلدون إلى الهدف الأول فقال : « احتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث ، فشمر كثير من أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين . وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ألف فيها كتاب (العين) فحصر فيه مركبات حروف المعجم .. »[٤] .

---

(١) نظر الخليل – من ناحية رياضية – إلى أن حروف الهجاء ثمانية وعشرون حرفًا وأن مواد اللّغة محصورة في أربعة أبنية (ثنائية ، ثلاثية ، رباعية ، خماسية) وأن الثنائي إذا قلب من ناحية تقديم الحرف وتأخيره يعطينا بناءين (د م – مد) والثلاثي ستة والرباعي أربعة وعشرين والخماسي مئة وعشرين فالثلاثي يضرب في وجوه الثنائي والرباعي في وجوه الثلاثي وهكذا . وقد نقل السيوطي تفسيرها في المزهر ٧١/١ – ٧٤ فارجع إليه .

(٢) حروف الذلاقة (ر . ل . ن) والشفهية (ف . ب . م) وينظر قول الخليل في ذلك مقدمة معجم العين (٥١ ، ٥٢) ، تحقيق : د . عبدالله درويش (ط بغداد) .

(٣) ينظر تفصيل ذلك وشرحه في كتاب (دراسات في المعاجم العربية) ، د . أمين محمد فاخر ، ص٧، ٨، ٩.

(٤) مقدمة ابن خلدون ١٢٦٨/٣.

٢ - ضبط اللّغة العربية وتقعيدها بدافع ديني :

إن ضبط اللّغة يشارك الجمع فيما نسبناه إليه من دوافع وتشدد في أخذ اللّغة وتعميم اللّغة النموذجية وإماتة للهجات الخاصة وغير ذلك مما تقدم الحديث عنه[(١)] ، غير أن لتقعيد اللّغة بعض الخصوصية ، والدوافع هي أكثر بروزًا فيه من جمع اللّغة، وعنها سيكون حديثنا في هذا المقام .

فمن دوافع تقعيد اللّغة في وقت مبكّر من ظهور الإسلام تعليم العربية للمسلمين من غير العرب ، وصيانتها من اللحن والفساد الذي ظهر مع انتشار الإسلام خارج جزيرة العرب على ألسنة المتعربين حرصًا على لغة القرآن .

فهو عندنا كما رأيت يرجع لسببين وليس لسبب واحد كما جرت العادة في رجعه إلى مخافة اللحن وحده ، علمًا أن التعليم والصيانة من اللحن متلازمان ، فاللحن مؤشر يقتضي التعليم ، والتعليم يفيد الصيانة من اللحن إلى جانب تحقيق هدف التعليم المطلق . وقد فرقنا بين المعنيين لإيقاف القارئ على أثر الإسلام في تقعيد اللّغة وتوحيدها ونشوء النحو في رحاب القرآن وإليك التفصيل :

١ - السبب الأول لتقعيد اللّغة (تعليمي) تعليم المسلمين من غير العرب : (وهو السبب الثالث بالنسبة لجمع اللّغة ككل) .

ظهرت الحاجة إلى تعلم العربية مع ظهور الإسلام لما بينهما من ارتباط وعلاقة وثيقة ، فبها نزل القرآن وبلّغ المصطفى عليه السلام رسالة ربه، فأصبحت من شعائر الإسلام الذي ارتضاه الخالق للناس كافة فقال (عزّ من قائل): ﴿ إن الدين عند اللّه الإسلام ﴾[(٢)] و ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا.. ﴾[(٣)] وقال : ﴿ إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لعلكم تعقلون ﴾[(٤)] ، فالدين الحق هو الإسلام ، والرسالة المحمدية لجميع البشر ، والعربية سبيل فهمه وتعقله ، وتعلمها فرض عين على كل مسلم ولو بالشيء الذي تقامُ به الصلاة ، ولهذا حث الرسول صلى اللّه عليه وسلم على تعلمها فقال :« تعلموا من العربية ما تعربون به القرآن ثم انتهوا »[(٥)].

---

(١) لأن جمع اللّغة بمفهومه العام يشمل (مفردات اللّغة وأبنيتها وتراكيبها وأساليبها) انظر أوّل الموضوع (قيام العلماء بجمع اللّغة وتقعيدها) .

(٢) سورة آل عمران : ١٩ . (٣) سورة سبأ : ٢٨ . (٤) سورة يوسف : ٢ .

(٥) الجامع للسيوطي ٣/٦١٠، وقد روي الحديث في سنن الترمذي ٢٤٣ وسنن أحمد ٢/٣٧٤.

وسبق أن ذكرنا أن المراد بالإعراب هو معرفة معاني ألفاظ القرآن ، ويدخل في ذلك معرفة مجاري الكلام فيه ونظام تركيبه وحركاته الإعرابية؛ لأنها مما تدل على المعاني في العربية بشكل خاص ، وقد ذكر السيوطي أن القراءة بفقدها ليست قراءة، ولا ثواب فيها ناهيك عن عدم إفادتها لمعنى أو تحريفه ، وعكسه كما لو قرئ قوله تعالى : ﴿ إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ ﴾ بضم لفظ الجلالة وفتح لفظ العلماء فحينئذٍ ينعكس المعنى .

وهذه أمور يكثر وقوع المتعربين فيها لعدم وجودها في لغاتهم الأصلية ، وهي في العربية لا تقل أهمية في الدلالة على المعنى من لفظة المفرد ؛ إذ تفيده في مجال الجملة وتركيبها .

ونعتقد أن الذي أخطأ بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم في قراءة القرآن كان من المتعربين أو الموالي وأن الخطأ كان من هذا القبيل ، ولذا أمر أصحابه بتعليمه فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » (١)، إذ لو كان الخطأ مما يصلح له التصويب الفوري لقام به الرسول وهو معلم البشرية ولكنه يحتاج إلى وقت يتعلم فيه الرجل لغة العرب ولذا أوكل المهمة إلى أصحابه وحثهم على تعليمه ، وفي المقابل حث المتعربين على تعلم العربية ولو بالقدر الذي يستطيعون معه إعراب القرآن كما في الحديث السابق أو في قوله : « أعربوا الكلام كي تعربوا القرآن » (١).

وكان أئمة الصحابة الراشدين يحضُّون على تعلم العربية وقد مرّ بنا قول عمر بن الخطاب : « تعلّموا العربية فإنها تشبب العقل وتزيد في المروءة »، وقوله : «تعلموا الفرائض والسنة واللّحن كما تتعلّمون القرآن » ، وقول أبي عثمان النهدي : « إنّ كتاب عمر بن الخطاب أتاهم وهم بأذربيجان يأمرهم بأشياء وذكر منها (وتعلّموا العربية)(٢) ، وإذا صحت الرواية التي تقول إنّ أبا الأسود أخذ النحو عن

---

(١) الحديث الأول جاء في الخصائص ٢/٨ والثاني في الأضداد للأنباري (٢٤٤) . والحديث كما جاء في كنز العمال ١/٦٠٧ : (رواه محمد بن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهما) .

(٢) ينظر في ذلك وغيره جواب سؤالنا الذي افترضناه في السبب الثاني (عمل معسكرات الجهاد) ص(١٧٣) .

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (١) ، فهي دليل دامغ على أن الصحابة فكروا في طريقة يتم من خلالها تعليم العربية ، إذ يصعب تعليم اللّغة بدون قاعدة تصف ظواهرها وتعلل تغير حركاتها وهي أول ما قد يسأل عنه المتعلم .

وبافتراض عدم صحتها فلا ينفي ذلك معرفة الصحابة بالنحو وتحققهم به في مجال الاستعمال لا سيما الملاحظات النحوية واللغوية المنتشرة في توجيهات ابن عباس وتأويلاته ، مما يدل على أنه استعمل ما عُرف بعد ذلك بعلم النحو واللّغة في تفسير القرآن وفهمه (٢).

وقد استدل ياقوت الحموي على تحقق الصحابة بالنحو وعلمهم به باستنكار ابن عبّاس على عليّ بن أبي طالب القراءة بترخيم (مالك) قال : « لما قرأ : (ونادوا يا مالِ ليقضِ علينا ربك) (٣) أنكر عليه عبدالله بن عبّاس فقال عليّ : هذا من الترخيم في النداء ، فقال ابن عبّاس : ما أشغل أهل النار في النار عن الترخيم في النداء ، فقال عليّ : صدقت . فهذا يدل على تحقق الصحابة بالنحو وعلمهم به » (٤).

وقد رجّح ابن جني هذه الرواية وسلسل أحداثها بطريقة معقولة تقبلها الأخبار والدلائل ، وذلك حين قرر أن علم العربية لم يخترعه إلا الأبرار ولكنه لم يذكر سبب اختراع الأبرار له – وهو كما نراه تعليمي – فقال: « إنه لم يُوفَّق لاختراعه ، وابتداء قوانينه وأوضاعه ، إلا البرّ عند الله سبحانه ، الحظيظ بما نوّه به وأعلى شأنه . أولا يُعلم أن أمير المؤمنين عليًا – رضي الله عنه – هو البادئة ، والمنبِّه عليه ، والمنشئة والمرشد إليه . ثم تحقق ابن عبّاس – رضي الله عنه – به ، واكتفال أبي الأسود –رحمه الله– إياه .

هذا بعد تنبيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عليه وحضّه على الأخذ بالحظّ منه ، ثم تتالى السلف – رحمهم الله – عليه ، واقتفائهم – آخرًا على أوّل –

---

(١) ينظر الفهرست لابن النديم (٦٢) ، وينظر رواية أبي الأسود لحديثه مع علي وتقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف . معجم الأدباء : ياقوت الحموي (ترجمة الإمام علي) .

(٢) ينظر السبب الأول لجمع اللّغة (١٩٥).

(٣) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٤) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ١/١٧ .

طريقه » [١].

وإذا كان أبو الأسود وضع النحو من عند نفسه ولم يأخذه عن أحد فإن الدليل على وضعه التعليمي له لم ينتقض فهو مولود في عصر النبوّة (ت : ٦٩) وعاصر الحركة العلمية عند الصحابة – رضوان الله عليهم – وتأثر بها وعمل على تحقيق أهدافها من نشرٍ للدين وتعليمٍ لمبادئه وهو معدود في طبقة الفقهاء والمحدثين والقراء ومعلوم ما لهؤلاء من دور تعليمي وإرشادي للمجتمع خاصة في صدر الإسلام .

وقد ذكرت بعض الرويات أن من أسباب وضعه النحو تعليم العربية للمسلمين من غير العرب إلى جانب تلك الروايات التي ذكرت حفظ العربية ودرء اللحن ، ومنها قوله : « هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام ودخلو فيه ، وصاروا لنا إخوة ، فلو علمناهم الكلام . فوضع باب الفاعل والمفعول ولم يزد عليه »[٢] .

وقد كانت الجزيرة تزخر بالموالي قبل الإسلام ولم تظهر هذه الدعوة إلى تعليمهم ، بل كان ينظر إليهم باحتقار وازدراء ، فلما جاء الإسلام ساوى بين الناس وأزال النعرات الطبقية والعرقية وجعل من العروبة جنسية لغوية حرص المسلمون في الأمصار على الانتماءِ إليها ؛ لأنها لغة الدين الحنيف ، ثم لغة الدولة والعلم والحضارة فيما بعد .

ومع وجود الباعث على التعلم ووجود الاستعداد للتعليم كان من الطبيعي التفكير في طريقةٍ يسهل معها تعليم اللّغة ، ولهذا وضع أبو الأسود علم العربية مقتصراً على المسائل المهمة اليسيرة كثيرة الدوران في الكلام كـ (الفاعل والمفعول) أو كما جاء في رواية أخرى أضاف إلى تقسيم علي – رضي الله عنه – الكلام إلى اسم وفعل وحرف . أضاف أبو الأسود مسائل من العطف والنعت والتعجب والاستفهام وإنَّ وأخواتها ، أو كما في رواية ابن سلام الجمحي : « الفاعل والمفعول

---

(١) الخصائص ٣٠٩/٣ ، وذكر في ١٩٠/١ أن هذا العلم هو خادم للقرآن والسنة وعون على فهمهما . (وهذا السبب ذكرناه في جمع اللّغة للاستعانة بها على فهم معاني القرآن والحديث في السبب الأول لجمع اللّغة) .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٢٢) .

والمضاف وحروف الجرّ والرفع والنصب والجزم » ، ثم توالت فيه البحوث وأضاف طلابه منها كلٌ بحسب ما بسط من القول ومدَّ من القياس ، وساعد على تطور بحوثه وتوسعها فساد السليقة العربية ، واحتياج العرب إليه فلم يعد مقصوراً على الموالي والمتعربين وأصبح أخذ اللّغة صناعياً تعليمياً بعد أن كان تلقيناً .

وقد دلت الدلائل على السبب التعليمي في تقعيد اللّغة وضبطها ، منها :

١ - تعريف علم النحو عند علمائه خاصة ابن جني إذ عرّفه بقوله : « هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه وإعرابه وغيره ، كالتثنية ، والجمع ، والتحقير ، والتنكير ، والإضافة ، والنسب ، والتركيب وغير ذلك ، ليلحق من ليس من أهل اللّغة العربية بأهلها في الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذّ بعضهم عنها ردّ به إليها .. » (١).

وكذلك يرى شيخه أبو علي الفارسي أن تدوين اللّغة وتقنينها إنما كان لهذا الغرض فيقول : « لأن الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين ، ونقنّنه من هذه القوانين ، إنما هو ليلحق من ليس من أهل اللّغة بأهلها ، ويستوي من ليس بفصيح ومن هو فصيح ، فإذا ورد السماع بشيء لم يبق غرض مطلوب وعدل عن القياس إلى السماع »(٢) .

٢ - توجيه القراءات القرآنية :

لقد كان بين القراءات القرآنية - كما مرّ بنا في عمل عثمان - بعضُ الاختلافات التي لا تؤدي إلى التناقض والتضاد ترجع إلى اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في الحروف وكيفيتها ، ومع أن القراءة سنة متبعة إلا أن عادة العلماء جرت على الاحتجاج عليها وتعليل اختلافها عن غيرها أو توجيه معناها لا للدلالة على صحتها فإن إسنادها وتواترها كفيل به وإنما للوصول إلى الفهم الصحيح لمعاني القرآن وما قد تحمله قراءاته منها .

---

(١) الخصائص ٣٤/١ . (هناك تعريفات أخرى هذا أشملها وتكاد تصب في هذا المعنى للتوسع) ينظر إليها في الاقتراح للسيوطي (٢٢) .

(٢) في أصول النحو ، سعيد الأفغاني (٨٩) .

وهكذا صرف توجيه القراءة بعض القراء إلى لغة العرب ليلائموا بين ما رووه وحفظوه من القراءات وبين العربية لأنها بها نزلت وبسننها جرت ، فكان نشوء علم العربية على يد هؤلاء القراء الذين جمعوا مفرداتها وكشفوا سننها واستنبطوا قواعدها ووضعوا أصولها ؛ ويأتي على رأسهم أبو الأسود الدؤلي أوّل من وضع العربية ونقط المصحف (نقطًا إعرابيًا) ، ونصر بن عاصم (ت : ٨٥) ، ويحيى بن يعمر (ت : ١٢٩) ، وعبدالرحمن بن هرمز (ت : ١١٧) وإلى أحدهم يرجع النقط الاعجامي مع ضلوع ثلاثتهم في النحو ، وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي (أوّل من بعج النحو ، ومدّ القياس ، وشرح العلل) ، وعيسى بن عمر الثقفي (ت : ١٤٩) أوّل من ألف كتابًا في النحو، له (الإكمال) و (الجامع) ، وأبو عمرو بن العلاء (ت:١٥٤) إمام الرواة وجامع اللّغة ، ثم الكسائي (ت : ١٨٩) ، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي (ت : ٢٠٥) [١].

فجميع هؤلاء قراء حملهم على النظر في علم النحو ووضعه توجيه القراءات القرآنية ، وتعليم طلابهم أداة تمكّنهم من إجادتها خاصة وأن القرّاء هم أوائل المعلمين في تاريخ الإسلام والمعنيون بنشره وتعليمه لأهل الأمصار الإسلامية .

أما أثر توجيه القراءة في نشوء الدراسات اللغوية والنحوية ، فقد صرّح به الكسائي - وإن تأخر في ترتيب النحاة - أحد القراء السبعة والمؤسس الحقيقي لمدرسة النحو الكوفية ، إذ يقول : « حداني على النظر في النحو أني كنت أقرأ على حمزة بن حبيب الزيات ، فتمر بي الحجة ، ولا أتّجه لها ، ولا أدري ما الجواب فيها ، فأرجع إلى المختصر الذي عمله أهل الكوفة ، وكان يسمى (الفصل) فلا أتبيَّن فيه حجّة ، وكانت قبائل العرب متصلة بالكوفة ، فلقيت القبائل وجعلت أسألهم فيخبرونني مشافهة ، وينشدونني الأشعار ، فأنظر إلى ما في يدي وإلى ما أسمعه منهم ، فأجد الحجة تلزم عندي ، فما زلت أكتب عنهم حتى نفدت نفقتي ... »[٢] .

---

(١) ينظر ترجمة هؤلاء في كتب طبقات النحاة مثلاً : طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ولمعرفة مكانتهم في القراء ، ينظر : النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٨/١ ، ٩ .

(٢) نقلاً عن كتاب (نحو القراء الكوفيين) د. خديجة أحمد مفتي (٣٥٦) (المكتبة الفيصلية) . أما المختصر في كلام الكسائي (الفصل) فأظنه (الفيصل) لأبي جعفر الرؤاسي وقد ذكره ابن النديم في الفهرست (١٠٢) .

وقد قيل في عبدالله بن إسحاق الحضرمي من قبل أحد المستشرقين « إن دراسته للقرآن حملته على الاشتغال بأمور اللّغة » [١]، وقال عنه أحد المعاصرين : « إن هذا القارئ وظّف القياس الفقهي في التقنين للظواهر اللغوية »[٢] ، وسيأتي بيان ذلك في القياس .

وقد أشار الحسن البصري إلى أهمية النظر في العربية لتوجيه القراءة عندما سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته ؟ فقال : « حسن ، فإن الرجل يقرأ الآية فيعيا بوجهها فيهلك » [٣].

وقد كان توجيه القراءة واختيارها قديمًا عند الصحابة – رضوان الله عليهم – وقد رأيت أن عليًا قرأ : (يا مالِ ليقضِ علينا ربك)[٤] ، وعندما سأله ابن عبّاس قال: هذا من الترخيم في النداء[٥] ، فذكر السبب لحذف الكاف من الاسم وهذا ضرب من الاحتجاج وتعليل للاختيار .

وروى عن ابن عبّاس أنه قرأ (نَنْشُرُها) من قوله تعالى : (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) ، واحتج بقوله تعالى : (ثم إذا شاء أنشره) [٦].

وكان عيسى وأبو عمرو يقرءان : (يا جبال أوبي مَعَه والطَّيْرَ)[٧] بالنصب ، ويختلفان في التأويل ، كان عيسى يقول : هو على النداء ، كما تقول : يا زيد والحرثَ ؛ لما لم يمكّنه ويا الحرث . وقال أبو عمرو : لو كان على النداء لكان رفعًا، ولكنها على إضمار : (وسخَّرنا الطيرَ) لقوله على إثر هذا: (ولِسُلَيْمانَ الرِّيح)[٨] »[٩].

---

(١) قاله يوهان فك في كتابه (العربية) (٥٥).

(٢) د. عبدالله محمد الكيشي في كتابه (أثر القرآن في أصول مدرسة البصرة) (١٥٧) .

(٣) معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ١/٢٥ .

(٤) سورة الزخرف : ٧٧ .

(٥) ذكرناه في أوّل الموضوع . وذكر ابن جني قراءته في المحتسب ٢/٣٠٤ . وأخرج الترخيم على الاجهاد والنصب (أي لعدم مقدرة أهل النار على الحديث) .

(٦) نحو القراء الكوفيين (٣٥٦) .

(٧) سورة سبأ : ١٠ .

(٨) سورة سبأ : ١٢ .

(٩) طبقات النحويين للزبيدي (٤١) .

وهكذا أخذ النحو يتطور في ظلّ الدراسات القرآنية حتى أصبح علمًا مستقلاً بذاتـه .

٣ - كما يدلنا على السبب التعليمي في تقعيد اللّغة اتجاه الموالي وغير العرب من المسلمين إلى النظر المبكر في النحو والتـأليف فيه لشـدة حـاجتـهم إليـه وحتى يقدموه لأقوامهم فيسهل معه تعلُّم العربية .

فمـا لبث علم العربية أن نشأ على أيـدٍ عربيـة اسـتجابت لحث الشـارع على تعليم المسلمين ما يفقهون به أمور دينهم ويساعدهم على تأدية شعائره وتلاوة القرآن حتى أقبل المسلمون من غير العرب على تعلمها بعزيمة صادقة لا تعرف الكلل ، ونبغ من بينهم طلاب قادوا - بعد ذلك - حركتها العلميـة بكلّ كفاءة واقتدار فكانوا من أئمتها وأبرز أعلامها ، وتمكنوا عن طريق التأليف في العربية توسيع نطاق اكتسابها من مجال التلقين والمشافهة إلى مجال الدرس والتحصيل ، فَعُقِدت حِلَق تعليم العربية في المساجد بالمساواة مع حلق التعليم الشرعي .

وقـد اقـتـضـى دخـول اللّغـة في المجـال العلمي والتـعليمي تتبع المطرد المنقـاس والكثير الشائع في محاولة السيطرة عليها وتنظيم قواعدها[1] ، هذا بعد استهداف اللّغـة المثال التي نزل بها القـرآن ، لأنه الهدف المنشود ، والغـاية المطلوبة ، وليست علوم اللّغة -في البداية- إلا علومًا اقتضاها الدين أو كما وصفها ابن خلدون « علوم آلية هي وسيلة للشرعيات » [2].

هذا وقد مرّ بنا قول ابن جني وشيخه أبي علي أن تقعيد اللّغة وتقنينها إنما كان ليلحق من ليس من أهل اللّغة العربية بأهلها فينطق بها وإن لم يكن منهم ، ولهذا اشتهر علم النحو في أوّل نشوءه بأنه (علم الموالي) لأنهم أكثر الناس اقبالاً عليه ، وأشـدهم حـاجةً إليه ، فنجم عن ذلك أن نبغ من بينـهم علمـاء أفـذاذ تملّكوا زمـامـه

---

(١) وصى الحضرمي يونس بن حبيب قائلاً : (عليك بباب من النحو يطرّد وينقاس) ، وقال أبو عمرو بن العلاء واصفًا منهجه في وضع العربية : (أعمل على الأكثر وأسمّي ما خـالفني لغـات) . ينظر : طبقات النحويين للزبيدي (٣٢ ، ٣٩) .

(٢) ينظر مقدمة ابن خلدون ، وافي ١٢٤٨/٣ .

وتربعوا على عرشه من أبرزهم عبدالله الحضرمي مولى آل الحضرمي ، وعيسى بن عمر مولى ثقيف ، وإمام النحاة سيبويه فارسي مولى بني الحرث بن كعب ، والكسائي إمام مدرسة الكوفة النحوية مولى لبني أسد ، وكذلك تلميذه الفراء ، ناهيك عن المتأخرين عنهم كأبي علي الفارسي وتلميذه ابن جنِّي وأحمد بن فارس وغيرهم كُثُر ، حتى إن الناظر في أسماء أصحاب المؤلفات النحوية وأسماء النحاة في كتب التراجم والطبقات يجد أن أكثرَ أصحابها من الموالي .

وإننا لنجد مصداق ذلك في أشعار الهجاء التي قالها الشعراء في النحاة عندما ضاقوا من تسلُّطهم عليهم ، فلم يجدوا عليهم مسبةً سوى أنهم من العجم والموالي -وليس في ذلك عيبٌ ولكنها العصبية وألم التلحين على العربي - ، ومن أطرف تلك القصائد وأشملها للمعاني التي ذكرناها قول عمَارة الكلبي يهجو النحاة :

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياسِ نحوهم هذا الذي ابتدعوا

إن قلتُ قافيةً بكرًا يكون بها ... بيت خلافَ الذي قاسوه أو ذرعوا

قالوا لحنتَ وهذا ليس منتصبًا ... وذاك خفضٌ وهذا ليس يرتفعُ

وحرَّضوا بين عبدالله من حُمُقٍ ... وبين زيد فطال الضربُ والوجعُ

كم بين قومٍ قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قوم على إعرابهم طُبعوا [(١)]

ولا يخفى على القارئ ما تنطوي عليه هذه الأبيات من المعاني الدالة على ضلوع المستعربين من الموالي في النحو وولعهم بالقياس لتنظيم قواعده وأن النحو هو احتيال للمنطق حتى يفصح بالعربية ثم تسلطهم على المثقفين لتعميم قواعده وأصوله واخضاعهم لها وحملهم على العالي من الكلام الفصيح الذي استخرجوها منه ، وعدم عذرهم أو التسامح معهم حين يضطرون في بيت أو جزء منه إلى استعمال لغة خاصة قد تخالف الذي قاسوه على الفصحى .

وهكذا ساعدت الدراسة العلمية للّغة العربية وقواعدها على تعريب الأمصار الإسلامية التي فتحتها العرب - إلى جانب المخالطة - وكان من أثر التعليم في

---

(١) الخصائص ١/٢٣٩ ، ومعجم الأدباء ، ياقوت الحموي ٤/١٥٩٥ .

تحصيل اللّغة أنه عندما فسدت السليقة العربية عند العرب كان أفصح العربية يُتكلم به في فارس لأنهم كما يقول المقدسي : « تكلّفوها تكلُّفا ، وتعلّموها تلقُّفا »[١] .

٢ - السبب الثاني لتقعيد اللّغة العربية الحفاظ عليها ودفع اللحن : (وهو السبب الرابع لجمعها) .

ودافعه ديني أيضًا للحفاظ على لغة القرآن من تسرب اللحن والفساد اللغوي إليها أو تسببه في انغلاق القرآن والحديث على الأفهام لما بينهما والعربية من ارتباط وثيق وعلاقة عكسية كانت سببًا في جمع اللّغة والعناية بها .

وهذا السبب أشهر من سابقه إذ تواترت على ذكره كتب العربية فرجعت تقعيد اللّغة إلى مخافة اللحن الذي ظهر مع اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ودخول العربية في صراع لغوي مع لغاتهم كان من نتائجه سيادة العربية مع تأثرها بتلك اللّغات وهي سنّة من سنن اللغات عندما تدخل في صراع لغوي يكون النصر لإحداها .

ومن تلك الروايات قول الزبيدي في طبقات النحويين : « ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها ، حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجًا ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، ففشا الفساد في اللّغة العربية ، واستبان منه في الإعراب الذي هو حليّها ، والموضّح لمعانيها ، فتفطّن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فُشُوِّ ذلك وغلبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم ، إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لما زاغت عنه »[٢] .

ومثل ذلك قول ابن خلدون : « فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي أبي عبدالله محمد البشاري (٣٩) ، تقدمة د. محمد المخزومي (مكتبة إحياء التراث) .

(٢) طبقات النحويين للزبيدي (٥) المقدمة .

السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم والسمع أبو الملكات اللسانية. ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع ، وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد فينغلق القرآن والحديث على الفهوم ، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه ؛ مثل أن الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، والمبتدأ مرفوع . ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات ، فاصطلحوا على تسميته إعراباً ، وتسمية الموجب لذلك التغيير عاملاً، وأمثال ذلك . وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو »[١] .

ويظهر من بعض الروايات والدلائل أن خطر اللحن والفساد اللغوي قد امتد إلى القرآن الكريم ، ولهذا كان القراء هم أوّل من تصدى لهذا الخطر ولهذا نشأ علم النحو على أيديهم لصيانة النص القرآني من اللحن والخطأ ، فوضع أبو الأسود النقط الإعرابي للقرآن الكريم لإرشاد القارئ إلى المعنى التركيبي في آياته وتمكينه من أداء قراءته على الوجه الصحيح لأن الإعراب كما يقول أبو الطيب اللغوي : « أول ما اختل من كلام العرب وأحوج إلى التعلم »[٢] ، فكان النقط الإعرابي للقرآن الكريم هو النواة الأولى والقاعدة الأساس التي قام علم النحو على تفسيرها والبحث عن أسبابها وما يحدثه تغيرها من المعاني ، وكان هذا النقط كما يقول سعيد الأفغاني : « أعود على حفظ النصوص من حدود النحو ولعله أعظم خدمة قُدِّمت للعربية حتى الآن »[٣] .

أما كيفية النقط فقد روى أن أبا الأسود اتّخذ كاتباً لقناً وقال له : « إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه ، وإن ضممت فمي فانقط النقطة بين يدي الحرف وإن كسرت فاجعل النقطة نقطتين »[٤] ومن عبارات أبي الأسود

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، وافي (١٢٦٧/٣) .

(٢) مراتب النحويين ، لأبي الطيب (٥) في المقدمة .

(٣) في أصول النحو لسعيد الأفغاني (١٦١) .

(٤) الفهرست ، ابن النديم (٦٣) .

اشتقت أسماء الحركات الإعرابية (الضمة والفتح والكسرة) ، ومن المؤكد أن هذه الأعمال الجليلة في القرآن قد أثارت استفسارات القراء والدارسين عن أسباب الرفع والنصب والجر والجزم ، وعلى افتراض أن أبا الأسود وضعها سليقةً أو أداءً لما حفظ فإن تعليلَها والإجابَة عنها لا بد أن يكون علماً وهو ما أطلق عليه (علم العربية) ثم أطلق عليه بعد ذلك (علم النحو) .

ويتضح لنا من عمل أبي الأسود أن ظهور اللحن في قراءة القرآن كان الحافز الأوّل الذي استفز العلماء واستنهض هممهم لمكافحة اللحن والتصدي له .

والمقصود باللحن هنا مخالفة الإعراب ، قال أبو عمرو بن العلاء : « إنما سمي النحوي نحوياً لأنه يحرّف الكلام إلى وجوه الإعراب ، واللحن مخالفة الإعراب » (١).

واللحن من الأضداد يأتي بمعنى الخطأ والصواب ، ومن المشترك أيضاً ؛ لأنه يأتي مع ذلك بمعنى اللهجة والفطنة .

أمثلة للحن الذي أدَّى إلى وضع النحو :

١ - في حديث أبي الزناد أن رجلاً قرأ عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فلحن ، فقال رسول اللّه : « أرشدوا صاحبكم » ، وروى في الخصائص : « أرشدوا أخاكم فقد ضلّ »(٢) .

ويرى الرافعي أن هذه أوّليّة اللحن قال : « لو كان اللحن معروفاً في العرب قبل ذلك العهد مستقرٌّ الأسباب التي يكون عنها ، لجاءت عبارة الحديث على غير هذا الوجه ، لأن الضلالَ خطأٌ كبير ، والإرشادَ صوابٌ أكبر منه في معنى التضاد . بل إن عبارة الحديث تكاد تنطق بأن ذلك اللحن كان أوّل لحن سمعه أفصح العرب عليه السلام » (٣)، وهو يرى أيضاً أن أكثر اللحن وأوليته إنما وقع في القرآن قبل غيره لأن الألسنة الضعيفة لا تسموا إلى أدائه إلا مع شيء من التلقين والتعلُّم، قال: « كما ترى فيمن يقرأ الفصيح وليس من أهله »(٤) .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٢٤/١ .

(٢) الرواية الأولى في معجم الأدباء ٢٥/١ والثانية في الخصائص لابن جني ٨/٢ .

(٣) تاريخ آداب العرب للرافعي ٢٣٧/١ (وقد ذكرنا الحديث في السبب التعليمي لتقعيد اللّغة وبينا أنه دعوة إلى تعليم أكثر منه خوفاً من اللحن ولذا أوكل الرسول المهمة إلى أصحابه) .

(٤) المرجع السابق ٢٣٥/١ . بتصرف .

٢ – روى أن أعرابيًا سمع من يقرأ بالجر : ﴿ إن الله بريءٌ من المشركين ورسُولُه ﴾[١] فقال : إن كان الله بريئًا من رسوله فأنا منه بريء ، فلببهُ القارئ إلى عمر، فحكى الأعرابي قراءته فعندها أمر عمر بتعليم العربية ، وفي رواية أخرى أنه وجّه الأعرابي إلى القراءة الصحيحة وأمر « ألاَّ يقرئ القرآن إلا عالم باللغات »[٢] .

ونسبها ابن جني إلى عليّ رضي الله عنه وقال : « فأنكر عليّ عليه السلام ، ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه مما لا يجهل موضعه »[٢] .

وبالرغم من اختلاف الروايات فإن المعنى واحد ، والشاهد قائم لا ينقضه تعددها .

٣ – مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوم يسيئون الرمي فقرَّعهم فقالوا : إنا قوم (متعلمين) فأعرض مغضبًا وقال : « والله لخطؤكم في لسانكم أشدُّ عليَّ من خطئكم في رميكم ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (رحم الله امرأً أصلح من لسانه) »[٣] .

وروى أن كتابًا جاءه من أبي موسى فيه (من أبو موسى ..) فأرسل إليه أن قنِّع كاتبك سوطًا وأخِّرَ عطاءه .

٤ – وفي طبقات الزبيدي : « جاء أبو الأسود إلى زياد بالبصرة فقال : إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ، وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لي أن أضع للعرب كلامًا يقيمون به ألسنتهم ؟ قال : لا ، فجاء رجل إلى زياد، فقال: أصلح الله الأمير ! توفي أبانا وترك بنون . فقال زياد: توفي أبانا وترك بنون! ادع لي أبا الأسود فقال : ضع للناس الذي كنت نهيتك أن تضع لهم »[٤] . وفي الفهرست أنه طلب من أبي الأسود ذلك فقال : « اعمل شيئًا يكون للناس إمامًا ويُعرف به كتاب الله »[٥] وعندئذٍ

---

(١) الآية ٣ من سورة التوبة ،

(٢) انظر في الرواية الأولى : البحر المحيط لأبي حيان ٦٧/٥ ، والثانية في نزهة الألباء للأنباري (٥) ، والثالثة في الخصائص ٨/٢ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ١٧/١ .

(٤) طبقات النحويين للزبيدي (٢٢) .

(٥) الفهرست ، لابن النديم (٦٣) .

وضع النقط الإعرابي للقرآن .

٥ - وفي طبقات الزبيدي أيضًا : « روى أن الذي أوجب عليه الوضع في النحو أن ابنته قعدت معه في يوم قائظ شديد الحرّ ، فأرادت التعجب من شدّةِ الحرِّ فقالت : (ما أشدُّ الحرِّ) ؟ فقال أبو الأسود : القيظ جوابًا عن كلامها لأنه استفهام؛ فتحيّرت وظهر له خطؤها ، فقال : قولي يا بنيّة (ما أشدَّ الحرَّ) فعمل باب التعجب ، وباب الفاعل ، والمفعول به وغيرها من الأبواب » [١].

أمثلة تفشِّي اللحن في طبقات المجتمع العربي :

لم يعد اللّحن مقصورًا على طبقة المتعربين من العجم وليس اللحن فيهم بمستغرب فاللغتان كما يقول الجاحظ : « إذا التقتا في اللّسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها »[٢] ، ولكنه انتقل منهم إلى العامّة من العرب ذوي الثقافة المحدودة ممن اختلطوا بهم في الأسواق والمعاملات والمعيشة ، ثم لم يلبث أن ظهر في لغة الخاصة ممن اشتهر بالفصاحة واشتغل بالرياسة من الخلفاء والأمراء والفقهاء ، بل أصبحت الحواضر مظنة الفساد اللغوي فكان الخلفاء يرسلون أبناءهم إلى البادية ، وكان عبدالملك يقول: « أضرَّ بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه إلى البادية»[٣] وكان الوليد لحانة .

ومن لحن الفصحاء ما رواه الجاحظ عن لحن الحسن البصري والحجاج بن يوسف الثقفي قال : « وروى أبو الحسن أن الحجاج كان يقرأ (إنّا من "المجرمون" منتقمون) . وقد زعم رؤبة بن العجاج وأبوه العجاج وأبو عمرو بن العلاء ، أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج »[٣] .

قال : وغلط الحسن في حرفين من القرآن مثل قول (ص والقرآنُ)[٤] والحرف

---

(١) طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (٢١) .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (١٠/٢) (دار إحياء التراث) . وقد أسهب ابن خلدون في شرح هذه الفكرة في مقدمته . انظر ١٢٦٠/٣ (فصل في أن العجمة إذا سبقت إلى اللسان) .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ١٦٢/٢ .

(٤) سورة ص : ١ ، ٢ .

الثاني (وما تنزلت به الشياطون)[١] [٢]. ونسب اللحن إلى أبي حنيفة النعمان فقال: « وقيل لأبي حنيفة : ما تقول في رجل أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيده به ؟ قال : لا ولو ضرب رأسه بأبا قبيس » [٣].

هذه أمثلة اصطفيناها وأعرضنا عن الكثير رغبة في الاختصار ، وحسبك أن لغة الحواضر العربية في منتصف القرن الثاني لم تعد موضع احتجاج لما اعتراها من فساد ، وهكذا استشرى اللحن والفساد اللغوي في جميع طبقات المجتمع العربي إلا قليلاً في البوادي ، وخيف على اللّغة العربية من خطره وما قد يعقبه الفساد اللغوي من قصور في فهم نصوص الشريعة الناطقة بلسانها والجارية على سننها ، فقيَّض اللّه لهذه اللّغة الكريمة من أبنائها وغيرهم من الموالي من تصدى لخطر اللحن بما هُدوا إليه وسمّوه علم النحو فكان أداة تُعَلَّمُ بها العجم، وتقوّم بها ألسنة العرب .

وسنتحدث فيما يلي عن :

العوامل التي ساعدت على تقعيد اللّغة :

لقد سهّل مهمة تقعيد اللّغة العربية إسهام الفكر الإسلامي في ظهور المصطلح والقياس في العربية .

١ - أما من جهة المصطلح :

فقد عرفت العربية استخدام الألفاظ - بشكل علمي - في معانٍ اصطلاحية مع نزول القرآن وذلك عندما استعمل كثيراً من ألفاظها للدلالة على معان مخصوصة غير التي تُعرف في اللّغة .

يقول ابن فارس في ذلك : « كانت العرب في جاهليتها على إرثٍ من إرث آبائهم في لُغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم . فلما جاء اللّه جلَّ ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ، ونُسخت ديانات وأُبطِلت أمور ، ونقلت من اللّغة ألفاظ عن مواضع إلى

---

(١) سورة الشعراء : ٢١ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٧١. ومن لحن الحجاج أيضًا ما استدركه عليه يحيى بن يعمر في قراءته (قل إن كان أباؤكُم... أحبُّ إليكم) والوجه فيها النصب لأنها خبر كان . انظر : طبقات النحويين للزبيدي (٨).

(٣) البيان والتبيين ٢/١٦٨.

مواضع أُخر بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شُرِطت ... فكان مما جاء في الإسلام – ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق . وأنَّ العرب إنما عرفت المؤمن في الأمان ، والإيمان هو التصديق . ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافًا بها سمِّي المؤمن بالاطلاق مؤمنًا .

وكذلك الإسلام والمسلم ، إنما عَرَفت منه إسلامَ الشيء ، ثم جاء الشَّرع من أوصافه ما جاء . وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء والسِّتر . فأما المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، وكان الأصل نافقاءِ اليربوع ... وكذلك الزكاة ، لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية النَّماء ، وزاد الشرع ما زاده فيها مما لا وجه لإطالة الباب بذكره .

فالوجه في هذا إذا سُئِل الإنسان عنه أن يقول : في الصلاة اسمان لغويٌّ وشرعيٌّ ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ، ثم ما جاء به الإسلام . وهو قياسُ ما تركنا ذكره من سائر العلوم ، كالنحو والعروض والشعر : كل ذلك له اسمان لغوي وصناعيٌّ »[١] .

فهذا الاستخدام القرآني لمفردات اللّغة شكَّل نقلة نوعية في حياة العربية أهلتها للنهوض بدورها وطوعتها لاستيعاب الحضارة والعلوم والفكر والأدب بكلِّ كفاءة واقتدار ، دون أن تضيق عن تأدية معنى أو تقصر عن إيجاد لفظ . وذلك أن القرآن وسّع الدلالة وأطلق الألفاظ من أعنَّتها لتعبِّر عن كلِّ جديد وتستوعب ما شاء اللّه لها أن تستوعبه ، حتى إن بعضهم كما يقول السيوطي : « جعل ذلك من معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهًا أو أكثر وأقل ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر »[٢] .

---

(١) الصاحبي ، أحمد بن فارس (٧٨ – ٨٦) .

(٢) الاتقان للسيوطي ٢٩٩/١ (النوع التاسع والثلاثون) .

وكان هذا الاستعمال القرآني – كما يفهم من كلام ابن فارس – سنة اتبعها العلماء في تسمية ما لم يكن له اسم في لغة العرب ووضع المصطلحات لوصف الظواهر العلمية وتشخيصها لتسهل دراستها وعلاجها .

والمصطلح كما جاء في كتاب التعريفات : « عبارة عن إتفاق قوم على تسمية الشيء باسم (ما) ينقل عن موضعه الأوّل . وهو كذلك إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما ، وقيل : إخراج الشيء عن معنى لغوي إلى معنى آخر لبيان المراد ، والاصطلاح لفظ معين بين قوم معينيين »[١] .

وقد رأيت مما تقدم أن أوّل ظهورٍ له بشكل علمي كان في القرآن الكريم ، وقام الرسول عليه السلام بشرح معانيه الجديدة المنقولة عن اللّغة كإرشاد المسلمين إلى كيفية الصلاة بمعناها الجديد ، ثم انتشرت المصطلحات الشرعية في علوم الفقه والحديث ورسخ في فكر الأمة وجود اسمين لغوي وصناعي ، وعند دخول اللّغة مجال الدرس والتقنين لم يجد العلماء صعوبةً في وضع المصطلحاتِ العلمية التي تصف ظواهرها ، وتخلع على مكوِّناتها مدلولاً علميًا يمكن مع إطلاقه استحضار المراد منها فينصرف إليه الذهن دون غيره عند أهل الصناعة . من ذلك (الفعل والاسم والحرف والمبتدأ والخبر والصفة والحال والتعجب والاستفهام والفتحة والضمة والكسرة والهمز والتنوين والترادف والتضاد و ... إلخ) .

فهذه المصطلحات وإن كانت في مجال اللّغة التي تتكلمها العرب إلا أن معرفتها بوصفها العلمي مقصور على أهل الصناعة ، يدل على ذلك ما رواه الجاحظ قال : « أخبرني الربيع بن عبدالرحمن السلمي قال: قلت لأعرابي : أتهمز اسرائيل ؟ قال : إنّي لرجل سوء . قال : قلت : أفتجر فلسطين ؟ قال : إنّي إذا لقوي »[٢].

---

(١) التعريفات للشريف علي بن محمد الجرجاني (٢٨) . (الفيصلية) .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١٧٣/٢ .

ويرى بعض البحثة أن القرآن لم يقتصر على تقديم المثل والسنّة التي اتّبعها علماء العربية في صياغة مصطلحاتها ، بل وضع بعضها وبملاحظة العلماء لها تم استخراجها والعمل على منوالها والتوسع في دراستها ، وأيدوا رأيهم ببعض الأدلة والنماذج القرآنية . منها :

١ - قال تعالى : ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ﴾ [(١)] فسمى تكسير الأصنام فعلاً .

٢ - ومنه : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾[(٢)] فسمَّى القتل فعلاً .

٣ - ومنه : ﴿ قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾[(٣)] فكنى عن المباشرة بالفعل وسمى المباشر فاعلاً .

٤ - ومنه : ﴿وكان أمر الله مفعولاً ﴾[(٤)] فسمى وقوع ما وعد الله به مفعولاً .

٥ - منه : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا .. ﴾[(٥)] فسمى «يا بني» نداء .

٦ - ومنه : ﴿ وإنّي سمَّيتُها مَرْيَمَ ﴾ [(٦)] دل على أن الاسم غير المسمى وأن الاسم ما دل على المسمى .

٧ - ومنه : ﴿ قالت يا ويلتي أألد وأنا عَجُوزٌ وهذَا بَعْلِي شَيْخًا ، إنَّ هَذَا لشيءٌ عجيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمرِ اللَّه .. ﴾ [(٧)] فسمى هذا الأسلوب وهو : ﴿ أألد وأنا عجوز ﴾ تعجبًا .

وهذا الذي ذكره البحثة الأفاضل[(٨)] يتناسب والبدايات الأولى لنشوء النحو العربي إذ اقتصرت على بعض الملاحظات ، ويؤيد رأيهم أن أوائل النحاة كانوا من قراء الذكر الحكيم كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع وهم كما تعلم من أوائل المعلمين في تاريخ الإسلام ، والقرآن كما قال السيوطي : مفجر العلوم ومستودعها فكانت

(١) سورة الأنبياء ، الآية (٦٢) .
(٢) سورة الشعراء ، الآية (١٩) .
(٣) سورة الحجر ، الآية (٧١) .
(٤) سورة الأحزاب ، الآية (٣٧) .
(٥) سورة هود ، الآية (٤٢) .
(٦) سورة آل عمران ، آية (٣٦) .
(٧) سورة هود ، الآية (٧٢) .
(٨) منهم الدكتور صفوت مرسي والدكتور محمد هاشم عبد الدايم وقد نقلنا الأدلة من مخطوط الدكتور صفوت (نشأة النحو ٦٤) . وقد نُشر هذا الرأي في مجلة كلية الشريعة ، العدد الثاني ، تحت عنوان (من الذي ابتكر النحو) للدكتور محمد هاشم عبد الدايم (٢٦٢) .

بداية العلوم التي عرفها العرب هي المتصلة بالقرآن والمستنبطة منه ، وعليه فلا يستبعد أن أبا الأسود وغيره من القراء قد لاحظوا هذه المصطلحات التي وصفت بعض الأحداث والأساليب العربية في القرآن من خلال تلك الآيات، فعملوا على استخراجها والتوسع في دراستها ثم العمل على منوالها ليسهل تقعيد اللّغة ومن ثم تعلمها وتعليمها .

٢ - وأما من جهة القياس[(١)] :

فإن أهميته في تقعيد اللّغة لا تخفى على ذي بصيرة فهو من أهم أدلة النحو والمعوّل عليه في استخراج قواعدها واطرادها ، حتى إن الكسائي اعتبر النحو قياساً فقال بيته المشهور :

إنما النحو قياس يتبـع   وبه في كلِّ أمرٍ ينتفـع

ولهذا أيضًا قال بعضهم في تعريف النحو : « إنه علم بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب »[(٢)] .

فأهمية القياس في تقعيد اللّغة كأهمية النقل والسماع في جمعها، وكلٌّ مكمِّل لصاحبه ، فالعلماء لم تسمع جميع كلام العرب وإنما سمعت بعضه وقاست ما لم تسمع بما سمعت ، وفي المقابل قام القياس على السماع واعتمد عليه واستنبط منه لأن القياس ليس إلا « حمل غير المنقول على المنقول في الحكم لعلةٍ جامعة »[(٣)] .

فالعلماء حين استقرءوا كلام العرب وجدوه على ضربين : « أحدهما ما لا بُدّ من تقبله كهيئته لا بوصيّةٍ فيه (السماع) ، والآخر ما وجدوه يُتدارك بالقياس فقننوه وفصلوه ، إذ قدروا على تداركه من هذا الوجه القريب (القياس) »[(٤)].

وقد وضعت قوانين اللّغة وقواعدها ليعمل بها ويقاس عليها ولولا ذلك « لجاء القوم بجميع المواضي ، والمضارعات ، وأسماء الفاعلين ، والمفعولين ، والمصادر ،

---

(١) أقصد القياس بمهفومه الواسع (اللغوي والنحوي) البعيد عن الخلافات المدرسية أي : المتفق عليه (المطرد) عند جميع العلماء والذي عملوا على نشره ، أما الأقيسة الخاصة أو القياس المستقل فهو مما تسبب في اختلاف اللهجات العربية ، ثم إنني تطرقت إلى طرفٍ منه ولم أستقصه .

(٢) التكملة لأبي علي الفارسي (١٦٣) .

(٣) لمع الأدلة (٩٣) .

(٤) الخصائص لابن جني ٤٢/٢ .

وأسماء الآزمنة والأمكنة ، والآحاد والثنائي والجموع ، والتكابير ، والتصاغير ، ولما أقنعهم أن يقولوا : إذا كان الماضي كذا وجب أن يكون مضارعه كذا ، واسم فاعله كذا ، واسم مفعوله كذا ، واسم زمانه كذا ، واسم مكانه كذا ، ولا قالوا : إذا كان المكبر كذا فتصغيره كذا ، وإذا كان الواحد كذا فتكسيره كذا ، دون أن يستوفوا كل شيء من ذلك فيوردوه لفظًا منصوصًا معيّنًا لا مقيسًا ولا مستنبطًا »(١) .

فالقياس وسيلة تمكّن الإنسان من معرفة اللّغة وإدراكها إدراكًا عقليًا يستطيع معه القيام على اللّغة والنطق بما شاء من الجمل والكلم دون أن تقرع سمعه -بذاتها- من قبل ، أو أن يحتاج في الوثوق من صحة عربيتها إلى الرجوع إلى كتب اللّغة ، ولهذا كان ابن جني يقول : « إن مسألة واحدة من القياس أنبل وأنبه من كتاب لغة عند عيون الناس »(٢) .

وقد أدّى اعتماد القياس كدليل علمي في تقعيد اللّغة ثم الالتزام به في صياغة جملها وتراكيبها واشتقاق مفرداتها وتوليدها ، أدّى ذلك إلى توحيد اللّغة واطرادها لا سيما بعد نجاح النحاة في تعميم قياسهم الذي استخرجوه من اللّغة المشتركة وتصديهم لكلٍّ من خرج عنه بتخطئته أو الطعن في فصاحته حتى لو وافق لهجة عربية خاصة لأنهم عملوه على الكثير المطرد فأغلقوا بذلك الطريق على ما قد يجره اختلاف اللهجات من خلاف لغوي .

وبذلك أصبح للّغة العربية أوزانها وأبنيتها وصيغها وتراكيبها المقننة والمحدّدة التي عليك أن تتبعها ، ولك أن تقيس عليها فتكون بذلك متحدثًا بالعربية لأن « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب »(٣) ، وليس لك أن تخالفها بقياس لم يقيسوه أو اشتقاق لم يشتقوه أو أن تستحدث وزنًا أو بنية لم تكن في لغتهم وقت الاحتجاج .

وهكذا يتضح لنا أن أثر القياس - الصحيح المطرد - قد تعدى الإسهام في

---

(١) الخصائص لابن جني ٤٢/٢ .

(٢) المرجع السابق ٨٨/٢ .

(٣) المرجع السابق ٣٥٧/١ .

توحيد اللّغة إلى الإسهام في خلودها وبقائها عبر العصور حيّة فتيّة إذ سمح بحدوث الألفاظ والمصطلحات التي تطلّبها حدوث المعاني والعلوم الجديدة للتعبير عنها ، دون أن يسمح بتغيّر قوالب اللّغة من أوزان وأبنية وتراكيب ، لأن في تغير القوالب فساد اللّغة وبطلانها وسببه أن الصيغ والتراكيب العربية تهدي إلى المعاني شأنها في ذلك شأن الألفاظ ، والألفاظ لا بدّ حادثة بحدوث المعاني فإذا استُحدِثت معها القوالب التي تفرغ فيها اللّغة أو تغيرت استحالت العربية إلى لغة أخرى وبُتر آخرها عن أوّلها وفُصِل عنه ومع تعاقب الأزمان وتوالي التغيرات سيبحث العرب – هذا إذا لم يتغير اسمهم – عمَّن يترجم لهم كتابهم وسنة نبيهم إلى لغتهم الجديدة التي لا نعلم ما سيكون اسمها أو شكلها عندئذٍ . (لا قدَّر الله) .

وبعد أن تبين للقارئ طرفٌ من القياس وهو الجزء المتعلق بدوره في تقعيد اللّغة وتوحيدها وخلودها وهو ما يهمُّنا من تناول موضوعه ، نود أن نبين أن اعتماده كدليل علمي ونشوءه كان بأثر إسلامي ، ولهذا ذكرناه في أثر الإسلام في التوحيد اللّغوي فهو نابع من أحوال الشريعة الإسلامية نشأ في أرض عربية ونضج في العلوم الشرعية خاصة علم الفقه وأصوله ومنه انتقل إلى النحو العربي لأن علوم العربية كانت ممتزجة بعلوم الشريعة في أوّل الأمر ثم انفصلت عنها ، ولهذا تأثرت بمنهج علوم الشريعة في طرق تحمّلها ونقلها ، واعتماد أدلتها في بناء قواعدها واستخدام أحكامها ، وحاكت بحوثها وأجرت من مصطلحاتها عليها .

أما طرق التحمّل فقد سبق الحديث عنها فذكرنا أنهم تحروا الصحة والثبوت والاسناد في الرواية وحصروا طرق الأخذ والتحمل متبعين في ذلك منهج علماء الحديث[1] .

وأما أدلة النحو المعتمدة فهي نفس أدلة الفقه وهي (السماع ، والإجماع ، والقياس)[2] وهذا ليس مجرد تشابه في المصطلحات بل هو منهج علمي مستنزل من

---

(١) ينظر الوجه الرابع من وجوه التشدد في جمع اللّغة (٢٢٦) .

(٢) هي كذلك عند ابن جني وعند ابن الأنباري باستبدال الاستصحاب بالإجماع وعند السيوطي بزيادة الاستصحاب (الاقتراح ٢١) . وكذلك عند علماء الإسلام (الفقه) مع زيادة واختلاف في بعضها من حيث الاعتماد وجعلها الآمدي في الأحكام خمسة (١/١٢٦)، الاحكام في أصول الاحكام للآمدي، تحقيق : عبدالمنعم إبراهيم ، مكتبة الباز ، ط ١ ، ١٤٢١هـ .

الفقه وأصوله على النحو العربي لأن كلا العلمين معقول من منقول فأجرى على الآخر ما نضج به الأول . وإنك لتجد أثر هذا الاستنزال في التزام النحاة بالأحكام الفقهية في الحكم النحوي وهي قولهم : « واجب ، وممنوع ، وحسن ، وقبيح ، وخلاف الأولى ، وجائز على السواء ، ومرخّص »[١] وهي عند الفقهاء : « واجب ، ومندوب ، ومحرم ، ومكروه ، ومباح ، ووضعي »[٢] .

ولطالما جاهر علماء اللّغة العربية في أصولها بأنهم يحاكون بها مباحث علوم الشريعة ومؤلفاتها ، فهذا ابن جني من علماء المائة الرابعة والمؤلف الحقيقي لأصول النحو يعلل تأليفه (الخصائص) ويجاهر بما ذكرناه فيقول : « وذلك أنا لم نر أحدًا من علماء البلدين تعرض لعمل أصول النحو ، على مذهب أصول الكلام والفقه »[٣] .

ويصرح ابن الأنباري باستنزال المنهج الفقهي على النحو والعمل بأدلته في أصوله فيقول : « وألحقنا بالعلوم الثمانية علمين وضعناهما : علم الجدل في النحو ، وعلم أصول النحو ، فيعرف به القياس وتركيبه وأقسامه من قياس العِلَّة ، وقياس الشبه ، وقياس الطرد إلى غير ذلك على حدِّ أصول الفقه فإن بينهما من المناسبة ما لا خفاء به لأن النحو معقول من منقول ، كما أن الفقه معقول من منقول » [٤] . وذكر في كتابه الإنصاف أنه بنى مسائله الخلافية بين نحويي الكوفة والبصرة على ترتيب المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة .

ثم يأتي السيوطي فيذكر أن مما أودعه الاقتراح نفائس كانت أصول الفقه من بين الكتب التي ظفر عليها منها ، وأنه رتب أصول النحو على أصوله ، فقال: « واعلم أنِّي قد استمددت في هذا الكتاب كثيرًا من كتاب (الخصائص) لابن جني فإنه وضعه في هذا المعنى ، وسماه أصول النحو ... وضممت إليه نفائس أخر ظفرت بها

(١) الاقتراح للسيوطي (٢٩) .
(٢) الأحكام في أصول الاحكام للآمدي ١/٧٩ .
(٣) الخصائص ١/٢ .
(٤) نزهة الألباء في طبقات الأدباء (٨٩) .

في متفرقات كتب اللّغة والعربية والأدب وأصول الفقه ، وبدائع استخرجتها بفكري ، ورتبته على نحو ترتيب أصول الفقه ، في الأبواب والفصول والتراجم » [١].

وإننا لنعجب بعد كل هذه الدلائل أن نجد من بين المستشرقين وأتباعهم من المحدثين من يزعم أن ظهور القياس في النحو العربي كان بأثر خارجي يرجع إلى المنطق اليوناني والنحو السرياني ، وهم مع ذلك ليس لهم دليل سوى أن مفهوم القياس كان مستخدماً لدى اليونان وهو كذلك عند لغويي العرب القدامى فبنوا على هذا زعمهم متجاهلين أن القياس منهج يستلزمه التفكير العلمي في أي لغة وفي غير اللّغة من العلوم الأخرى ، ونحن إذ نرجع أثره إلى الإسلام فإننا نقصد اعتماده كدليل علمي له قواعده التي تكفل صحة نتائجه .

أما حقيقة القياس فهي إنسانية عقلية لها درجاتها الاستعمالية والصوابية حتى في لغة الطفل الصغير إذ نجده ينشيء لنفسه – مثلاً – قاعدة يقيسها على مسموعه في التأنيث بالتاء ، نحو (كبير : كبيرة ، صغير : صغيرة) فيؤنِّث بها كُلَّ مذكَّر وقد يحالفه الصواب ، وقد يخطئ إذا واجهته كلمات مثل (حَصان وعَطشان) فقال فيها (حصانة وعطشانة) ، فالقياس معمول به في أكثر اللّغات بدائية ولولا ذلك لما صدقت معظم نتائجه على اللّغات الإنسانية ولَـمَا قُدِر على تقعيدها .

ومن البديهي أن علماء العربية حين استقرءوا لغة العرب لاحظوا سنناً في لغتهم فاستخرجوها من واقع اللّغة ثم وضعوا لمباحثه ومصطلحاته ما يناسبها من أصول الفقه لأسبقيته فيه ونضوجه ولما بينهما من المناسبة فكلاهما معقول من منقول .

وهذا الذي نقوله ليس حدساً أو تخميناً كرأي القائلين بالأثر اليوناني بل حقيقة ثابتة في أقوال العلماء ، فانظر إلى قول ابن جني : « ولكن القوم وزنوا كلام العرب فوجدوه على ضربين : أحدهما ما لا بدّ من تقبّله كهيئته لا بوصيّة فيه ... ومنه ما وجدوه يتدارك بالقياس وتخف الكلفة في علمه على الناس ، فقنّنوه وفصّلوه؛ إذ قدروا على تداركه من هذا الوجه القريب » [٢] ، وكذا قوله : « فلما رأى القوم كثيراً من اللّغة

(١) الاقتراح (١٨) .		(٢) الخصائص ٢/٤٢ .

مقيسًا منقادًا وسموه بمواسمه ، وغنوا بذلك عن الإطالة والإسهاب فيما ينوب عنه الاختصار والإيجاز »(١) .

وانظر إلى قول الخليل عن العلة وهي من أهم مباحث القياس وأركانه – بأنها قائمةٌ في عقول العرب وإن لم ينقل عنهم ذلك ، فقال حين سُئل عن العلل التي يعتل بها في النحو أأخذها عن العرب أم اخترعها من نفسه ؟ قال : « إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامها ، وقامت في عقولها عِلَلُهُ ؛ وإن لم ينقل عنها ، وعللتُ أنا بما عندي أنه عله لما علمته منه فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست ، وإن يكن هناك علة غير ما ذكرت فالذي ذكرته محتمل أن يكون علة له ..» (٢).

فهذا يدل على أن القياس النحوي وتعليلاته عند علمائنا القدامى مستنبط من اللّغة نفسها ومُلاحَظ فيها ، وليس دخيلاً عليها من نحو سرياني أو منطق يوناني لا فكرة ولا تطبيقًا ، وهو بالروح العربية وفكرها الإسلامي ألصق .

وقد حاول الدكتور محمد عيد في كتابه أصول النحو رجع فكرة القياس والتعليل إلى النحو السرياني والمنطق اليوناني متخذًا من عبدالله الحضرمي جسرًا لتمرير زعمه لكونه من الموالي وموصوفًا بأنه أوّل من بعج النحو ومدَّ القياس والعلل وهو مع ذلك يُقّر بعدم وجود دليل على صلة مباشرة بين الحضرمي والمنطق ونحو السريان . وإليك نص الدكتور :

« وإذا كانت الصلة المباشرة بين أبي إسحاق والمنطق ونحو السريان مجهولة الآن ، فإن الدلائل تؤكد حدوث تلك الصلة وتأثره بها ، وتتلخص في تلك الظروف العامة لنسبه وعصره وعقله . وتلك الآراء الإجمالية التي تناولته بالدراسة من معاصريه وأصحاب الطبقات من أنه أوّل من بعج النحو وقاسه ، ولعل أقواها بعض الآراء التي نقلت والتي تدل على أنه بعج وقاس ، كل هذا يدل بطريقة تبلغ حد التأكيد – وإن لم تكن مباشرة – على أنه تأثر في إدخال فكرة القياس في النحو

(١) الخصائص ٢/٤٣ .

(٢) الاقتراح (٩٥) .

بالمنطق »[1] ، ويقول في نشوء التعليل النحوي : « لقد بدأ التعليل – فيما أظن – في النحو سابقًا لكل من الفقه وعلم الكلام ، وقد تسرب التعليل إليه متأثرًا بمنطق أرسطو كما سبق بيانه – وهو حديث موجز جدًا عن العلة عند أرسطو (١١٣) – ثم بعد ذلك دخل الفقه وعلم الكلام »[2] .

وقد كفانا مئونة الرد على الدكتور عيد وإثبات الأثر الإسلامي ما ذكره محمد حسن عوّاد في دراسته المقدمة بين يدي تحقيقه الكوكب الدرّي للإمام الأسنوي ، فقال :« إن فكرة القياس ترجع إلى أصول الفقه أكثر من رجوعها إلى مؤثر خارجي، ذلك أن فكرة القياس الشرعي كانت معروفة ليس في عصر ابن أبي إسحاق فحسب بل منذ أيام الصحابة رضوان الله عليهم، كما سنرى . على أن فكرة التعليل النحوي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالفكرة الدينية التي تميِّز بين عالم الأزل وعالم الواقع مع ربط بين العالمين ، فكل مخلوق لا بدّ له من خالق، وكل علة لا بدّ لها من معلول، وكل عامل لا بدّ له من معمول، فإنَّ فكرته ترتد كما قلت إلى جذور دينية ، وتتسق مع الهيكل الثقافي العام للثقافة الإسلامية »[3] .

ثم ذكرالدكتورالعوّاد أن القياس عند الحضرمي يعني موافقة الإعراب والتمشي مع روح اللّغة ، ليس فيه تفريع ولا تفصيل ، ولا فلسفة ذهنية محضة ، وفي ذلك ما ينفي الأثر الأجنبي ، ثم بين أن استنتاج الدكتور عيد مبنيّ على الحدس والافتراض إذ كيف تثبت صلة الحضرمي بالمنطق والنحو السرياني ما دامت الدلائل مجهولة غير معروفة ، ولهذا يرى بعض الباحثين القول بأن فكرة منشأ القياس ترجع إلى المنطق اليوناني « إيغال في الحدس وتمسك بأهداب الفروض »[4] .

أما ما قيل عن سبق التعليل في النحو مع تأثره بالمنطق الأرسطي فذكر أنه يرجع إلى إهمال البدايات الأولية لكلٍّ من علمي أصول النحو وأصول الفقه فعرض

---

(١) أصول النحو العربي في نظر النحاة ، د . محمد عيد (٧٢) ، ط ٦ ، عالم الكتب ١٩٩٧م ، وقال به أيضًا : د. فؤاد حنا ترزي في كتابه (في أصول النحو ١٣١) (ط . دار الكتب بيروت) .

(٢) المرجع السابق (١١٨) .

(٣) الكوكب الدري (الدراسة) للإمام الأسنوي ، تحقيق ودراسة : محمد حسن عوّاد (٥٣) .

(٤) ينظر المرجع السابق (٥٢ ، ٥٣) .

من أجل ذلك مراحل تطورهما وأثبت أن البدايات الأولى لأصول الفقه ترجع إلى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة،في حين ترجع بدايات علم أصول النحو إلى القرن الثاني الهجري(١) ، ونقل عن الآمدي بعض الروايات التي تدل على وجود القياس كدليل فقهي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة من أبرزها(٢) :

١ – روى أن القياس جاء عن الرسول في قصة الجارية الخثعمية لما سألته وقالت : « يا رسول الله ، إن أبي أدركته فريضة الحجِّ شيخًا زمنًا لا يستطيع أن يحجَّ . إن حججت عنه أينفعه ذلك ؟ فقال لها : أرأيت لو كان على أبيك دين فقضيته ، أكان ينفعه ذلك ؟ قالت : نعم . قال : فدين الله أحق بالقضاء » . قال الآمدي ووجه الاحتجاج به أنه ألحق دين الله بدين الآدمي في وجوب القضاء ونفعه، وهو عين القياس .

٢ – وكذلك جاء عنه تأييده للعمل به في سؤاله لمعاذ عن الأمر إذا لم يجده في الكتاب والسنة ، روى أنه قال لمعاذ ، حين بعثه إلى اليمن قاضيًا (بم تحكم) ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي ، والنبي صلى الله عليه وسلم ، أقره على ذلك . وقال : «الحمدُ لله الذي وفق رسول رسول الله لما يحبه الله ورسوله » . قال الآمدي : واجتهاد الرأي لا بُدَّ وأن يكون مردودًا إلى أصل وإلا كان مرسلاً ، والرأي المرسل غير معتبر ؛ وذلك هو القياس .

٣ – وكذلك اتفق الصحابة على استعمال القياس في الوقائع التي لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم : فمن القياس « رجوع الصحابة إلى اجتهاد أبي بكر رضي الله عنه في أخذ الزكاة من بني حنيفة وقتالهم على ذلك ، وقياس خليفة رسول الله على الرسول في ذلك بواسطة أخذ الزكاة للفقراء وأرباب المصارف » .

٤ – وقد صرح عمر بن الخطاب بالقياس في رسالته لأبي موسى : « اعرفِ الأشباه والأمثال ، ثم قِس الأمور برأيكَ » . ولم يستوفِ الدكتور محمد حسن عواد

---

(١) الكوكب الدري (الدراسة) للإمام الأسنوي ، تحقيق ودراسة : محمد حسن عوّاد (٧٧ – ٨٨) .

(٢) المرجع السابق (٨١ – ٨٢) وهي في الأحكام للآمدي على التوالي(٤/٨١٨ – ٨١٧ – ٨٢٤ – ٨٢٥).

جوابه عن العلة وانتقل إلى الأدلة الأخرى : السماع والإجماع ، لأنه أراد الحديث عن الأصول العامة وكان ينبغي عليه لاستكمال الرد على الدكتور عيد الاستدلال على وجود التعليل ولكنه اكتفى بالقياس باعتبارها من مباحثه . وختم بقوله : والخلاصة : «أن أصول الفقه ممتدة –تاريخيًا– إلى أيام الرسول –عليه السلام– والصحابة . فالقياس كان موجودًا ، وإن اتصف بالبساطة والبعد عن التعقيد ، أو التأثر بالصيغ والمصطلحات المنطقية .. »(١) .

أما ما روى عن سبق التعليل في الشريعة فقول الآمدي : « روى عنه ،عليه السلام، أنه علَّل كثيرًا من الأحكام ، والتعليل موجب لاتباع العلَّة أين كانت ، وذلك هو نفس القياس . فمن ذلك قوله عليه السلام (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها ، فإنّها تذكركم بالآخرة) »(٢) .

وقد روى عن أبي حيان قوله :« إن الصحابة تكلموا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم في العلل » (٣) . كما ينفي نشوء التعليل النحوي بأثر يوناني أو سرياني ما جاء في الخصائص عن أبي عمرو بن العلاء قال : «سمعت رجلاً من اليمن يقول : فلان لغوب ، جاءته كتابي فاحتقرها ، فقلت له : أتقول جاءته كتابي ؟ قال : نعم أليس بصحيفة»(٤) . قال ابن جني : (أفتراك تريد من أبي عمرو وطبقته وقد نظروا ، وتدرّبوا ، وقاسُوا ، وتصرفوا أن يسمعوا أعرابيًا جافيًا غُفْلا ، يعلل هذا الموضع بهذه العلَّة ، ويحتج لتأنيث المذكر بما ذكره ، فلا يهتاجوا هم لمثله ، ولا يسلكوا فيه طريقته ، فيقولوا : فعلوا كذا لكذا ، وضعوا كذا لكذا ، وقد شرع لهم العربي ذلك ، ووقَفهم على سَمْتِه وأَمِّه) » (٤).

ونحن إذ ننفي الآثار اليونانية والسريانية في نشوء القياس والتعليل النحوي، فإننا لا ننفي آثارها في مراحل متأخرة بعد أن ذابت حضارات الأمم وعلومها في

---

(١) دراسة الدكتور عوّاد على الكوكب الدرّي (٨٤) وينظر (٨٨) .
(٢) الاحكام للآمدي ٨١٩/٤ .
(٣) نقلاً عن أثر القرآن في الدراسات النحوية ، د . سالم مكرم (٩٢) .
(٤) الخصائص ٢٤٩/١ .

الحضارة العربية الإسلامية فتشرّبتها وطورتها واستفادت منها بعد أن اصطبغت بالصبغة الإسلامية . والفرق بين الحالتين كبير ، ونحن إذ كنا لا نقول في الدكتور محمد عيد إلا خيراً ، فإن معظم الآراء التي ذهبت إلى عدم أصالة الدراسات اللغوية العربية في نشأتها كانت لبعض من المستشرقين اعتمدوا في أقوالهم على الظن والافتراض ، ومبعثها عند كثير منهم – كما يقول إسماعيل عمايرة : « تجريد الحضارة الإسلامية من القدرة على الإبداع الذاتي بعد أن عُرف عنها وشهد به الأوربيون أنفسهم في كثير من المواقف »[١] . وقال : إن هذا الموقف وأشباهه إزاء العلوم الإسلامية في عصر ازدهارها ليبعث أكثرهم على الدهشة حين يقارن بين عظمة تلك الحضارة وبين واقع أمتها ، اليوم ثم لا يلبث أن يعزو إشراقة تلك العلوم إلى سواها[٢] .

(١) المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية (٩٣) . وقد تعرض الدكتور إسماعيل عمايرة إلى آرائهم وشبههم وأدلتهم الظنيّة ، وسمّى المتعصبين منهم والمنصفين (٣٨ وما بعدها) ويحسن بالقارئ الرجوع إليه .

(٢) المستشرقون (٩٣ – ٩٤) بتصرف .

خامساً - العامل الاجتماعي :

وهو نفس العامل الذي أدى إلى التقارب اللغويّ قبل الإسلام إلا أنه ازداد استحكاماً واتسع آثاراً إذ تعدى أثره التقريب بين اللهجات العربية وتوحيدها إلى تعريب ألسنة الأمم من حولهم ، فكما ألف بين ألسنة العرب فقد ألف بالعرب ألسنة الأمم التي شاركوها أرضها في الأمصار الإسلامية .

ويتمثل هذا العامل في الهجرات العربية المتتابعة صوب البلاد المفتوحة والاستقرار بها ، لضمان استمرار فتحها ونشر الإسلام بين أهلها ، وكان لتضافر الهجرات (الخارجية) بعوامل دينية واقتصادية وعسكرية أثرٌ عظيمٌ في تفعيل دورها ، وتوسيع أثرها ، والحدّ من مساوئها .

- أما تفعيل دورها فهو استحكام أثر الهجرات في صقل اللهجات العربية وإذابة فروقها اللغوية عندما تجمعوا في معسكرات واحدة ومدن عربية بُنيت لهم في الأمصار المفتوحة كالفسطاط في مصر والكوفة والبصرة في العراق والقيروان في المغرب وهي وإن كانت – في بدايتها – مدناً عسكرية فهي حصن للعرب ولغتهم وحرز لها من الذوبان والتلاشي في الأمم التي سكنوا بلادها لا سيما وأن العربية والإسلام لم تستقر بعد في تلك البلاد ، ثم أُذن لهم بالاختلاط بعد أن أُمِن عليهم من التلاشي في تلك الأمم .

- وأما توسيع أثرها فهو ما ذكرناه من توسيع التأليف بين اللهجات العربية إلى التأليف بين لغات الأمم من حولهم بتعريبها وذلك بعد أن اختلطوا بأهلها بالمصاهرة والتجارة معهم واستصلاح الأراضي الزراعية في بلادهم فتنوعت التركيبة السكانية في تلك البلاد وتطلع الفرقاء إلى لغة واحدة ليسهل معها التفاهم والتعايش فيما بينهم ، والذي ساعد على تبوّء العربية لهذه المكانة دخول أكثر أهل الأمصار في الاسلام ورغبتهم في تعلمها لقراءة كتابهم وفهم دينهم .

- وأمّا الحدّ من مساوئها فنقصد به ما جرت عليه سنن اللغات عندما تهاجر من مواطنها إلى مواطن ذات لغات أخرى فهي في الغالب تذوب في تلك اللغات أو تنقرض أمامها خاصة إذا كان أهلها أقل حضارة أو عدداً من أصحاب تلك المناطق كما هو حال العرب عند خروجهم .فكل ما أصاب العربية نتيجة سيادتها وانتشارها

في مناطق لغوية مختلفة هو بعض الآثار والانحرافات في ألسنة أصحاب تلك المناطق متأثرين بلغاتهم القديمة عند حديثهم بالعربية مع تسرُّب بعضها إلى العرب أنفسهم وقد تم علاج تلك الآثار والانحرافات من خلال جمع اللّغة وتقعيدها كما مرّ بك .

وعند مقارنة هذه الآثار بما حققته العربية من سيادة وانتشار نجدها يسيرة ولا تذكر بالنسبة لما تحقق ، كما أن تغير اللّغة واختلافها أمر متوقع انطلاقًا مما تكشّف لنا من سنن اللّغات[1] ، وما كان عدم اختلاط العرب وانتشار لغتهم بين الأمم بمستبقٍ لهم لغتهم مع فقد القرآن ، وليس اختلاطهم مع وجوده بضارها إذ كان القرآن حفظًا لها وتخليدًا لمُثلها وأصولها وسببًا في انتشارها وعالميتها .

هذا هو ملخص الفكرة العامة لأثرالعامل الاجتماعي في توحيد اللّغة وسيادتها، ولها بعد ذلك تفريعات وتفصيلات تتلخص في أن العرب خرجوا مع الفتوحات الإسلامية ينشرون الإسلام في بقاع الأرض ، ففتحوا العراق والشام ومصر والمغرب وبلاد فارس والأندلس ولم يكن هذا الخروج مقصورًا على الجيوش العربية بل شمل كثيرًا من القبائل التي اتخذت من تلك البلاد موطنًا جديدًا .

وقد تميزت هذه الهجرة السامية عن سابقاتها قبل الإسلام بحملها رسالة سماوية تهدف إلى نشرها وتبليغها وهي مع ذلك مرتبطة باللسان العربي مما جعل لهذه الهجرة شخصيتها الدينية واللغوية وصعّب اختراقها لترابط الدين بالعربية فيها. فأخذ الإسلام يغزو القلوب والعربية تغزو الألسنة، ومع انتشارها مع الإسلام خاضت صراعًا لغويًا مع كثير من اللّغات ، منها ما هو سامي وهي الآرامية المنتشرة في بلاد الشام والعراق ، ومنها ما هو حاميٌّ كالقبطية في مصر والبربرية في بلاد المغرب، ومنها ما هو هند أوربي كالفارسية في بلاد فارس وما وراءها، والقوطية في الأندلس وبعض اللّغات الطورانية كالتركية في بلاد المغول .

وقد حققت العربية انتصارات متفاوتة على هذه اللّغات بلغت ذروتها في اللّغات السامية والحامية حيث تعربَّت الشام والعراق ثم مصر وبلاد المغرب ، ويعزى السبب

---

(١) تحدثنا عن سنة التغير والاختلاف في (أسباب اختلاف لغات العرب) (٣٤) فارجع إليها . وينظر (٤٣ - ١٢٢).

في انتماء الأولى إلى فصيلة العربية وقرابة الثانية من اللّغات السامية كما يعزى إلى حجم الهجرات العربية الهائلة إلى تلك المناطق وذوبانها في أهلها مما ساعد على تعرُّبها ودحر لغاتها الأصلية .

وقد أشار الجاحظ إلى دور الهجرات في تعريب الأمصار الإسلامية حيث يقول: « وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب . ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر » [١].

وإذا أردنا التوقف مع طريقة التعريب في كل منطقة من هذه المناطق سيطول بنا المقام خاصة وأن لكلٍّ منها ظروفه الخاصة بحسب قرابته من العربية ، وحجم الهجرات إلى أقاليمه ، ومدى انتشار الإسلام بين أهله ، وحسبنا أن نعلم أن الشام والعراق كانا أسبق من غيرهما في اتخاذ العربية لغة شعبية لما بين العربية والآرامية من تشابه فكلاهما سامي ، كما أن العرب استقروا في بادية الشام والعراق منذ العصر الجاهلي فكان الصراع بينهما قديمًا وما أن فُتح هذان الإقليمان حتى تغلغل العرب في جميع أرجائهما ثم اتخذا مقرًا للخلافة الإسلامية ومركزًا علميًا ثقافيًا لا سيما في العراق (الكوفة ، البصرة ، بغداد) ويدلك على سهولة انتصار العربية على الآرامية أن الأخيرة لم تترك أثرًا يذكر في العربية وهو أمر نلمحه بوضوح في صراع العربية مع الفارسية .

أما انتصار العربية على القبطية وتعريب مصر فقد استغرق مدة أطول من سابقه فقد روى أن المأمون – الخليفة العباسي – زارها ومعه المترجمون كواسطة للتفاهم مع أغلب الناس ، ويبدو من وصف المقدسي للغتهم أن انتشار العربية بينهم كان متوقفًا على مدى انتشار الإسلام بينهم إذ يقول : « لغتهم عربية ، غير أنها ركيكة رخوة ، وذمتهم يتحدثون بالقبطية »[٢] ، ولكن سرعان ما تحوّل ذمتهم إلى العربية بعد أن قوي الأثر الاجتماعي فترجموا كتبهم الدينية (التوراة والانجيل) إلى العربية وأصبحت تتلى بها الصلاة ، وذلك بعد أن أصبحوا أقليّة وأحسوا بالعزلة

---

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ١/١٧ .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المقدسي (١٧٢) .

اللّغوية وكان لا بُدّ أن يتصلوا بمن حولهم ويتعايشوا معهم ، وحتى يتمكن أبناؤهم وعامتهم من فهمها لأن العامّة والأطفال هم أكثر الفئات تأثرًا بالعامل الاجتماعي وما يفرزه من لغات .

ومن هنا أخذ أهل الذمّة من الأقباط يؤلفون بالعربية باعتبارها لغة قوميّة للشعب المصري وكان تمام ذلك واكتماله في أواخر القرن الرابع الهجري حيث روى عن الأسقف الأشموني ساويرس بن المقفع قوله في مقدمة كتابه (سير الآباء البطاركة) : « فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوان المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو الآن معروف عند أهل الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني »[(١)] .

أما حجم الهجرات العربية إلى مصر فقد بيّنه المقريزي في كتابه (البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب) فذكر أن كثيرًا من بطون القبائل العربية بفرعيها العدناني والقحطاني هاجرت إلى مصر وحدّد مساكنها هناك وذكر طرفًا من العلاقات الاجتماعيةالتي حدثت بينهم وأهل مصر وأدت إلى اندماجهم وتعريبهم ، من ذلك إشارته إلى ذوبان الفاتحين في الشعب فقال: « اعلم أن العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر وجهلت أحوال أكثر أعقابهم ، وقد بقيت من العرب بقايا بأرض مصر فمن بقي .. »[(٢)] ، وأشار إلى مصاهرة ربيعة لقبائل البجه في جنوب مصر للحد من عدوانهم على القرى الشرقية ، قال : « فقامت ربيعة في منعهم من ذلك حتى كفّوهم ، ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بالعلاقي فكثرت أموالهم واتسعوا في أحوالهم »[(٣)] ، وأشار إلى مشاركة بطون قيس لأهل بلبيس في الزراعة ، قال : « فأنزلهم بلبيس وأمرهم بالزرع »[(٤)] .

---

(١) نقلاً عن كتاب : الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، د. حسن أحمد محمود (١٠٦) (ط ٣ ، دار الفكر العربي ، القاهرة) .

(٢) البيان والإعراب ، لأحمد بن علي عبد القادر المقريزي (١) ، تحقيق : د. عبد المجيد عابدين (عالم الكتب) .

(٣) المرجع السابق (٤٤) .

(٤) المرجع السابق (٦٧) .

وهكذا أسهمت الهجرات العربية إلى مصر وما نشأ من علاقات اجتماعية مع أهلها ودخول أكثرهم في الإسلام أسهم في تعريبها والقضاء على اللّغة القبطية فيها دون أن تخلّف من بعدها بقايا لغوية سوى بعض الألفاظ العاميّة التي يُعتقد رجوعها إلى القبطية نحو (طوب : ومعناها بالقبطية حجر ، ميت : ومعناها ريف ، بولاق : ومعناها شاطئ النهر أو جزيرة ، بلح : نخيل ، إردب: مقياس مصري قديم ، شونة : مخزن ، ظلط : حجر أملس)[١] .

ونفس الظروف –تقريبًا– تنطبق على تعريب بلاد المغرب إلا أن حسم انتصار العربية على البربرية تأخر حتى منتصف القرن الخامس ، والسبب في ذلك تأخر الهجرات العربية إليها ، وفي هذا يقول ابن خلدون : « العرب لم يكن المغرب لهم في الأيام السابقة بوطن ، وإنما انتقل إليه في أواسط المئة الخامسة أفاريق من بني هلال وسليم اختلطوا في الدول هناك » [٢].

وهذا لا يعني أن قسمًا من البربر لم يتعربوا قبل ذلك لا سيما الذين شاركوا في فتح الأندلس مع الجيوش العربية سنة (٩٢) وعلى رأسهم القائد طارق بن زياد (رحمه اللّه) ؛ بل وقد عدَّ المقريزي بعض بطونهم من القبائل العربية التي شاركت في تعريب مصر مع أنه نبّه إلى أصولهم البربرية مما يدل على أن لغتهم حينذاك عربية ، قال : « وبأرض مصر أيضًا لواته ، وهم يزعمون أنهم من قيس ثم من ولد لواته بن بربر بن جابر بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان .. والذي يشبه الصواب أنهم (البربر) من ولد كنعان بن حام »[٣] .

وقد أشار محمود فهمي حجازي إلى أثر الإسلام في ترجيح العامل الاجتماعي لمصلحة العربية إذ يقول : « كان البربر والعرب الغازون يمثلون نمطًا من أنماط الحياة يقوم على الرعي ، ويدور داخل القبيلة ، ويحتفل بالدم والأنساب . وأدى هذا التشابه إلى الاندماج بين العرب والبربر . وكان من الممكن أن يؤدي هذا الاندماج إلى ذوبان العرب في البربر لولا أن اللقاء كان في إطار الإسلام والحضارة العربية

(١) تاريخ اللّغات السامية ، أ . ولفنسون (٢٢٢) .

(٢) ابن خلدون ٨/٦ .

(٣) البيان والإعراب (٤٩ – ٥٠) .

الإسلامية ، وبذا كان هذا الاندماج مشجعًا على تعريب أكثر البربر في المغرب»[١].

هذا وقد احتفظت بعض القبائل البربرية في المناطق المرتفعة التي لم تندمج تمامًا مع العرب احتفظت ببقايا من اللهجات البربرية تتكلم بها بجانب اللّغةالعربية .

وهكذا حققت العربية انتصارًا بلغ ذروته في اللّغات السامية وكثير من اللّغات الحامية فتعرب أهلها ولم تعد العربية خاصة بأبناء الجزيرة وحدهم واتسعت القومية العربية لتشمل الشام والعراق ومصر وبلاد المغرب وغيرها من الدول العربية المعروفة في زمننا هذا ، وقد أشرنا من قبل أن الفضل في ذلك يعود إلى الإسلام إذ وسّع القومية العربية وجعل منها انتماءًا لغويًا وليست قومية عرقية واستدللنا على ذ لك بالشرع والعقل والتاريخ[٢] .

أمَّا انتصارات العربية الأقل فهو اتخاذها في العصور الأولى لغة رسمية وعلمية وثقافية في بعض المناطق الهندأوربية في بلاد فارس وما وراءها وفي الأندلس مع تأثر تلك اللّغات بالعربية تأثرًا بالغًا ما زالت آثاره في لغاتهم لا سيما الفارسية والمالطية إذ العربية شطر مكونات لغتها الحالية .

وقبل أن نتحدث عن سيادة العربية في هذه المناطق وأثرها في لغاتها نود أن نذكر ما قاله الدكتور علي عبد الواحد وافي معللاً عدم تعرّب تلك المناطق كما حدث مع سابقاتها ، ومبينًا أسباب ذلك ، فقال : « إن قوانين اللغات تقرر أنه إذا نزح إلى البلد المغلوب على إثر فتح أو غزو جالية من أهل البلد الغالب تنطق بلغة غير لغة أهله ، فإن النصر لا يتم للّغة الشعب الغالب إلا بخمسة شروط : أحدها : أن يكون أرقى من المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأقوى منه سلطانًا ، وأوسع نفوذًا؛وثانيها: أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ؛ وثالثها : أن تقيم بصفة دائمة جالية يُعتدُّ بها من أفراده في بلاد الشعب المغلوب؛ ورابعها: أن تمتزج بأفراد هذا الشعب؛ وخامسها: أن تكون اللغتان من شعبه لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين تنتميان إلى فصيلة واحدة .

---

(١) علم اللّغة العربية (٢٨٤) .

(٢) ينظر ص (١٧٥) من هذا البحث .

وقد توافرت هذه الشروط جميعًا في حالة العربية مع الآرامية في بلاد الشام والعراق ومع القبطية في مصر والبربرية في المغرب ، فتغلبت العربية على هذه اللغات الثلاثة وأصبحت لغة الحديث والكتابة في جميع هذه المناطق ، وانقرضت الآرامية والقبطية والبربرية . غير أنه قد أفلت من هذا المصير بعض قرى في سورية ولبنان لا تزال تتكلم لهجات آرامية إلى العصر الحاضر ، وأفلت منه كذلك بعض عشائر في شمال أفريقيا لا تزال محتفظة بلهجاتها البربرية إلى الوقت الحاضر .

ولم تقو العربية على التغلب على الفارسية لاختلال كثير من الشروط السابقة . ولم تقو على التغلب على القوطية لاختلال الشرطين الرابع والخامس . ولم تقو على التغلب على التركية لاختلال الشروط الثلاثة الأخيرة »[١] .

وهذا لا يعني أن العربية لم تسد - في العصور الأولى - في تلك المناطق ولم تترك آثارًا واضحة في لغاتها ، بل سادت اللّغة العربية في تلك الأقاليم لغة رسمية وعلمية وثقافية ، واتخذت من قبل كثير من شعوبها لغة ثانية يتكلمون بها بجانب لغاتهم الأصلية ، وبعد أن خرجت العربية من تلك المناطق لظروف سياسية ، وعمدت أنظمتها السياسية إلى إحياء لغاتها تركت العربية بصماتها الواضحة على تلك اللغات فكان هذا التأثر مظهرًا من مظاهر السيادة ودليلاً عليها وإن كان بدرجة أقل لم تبلغ حد التعريب .

فالعربية هي اللّغة الرسمية العلمية في بلاد فارس في القرون الأربعة الأولى وهي لغة التعليم والتأليف عندهم .

هذا بالنسبة للّغة التي تكون في مجال العلم والدرس ، أما لغتهم الخاصة فقد ذكرالمقدسي أنها فارسية ولكنهامتأثرةٌ بالعربيةلأنهااحتلت حيزًا واسعًا من مفرداتهم وأشار إلى إجادة بعض أقاليمهم للغتين ، من ذلك ما جاء في وصفه للّغة إقليم

---

(١) قاله الدكتور علي عبد الواحد وافي في حاشية مقدمة ابن خلدون بتحقيقه ٢/٩٠١ (١١٧٠) .

خوزستان (الأهواز) : « وليس في أقاليم الأعاجم أفصح من لسانهم وكثيرًا ما يمزجون فارسيتهم بالعربية ويقولوا : أين كتاب وصلاكن ، وأين كار قطعاكن ، وأحسن ما تراهم يتكلمون بالفارسية حتى ينتقلون إلى العربية ، وإذا تكلموا بأحد اللسانين ظننت أنهم لا يحسنون الآخر »[(١)] .

وعندما قامت الدولة السلجوقية في القرن الخامس الهجري وأرادوا اتخاذ اللّغة الفارسية لغة رسمية وعلمية اعتمدوا على المصطلحات العربية حتى بلغت مفرداتها في لغتهم ٥٠٪ فنشأت فارسية إسلامية تختلف عن فارسية ما قبل الإسلام (اللّغة البهلوية) فظهرت الفارسية الدُّرية وهي ناجمة عن امتزاج البهلوية بالعربية وبعض اللهجات المحليّة[(٢)] ، واتخذوا في كتابتها الحروف العربية وذلك بعد أن أدخلوا عليها بعض الحروف لتفي بنطقهم وهي مشتقة من شكلها حتى لا تتنافر ، وهي : (پ : وتلفظ مثل p في اللاتينية ، چ : تْش ، كَ : ج مصرية ، ژ : ج لبنانية)[(٣)] .

ولم يقتصر تأثر الدرّية بالمفردات العربية بل امتد إلى بعض القواعد النحوية كالجمع بالألف والتاء (المؤنث السالم) ، ومن جهة الفنون النثرية فقد تأثروا بالأدب العربي ونقلوا كثيرًا من المصطلحات البلاغية وتأثر شعرهم بعلم العروض العربي في بحوره وأوزانه وقوافيه ونسجوا على منوالها بعد أن كانت أشعارهم أغاني مسجوعة ليست من الشعر الموزون ولا من النثر، ولكنها بين الشعر والنثر لا تعتمد العروض[(٤)].

وبسبب هذا التأثر باتت الفارسية وهي من اللّغات الهندأوربية أقرب إلى العربية من أي لغةٍ سامية، وأما في مجال الآداب فقد « أخذ المستشرقون حينما يقارنون بين الآداب ينظمون العربية والفارسية في سلك واحد » [(٥)]؛ لأن الفرس كما يقولون طلاب العرب الأوفياء .

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، للمقدسي (٣٢١) .

(٢) الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية (٢٢)، د. حسني ناعسة (مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٣٩٨هـ) .

(٣) الفارسية من غير معلم ، أحمد لواساني (٩) (دار العلم للملايين) .

(٤) ينظر في ذلك الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية ، ص (٤٣٠ إلى ٤٣٦) .

(٥) المرجع السابق (٤٢٧) .

وكذلك الحال بالنسبة لسيادة العربية في مناطق اللّغة القوطية في بلاد الأندلس إذ كانت العربية خلال الفتح الإسلامي لغة رسمية وعلمية وثقافية في تلك البلاد ، وقامت حلقة وصل بين الأجناس المختلفة فيها والمكوَّنة من القوط أصحاب البلاد الأصليين وبقايا الرومان ، وبعض العناصر اليهودية ، والبربر والعرب الفاتحين إذ كان لا بدّ لهؤلاء الفرقاء من التعايش فيما بينهم والدخول في علاقات اجتماعية (إنسانية واقتصادية) تنشأ عنها علاقات لغوية يسهل معها الاتصال بين أفراد المجتمع .

وقد ساعد العربية على تبوّء هذه المكانة عوامل دينية وسياسية معروفة ، كما ساعدها عامل حضاري ثقافي وذلك إثر النهضة العلمية والثقافية الواسعة التي حققها العرب بعد أن انفتحوا على حضارات الأمم السابقة (اليونان والسريان والفرس والهنود) وترجموا مؤلفاتها إلى العربية بعد تنقيحها والإضافة إليها ، ثم أنشئوا حضارة عربية إسلامية تفوّقت على تلك الحضارات مما حدا بالمثقفين والطلاب من تلك البلاد وغيرها إلى تعلم العربية حتى يحصِّلوا علوم عصرهم ، والتأليف بلغتها متى ما أرادوا لمؤلفاتهم الذيوع والانتشار .

ومع تضافر هذه العوامل بالإضافة إلى العامل الاجتماعي الذي أسهم في ظهور طبقة المولدين نتيجة المصاهرة بين العرب وأصحاب البلاد والذين أصبحوا من أكثر طبقات المجتمع في الأندلس[(١)] ، انتشرت العربية في تلك البلاد وكانت كما يقول الرافعي : « إنه لم يمض على الفتح ثلاثون سنة حتى أصبح الناس يخطون الكتب اللاتينية بأحرف عربية ، كما كان يفعل اليهود بكتبهم العبرية ، وما انقضى عمر رجل واحد حتى ألجأتهم الحاجة إلى ترجمة التوراة وقوانين الكنيسة إلى العربية ، ليتمكن رجال الدين أنفسهم من فهمها »[(٢)] .

ويظهر ذلك جلياً في شكوى بعض رؤساء الدين الغيورين على الأدب اللاتيني من انتشار العربية وسيادتها في الأندلس وإقبال المثقفين على التأليف بلغتها وإقبال

---

(١) ينظر كتاب : في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد مختار العبادي (١٢٠) (دار النهضة العربية).

(٢) تاريخ آداب العرب ، الرافعي ٣/٣٢٧ .

النشء على تعلمها ، فمن ذلك ما روى عن أحد الكتاب الاسبان حيث يقول : « إن أرباب الفطنة والتنوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها »[١] ، ومن ذلك أيضاً قول أحد رؤساء الدين عندهم : « إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ولا يفعلون ذلك لإدحاضها والرد عليها بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ، فأين اليوم من غير رجال الدين من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ وأسفاه إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدباً أو لغةً غير الأدب العربي واللّغة العربية . وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية في حين يسمعون بالكتب المسيحية فيأنفون الإصغاء إليها محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مئونة الالتفات ، فيا للأسى ! إن المسيحيين قد نسوا لغتهم فلن تجد منهم اليوم واحداً في كل ألف يكتب بها خطاباً إلى صديق أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب .. »[١] .

وقد استمرت سيادة العربية في الأندلس طوال فترة حكم المسلمين لها وتبلغ مدتها ثمانية قرون (٧١١م - ١٤٩٢م) ، وما أن خرج الإسلام والعرب من الأندلس حتى خرجت العربية منها وذلك إثر حملات دواوين التفتيش الكاثوليكية التي تتبعت العرب والمسلمين وطردتهم منها واعتبرت الحديث بالعربية في تلك البلاد ضرباً من الإلحاد ، ومع ذلك فقد تركت العربية آثاراً واضحة في اللّغة الاسبانية فقد روى «أنها تحتوي على أكثر من أربعة آلاف كلمة عربية عدا التعبيرات والصيغ العربية الموجودة في تلك اللّغة »[٢] .

وقل مثل ذلك في اللّغة التركية التي تحتوي على كثير من المفردات العربية والتي استعملت حروفها وأبجديتها فترة طويلة من الزمان ثم قامت حكوماتها العلمانية باستبدال الحروف اللاتينية بحروفها على يد مصطفى كمال (أتاتورك) (١٩٢٨م).

---

(١) نقلاً عن كتاب : أثر القرآن في العربية ، محمد عبد الوهاب حجازي (٢٤٢) .

(٢) ذكره الدكتور أحمد مختار العبادي في كتابه : في تاريخ المغرب والأندلس (١٧) .

وقد صدق يوهان فك إذ يقول : « إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساساً لهذه الحقيقة الثابتة ، وهي أنها قامت في جميع البلدان العربية ، وما عداها من الأقاليم الداخلة في المحيط الإسلامي ، رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية » (١).

ويبقى علينا أن نشير إلى أثر تلك الانتصارات وذلك الانتشار على اللّغة العربية نفسها إذ ليس من المعقول أن تحقق اللّغة العربية كل هذه الانتصارات وتسود على كثير من اللّغات فتصبح لغة قومية في كثير من المناطق خارج جزيرة العرب ، وتؤثّر في كثير من اللّغات فتقتبس حروفها وتنهل من مفرداتها وبعض قواعدها وآدابها كما حدث مع الفارسية ، ما كان ذلك ليحدث دون أن تتأثر العربية بتلك اللّغات – نتيجة الصراع اللّغوي – بشكل ما .

وكما كانت انتصارات العربية بدرجات متفاوتة بلغت في ذروتها التعريب وفي أدنى درجاتها التأثير ، كذلك كان تأثر العربية بصراعها اللّغوي مع تلك اللغات بدرجات متفاوتة آخذاً شكلين من أشكال التأثر ، أحدهما مقبول وبه تجري سنن اللّغات عندما يحدث بينها احتكاك أو صراع ويتمثل في الاقتراض أو ما يُعرف بالمعرّب والدخيل ، وعن طريقه دخلت كثير من الكلمات الفارسية والرومية والسريانية والحبشية وغيرها إلى اللّغة العربية ، غير أن هذا التأثر لا يشكل خطورة على العربية لأنه خضع في كثير من الأحيان إلى الغربلة والتهذيب ولم يؤخذ غفلاً كما هو في لغاتهم ، ولكنه عُرّب وأُصبغ بالصبغة العربية ليتماشى مع أوزانها وأصواتها ، فحولوا بعض الحروف إلى أقرب الحروف من مخارجها، وأبدلوا بعضها مكان بعض، وحذفوا بعضها نحو قولهم في شاهان شاه (شهنشاه) فحذفوا الألف ، وحركوا الساكن وسكنوا المتحرك وغير ذلك من التغيرات التي يقتضيها تعريب الأسماء

---

(١) العربية ، يوهان فك (٢٤٢) .

الأعجمية لتتماشى مع روح العربية وتوافق منهاجها ؛ بل أخذت بعضها حكم العربية واشتقوا منها ، ومع ذلك فقد أشاروا إلى أصولها الأعجمية ونصوا عليها في معاجمهم وعقدوا لبيانها الكتب ، منها : (شفاء الغليل في معرفة الدخيل للشهاب الخفاجي) ، وكتاب (المعرّب من الكلام الأعجمي للجواليقي) ، وبيّنوا لنا سبل معرفتها وذلك بأن تخالف أوزان الأسماء العربية وأبنيتها أو تتكون من خماسي أو رباعي خال من حروف الذلاقة أو تتآلف حروفها على نحو لا تجتمع في العربية كالقاف والجيم في كلمة أو الصاد والجيم وغيرها من الملاحظات التي سجلوها(١) .

وليس هذا الشكل من التأثير هو الذي نريده وإنما نريد الشكل الثاني والذي هدد سلامة اللّغة العربية واستدعى من علماء اللّغة جمعها وتقعيدها للحفاظ عليها من سيل الانحرافات اللّغوية التي ظهرت في ألسنة المتحدثين بها من غير أهلها ثم لم تلبث أن انتقلت إلى أهلها إثر العلاقات الاجتماعية التي نشأت بين العرب والأمم الأخرى والمتمثلة في المصاهرة والتجارة والزراعة وفي نطاق المنازل اتخاذ الجواري والعبيد والخدم لإدارتها ، ففسدت السليقة اللّغوية ، كما يقول ابن خلدون : « بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم ، والسمع أبو الملكات اللسانية ، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع »(٢) .

فقد أثّر انتشار العربية في مناطق لغوية مختلفة في سلامتها فأصابتها بعض الشوائب نتيجة لتأثرها في ألسنة متحدثيها في تلك المناطق بلغاتهم ، فتعسّر عليهم النطق ببعض الحروف حتى إن المتحدّث منهم بالفصحى يُعلم من كلامه ومخارج حروفه أنه نبطي أو فارسي أو زنجي(٣) ، ثم أهملوا الإعراب ؛ لأنهم لم يعهدوه في لغاتهم فهو مما تختص به العربية ، وقد رُوي أن فساد اللّغة استبان في ترك التصرف الإعرابي للتعبير عن المعاني . ثم استعملوا كثيرًا من كلام العرب في غير

---

(١) ينظر في ذلك ما عقده السيوطي في النوع التاسع عشر (معرفة المعرَّب) ٢٦٨/١ . وينظر ص ٣١٩ من بحثنا .

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٢٦٥/٣ .

(٣) ينظر : البيان والتبيين للجاحظ ٥١/١ .

موضعه أو تساهلوا في اختيار الألفاظ ، من ذلك ما رواه الجاحظ عن عبيدالله بن زياد وهو عربي الأصل فارسي النشأة قال : « وكان قال مرة : (افتحوا سيوفكم) يريد : سلوا سيوفكم ، فقال يزيد ابن مفرغ :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكلّ أمرك للضياع »[١] .

فهذه الشوائب كما ترى انتقلت إلى أبناء العرب الذين نشئوا في تلك البيئات ، ثم أعقبت فساداً لغوياً لم يلبث أن انتقل إلى الجزيرة العربية نفسها فظهر ما يعرف باللحن ، كما ظهرت على الساحة لغة أطلقوا عليها اسم (اللّغة المولدة) ، وهي كما يتضح من اسمها تدين في نشوئها إلى حديث المولدين والمتعربين باللّغة الفصحى أو أنها اللّغة العربية بعد تأثرها باللّغات الأخرى ، وإلى هذا ذهب يوهان فك عندما بيّن طبيعتها حيث يقول :

« والطبيعة الحقيقية للعربية المولدة ، والفرق الخاص الذي يميِّزها تجاه العربية الفصحى ، إنما يقوم على تغير في تكوينها يُعدّ ترك التصرف الإعرابي من أماراته الظاهرة . وبهذا نهجت العربية المولدة منهجاً اجتازته جميع اللّغات السامية الأخرى قبل ذلك بكثير . وهذا لا يدل على أن ذلك التطور يرجع إلى أسباب عربية داخلية بحتة ؛ فإن الحقيقة الثابتة من أن التصرف الإعرابي عاش قروناً طويلة في لغة البادية ، ولا يزال ماثلاً في بعض بقاياها إلى هذا اليوم ، تدل بوضوح على خلاف ذلك الاحتمال ، بل أقرب من هذا أن نلتمس سبب هذه الظاهرة من أن لهجات تلك الشعوب ، التي اتخذت لغة السادة العرب لساناً لها - نتيجة للفتوحات العربية - كانت من النوع التحليلي الذي تُرِك فيه الإعراب بالعلامات كثيراً أو قليلاً ، ومهما يكن من أمر ، فإنا نرى في مصادرنا ، إلى جانب التعبير الخاطئ في الأصوات العربية ، إهمال حالات الإعراب ، وتصريف الأفعال ، أمارة بارزة للّغة العربية على لسان غير العرب من سكان الدولة جميعاً »[٢].

هذا وقد أخذت العربية تصطبغ في كلِّ إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية بلون

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٦٧ .

(٢) العربية ، يوهان نك (١١٣ - ١١٤) .

خاص يختلف عن الإقليم الآخر تبعًا لأثر الصراع الذي خاضته مع لغاته القديمة فانعكس على كيفية خاصة في النطق ببعض الأصوات واستعمال الصيغ ، وقواعد التركيب ، والثروة اللفظية بحيث أمكن تمييز الشامي من العراقي والمصري من المغربي أو الأندلسي تمييزًا لغويًا ، هذا بالنسبة للهجات الخاصة (الإقليمية) التي طغت على لغة الخطاب اليومي .

وقد تم علاجة هذه المشكلات والآثار الناجمة عن سيادة العربية في مناطق لغوية مختلفة من خلال جمع اللّغة وتقعيدها وقد مرّ بنا في السبب الرابع وهو الحفاظ على العربية ودفع اللحن[١] . وقد رأينا أن الدافع الديني كان من وراء جميع الأسباب التي أدت إلى جمعها وتقعيدها وهو ما حافظ على سلامة الفصحى فبقيت - بفضل القرآن - لغة موحدة في جميع الأقاليم الإسلامية تستعمل من قبل أهل العلم والمثقفين في مجال الدرس والعلم والأدب ، فتحقق لها بذلك الانتشار ولم تضرّها الشوائب والآثار لأنها اقتصرت على اللهجات الخاصة واللغات العاميّة مع العلم أنها لغات عربية مولّدة في حين كان أكثرها من قبل غير عربي(آرامي ، قبطي، بربري ، وغير ذلك).

(١) ينظر ص (٢٤٩) في بحثنا هذا .

سادساً - التسامي إلى المثل الأعلى والنموذج الموحد في اتباع لغة القرآن :

لقد ذكرنا في ثنايا دراستنا أن الجزيرة العربية قبل مجيء الإسلام ونزول القرآن كانت تضم لهجات متعددة تختلف فيما بينها بدرجات متفاوتة ، وأن اللّغة العربية لم تكن موحدة توحيداً تاماً على جميع الأصعدة (الخاصة والعامة) وإنما كانت لغات في ألسنة أهلها تعتمد على الطبع والقريحة دون أن يكون لهم أصولٌ يراجعونها ، وقوانين يعتصمون بها ، أو مثلٌ أعلى يتسنى مع وجوده عرض ظواهرها عليه وقياس مدى توافقها واختلافها معه ، خاصة وأن الشعر الجاهلي الموحد لم يكن كافيًا – وحده – للقيام بهذه المهمة لأنه ترتكب فيه الضرورات وتتعدد فيه الروايات فقد جاء عن ابن هشام في شرح الشواهد قوله : « كانت العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فُطِر عليها ، ومن هنا كثرت الروايات في بعض الأبيات » [١].

وهذا يدل على أنه كان يتأثر في ألسنة العامة بخصائص لهجاتهم لأن القدرة على اللّغة الأدبية الموحدة تكاد تنحصر في طبقة المثقفين أو كما يقول إبراهيم أنيس: « كانت الثقافة اللّغوية في الجاهلية مقصورة على أولئك الذين شهدوا مجالس الخطابة والشعر ، وهم الخاصة من الناس »[٢] .

وهذا لا يعني عدم أهميته في توحيد اللّغة التي ظهرت بوادرها في العصر الجاهلي متمثلة في لغة الآثار الأدبية والتي كان الشعر من أبرزها ، فقد ذكرنا أن الوحدة اللغوية بدأت في العصر الجاهلي نتيجةً لتضافر عدَّة عوامل من بينها العامل الأدبي ، ولكن تبقى اللغة مع فقد الأصول والقوانين أو المثل الأعلى عرضة للتغير والاختلاف خاصة إذا اعتمدت على الطبع والقريحة ولم يتوفر لأجيالها الحافز القوي الذي يعمل على استبقائها والمحافظة عليها وهو ما وفَّره بعد ذلك نزول القرآن بلغتها الأدبية الموحدة .

فالفطرة اللغوية أو القريحة عند العرب لا يمكن التعويل عليها – مع أهميتها –

---

(١) نقلاً عن المزهر ٢٦١/١ .

(٢) في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس (٤١) .

لأنها عرضةٌ للتغير ؛ ليس الفردي بل الجماعي أيضًا بدليل أن الجزيرة العربية كانت موطنًا لعدّة لغات مثل : المعينية ، والسبئية ، والقتبانية ، والحضرمية ، والحميرية (القديمة) في الجنوب ، واللحيانية ، والثمودية ، والصفوية البائدة في الشمال .

وإذا كانت هذه اللغات قد بادت وانقرضت وتوحدت مع لغة الشمال العربية الباقية بعد أن انتشرت في مناطقها اللغوية فإن ذلك لا ينفي أنها كانت موجودة ويُتكلم بها في جزيرة العرب ، بل إن عربية الشمال (الباقية) قد تعرضت للتغير والاختلاف فانقسمت إلى لهجات مختلفة بالرغم من وجود تلك العوامل التي قاربت بينها قبل الإسلام ، فظهرت الحميرية الجديدة في الجنوب وهي كما ذكرنا ليست في حقيقتها سوى عربية الشمال بعد تأثرها في ألسنة أهل اليمن بلهجاتهم القديمة[١] ، ومع ذلك قال عنها أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا »[٢] ، وظهرت في الشمال اللهجات الحجازية والنجدية ثم انقسمت فيما بينها حتى أصبح لكل قبيلة لهجة فقالوا : لغة هذيل وهوازن وأسد وتميم وقريش وقيس وطيئ ، وقد مرّ بك قول الجاحظ : « فقد تخالفت عليا تميم وسفلى قيس وعجز هوازن وفصحاء الحجاز في اللّغة وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير وسكان مخاليف اليمن »[٣] .

أقول وعند نزول القرآن باللّغة الأدبية التي نمت قبيل الإسلام على أيدي المثقفين والتي كانت بين يدي التطور في طريق الوحدة التي لمّا تستقر على أكمل الوجوه ، قدم بنزوله المثل الأعلى والنموذج الموحد الذي توقفت عنده المغامرات الخاصة في سبيل صناعة اللّغة الموحدة ؛ لأنه أصبح فيها الغاية والمنتهى وما على طالبي الوحدة اللّغوية إلا متابعة لغته والسير على اختياراته ، فقوّى بنزوله الوحدة اللغوية وأرسى دعائمها على العالي والفصيح من اللّغات وزاد في شمولها ونشرها بين جميع العرب (الخاصة والعامة) « لأن الرغبة الدينية ، وقوة الشعور الديني – كما يقول إبراهيم أنيس – قد دعا كثيرًا من العامة إلى تفهم الكتاب الكريم والتعبد به »[٤].

---

(١) ينظر (٢٢) من بحثنا .

(٢) طبقات الشعراء ، ابن سلام (١٢) .

(٣) راجع (٤٥) من بحثنا .

(٤) في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس (٤١) .

ومن هنا قامت لغة القرآن مثلاً أعلى لجميع اللهجات العربية المختلفة فأخذت تعرض خصائصها عليه وتقيس مدى توافقها واختلافها مع لغته إيمانًا من أصحابها بأن لغته هي غاية ما يبلغه الكمال في الوحدة والفصاحة اللّغوية ، وبدأت اللهجات -كما يقول ولفنسون - : « تتبلبل وتضطرب وتنجذب بقوة إلى لغة القرآن حتى اندمجت كلها في لهجته التي هي لهجة الحجاز كما كان ينطقها خاصة أهل مكة»[١]، وبات الخلاف بين اللهجات العربية بفضل وجود المثل الأعلى الذي أصبح بمثابة أصولٍ تقاس عليها بات الخلافُ بينها - كما يقول ابن جني- : « محتقرًا غير محتفل به ولا مَعِيج عليه ، وإنما هو في شيء من الفروع يسير . فأمّا الأصول وما عليه الجمهور فلا خلاف فيه ولا مذهب للطاعن به »[٢] .

وقد أشار سيبويه إلى هذا التوجه الجديد من قبل أصحاب اللهجات العربية المختلفة في اتباع لغة القرآن وهجر ما يخالفها في لغاتهم الخاصة وذلك في حديثه عن إعمال (ما) عمل (ليس) فقال : « ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ما هذا بشرًا ﴾ في لغة أهل الحجاز ، وبنو تميم يرفعونها (أي خبرها) إلا من درى كيف هي في المصحف » [٣].

فلغة القرآن - كما يشير سيبويه - متبعة عند العرب ؛ فتميم التي لا تعمل (ما) في شيء حسب قواعد لهجتها ، متى عرفت أن لغة القرآن قد أعملتها فنصبت بها الخبر ، تركت تميم ما عليه لهجتها واتبعت لغة القرآن .

وقد عزز هذا التوجه من قبل العرب مواكبة العلماء والنقاد لهم في اتخاذ لغة القرآن مثلاً أعلى في اللّغة العربية من جهة ألفاظه ومعانيه وتراكيبه وأساليبه واختياراته اللّغوية ، فكان الحكم على صحة القاعدة والاستنتاج . وسلامة الاستخدام اللّغوي وفصاحة القول يحتجون به ويستدلون بآياته ، فظل على مدى التاريخ مثلاً أعلى للعربية تقتدي بلغته وتنهل من اختياراته ، ونظرة خاطفة على بعض ما جاء في هذا الشأن في بعض كتب العربية وأقوال العلماء فيها كفيلة لإثبات ذلك .

---

(١) تاريخ اللّغات السامية ، أ. ولفنسون (٢١٥) .

(٢) الخصائص ٢٤٤/١ .

(٣) الكتاب ٥٩/١ وانظر في بحثنا (٢٢٩) .

١ - اعتمادهم على ألفاظه :

قال الراغب الأصفهاني في كتاب (المفردات) : « ألفاظ القرآن الكريم هي لب كلام العرب وزبدته وواسطته وكرائمه ، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم ، وما عداها ، وما عدا الألفاظ المتفرعات عنها ، والمنتقاة منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة ، وكالحثالة والتبن بالنسبة إلى لبوب الحنطة .. » (١).

وتكمن أهمية هذا الجانب في المحافظة على ألفاظه أكثر دورانًا في ألسنة العرب في حين تستقل كل قبيلة بمجموعة من الألفاظ قد تخفى معانيها على غيرهم .

٢ - متابعة لغته والسير على اختياراته :

إن لغة القرآن هي اختياراته اللغوية ، فهو – وإن نزل أكثره بلغة قريش – له اختياراتٌ لغويةٌ من سائر اللهجات العربية تميزت بها لغته وحاول المجتمع (عربًا وعلماء) اتباعها ؛ لأنه كما يقول ابن خالويه : « قد أجمع الناس جميعًا أن اللّغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن ، لا خلاف في ذلك »(٢) .

ومن صور اختيارات لغة القرآن ما يلي :

أ – اختيار من متعدد ، كأن يكون في الكلمة لغتان فأكثر ، فيأتي القرآن بأحدها من ذلك ما حُكي في صداق المرأة (صَداق ، صِداق ، صَدُقة ، و صَدْقة) قال ابن درستويه : « أما الصَدُقة ، بضم الدال ، فهو لفظ القرآن ، قال اللّه عزوجل : ﴿ وآتوا النساء صَدُقاتِهن نِحْلَةً ﴾ (٣) ويجب أن يكون ذلك المختار »(٤) ، ومثاله في التصريف ، قول القرطبي في تفسيره : « عثى يعثى عثيا ، وعثى يعثو عثوا ، وعاث يعيث عيثًا وعيوثًا ومعاثًا والأول لغة القرآن »(٥)، وقد يأتي القرآن باللّغتين على قلّة في

---

(١) المفردات في غريب القرآن (١٠) الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني (ط دار المعرفة ، بيروت).

(٢) نقلاً عن المزهر ٢١٣/١ .

(٣) سورة النساء : ٤ .

(٤) تصحيح الفصيح وشرحه ، لابن درستويه (٢٦٧) .

(٥) ٤٢١/١ .

إحداهما وكثرةٍ في الأخرى كمجيئه بالفك – غالبًا – والإدغام [١].

ب – اختياره بعض المفردات والمصادر والظواهر اللهجية الخاصة وتعميمها ، أما المفردات فكثيرة ومثال المصادر (فِعَّال مصدر فعَّلت) وهو مصدر من لغة اليمن، ومثال الظواهر الهمز والتوافق الحركي في نحو بِهِ وعليه المختار من تميم ، وسنفرد لهذا النوع ما يليق به في مظاهر الوحدة اللّغوية[٢] .

جـ – اختيارات في مجال استعمال اللّغة والتمييز بين بعض مفرداتها أو تحديد استخدامها، واستخدم مفردات دون جمعها، وصرف بعضها إلى عدّة معاني.

فمن استعمالاته مثلاً استعماله الفعل (كاد) من أفعال المقاربة غير مقرن الخبر بأن وفي غيره جاء اقتران خبره بها إلا أن قاعدته بُنيت على الأكثر الذي يعتقد أصحابه أنه منهج لغة القرآن ، قال ابن مالك : « والصحيح جواز وقوعه ، إلا أن وقوعه غير مقرون بـ (أن) أكثر وأشهر من وقوعه مقرونًا بـ (أن) ولذلك لم يقع في القرآن إلا غير مقرون بـ (أن) » .

وعليه منع المتشددون استعماله مقرونًا بـ (أن) ، قال ابن قتيبة : « وتقول : (كاد فلان يفعل كذا) ولا تقول : (كاد أن يفعل كذا) ، قال تعالى : ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ [٣]، وقد جاء في الشعر وهو قليل ، قال الشاعر :

* قد كاد من طول البلى أن يمصحا * [٤]

وقد أثبت ابن مالك مجيئه في غير الضرورة في الحديث الشريف ، بل زعم اطراده في الكلام ، وبيَّن أن سِرَّ أخذه لهذا الحكم هو استعمال القرآن فقال : « ولا يمنع عدم وقوعه في القرآن مقرونًا بـ (أن) من استعماله قياسًا

---

(١) نقل السيوطي في الإتقان ٢٨٧/١ عن الشيخ جمال الدين بن مالك قوله : (أنزل الله القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلاً ، فإنه نزل بلغة التميميين كالإدغام في : من يشاقّ ، وفي : من يرتد منكم عن دينه، فإن إدغام المجزوم لغة تميم ، ولهذا قلّ : والفك بلغة الحجاز ولهذا كثر) . وينظر أيضًا : في اللهجات العربية ، د . إبراهيم أنيس (٧٣) .

(٢) ينظر (٣٢٤) .

(٣) سورة البقرة : ٧١ .

(٤) أدب الكاتب لابن قتيبة ٣٢٣ .

ولو لم يرد سماع »[١] قال ذلك معترضًا على النحاة مدعيًا خفاءه عليهم [٢]، وما ذلك إلا لأن الشيخ إمام مجتهد التزم منهجًا متفردًا عابه عليه أبو حيان لأخذه فيه بالحديث المنقول بالمعنى ونقله اللّغة عن لخم وخزاعة وقضاعة قال: « وليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن »[٣].

ومن أمثلة تمييزه بين مفرداتها أو تحديد استخدامها ما ذكره الثعالبي قال : « لم يأت لفظ الرِّيح في القرآن إلا في الشَّر ، والرياح إلا في الخير ... ولم يأت لفظ الإمطار في القرآن إلا للعذاب » [٤] ، وكذلك قول الجاحظ : « إن اللّه تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة . وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام . والعامّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث . ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين. ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين . ولا السمع أسماعا ، والجاري على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال . وقد زعم بعض القرَّاء أنه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج »[٥] .

وأمثلة صرفه بعض المفردات إلى عدّة معانٍ كثيرة وقد جعلها بعضهم من أنواع معجزات القرآن فالهدى جاء على سبعةَ عشرَ وجهًا في القرآن وكذلك الفتنة وردت على عدّة أوجه منها الشرك والقتل والصد والقضاء والإثم والعبرة ، وكذلك الصلاة

---

(١) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، ابن مالك (٩٨) .

(٢) ينظر شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح ، ابن مالك ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي (البحث ٣٥ ص ٩٨) (دار الكتب العلمية – الباز) .

(٣) الاقتراح ٤٠ – ٤٥ نقله عن كتاب (شرح التسهيل) .

(٤) فقه اللغة وسر العربية (٣٣٠ ، ٣٧٥) .

(٥) البيان والتبيين ١/١٨ .

والرحمة وردت بغير معنى[١] . ويدخل في ذلك استخدامه بعض حروف المعاني مكان بعض .

هذه هي أبرز صوراختيارات القرآن التي تميّزت بها لغته بشكل عام متجاوزين عن نظمه المتفرد وأسلوبه ، كما أننا لم نستقص لغته وإنما ضربنا بعض الأمثلة لاختياراتها التي كانت مثلاً أعلى سعى العرب والعلماء إلى اتباعها ، بل زعم بعضهم أن العرب امتنعت عن الزيادة في اللّغة لأجل القرآن ، فجاء في الفهرست : « ولم يزل ولد إسماعيل على مرّ الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ، ويضعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها . فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح في العدنانية وكثر هذا بعد معد بن عدنان ولكلّ قبيلة من قبائل العرب لغة تنفرد بها ويؤخذ عنها وقد اشتركوا في الأصل . قال : وإن الزيادة في اللّغة ، امتنع العرب منها مُذ بعث اللّه نبيه عليه السلام لأجل القرآن »[٢] ، وتكمن أهمية النَّص في أن القرآن عمل على جمع القبائل على لغته التي نزل بها ، وعبَّر عن توجههم إلى اتباع لغته ، فتوقفوا عن الزيادة في اللّغة ، فالنص يصور المزاج العام والتوجه ، أمّا حقيقة التطور والزيادة فقد حدث ، لا شك في ذلك .

٣ - احتجاجهم بالقرآن واحتكامهم إليه :

سبق أن ألمحنا في جمع اللّغة إلى احتجاجهم بالقرآن من جهة أثره في توحيد اللّغة بشكل عام[٣] ، ولإكمال ما بدأناه نقول إن الاحتجاج بالقرآن هو أحد طرق التسامي إلى المثل الأعلى لأن الاحتجاجَ يعني الاستدلال وهو طلب الدليل ، ويكون لإثبات الصحَّة أو للمتابعة والاقتداء ومع كليهما يتحقق التسامي ومن ثم التوحد .

فالقرآن الكريم هو المصدرالأوَّل والأهم من بين المصادرالتي اعتمدعليها العلماء واحتجوا بها في إثبات اللّغةوبناء قواعدها ،بل يرون أنه الأقوى والأصح على الإطلاق، كما دلّ على ذلك قول الفراء : « والكتاب أعرب وأقوى في الحُجَّةِ من الشعر »[٤].

---

(١) ينظر أمثلة ذلك في الاتقان للسيوطي ٢٩٩/٢ وما بعدها (النوع ٣٩) .

(٢) الفهرست لابن النديم (١٢) .

(٣) ينظر (٢٠٦) من بحثنا .

(٤) معاني القرآن ، الفراء ١٤/١ .

هذا بالنسبة للقرآن كنص شمولي ، أما بالنسبة للقراءات المتعددة فقد بين السيوطي موقف العلماء منها فقال في الاستدلال بالقرآن : « أما القرآن فكل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترًا أم آحادًا أم شاذًا ، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسًا معروفًا ، بل لو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه وإن لم يَجُزِ القياس عليه؛ كما يحتجُّ بالمجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ، ولا يقاس عليه، نحو: (استحوذ) و (يَأْبَى)، وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشاذة لا أعلمُ فيه خلافًا بين النحاة »[1] ، ثم نبّه إلى أنّ بعض القدماء رَدّ بعض القراءات ولم يأخذ بها بل نسبها إلى اللحن وقال إنهم مخطئون لأن قراءة بعضهم ثابتة (وهم من القراء السبعة : عاصم ، وحمزة ، وابن عامر) وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية ، وذكر أن من بعدهم ردّ عليهم وهو ابن مالك فتم تدارك الخطأ من الناحية التاريخية فاستقام له ما حكم به أوّلاً[2] .

وهذا الذي ذكره السيوطي يُحمد في الشِّق الذي لا يعبر عن اختلاف اللهجات من القراءات – بل أحمله عليه – أما الأخذ بما يعبر عن اللهجات مع عدم اختيار إحداها أو تقديمها على الأخرى ثم تقعيد اللّغة على جميعها – كما قد يوهم النص – فإن ذلك لا يخدم تقعيد اللّغة بشكل من الأشكال ، ولا يتحقق معه توحيدها ، بل إنَّ أحدًا لم يزعم ذلك لأن الكوفيين الذين اشتهروا بالأخذ بالقراءات قد ردوا بعضها ولم يبنوا قواعدهم عليها فرد الفراء قراءة شاذة للحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ قرأ بوضع الواو في الشياطين ، قال : « وجاء عن الحسن الشياطون) ، وكأنه من غلط الشيخ ، ظن أنه بمنزلة المسلمين والمسلمون » [3].

وكان سيبويه يرجح بين هذا النوع من القراءات إذا عرضت له في مسألة ما ويصف إحداها بأنها الأجود ، كقوله : « ومثل ذلك قوله تعالى : (وأمَّا ثمُودُ فَهَدَيْنَاهُم) وإنما حسن أن يبنى الفعل على الاسم حيث كان معملاً في المضمر

---

(١) الاقتراح للسيوطي (٣٦) .

(٢) ينظر المرجع السابق (٣٧) .

(٣) معاني القرآن للفرّاء ٢/٢٨٥ .

وشغلتهُ به ولولا ذلك لم يحسن لأنك لم تشغله بشيء .. وقد قرأ بعضهم : (وأمَّا ثَمودَ فهديناهمُ) .. والنصب عربي كثير والرفع أجود »[١] ، وهو مع ذلك يرى أن القراءة سنة متبعة ، فيقول : « وقد قرأ بعضهم : (وأما ثمودَ فهديناهمُ) إلا أن القراءة لا تخالف لأن القراءة سنة »[٢] ويظهر من هذا أن الترجيح كان لغرض النحو وبناء قواعده ، أما القراءة فهي سنة لا يؤخذ فيها بالأفشى في اللّغة والأقيس في العربية وإنما الأثبت في الأثر والأصح في النقل . وكان القدماء يتعاملون مع هذا النوع من القراءات باعتبارها تمثل لغة أهلها فيحكمون على اللّغة التي جاءت بها القراءة لا على القراءة نفسها[٣] . وأرى أن هذا السلوك من قبل القدماء من النحاة هو إتمام لعمل عثمان الذي جمع الأمة على حرف واحد ، فأخذ النحاة يستبعدون القراءات التي جاءت باللّغات الخاصة القليلة أو الضعيفة لأن القراءة بها وبالأحرف السبعة من قبلها لم يكن إلا تخفيفًا على أهلها وأن الأصل في نزول القرآن كان بلغة قريش الفصحى بدليل أن عثمان كان يقول للثلاثة القرشيين : إذا اختلفتم وزيد في شيء فاكتبوه بلغة قريش فإنما نزل بلسانهم ، ودل على هذا التصور عند النحاة، رفض ابن قتيبة قراءة المتأخرين بجميع وجوه القراءات في حين أجازه للمتقدمين لأنهم كما يرى قرءوا بلغاتهم وما جرت عليه عادتهم « أما نحن معشر المتكلفين فقد جمعنا الله بحسن اختيار السلف لنا على مصحف هو آخر العرض ، وليس لنا أن نعدوه .. »[٤] .

أما الخطأ الذي ذكر السيوطي أن بعض القدماء وقع فيه بعدم أخذهم بعض القراءات فكان في الشِّق الذي لا يعبِّر عن اللّغات بل يدخل في المعاني وجواز

---

(١) الكتاب ١/٤١ ، ٤٢ بولاق .

(٢) المرجع السابق ١/٧٤ .

(٣) أقصد سيبويه وما فوقه من البصريين ، وقد كان سيبويه يحمل بعض القراءات المخالفة لسواد المصحف على اللّغات نحو (وأما قول بعضهم في القراءة : (إنّ الله نِعِمّا يعظكم به) فحرك العين فليس على لغة من قال : (نِعْمَ) فأسكن العين ، ولكنه على لغة من قال : (نِعِم) فحرك العين ، وحدثنا أبو الخطاب أنها لغة هذيل وكسروا ، كما قالوا (لِعِبُ) ، الكتاب ٢/٤٠٨ بولاق .

(٤) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة (٤٢) .

الاستعمال[١] ، ولهذا اتهموا عند من أنكر عليهم بأنهم حاولوا صرف بعض ما لم يتفق مع أقيستهم النظرية عن وجهه وأوّلوه . فقال ابن حزم في الفصل : « ومن النحاة من ينتزع من المقدار الذي يقف عليه من كلام العرب حكمًا لفظيًا ويتخذه مذهبًا ، ثم تعرض له آية على خلاف ذلك الحكم فيأخذ في صرف الآية عن وجهها ، وقال في موضع آخر : « وجعل يصرفه عن وجهه ويحرفه عن موضعه ويتحيَّل في إحالته عما أوقعه الله عليه »[٢] .

وهؤلاء ليسوا في الحقيقة من القدماء كما قال السيوطي بل من متأخريّ نحاة البصرة من الذين أغرتهم الأقيسة العقلية وأخطئوا بربطهم بين القراءة ومعرفة قواعد العربية المستخرجة على الكثرة ، فلم يفهموا أن القراءة سنة متبعة كما فهم إمامهم سيبويه ، يظهر ذلك من قول المازني(ت : ٢٤٩) :« إن نافعًا لم يدرِ ما العربية »[٣] ، وكذلك قول أبي حاتم السجستاني (ت : ٢٤٨) في قراءةٍ لحمزة : « إن هذا لحن لا تحل القراءة به ولا يُسْمَعُ لمن عَرَفَ الإعراب أو عُرِّفه »[٤] .

هذا وقد كانت اعتراضاتُهم على بعض ماجاءت به القراءات في مسائل محدودة وبصورة ضيِّقة لا يجوز اعتبارها ظاهرة عامة كما تخيلَّها بعض المحدثين ، إذن لخلت من الاحتجاج بالقرآن وقراءاته كتب النحو البصرية ، وهو أمر ينفيه أكثر البصريين طعنًا على القرَّاء وهو المازني الذي كان يقول : « أصحاب القرآن فيهم تخليط وضعف »[٥] ، فقد رفض تعليم الكتاب ليهودي أجزل له العطاء لكثرة ما به من آيات ، بل جعل إقراءه إقراءً لكتاب الله ، جاء في معجم الأدباء : « وقد روى عن المبرد أن يهوديًا بذل للمازني مائة دينار ليقرئه (كتاب سيبويه) فامتنع من ذلك ، فقيل له : لم امتنعت مع حاجتك وعائلتك ؟ فقال : إن في كتاب سيبويه كذا وكذا آية من كتاب الله ، فكرهت أن أقرئ كتاب الله للذمّة »[٦].

---

(١) اختلاف القراءات كما يرى ابن الجزري لا يخلو من ثلاثة أحوال ، جعلناها في شقين : لغات ، والشق الآخر معاني واستعمال . ينظر : النشر ٤٩/١ – ٥٠ .

(٢) بواسطة الأصول لسعيد الأفغاني ٣٢ .

(٣) المنصف ، شرح ابن جني لكتاب التصريف للمازني ٣٠٧/١ ، تحقيق : إبراهيم مصطفى وعبدالملك الأمين ، مطبعة الحلبي ١٣٧٣هـ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١٩٢/٢ ، تحقيق : زهير غازي زاهد ، ط ٢ ، عالم الكتب ، بيروت .

(٥) معجم الأدباء ، ياقوت ٧٦٣/١ .

(٦) المرجع السابق ٧٥٩/١ .

واعلم أن ما رفض بعض البصريين الاحتجاج به مما جاءت به القراءات السبع الثابتة – لما ذكرناه – كان موضع احتجاج عند الكوفيين وكانت مسائله مما تفوقت فيها مدرسة الكوفة على البصرة لمجيء القرآن بها رغم تفوق البصرة العام ، وذلك عندما أخذ بها المتأخرون وخطّئوا من ردها . من ذلك مثلاً ما ذكر السيوطي أنهم ردوه :

١ – لا يجيز البصريون العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الجار واعتمدوا في ذلك على قياس عقلي وأولوا ما جاء في قراءة حمزة أوردوها كما زعم السيوطي .

أما الكوفيون فقد أجازوه واحتجوا بقراءة حمزة الزيات : (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ) ، ثم جاء من بعدهم ابن مالك فرجّح في هذه المسألة مذهب الكوفيين وبيّن ضعف احتجاج المانعين وهو تشبيه ضمير الجر بالتنوين واشتراط حلول المعطوف والمعطوف عليه أحدهما مكان الآخر وإمكانية حدوثه ، واحتج بقراءة حمزة وغيرها[١] .

٢ – وهّى البصريون قراءة ابن عامر : (وكذلك زيّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائِهِم) بنصب (أولادَهم) وجر (شركائِهِم) لأنهم لا يجيزون الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف والجار والمجرور معتمدين في ذلك على العقل حيث يرون أن المضاف والمضاف إليه بمثابة الشيء الواحد فلا يجوز الفصل بينهما بغير الجار والمجرور والظرف .

أما الكوفيون فقد أخذوا بقراءة ابن عامر واحتجُّوا بها في جواز الفصل بين المتضايفين[٢] ، وقد أشار سعيد الأفغاني إلى أن البصريين قد نقضوا حجتهم في اعتبار المضاف والمضاف إليه شيئًا واحدًا ؛ إذ اعترضوا على الكوفيين عند أخذهم بهذا المبدأ في ترخيم المضاف إليه وقالوا : لو كان معتبرًا لوجب أن يؤثر النداء في المضاف إليه البناء كما يؤثر في المفرد . فلما لم يؤثر النداء فيه البناء دلَّ على فساد

---

(١) قارن بين الإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري ٤٦٣/٢ وبين شواهد التوضيح والتصحيح لابن مالك (٥٣) .

(٢) ينظر : الإنصاف ٤٢٧/٢ .

ما ذهبتم إليه ، فردوا بذلك على أنفسهم[١] .

٣ - لا يجيز البصريون سكون لام الأمر بعد (ثمَّ) لأنها كلمة يوقف عليها ، ولم يأخذوا بقراءة حمزة : (ثمَّ لْيَقطع فلْينظر هل يذهبنّ كيده ما يغيظ) . وقد أجازه الكوفيون محتجين بقراءة حمزة وأكثر القراء غير أبي عمرو وابن عامر فهي عندهم بالكسر .

وقد وجدت ابن هشام يجيزها في غير الضرورة معتمداً على قراءة الكوفيين قال : « وقد تسكن بعد (ثَمّ) نحو : (ثمَّ لْيَقضوا) في قراءة الكوفيين وقالون والبزي ، وفي ذلك رد على من قال : إنه خاص بالشعر »[٢] .

وخير ما قيل عن الاحتجاج بالقرآن وقراءاته عند البصريين ما قاله شوقي ضيف في كتابه المدارس النحوية : « وكان القرآن الكريم وقراءاته مدداً لا ينضب لقواعدهم ، وتوقف نفر منهم إزاء أحرف قليلة في القراءات لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، وجدوها لا تطرد مع قواعدهم ، في حين تطرد معها قراءات أخرى آثروها ، وتوسع في وصف ذلك بعض المعاصرين ، فقالوا إنهم كانوا يردون بعض القراءات ويضعفونها ، كأن ذلك كان ظاهرة عامة عند نحاة البصرة مع أنه لا يوجد في كتاب سيبويه نصوص صريحة مختلفة تشهد لهذه التهمة الكبيرة . وسنرى الأخفش الأوسط يسبق الكوفيين المتأخرين إلى التمسك بشواذ القراءات والاستدلال عليها من كلام العرب وأشعارهم . وفي الحق أن بصريي القرن الثالث هم الذين طعنوا في بعض القراءات ، وهي أمثلة قليلة لا يصح أن تتخذ منها ظاهرة ولا خاصة عامة ، وقد كانوا يصفونها بالشذوذ ويؤولونها ما وجدوا إلى التأويل سبيلا »[٣] .

أما قولنا (احتكامهم إليه) فنقصد به أن لغة القرآن عند العلماء والعرب على حدٍّ سواء هي الحكم على صحة القاعدة وسلامة الاستخدام وفصاحة القول ، وقد دأبوا على تحكيمه فيما شجر بينهم من الناحية اللّغوية إيمانًا منهم بأن لغته هي

---

(١) أشار إلى ذلك في كتابه (في أصول النحو) حاشية (٢) ، والنص تجده في الإنصاف ٣٥٦/١ (ترخيم المضاف إليه) .

(٢) مغني اللبيب لابن هشام ٢٢٣/١ .

(٣) المدارس النحوية ، د . شوقي ضيف (١٩) (دار المعارف بمصر) .

غاية ما طلب منها .فكان الاحتكامُ إليه أقوى من الاحتجاج به في إحداث التسامي وأبلغ أثرًا في تحقق الوحدة اللغوية لأن الاحتجاجَ يكون بالقرآن وبغيره كالحديث الشريف وكلام العرب الفصحاء ، أمَّا الاحتكام فيكون عند تساوي الأدلة مع اختلافها لقطع الحجة على الخصم وكان القرآن هو الفيصل في ذلك متى وجِد فيه موضوع الخلاف أو أمكن قياسه وحمله عليه .

ولهذا فنحن لا ننكر دور الكثرة والشيوع وموافقة القياس في الترجيح بين الرويات المختلفة فهما أصلان عمل بهما العلماء في القرآن نفسه حين رجحوا بهما بين قراءاته للأخذ بها في تقعيد اللّغة ، علمًا أنهما قاما أساسًا على مبدأ الكثرة والشيوع، وقد بيَّنا في غير هذا المقام أن منتهجيه اعتقدوا بأنه منهج لغة القرآن. وعلى العموم فإن هذا المعيار يكاد ينحصر العلم والعمل به على العلماء ولا سلطان له على عامة العرب إلا المثقفين ؛ لأن سبيله العلم في حين كان القرآن في متناول الجميع مع إجماعهم على تقديمه ، فنحن نريد بيان احتكامهم إلى القرآن وأثره في إحداث التسامي والتوحيد لا نريد إنكار غيره فافهم ذلك .

وإليك بعض الأمثلة والأقوال التي عبّرت عن احتكامهم إلى القرآن :

١ – في مجال تقعيد اللّغة واختلاف العلماء . ذكر الزجاج أن بعضهم ادعى أن إهمال (ما) أقوى من إعمالها فغلّطهم محتكمًا إلى القرآن قال : « وزعم بعضهم أن الرفع في قولك : (ما هذا بشرًا) أقوى الوجهين ، وهذا غلط ، لأن كتاب اللّه ولغة رسول اللّه أقوى الأشياء وأقوى اللغات »[١] .

٢ – في مجال الاستعمال واختلاف العربي مع العالم . فقد روى أن أبا عمرو حكم على استعمال ثم تراجع عن حكمه لاحتجاج العربي بالقرآن،جاءفي الخصائص: « وأنشد رجل من أهل المدينة أبا عمرو بن العلاء قول قيس بن الرقيات :

إن الحوادث بالمدينـة قد   أوجعتني وقرعن مروتَيـه

فانتهره أبو عمر ، فقال : ما لنا ولهذا الشعر الرخو ؟ إن هذه الهاء لم توجد

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج ١٠٨/٣ ، تحقيق : د، عبد الجليل عبده شلبي (ط ١ ، عالم الكتب بيروت) .

فـــي شيء من الكلام إلا أرختـه . فـقـال له المديني: قـاتلك الله ؟ مـا أجـهلك بكلام العرب؟ قال الله – عز وجل – في كتابه : (ما أغنى عَنِّي ماليه * هلك عَنِّي سلطانيه) وقال : (يا ليتني لم أوت كتابيه * ولم أدرِ ما حسابيه) فانكسر أبو عمرو انكسارًا شديدًا »[١] .

٣ – وفي مجال فصاحة اللّغة واختلاف العرب حولها : « كان العرب على حال يتوهم فيها كلُّ قبيل منهم أنه أسلم فطرةً في اللّغة وأبين مذهبًا في البيان ؛ لأنهم لا يجدون من ذلك إلا أمثلة ترجع إلى الفطرة وتختلف باختلافها ، ولا يجدون المثال الفطري الكامل الذي تقاس عليه القدرة والعجز في ذلك قياسًا لا يلتاث ولا يختلف »[٢] .

وبعد نزول القرآن أصبحت العربُ تقيس فصاحةَ لغاتِها على مدى قربها وبعدها عن لغة القرآن ، يظهر ذلك جليًا في مماحكاتهم وخلافهم حول أيهم أفصح ؟ ومن الطريف في ذلك ما حكاه الجاحظ عن خلاف أهل مكة وأهل البصرة حول ذلك واحتكام أهل البصرة إلى القرآن في إثبات فصاحتهم قال : « حدثني أبو سعيد عبدالكريم بن روح قال : قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر (إمام لغوي عاصر الأصمعي) ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، إنما الفصاحة لنا أهل مكة. فقال ابن المناذر : أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها لـه موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم . أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام . ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور ، وقال تعالى : (وجفان كالجوابي وقدور راسيات) . وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علّية ، وتجمعون هذا الاسم على علالي ، ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف . وقال الله تعالى : (غرف من فوقها غرف مبنية) ، وقال : (وهم في الغرفات آمنون) . وأنتم تسمون الطلع الكافور والإغريض ونحن نسميه الطلع ، وقال تعالى : (ونخل طلعها هضيم) ، فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا »[٣] . ومع طرافة القصة إلا أنها تعبِّر عمّا

---

(١) الخصائص ٣/٢٩٣ .

(٢) إعجاز القرآن ، الرافعي (٧٨) .

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ ١/١٧ .

ذكرناه لك من احتكام العرب أنفسهم إلى القرآن .

ونجد هذه النظرة عند العلماء أيضًا فنعلم يقينًا أن قد ترتب عليها تبعات علمية وعملية ، وقد مرّ بك قول المبرّد : « إنما يقال بنو فلان أفصح من بني فلان أي أشبه لغة بلغة القرآن ولغة قريش على أن القرآن نزل بكل لغات العرب » ، ومثل هذا القول يدل على أنهم حكّموا القرآن في معرفة الفصيح واختيار الأفصح لا سيما المتشددين الذين يختارون الأفصح ويلغون ما سواه كالأصمعي، وقد مرّ بك قولنا أنهم استعانوا بلغة القرآن والآثار الأدبية في تحديد اللهجات الفصيحة لجمع اللّغة بل واختبار الأعراب القادمين من البادية ، وأن الجمع لم يكن عملاً عشوائيًا[١] .

٤ – تحكيم القرآن في مجال أساليب العربية ومعرفة سنن العرب : لقد ذكرنا فيما سلف من دراستنا أن علماء اللّغة اعتمدوا على القرآن لمعرفة سنن العرب واستخراج أساليب العربية كما فعل الثعالبي في القسم الثاني من كتابه فقه اللّغة ، وهو « سر العربية في مجاري كلام العرب وسننها والاستشهاد بالقرآن على أكثرها [٢] ، أو كما فعل ابن قتيبة حين ردّ على من اعتقد أن الإيجاز محمود في كلِّ موضع فقال : « ولو كان الإيجاز محمودًا في كلِّ الأحوال لجرده الله تعالى في القرآن ، ولم يفعل ذلك ، ولكنه أطال تارة للتوكيد ، وحذف تارةً للإيجاز ، وكرر تارة للإفهام ، وعلل هذا مستقصاة في كتابنا المؤلف في (تأويل مشكل القرآن) »[٣] .

هذا وقد ظهر أثر التسامي إلى لغة القرآن في أساليب الإسلاميين وبلاغتهم فكانوا فيها أعلى طبقة من الجاهليين ، قال ابن خلدون : « إعطاء السبب في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم . فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ، ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرٍ من الدولة العباسية ، في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم

---

(١) ينظر في بحثنا (٢٢٠) (التشدد في تحديد اللهجات) .

(٢) ينظر في بحثنا (٢٠٢) .

(٣) أدب الكاتب ، ابن قتيبة (١٥) .

للملوك ، أرفع طبقة من البلاغة في شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عَبَدَة وطرفة بن العبد ، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم . والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة . والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثليهما ، لكونها ولجت فــي قلوبهم ونشأت علــى أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتفعت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ، فكان كلامُهم في نظمهم ونثرهم أحسنَ ديباجةً وأصفى رونقًا من أولئك ، وأرصفَ مبنى وأعدلَ تثقيفًا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة . وتأمل ذلك يشهد لك به ذوقك إن كنت من أهل الذوق والتبصر بالبلاغة »[١] .

وحسبنا هذا القدر من الحديث عن التسامي غير مستقصين فمرادنا التنبيه والإشارة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، وافي ٣/١٣١٥ – ١٣١٦ .

سابعًا - الوحدة السياسية تبعتها وحدة لغوية :

لقد تحققت الوحدة السياسية والدينية بجزيرة العرب في العام التاسع الهجري إثر فتح مكة وإقبال وفود العرب إلى المدينة معلنةً إسلامها وطاعتها لله ورسوله ، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يولّي عليهم الأمراء ، ويعلمهم أمور دينهم ، ويخاطب وفود العرب بلغاتهم التى شكا بعض الصحابة من عدم فهم أكثر ما جاء فيها فقال : « نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره »[(١)] .

وفي ذلك دلالة واضحة على مقدار البون الذي كان بين اللهجات العربية في تلك الفترة ، كما يدل على تسامح الرسول عليه السلام مع الفروق اللّغوية–في أول الأمر– مراعيًا اختلاف لهجاتهم وعدم مقدرة بعضهم التحوّل عنها مرةً واحدة دون تدرّج ، فآثر الرسولُ التبليغَ وتوحيدَ القلوبِ بالإيمان إلا أنه منحَ بذلك التوحيدَ اللغوي فرصةَ الحدوث مع الزمن ووفر له البيئة الخصبة ، كما أنه حثّ على تعلم العربية وشجّع غير أبناء العرب على التعرب وذلك عندما قرر أن مجرد الكلام بالعربية يؤهل صاحبه للانتماء إلى العرب فقال كما نُقل عن الإمام مالك : « ... وليست العربية بأحدكم من أب أو أم ، وإنما هي اللسان ؛ فمن تكلم العربية فهو عربي »[(٢)] .

فشجع ذلك على تعرّب كثير من الشعوب وأحدث توحيدًا لغويًا كان على مستوى اللّغات في مصر والشام والعراق وبلاد المغرب وغيرها . وحتى لا نستبق الأحداث نعود فنقول : بعد أن توحدت الجزيرة العربية سياسيًا ودينيًا ، وبعد قيام الدولة العربية الإسلامية أخذت اللهجات العربية تتدرج في سبيل الوحدة اللغوية لما أتيح لها من فرص الاحتكاك ، وخضوعها للأسباب التي أدت إلى إذابة فروقها اللهجية ، بالإضافة إلى هذا العامل السياسي الذي أكسب اللغة القرشية نفوذًا سياسيًا عزز مكانتها كلغة مشتركة خاصة مع استئثار البيت القرشي بالخلافة ، كما نجم عن

---

(١) نقلاً عن (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) ، للرافعي (٣١٧) ، وينظر في هذا المعنى ما ذكرناه في معسكرات الجهاد (١٧٠) .

(٢) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦/٢٠٠ .

ذلك ميلٌ عام عند القبائل العربية إلى تبنّي لغة السادة والحكام والطبقة العليا في المجتمع ، وفي المقابل تنازلت اللهجات الخاصة عن حيّزٍ من مكانتها وتخلّصت من كثير من خصائصها في سبيل الالتقاءِ بها والتوحدِ معها ، لأن الطريقةَ المثلى لتوحيد اللهجات المختلفة واللغات الشتى هو جمعها على لهجة أو لغة واحدة منها .

هذا ما أثبتته ملاحظتنا لطريقة حدوث التوحد اللغوي في الجزيرة العربية خاصة بين لغات الشمال والجنوب، إذ لم يكن سوى زحف للّغة الشمال على الجنوب، وسيادتها على لهجاته هناك ، وقد أشرنا إلى وصف الهمداني للغات اليمن التي تزداد فصاحتها كلما اتجهت شمالاً وتكون غتمةً أو حميريةً كلما اتجهت جنوبًا(١) ، وهي نفس الطريقة التي تم بها توحيد اللّغة في الأمصار الإسلامية في مصر والشام والعراق وبلاد المغرب وإن اطلق على هذه الحالة لفظ التعرّب فهي في حقيقتها توّحد باعتبارها مناطق لغوية مختلفة ومتعددة اللّغات أصبحت تتكلم لغة واحدة وتركت آثارها في اللّغة العربية كما تركت اللهجات الخاصة آثارها في القرشية عندما أصبحت لغة مشتركة مع اختلاف الأثرين(٢) .

وقد أشار ابن حزم إلى هذه الطريقة في توحيد اللغات عند افتراضه أن ملكًا كانت في مملكته لغاتٌ شتى وأراد أن يجمعها على لغةٍ واحدةٍ يتفاهمون بها كلهم ، قال: فالسّهل أن يجمعهم على لغة ما من تلك اللغات التي كانوا يتكلمون بها أو على لغته نفسه ، لا أن يستحدث لهم لغة جديدة ، ووصف ذلك العمل بأنه ضد وضع اللغات الكثيرة بل هو جمع اللغات على لغة واحدة(٣) .

والدليل على أن اللهجات العربية تنازلت عن حيّزٍ من مكانتها وتخلصت من معظم خصائصها التي تحول دون التقائها بالقرشية وتوحدها معها ، أنك لا تكاد

---

(١) ينظر في بحثنا (٢٢).

(٢) لقد نجم عن آثار اللغات المختلفة في اللّغة العربية اللغات المولدة واللهجات العامية المتأثرة بلغاتهم القديمة بينما نجم عن أثر اللهجات العربية في الجزيرة عربية فصحى .

(٣) الاحكام في أصول الإحكام ، ابن حزم الأندلسي ١/٣٥ . (بتصرف) .

تلمس فروقًا كبيرة بين اللهجات العربية بعد الإسلام ونزول القرآن مما يدل على أن أثره في توحيد اللّغة وإذابة فروقها قد استحكم في اللهجات العربية لا سيما بعد أن قدّمَ لها المثلَ الأعلى والنموذجَ الموّحد الذي كان بمثابة الأصول التي حاكتها وعرضت خصائصها عليها مما أسهم في التقريب بينها ، وعلى هذا الأساس حكم ابن جني على قلة الخلاف اللغوي بين اللهجات العربية في عصره فقال:«هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته ، محتقر غير محتفل به ولا مَعيج عليه ، وإنما هو في شيء من الفروع يسير . فأما الأصول وما عليه الجمهور فلا خلاف فيه ، ولا مذهب للطاعن به »(١) ، وقد رجع السبب في ذلك إلى اتباع العرب في لغتها منهجًا واحدًا كانت تراعيه وتلاحظه وتقيس عليه وتحتاط له وهو ما سميناه نحن بالمثل الأعلى(٢) .

وبعد قيام الدولة العربية الإسلامية على أساس من الوحدة الدينية والسياسية ، أصبحت اللّغةُ العربيةُ لسانَ الحكم والسياسة ، انتشرت بانتشار الفتح العربي الإسلامي ، فواكبته مَسيِرَتَه ، وسارت على خطاه ، فتعربت بها الألسنة في كثير من البلاد وتوحدت بها لغاتهم .

وقد أشار ابن خلدون إلى أثرالعامل السياسي–بعد أن ربطه بالدين–في توحيد اللّغة ونشرها فقال : « اعلم أن لغات أهل الأمصار إنما تكون بلسان الأمّة أو الجيل الغالبين عليها أو المختطين لها . ولذلك كانت لغات الأمصار الإسلامية كلها بالمشرق والمغرب لهذا العهد عربية ، وإن كان اللسان العربي المضري قد فسدت ملكته وتغيّر إعرابه . والسبب في ذلك ما وقع للدولة الإسلامية من الغلب على الأمم ، والدين والملة صورة للوجود وللملك ، وكلها مواد له ، والصورة مقدمة على المادة ، والدين إنما يستفاد من الشريعة وهي بلسان العرب ، لما أن النبي صلى اللّه عليه وسلم عربي ، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها . واعتبر ذلك في

(١) الخصائص ، ابن جني ٢٤٤/١ .

(٢) ينظر الخصائص ٢٣٧/١ إلى ٤٤ ، وينظر تعليقنا على كلامه في (١٥٨) من بحثنا وراجع السبب السادس (التسامي إلى المثل الأعلى) (٢٨٢).

نهي عمر رضي الله عنه عن رطانة الأعاجم وقال إنها خِبٌّ أي مكر وخديعة . فلما هجر الدين اللّغات الأعجمية وكان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيًا هجرت كلها في جميع ممالكها ، لأن الناس تبع للسلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك ، وصار اللسانُ العربي لسانَهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة العجمية دخيلة فيها وغريبة »(١) .

وعلينا ألا ننسى دور الخلفاء والأمراء في نشر العربية ، ورفع شأنها ، وجمع الناس عليها ، خاصة في العصر الأموي الذي كان خلفاؤه وأمراؤه أشدَّ الناس تعصبًا للّغة العربية ، فقد قاموا بأعمال واتخذوا قرارات كان لها أثر عظيم في حفظ اللّغة وتعريب الأمصار . ومن ذلك ما يلي :

١ - اهتمامهم بالعربية وغيرتهم عليها من الانحرافات اللغوية فنبذوا اللحن وأهله حتى إن الرجل كان يتنصل من أعمالهم بادِّعاءِ اللحن فيسقط من أعينهم فلا يولونه عليها ، من ذلك ما روى عن الحجاج أنه « بعث إلى والي البصرة أن اخترْ لي عشرةً ممن عندك فاختار رجالاً منهم كثير بن أبي كثير ، وكان رجلاً عربيًا ، قال كثير : وقلت في نفسي لا أفلت من الحجاج إلا باللحن ، قال : فلما دخلنا عليه دعاني ما اسمك ؟ قلت : كثير ، قال : ابن مَنْ ؟ فقلت في نفسي : إن قلتها بالواو لم آمن أن يتجاوزها ، قال : قلت : أنا كثير ابن أبا كثير ، فقال : عليك لعنة الله وعلى من بعث بك »(٢) . وبعكسه ما قيل بأن من أسباب تولية قتيبة بن مسلم على خراسان تفسيره معنى مثل وصفه به عبد الملك(٣) .

ومنه أيضًا تهديد عبد الملك لابنه الوليد الذي اشتهر باللحن : « أنه لا يلي أمر

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، وافي ٢/٩٠٠ ، ٩٠١ .

(٢) معجم الأدباء ، ياقوت ١/٢٧ .

(٣) وهو قول عبد الملك للحجاج : (أنت عندي كقدح ابن مقبل) وفسره له قتيبة وكان راوية عالمًا ، قال : فكانت في نفس الحجاج حتى ولاه خراسان . معجم الأدباء ١/٣٣ .

العرب إلا من يحسن كلامهم » ، وكان يقول : « أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه إلى البادية » ، ومن أقواله : « اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأي » [١].

وحسبك أن تقعيد اللّغة كان بقرار سياسي اتخذه علي رضي اللّه عنه أو زياد ابن أبيه كما في بعض الروايات ، ومن المعروف ما لأثر اتباع القواعد المتفق عليها في توحيد اللّغة .

٢ - تعريب الدواوين في الأمصار بأمر عبد الملك ، فحولوها من الفارسية إلى العربية في العراق وفارس ، ومن الروميّة إلى العربية في الشام ، ومن القبطية إلى العربية في مصر ، وقد كانت هذه الدواوين تزخر بالكتبة والموظفين من أصحاب تلك البلاد فكانوا أوّل من أُضطُرَّ إلى تعلم العربية للمحافظة على وظائفهم ، وباتت إجادة اللّغة العربية وسيلة للظفر بالمركز الاجتماعي ، والوظيفة العامّة ، والعمل الرسمي في الدولة الإسلامية مما ساعد على تعرّب أهل الأمصار وجمعهم على لغة واحدة .

٣ - تهجير بعض القبائل العدنانية إلى بعض الأمصار لإحداث توازن سياسي بين العدنانية والقحطانية فيها ، أي: أن هناك بعض الهجرات العربية إلى الأمصار المفتوحة حدثت بقرار سياسي حتى لا تستقل بها القبائل اليمنية ، وعلى هذا الأساس فُسِّر استقدام عبداللّه بن الحبحاب والى هشام بن عبدالملك على مصر، بطونًا من قيس إذ كتب إلى هشام : « إن أمير المؤمنين أطال اللّه بقاءه قد شرَّف هذا الحي من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم ، وإني قدمت مصر فلم أر لهم حظاً إلا أبياتًا من فهم وفيها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها نزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجًا ، وهي بلبيس . فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحيّ من قيس فليفعل »[٢] .

قال الدكتور عبد المجيد عابدين معلقًا على ذلك : « لم يكن تشجيع القيسية الذي أقرته سياسة الدولة على هذه الصورة ، وليد صدفة واتفاق ، وإنما كان في

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ١٦٢/٢ ، ١٧٠ .

(٢) البيان والإعراب ، المقريزي (٦٦) .

الغالب مدفوعًا بعوامل أهمها : الحد من سيطرة العنصر السبئي الذي كان ما زال يمثل الغالبية من عرب مصر ، فقد كان التكافؤ بين العنصرين ، في الحوف الشرقي أولاً ، مما يخفف من الأخطار التي قد تنجم عن تفرد أعقاب سبأ واستئثارهم بالنفوذ .. » [١].

وهذه الأعمال إن كانت في ظاهرها تحقق أهدافًا سياسية فقد حققت مكاسبَ لغوية إذ نقلت الصراع اللغوي إلى خارج جزيرة العرب وأحدثت توازنًا لغويًا قرّب بين اللهجات العربية في تلك الأمصار فانعكس على عربية أهلها الذين يتكلمون – في العادة – بلغة النازلة فيهم .

هذا وقد ساعدت الوحدة السياسية على سهولة تنقل الشعراء والأدباء في الدولة الإسلامية فعرضوا نِتاجهم الأدبي فيها باللّغة الأدبية الموحدة ممّا أسهم في تضييق الفجوة بين أقطارها واتخاذها لغة للعلم والأدب في جميع بلاد الإسلام . وفي هذا يقول يوهان فك : « لم تضع حدود الأقاليم حواجز وفواصل في سبيل الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء ؛ فالقالي (٢٨٨ – ٣٥٦ هـ) الذي نشأ في أرمينية ، وتأدب في بغداد ، علّم وأنتج في إسبانيا ، والخوارزمي (ت ٣٨٣ هـ) غادر وطنه إلى العراق ، وخدم سيف الدولة في حلب ؛ والبلعميّ في بخارى ، والميكالي في نيسابور، والشار في سجستان ، والصاحب في أصفهان ، وعضد الدولة في شيراز، وختم حياة مغامراته في نيسابور . ومثل ذلك طوّف بديع الزمان الهمذاني في خراسان ؛ وسجستان ، وأفغانستان ، قبل أن يستوطن هراة ، حيث توفي بها سنة (٣٩٨هـ) عن نحو أربعين عامًا .

وتقدم لنا مثالاً آخر حياة المتنبي ، التي كان مجالها بين العراق ، وسورية ، ومصر ، وفارس .

---

(١) قاله محقق البيان والإعراب في دراسته (١٠١) وهو الدكتور عابدين .

ملاحظة : أرجو ألاّ يفهم القارئ خطأً أن جميع الهجرات كانت بدافع سياسي وإنما نقصد هنا نوعًا واحدًا منها ، وننصحه بمراجعة العامل الاجتماعي لتتضح له الصورة) .

ومثل هذه الحياة من التجول والمغامرات لم يكن أمرًا غير مألوف ؛ بل كان هو القاعدة المطردة . وهو يبين إلى أي مدى تشابهت إذ ذاك في جميع البلدان نظم الحياة الأدبية وشروطها . فقد طوفت طبقة كبيرة من الأدباء الجوالين في محيط العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه ، وكفلت بذلك نشاطًا دائبًا في تبادل الأفكار والمذاهب ؛ فحفظ هذا للّغة الأدب طابعها القديم ؛ كما جعلها أيضًا لغة العلم والثقافة في العالم الإسلامي كله ، التي كانت تفهم أيضًا خارج المحيط العربي »[١] .

وفي الختام نود أن نشير الى ما ذكره ابن خلدون من أن سقوط العامل السياسي العربي مع وجود الإسلام لم يضر العربية لبقاء الدين طالبًا لها ، أما سقوطه مع كون الحاكم على غير الإسلام فإنه ذهاب لذلك المرجِّح فتفسد بذلك اللّغة العربية وقد استشهد على ذلك بالأمصار في عصره فارجع إلى مقدمته (فصل في لغات أهل الأمصار)[٢] .

ملحوظة :

يتضح لنا مما تقدم أهمية العامل السياسي وأثره في اللغة بشكل عام وصناعة وحدتها بشكل خاص. وعليه فيجب ألاّ يغفل رجال السياسة في عصرنا الحاضر هذا الأثر البالغ الأهمية ، وأن يعملوا على تسخيره لخدمة أمتنا ، وتذليل الصعوبات التي واجهت عملية التعريب وأسهمت في تعثُّره ؛ إذْ حاله في وطننا العربي بين إفراط وتفريط .

فالإفراط من جهة تعدد تعريب بعض المصطلحات العلمية في الوطن العربي بتعدد أقطاره ، فَتُسمَّى في كلِّ قطرٍ باسمٍ لا يعرفه جيرانه .

---

(١) العربية ، يوهان فك ، تحقيق : د . رمضان عبد التواب (١٧٥) .

(٢) تكمن أهمية كلام ابن خلدون هنا في أن العامل السياسي كان عاملاً مساعدًا على نشر العربية وجمع أهل الأمصار عليها أما العامل الحقيقي في نشر العربية فهو العامل الديني ، وهو كما قلنا لا ينفي أثر العامل السياسي والاجتماعي الذي ظهر جليًا في تعرّب اليهود والنصارى في مصر والشام والعراق . علمًا أنهما اشتقا أنظمتهما من الإسلام ويحملان عليه .

وأما التفريط فهو إهمال عملية التعريب وتقاعس بعض المجامع اللغوية عن القيام بدورها مما ينعكس على لغتنا ويهدد شخصيتها بكثرةالدخيل من سائر اللغات دون أن يخضع للغربلة بحيث يوافق منهاج العربية في أبنيتها ونظام تأليف أصواتها.

وهذه أمور تحتاج إلى قرار سياسي يُوجِّه المجامع اللغوية إلى ضرورة التنسيق المشترك بينها ، وعدم اضاعة الجهود في تعدد تعريب المصطلح الواحد على حساب إهمال آلاف المصطلحات الدخيلة بلغاتها الأعجمية .

أضف إلى ذلك أن الحفاظ على العربية الفصحى واستبقاءها رباطًا لغويًا بين الشعوب العربية هو من مهام رجال السياسة كما هو من مهام رجال العلم والأدب والثقافة ، وقد سعت إسرائيل إلى إحياء لغتها العبرية الميتة بقرار سياسي ، فكيف بنا لا نحافظ على لغة حيّة بقرار سياسي ؟ ؟

الفصل الثاني
مظاهر الوحدة اللغوية
بعد الإسلام

أولاً : المظهر الصوتي من خلال وحدة التلاوة (التجويد) ، وأثره في خلود أصوات العربية .

ثانيًا : تعميم بعض الظواهر والخصائص اللهجية .

ثالثًا : لغة الكتابـة .

مظاهر الوحدة اللغويـــة بعد الإسلام :

أولاً - المظهر الصوتي من خلال وحدة التلاوة (التجويد) وأثره في خلود أصوات العربية :

لقد فطن علماء الإسلام من القراء وقدماء النحاة إلى ميل الأصوات اللغوية إلى التطور والتغير المستمر ، فخشوا أن يصيب النطق القرآني شيء من التغير الصوتي لأنه غالبًا ما ينجم عنه تغيرٌ في المعنى إلا في حالات من الإبدال ، ولأن الأُمَّةَ -كما يقول ابن الجزري- : « كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة عن أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية الأفصحية العربية التي لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها »[١] .

ومن هنا بدأ الاهتمام بدراسة الأصوات عند العرب للحفاظ على أصوات العربية عامة وأصوات القرآن خاصة وصيانته من الانحرافات اللغوية التي ظهرت مع انتشار العربية بين الأمم بعد الإسلام ، ولتعليمهم أداء القرآن والنطق بحروفه العربية على الوجه الصحيح . فقامت الدراساتُ والبحوثُ الصوتية التي عُنِيَتْ بوصف كل صوت عربي وصفًا دقيقًا وحددت مخارج الحروف وصفاتها وأجناسها وأحكامها التركيبية وما ينجم عن تداخلها من أصوات أو آثار ، وقام على هذه الدراسات علم خاص بأصوات القرآن الكريم الذي يمثل أصوات العربية وأطلقوا عليه (علم التجويد) وهو العلم الذي حفظ أصوات القرآن من التغيُّر على مَرِّ العصور ، وخلد المثل الصوتي للنطق الصحيح بحروف العربية فلم يعترها ما اعترى سائر اللغات في العالم من تطور في أصواتها أسهم في قطع العلاقة اللغوية بين أجيالها وتحوّل لهجاتها إلى لغات ، لأن اللغة ليست في حقيقتها سوى أصوات وعند تطور أصواتها مع فقد المثال والنموذج الصوتي الموَّحد أو الأصول ومع تأثيرالأصوات في المستويات الأخرى حيث تُلقي بظلالها على الصرف والنحو وحتى المعاني باعتبار دلالة الأصوات عليها[٢] ، فإن تغير اللّغة نتيجة حتمية لذلك .

---

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ٢١٠ .

(٢) لمعرفة أثر الأصوات في المستويات اللغوية الأخرى (صرف ، نحو ، دلالة أو معاني) ينظر : علم الأصوات ، د . كمال بشر ٦٠٥ وما بعدها .

أما لغتنا العربية الفصحى فقد احتفظت بأصواتِها إلى يوم الناس هذا والفضل في ذلك يعود إلى القرآن الكريم لوجوب ترتيله مجوّدًا مع تواتر التجويد تلقينًا ومشافهةً وعدم الاكتفاء فيه بالدرس النظري ، فالالتزام بالتجويد كفل ثبات أصوات العربية لأنه يعني في اصطلاح القرّاء : « إعطاء الحروف (حقّها) من الصفات اللازمة لها و (مستحقها) من الأحكام التي تنشأ من تلك الصفات حال الإفراد والتركيب ، فمن أحكامه منفردًا تحديد مخرجه ، ثم تحقيق الصفات اللازمة له كالاستفال أو الاستعلاء ، والهمس أو الجهر ، والشدة أو الرخاوة .. وعندما يتركب مع غيره من الحروف تنشأ أحكام الترقيق والتفخيم والإظهار والإدغام والممدود وغير ذلك ، ثم عندما تتركب الكلمات مكونة جملاً تنشأ أحكام الوقوف .. »[1] . فالتجويد كما ترى وصف أصوات الحروف في جميع حالاتها ومع وجوب التقيد بأحكامه في قراءة القرآن ومع تواتر انتقال القرآن عبر العصور (كتابةً و أداءًا) ، حفظ القرآن على اللّغة أداء أصواتها وتحقيق مخارجها وصفات حروفها على الوجه الذي نطق به العرب الفصحاء ويسّر ذلك لأهلها في كل عصر .

ومن جهة أخرى استنكر القرّاء وعلماء العربية ما شاع في لهجات الكلام من انحراف عن النطق الصحيح للصوت العربي وسعوا إلى تخليص اللّغة المشتركة من الآثار الصوتية ذات الطابع المحلي الناجمة عن تداخل الصفات أو انحراف المخارج والتساهل أو المبالغة في تحقيق الحروف واعتبروا ذلك لغات مذمومة على حد تعبيرهم وهي في الحقيقة عادات صوتية نجمت عن تأثير الأصوات في بعضها في لغاتهم أو ميل بعض اللهجات إلى جهر المهموس وتفخيم المرقق ونحو ذلك ، وقد تصدى القرّاء لهذه الانحرافات الصوتية في قراءة القرآن وحذروا المتعلمين من الوقوع فيها من ذلك تحذير ابنِ الجزري في النشر : « أول ما يجب على مريد إتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحًا يمتاز به عن مقاربه وتوفية كل حرف صفته المعروفة به توفية تخرجه عن مجانسه ، يعمل لسانه وفمه بالرياضة في

---

(١) قواعد التجويد على رواية حفص عن عاصم ، د . عبد العزيز عبد الفتاح القاري (٣٢) ، (ط : ٥ ، مكتبة الدّار) ، وينظر أيضًا : النشر لابن الجزري (١/٢١٠).

ذلك إعمالاً يصير ذلك طبعًا وسليقة ، فكل حرف شارك غيره في مخرج فإنه لا يمتاز عن مشاركه إلا بالصفات ، وكل حرف شارك غيره في صفاته فإنه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج ، كالهمزة والهاء اشتركا مخرجًا وانفتاحًا واستفالاً وانفردت الهمزة بالجهر والشدة . والعين والحاء اشتركا مخرجًا واستفالاً وانفتاحًا وانفردت الحاء بالهمس والرخاوة الخالصة . والغين والخاء اشتركا مخرجًا ورخاوة واستعلاء وانفتاحا ، وانفردت الغين بالجهر ... »[١] فهو يقول : إن لكل حرفٍ مخرجه وصفته التي تميزه عن غيره فمتى انحرف المخرج أو تُسوهل في تحقيق الصفة تغير الحرف أو اشتبه بغيره هذا في حال الإفراد ، أما في حال التركيب فيجب أن يزيد التحفظ لأن الحروف – كما ذكر – تؤثر في بعضها فيجذب القوي الضعيف ويغلب المفخم المرقق وحذر من الوقوع فيه ثم شدد على وجوب تحقيق المخارج والصفات لحروف العربية وحذّر من الوقوع فيما وقعت فيه بعض اللهجات عندما تساهلت في بعض الحروف فأبدلتها وحرَّفتها كقوله : « والتاء يتحفظ بما فيها من الشدة لئلا تصير رخوة كما ينطق بها بعض الناس ، وربما جعلت سينًا خاصة إذا كانت ساكنة نحو : فتنه .. والجيم يجب أن يتحفظ بإخراجها من مخرجها فربما خرجت من دون مخرجها فينتشر بها اللسان فتصير ممزوجة بالشين كما يفعله كثير من أهل الشام ومصر ؛ وربما نبا بها اللسان فأخرجها ممزوجة بالكاف كما يفعله بعض الناس ، وهو موجود كثيرًا في بوادي اليمن ... والقاف فليتحرز على توفيتها حقها كاملاً وليتحفظ مما يأتي به بعض الأعراب وبعض المغاربة في إذهاب صفة الاستعلاء منها حتى تصير كالكاف الصماء »[٢].

ومن جهة التوحيد فنحن نعلم أن القرآنَ نزلَ على سبعةِ أحرف وتعددت فيه القراءات حتى بلغت العشرات وهي بالتأكيد تعبِّر عن الخلاف الصوتي بين اللهجات العربية وبعض العادات الصوتية لأنها راعت الخلاف اللغوي تيسيرًا على أهلها . فأين التوحيد من ذلك ؟

---

(١) النشر ٢١٤/١ .

(٢) النشر ٢١٤/١ وما بعدها (بشيء من التصرف) .

هذا اعتراض محتمل . نرد عليه بقولنا : إنَّ ذلك كان في مدّة زمنيةٍ محددة في أوّل الإسلام مراعاةً لاختلاف لغات العرب وما جرت عليه ألسنتهم وعدم مقدرة بعضهم التحول عن لغته فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة سهل اتفاقهم على حرف واحد فجُمِعت الأمة على حرف واحد وهو الذي كان في العرضة الأخيرة ، واقتصرت الأمة على القراءات السبع المتواترة والموافقة لرسم المصحف والعربية، وسُدَّ باب القراءة الواسع باللغات المختلفة إلا ما وافق ميزانهم بل ظهر هذا التوجه عند عمر بن الخطاب قبل وضعه وقد مرَّ بنا أنه منع ابن مسعود أن يقرئ الناس (عتى حين) وقال له : « إن القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش »[١] .

وكانت نظرة القدماء أن القرآن نزل أوّل ما نزل بلغة قريش ثم أبيح في قراءته بلغة غيرهم بشرط السند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فكان الرجوعُ إليها وجمعُ الناس عليها في وجهة نظرهم رجوعًا إلى الأصل ، يدل على ذلك قول عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم »[٢] . وكذا ما نقله السيوطي عن ابن التين وغيره في عمل عثمان : « وجَمْع عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجًا بأنه نزل بلغتهم وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم رفعًا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت فاقتصر على لغة واحدة »[٣] .

---

(١) راجع (١٧٢) من دراستنا .

(٢) الاتقان ١٣٠/١ .

(٣) الاتقان ١٣١/١ ، وجاء في ١٠٤ : (ونقل أبو شامة عن بعض الشيوخ انه قال : أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء ، ثم أبيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التي جرت عاداتهم باستعمالها عن اختلافهم في الألفاظ والإعراب ولم يكلف أحدًا منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى للمشقة ، ولما كان فيهم من الحمية والطلب تسهيل فهم المراد . وزاد غيره أن الإباحة لم تكن بالتشهي بأن يغير كل أحد الكلمة بمرادفها في لغته ، بل المراعى في ذلك السماع من النبي صلى الله عليه وسلم).

وبعد ذلك وضع ميزان قبول القراءة أو شروطها الثلاثة فحدَّ ذلك من اختلاف القراءات واقتصرت الأمة على القراءات السبع المتواترة الموافقة للرسم العثماني والعربية ، وعلى هذا لم يجز ابن قتيبة لأهل عصره القراءة بجميع وجوه القراءات التي جاءت عن المتقدمين من الصحابة والقرّاء إلا ما وافق مصحفنا الذي هو آخر العرض غير خارجٍ عن رسم كتابه وعلل بقوله : « لأن المتقدمين من الصحابة والتابعين ، قرءوا بلغاتهم ، وجروا على عادتهم ، وخلّوا أنفسهم وسَوْمَ طبائعهم ، فكان ذلك جائزًا لهم ، ولقوم من القراء بعدهم مأمونين على التنزيل، عارفين بالتأويل، فأما نحن معشر المتكلفين ، فقد جمعنا اللّه بحسن اختيار السلف لنا على مصحف هو آخر العرض ، وليس لنا أن نعدوه ، كما كان لهم أن يفسِّروه ، وليس لنا أن نفسِّره . ولو جاز لنا أن نقرأه بخلاف ما ثبت في مصحفنا ، لجاز أن نكتبه على الاختلاف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير، وهناك يقع ما كرهه لنا الأئمة الموفقون ، رحمة اللّه عليهم »[١] .

ومع هذه الضوابط أُلتزمت أحكام وقوانين علم التجويد التي وحدت النطق بأصوات العربية في قراءة القرآن فأُغلق الباب على العادات الصوتية الخاصة وما يتعلّق بها من خلافاتٍ لهجيةٍ إلا ما احتواه علم التجويد منها ونحن نعلم أنه قام على أصوات الحروف الأصول والفروعِ المستحسنة التي جاء بها القرآن أو جاز قراءته بها .

أما علماء العربية فقد تصدوا للانحراف الصوتي في اللّغة العربية عامة ، وبذلوا جهودًا عظيمة في تنقية اللّغة العربية المشتركة من آثار العادات الصوتية المحليّة الناجمة عن إهمال بعض صفاتِ الحروف وانحرافِ مخارجها ، ونقموا على بعض اللغات عيوبًا صوتية استنكروها ونعتوا تلك اللغات بسببها باللغات المذمومة بدليل أنهم لقبوا بعضها بأصواتها الناجمة عنها إمْعانًا في انكارها وتجسيدًا لقبحها وتنفيرًا عنها فقالوا : عنعنة تميم ، وكشكشة أسد ، وكسكسة ربيعة ، وفحفحة هذيل، وجعجعة قضاعة ، وشنشنة اليمن ووتمها ، وهذه العيوب كما ذكرنا عند عرض

---

(١) تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحقيق : أحمد صقر (٤٢) .

معانيها ترجع إلى أسباب صوتية كالمحاولة للجهر بالصوت أو جعله أكثر وضوحًا أو فقده إحدى صفات الحروف وانحراف مخرجها نتيجة تداخلها مع غيرها عند أصحاب تلك اللغات[١] .

وقد منع علماء العربية استعمال تلك الأصوات في اللغة الأدبية إلا في الضرورة عند بعضهم ممن يرى اللغات على اختلافها حجة ومنهم ابن جني إذ يقول : « فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مقبول منه ، غير منعي عليه »[٢] ، ومن ذلك أيضًا حروفٌ اعتبروها غير مستحسنة في قراءة القرآن ولا الشعر وهي فروع أصلُها التسعة والعشرون وصفها سيبويه بأنها غير مستحسنةٍ ولا كثيرةٍ في لغة من تُرْضَى عربيته وهي : « الكاف التي بين الجيم والكاف ، والجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين ، والضاد الضعيفة ، والصاد التي كالسين ، والطاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء ، والباء التي كالفاء »[٣] .

وعمد علماء العربية إلى دراسة أصوات اللّغة الأدبية دراسةً عميقةً كوسيلةٍ للحفاظ عليها ومقاومة الانحراف الصوتي الذي ظهر في بعض اللهجات[٤] وألسنة المتعربين ؛ ليتسنّى لهم تعلُّمها ويسهل عليهم محاكاتها لأن هذه الدراسات اهتمت بوصف المخارج الصحيحة لحروفها وبيان صفاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية وما ينجم عن تداخلها من أصوات وما يجب وما يجوز وما يُكره أو يمنع وما يحسن ائتلافه منها أو يثقل وما يعرض للصوت في بنية الكلمة من تغير يؤدي إلى الإعلال ، أو الإبدال ، أو الإدغام ، أو النقل ، أو الحذف ، وتناولت بحوثهم ودراساتهم الصوتية كل ما يساعد على أداء الكلام العربي وإنتاج أصواته بشكل صحيح ، وإليك أهم ما تناولته بحوثهم ودراساتهم الصوتية ممّا ساعد على خلود أصوات العربية وتقويم انحرافها :

---

(١) ينظر في معانيها وتعليقنا عليها في بحثنا (٦٠) .

(٢) الخصائص ١٢/٢ .

(٣) الكتاب ٤٣٢/٤ .

(٤) رجع ابن دريد إبدال بعض اللهجات وكثير من الناس بعض الحروف إلى غلطهم في تحقيق مخارجها أو صفاتها فيأتون بأقربها إليها . ينظر : الجمهرة ٤٣/١ ، ٤٦ ، تحقيق : رمزي البعلبكي .

١ – تحديد مخارج الحروف :

ذكر الخليل بن أحمد وأكثر علماء التجويد لمخارج حروف العربية التسعة والعشرين سبعة عشر مخرجًا :

١ – المخرج الأول الحروف الجوفية : الألف والواو الساكنة المضموم ما قبلها والياء الساكنة المكسور ما قبلها . وتسمى حروف المد واللين والهوائية الجوفية . قال الخليل : وإنما نسبن إلى الجوف لأنه آخر انقطاع مخرجهن .

٢ – والمخرج الثاني والثالث والرابع الحروف الحلقية : الهمزة والهاء من أقصى الحلق ، والعين والحاء من وسطه ، والغين والخاء من أدنى الحلق للفم .

٣ – المخرج الخامس والسادس الحروف اللهوية : نسبة إلى اللهاة وهي القاف ثم الكاف – أقصى اللسان مما يلي الحلق وما فوقه من الحنك .

٤ – المخرج السابع الحروف الشجرية : نسبة إلى شجر الفم أي مفرج الفم . وهي للجيم والشين والياء غير المديّة من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك .

٥ – المخرج الثامن للضاد : من أوّل حافة اللسان وما يليه من الأضراس من الجانب الأيسر عند الأكثر والأيمن عند الأقل . وكلام سيبويه يدل على أنها تكون من الجانبين . وعدّها الخليل شجرية .

٦ – المخرج التاسع والعاشر والحادي عشر الأحرف الذلقية : نسبة إلى موضع مخرجها وهو طرف اللسان ، إذ طرف كل شيء ذلقه ، وهي اللام من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرفه وما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب الرباعية والثنية ، ثم النون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا أسفل اللام قليلاً ، ثم الراء وهو من مخرج النون من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا العليا ، غير أنها أدخل في ظهر اللسان قليلاً .

٧ – المخرج الثاني عشر الحروف النطعية : نسبة إلى موقعها وهو نطع الغار الأعلى وهو سقفه ، وهي الطاء والدال والتاء من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مصعدًا إلى جهة الحنك .

٨ – المخرج الثالث عشر الحروف الأسلية : نسبة إلى أسلة اللسان وهي مستدقُّ طرف اللسان وتسمَّى حروفَ الصفير وهي : الصاد ، والسين ، والزاي من

بين طرف اللسان فويق الثنايا السفلى .

٩ - المخرج الرابع عشر الحروف اللثوية : نسبة إلى اللثة وهو اللحم المركب فيه الأسنان وهي : الظاء ، الذال ، الثاء من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا.

١٠ - المخرج الخامس عشر والسادس عشر الحروف الشفهية أو الشفوية : نسبة إلى الموضع الذي تخرج منه وهو الشفتان ، وهي للفاء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا ، ثم الواو غير المديّة والباء والميم مما بين الشفتين فينطبقان على الباء والميم .

١١ - المخرج السابع عشر الخيشوم : وهو للغنة وتكون في النون والميم الساكنتين حالة الإخفاء أو ما في حكمه من الإدغام بالغنّة فإن مخرج هذين الحرفين يتحول من مخرجه في هذه الحالة عن مخرجهما الأصلي على القول الصحيح كما يتحول مخرج حروف المد من مخرجهما إلى الجوف على الصواب .

وعدّ سيبويه وابن جني وكثير من النحاة والقراء ستة عشر مخرجًا فأسقطوا مخرج الحروف الجوفية ، وجعلوا مخرج (الألف) من أقصى الحلق ، والواو والياء الساكنة من مخرج المتحركة(١) .

٢ - بيان صفات الحروف وأجناسها :

إن معرفة مخرج الحرف قد تُميِّزه عن حرف من مخرج آخر أما عن مشاركة فلا ، بل إن الاعتمادَ على معرفةِ مخرجِ الحرف وحده لا يكفي لأدائه وإنتاجه بشكل صحيح ، ولذا قالوا : « كل حرف شارك غيره في مخرج فإنه لا يمتاز عن مشاركه إلا بالصفات ، وكل حرف شارك غيره في صفاته فإنه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج » .

وقد بيّن القدماءُ من علماء العربية والقراء صفاتِ الحروف التي تميزها عن غيرها وتُراعى في نطقها وهي :

أ - المجهور والمهموس :

عرّف سيبويه المجهور فقال : « حرف أشبع الاعتماد في موضعه ، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت »(٢) . وذكر أنه يكون في

---

(١) النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ١/١٩٨ ، ٢٠١ (بشيء من التصرف) .

(٢) الكتاب ٤/٤٣٤ .

تسعة عشر حرفًا (ء ، ا ، ع ، غ ، ق ، ج ، ي ، ض ، ل ، ن ، ر ، ط ، د ، ز ، ظ ، ذ ، ب ، م ، و) .

وعرّف المهموس فقال : « حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه »[١] . وذكر أن حروفه العشرة الباقية (هـ ، ح ، خ ، ك ، ش ، س ، ت ، ص ، ث ، ف) .

وذكر أنه يمكنك أن تعرف المجهور من المهموس إذا كررت الحرف مع جري النفس فإن أمكنك فهو مهموس وإلاّ فهو مجهور[٢] .

ب - الشديد والرخو والمتوسط :

١ - ذكر سيبويه من صفات الحروف الشديد (الحبيس) وعرّفه بقوله : «وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة ، والقاف ، والكاف ، والجيم ، والطاء ، والتاء ، والدال ، والباء . وذلك أنك لو قلت ألحَجَ ثم مددتَ صوتك لم يجرِ ذلك» [٣].

٢ - وذكر أن منها الرِّخوة (التسريبي) وهو الذي يجري فيه الصوت . قال وهي : « الهاء ، والحاء ، والغين ، والخاء ، والشين ، والصاد ، والضاد ، والزاي ، والسين ، والظاء ، والثاء ، والذال ، والفاء . وذلك إذا قلت الطَّسُّ وانْقَضّ ، وأشباه ذلك أجريت فيه الصوت إن شئت »[٤] .

وذكر أن من الحروف ما صفته بين الشدة والرخاوة (المتوسط أو المائع) ، فلا يجري فيها الصوت جريانه مع الرخو ولا ينحبس انحباسه مع الشديدة وحروفه خمسة (ل ، ن ، ع ، م ، ر)[٥] .

جـ - المطبقة والمنفتحة :

ذكر أن من الحروف ما لا تتحقق صفته إلا بأخذ اللسان وضعية خاصة في

---

(١) الكتاب ٤/٤٣٤ .

(٢) ينظر المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق ٤/٤٣٤ ، ٤٣٥ .

(٥) ينظر المرجع السابق ٤/٤٣٥ .

النطق بها ، ولذا جاء وصفه بوصف وضع اللسان وهي الحروف المطبقة (المطبق عندها اللسان) وحروفه (الطاء ، والظاء ، والصاد ، والضاد) قال : « وهذه الحروف الأربعة إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك ، فإذا وضعت لسانك فالصوت المحصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف »[١] ، ثم شرح –رحمه الله– أهمية تحقيق هذه الصفة فقال : « ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً ، والصاد سينًا ، والظاء ذالاً ، ولخرجت الضادُ من الكلام ، لأنه ليس شيء من موضعها غيرها »[١] .

والمنفتحة : « كلُّ ما سوى ذلك من الحروف ؛ لأنك لا تطبقُ لشيء منهن لسانك ، ترفعه إلى الحنك الأعلى »[١] أي انفتاح ما بين اللسان والحنك الأعلى وخروج الريح من بينهما .

د - الاستعلاء والاستفال :

ذكر ابن جني أن من صفات الحروف الاستعلاء والانخفاض ، قال : « ومعنى الاستعلاء : أن تتصعد في الحنك الأعلى ، فأربعة منها فيها مع استعلائها إطباق ، وقد ذكرناها ، وأما الخاء والغين والقاف فلا إطباق فيها مع استعلائها، وقال : « وما عدا هذه الحروف فمنخفض »[٢] . أي : لا يستعلي بها اللسان إلى الحنك الأعلى ، بل ينحط إلى قاع الفم .

هـ - الذلاقة والإصمات :

الذلاقة وصفوا بها الحروف الذلقية والشفهية عدا الواو(ل، ر، ن، ف، ب، م) لأنه يعتمد عليها بذلق اللسان ، وهو صدره ، ولخفتها وسهولتها أسهمت في تكوين الرباعي والخماسي ، فلا يأتي شيء منها إلا وجد فيه حرفٌ منها فأكثر،والمصمتة باقي الحروف ، سُمِّيَتْ بذلك لصمتهم عنها في بناء رباعيّ أو خماسيّ خالٍ من الذلاقة[٣] .

---

(١) الكتاب ٤/٤٣٦ .

(٢) سر صناعة الإعراب ، ابن جني ١/٦٢ .

(٣) سر صناعة الاعراب ١/٦٤ ، ٦٥ . بتصرف .

وهناك صفات مفردة لا ضدّ لها :

١ـ القلقلة : قال سيبويه : « واعلم أن من الحروف حروفًا مُشْرَبة ضُغِطَتْ من مواضعها فإذا وقفتَ خرج معها من الفم صُوَيتٌ ونبا اللسان عن موضعه ، وهي حروف القلقلة : القاف ، والجيم ، والطاء ، والدال ، والباء . والدليل على ذلك أنك تقول : الحِذْقْ ، فلا تستطيع أن تقف إلا مع الصُّويت ، لشدة ضغط الحرف . وبعض العرب أشدُّ صوتًا »[١] .

فيذكر سيبويه أن من صفات حروف القلقلة أنك إذا وقفت عليها يحدث عنها صوت زائد لشدة الضغط والحفز .

ولإبراهيم أنيس مقولة في هذه الصفة وافقت هدفنا من ذكر المخارج والصفات يقول فيها : « فلحرصهم على الأصوات الشديدة المجهورة ، التي تعرضت للهمس في بعض اللهجات الكلامية ، سموها أصوات القلقلة ، وقلقلوها في نطقهم ليأمنوا بهذا من همسها . فالقلقلة ليست في الحقيقة إلا مبالغة في الجهر بالصوت ، لئلا تشوبه شائبة من همس كما شاع في لهجات الكلام » [٢].

٢ـ الانحراف : وصف به حرف اللام عند البصريين وأضيف إليه الراء عند غيرهم . قال ابن جني : « ومن الحروف حرف منحرف ، لأن اللسان ينحرف فيه مع الصوت وتتجافى ناحيتا مستدق اللسان عن اعتراضهماعلى الصوت فيخرج الصوت من تينك الناحيتين ومما فويقهما ، وهو اللام »[٣] .

٣ـ التكرير : وصف به حرف الراء خاصة . قال ابن جني : « ومنها المكرر ، وهو الراء ، وذلك أنك إذا وقفت عليه رأيت طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرير، ولذلك احتسب في الإمالة بحرفين »[٣] .

٤ـ التفشي : وهو صفة الشين اتفاقًا لأنه تفشى من مخرجه حتى اتصل بمخرج الطاء[٤] . والمراد به أن الهواء ينتشر في الفم وفي اللسان عند النطق به .

٥ـ الاستطالة : صفة للضاد « لأنه استطال عن الفهم عند النطق به حتى اتصل بمخرج اللام ، وذلك لما فيه من القوة بالجهر والإطباق والاستعلاء » [٤].

---

(١) الكتاب ١٧٤/٤ .

(٢) الأصوات اللغوية ، د . إبراهيم أنيس (١٧٩) . (مكتبة الانجلو ط عام ١٩٨٧م) .

(٣) سر صناعة الإعراب ، ابن جني ٦٣/١ .

(٤) النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ٢٠٥/١ .

٦ـ اللين : وهو صفة الواو والياء الساكنتين المفتوح ما قبلهما[١]. قال سيبويه : « لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما كقولك : واي ، والواو وإن شئت أجريت الصوت ومددت » [٢].

٧ـ الهاوي : وهو صفة الألف . قال سيبويه : « وهو حرف اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو ، لأنك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك ، وهي الألف » ، وقال في وصف الثلاثة : « وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مَخْرَجِها ، وأخفاهن وأوسعهن مخرجًا : الألف ثم الياء ثم الواو » [٣].

٨ـ المهتوت : وصفت به الهاء لما فيها من الضعف والخفاء[٤] .

٣ - تقنين العلاقات الصوتية حال التركيب وما ينجم عن تداخلها:

لم يُغفِل علماءُ العربية تأثيرَ الأصواتِ اللغويةِ بعضها في بعض وما يعرض للصوت حال تركيبه من تغير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو الإقلاب أو الحذف والنقل وغير ذلك ، فتناولوا جميعَ هذه الآثار في دراساتِهم الصرفيةِ وسعوا إلى تقنينِها وبيان ما هو قياسي أو سماعي وما هو واجب أو ممتنع أو جائز ، ولم يسمحوا للأصوات أن تتطور أو تُحدِث في بعضها تأثيرًا لا ينسجم مع قوانينهم الصوتية والصرفية التي استخرجوها من العرب الفصحاء والتي جاء بها القرآن .

وقد صرح بعضهم أن دراستَه لأصواتِ العربية حال الإفراد إنما يراد به معرفة أحكامها التركيبية وما ينجم عن تداخلها من آثار ، كقول سيبويه إمام العربية : « وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه ، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه ، وما تُبدله استثقالاً كما تدغم ، وما تخفيه وهو بزنة المتحرِّك » [٥].

وصرّح ابن دريد بالهدف الأعلى للدرس الصوتي فقال: « وإنما عرفتك المجاري

---

(١) النشر ١/٢٠٤ .

(٢) الكتاب ٤/٤٣٥ .

(٣) المرجع السابق ٤/٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٤) سر صناعة الإعراب ١/٦٤ .

(٥) الكتاب ٤/٤٣٦ .

لتعرف ما يأتلف منها مما لا يأتلف فإذا جاءتك كلمة مبنية من حروف لا تؤلِّف مثلها العرب عرفتَ موضع الدَّخل منها فرددتها غير هائب لها »(١) .

فأشار ابن دريد إلى أن الحفاظَ على أصواتِ العربيةِ هدفٌ مباشرٌ للدراساتِ الصوتيةِ ، وكما استخرج علماء العربية سنن العرب في كلامها استخرجوا سننها في تأليف حروفها ومزج أصواتها ، واتخذوا من نظامِ تركيبِ الحروفِ في الكلمة دليلاً تُعرَفُ بها عروبةُ الكلمةِ أو عُجمتها أو أنها مولدة . ووضعوا لنظام تآلف الحروف العربية قواعدَ عامَّة ، منها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - قول الخليل بن أحمد : « إن وردت عليك كلمةٌ رباعيةٌ أو خماسيةٌ معرَّاة من حروف الذلق أو الشفوية ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف واحدٌ أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أن تلك الكلمة محدثة مبتدعة ، ليست من كلام العرب ؛ لأنك لست واجداً من يسمع في كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحد أو اثنان أو أكثر » (٢).

٢ - أشار الخليل إلى أن بعض ما أهملته العرب يرجع إلى ناحية صوتية ، كقوله : « إن العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلا أن يشتق فعلٌ من جمعٍ بين كلمتين (النحت) »(٣) .

٣ - قول ابن جني : « إن الحروف في التأليف على ثلاثة أضرب : أحدها تأليف المتباعدة وهو الأحسن ، والآخر تضعيف الحرف نفسه ، وهو يلي القسم الأول في الحسن ، والآخر تأليف المتجاورة ، وهو دون الاثنين الأولين ، فإما رُفض البتة ، وإما قل استعماله »(٤) .

٤ - وذكر ابن دريد أنَّ قرب مخارج الحروف يمنع تأليف بعض الكلمات لثقلها على اللسان، وقال:« اعلم أنه لايكاد يجيء في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة لصعوبة ذلك عليهم ، وأصعبها حروف الحلق ، فأما حرفان فقد اجتمعا في كلمة مثل أخ بلا فاصلة ، واجتمعا في مثل أحد ، وأهل وعهد ونخع ، غير أن

---

(١) جمهرة اللّغة ، ابن دريد ٤٦/١ .

(٢) معجم العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ٥٨/١ ، تحقيق : د . عبدالله درويش (مطبعة العاني - بغداد) .

(٣) العين ٦٨/١ .

(٤) سر صناعة الإعراب ٨١٦/٢.

مـن شأنهم إذا أرادوا هذا أن يبدءوا بالأقوى من الحرفين ويؤخروا اللين ، كما قالوا (ورل) و (وَتِد) »[١] ، وذكر أن حروف أقصى الفم من أسفل اللسان لا تتجاور البتة بدون حاجز فقال: « لم تأتلف الكاف والقاف في كلمة واحدة إلا بحواجز : ليس في كلامهم قك ولا كق ، وكذلك حالها مع الجيم ، ليس في كلامهم جك ولا كج »[٢] .

٥ – ويدخل في ذلك ما ذكره الجواليقي في باب ما يعرف من المُعْرَب باختلاف الحروف :

« باب ما يعرف من المعرب باختلاف الحروف : لم تجتمع الجيم والقاف في كلمةٍ عربيّةٍ فمتى جاءتا في كلمة فاعلم أنها معربة ، من ذلك : جلوبق ، وجرندق ، والجوق والقبج .

ولا تجتمع الصاد والجيم في كلمة عربية، من ذلك الجِصّ والصنجة والصولجان ونحو ذلك .

وليس في أصل أبنية العرب اسم فيه نون بعدها راء ؛ فإذا مرّ بك ذلك فاعلم أن ذلك الاسم معرّب نحو : نرجس ، ونرسٍ ، ونِرسِيانٍ ونرجةٍ .

وليس في كلامهم زاء بعد دالٍ إلا دخيل ، من ذلك : الهندازُ والمهندز ، وأبدلوا الزاء سينًا فقالوا : المهندس .

ولم يَحكِ أحدٌ من الثقات كلمةً عربيةً مبنيةً من باءٍ وسين وتاء ، فإذا جاء ذلك في كلمةٍ فهي دخيل »[٣] .

وهناك قواعد صوتية للّغة العرب متعددة منها قولهم : لا يجتمع ساكنان ولا أربع متحركات ولا يبدأ بساكن أو مشدد ... ونحو ذلك .

ومن الجهود المشتركة بين القرّاء وعلماء العربية في حفظ أصوات العربية سعيهم إلى التقريب بين اللّغة المكتوبة واللّغة المنطوقة (العربية الفصحى) عن طريق وضع رموز صوتية تهدي إلى النطق الصحيح ، والاعتماد على الرواية المصاحبة للكتابة .

---

(١) الجمهرة ١/ ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) الجمهرة ١/٤٤ .

(٣) المعرب من الكلام الأعجمي (٧) لأبي منصور الجواليقي ، ط ١٣١٨هـ ، المدرسة الاسلامية .

لقد كانت الكتابةُ العربيةُ في صدر الإسلام مجردةً من الشكلِ والإعجامِ وعلاماتِ الترقيمِ التي نعرفها اليوم في لغتنا ، ومع ذلك كان من يجيدها من العرب يقرءون الكتابة معتمدين على سياق الكلام ودلالة السوابق واللواحق وينطقون بأصواتها طبعًا وسليقة لما كانت الفصاحةُ طبعًا فيهم ، وبعد انتشار العربية بين الأمم الأخرى ونشوء أبنائهم بين تلك الأمم فسدت السليقةُ ومع حاجتِهم إلى قراءة القرآن تبين للعرب أن تلك الرموز الكتابية ليست إلا وسيلة قاصرة للتعبير عن اللّغة تنقصها الكثير من الرموز الصوتية لتطابق اللّغة المنطوقة (الأدبية) قدر الإمكان وتحول دون الخطأ في قراءة القرآن ، فوضع أبو الأسود الدؤلي (ت : ٦٩) رموزًا صوتية للحركات في القرآن الكريم عدها بعض البحثة بمثابة المفتاح الأول لعلم الدرس الصوتي ، من الناحية الإنتاجية الشكلية(١) .

ثم وضع تلميذاه –وهما من القرّاء النحاة أيضًا– نصر بن عاصم الليثي ويحيى ابن يعمر العدواني النقط الإعجامي لتمييز الحروف المتشابهة لمنع اللبس والتصحيف في نحو : (د ذ ، ر ز ، ف ق ، ض ص ، ب ت ث ونحوه) .

ثم جاء الخليل ليفرِّق بين النقطتين ويضيف من الرموز الصوتية ما يعبِّر عنها في قراءة النصوص لا سيما القرآن الكريم ، فقام بوضع طريقة جديدة للشكل بأن جعل للفتحة ألفًا صغيرة مضطجعة فوق الحرف ، وللكسرة ياء صغيرة تحته (تغيرت بعد ذلك فأصبحت كالفتحة تحت الحرف) ، وللضمة واوًا صغيرة فوقه وإن كان الحرف المحرك منونًا كرر الحرف الصغير ، وأضاف علامات أخرى لضبط التلفظ بأصوات وحروف اللّغة ، فوضع للسكون رأس خاء بدون نقط (حـ) اشتقه من كلمة (خفيف) فدلّ به على السكون لأنه تخفيف ، ووضع للتضعيف الشين لأن الشين أول حرف في شديد ، فدل به عليه لأن الحرف مشدد (س) بدون نقط ، ووضع للهمزة رأس عين (عـ) لقرب الهمزة من العين في المخرج ، ووضع لألف الوصل أو مكانه رأس صاد (صـ) وهي من الفعل (صل) ، ووضع للمد الواجب ميمًا صغيرة مع جزء من الدال (مد) أو (~) ، وأظن أن علامة الروم والإشمام التي ذكرها سيبويه

---

(١) ينظر : كتاب : الأصوات العربية بين اللغويين والقرّاء ، د . محمود زين العابدين محمد ، ص ٣ (دار الفجر الإسلامية ١٤١٩هـ) .

من وضع الخليل أيضًا قال : « فللإشمام نقطة (٠) ولروم الحركة خط بين يدي الحرف » فالروم هو النطق بالحركة بصوت خفيّ أو ببعضها ، والإشمام الإشارة إلى الحركة من غير تصويت [١]. ومما لا ريب فيه أن هذه الرموز والعلامات الصوتية جعلت من الكتابة العربية صورة من الكلام أقرب إلى الحقيقة .

ومن جهة أخرى لم يكتف علماء العربية والقراء بتطوير الرسم للدلالة والتعبير عن أصوات اللّغة أو الوقوف عند تحديد مخارجها وبيان صفاتها ، بل اعتمدوا على الرواية المصاحبة للكتابة فأخذوا عن أفواه الرجال وشافهوا الأعراب واعتمدوا على التلقين بجانب الرسم لمعرفة النطق الصحيح للصوت المرسوم خاصة في قراءة القرآن ، فكان شعارهم (لا يؤخذ القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي) ، ومع اشتراط التلقين والتجويد في قراءة القرآن خلدت أصوات اللّغة الأدبية وثبتت عبر العصور مما جعل العربية في غنى عن المعامل والأجزة الصوتية لحفظ وتقديم النموذج الصوتي الموحَّد لها .

وظلت الوحدة الصوتية الزمانية والمكانية في اللّغة العربية الأدبية آية من آيات الإعجاز القرآني تدين له بخلودها وتوحد مجيدي القراءة واللّغة الفصحى في النطق بأصواتها على امتداد الوطن العربي الواسع ، هذا في حين قرر علماء الأصوات المحدثون واللغويون « أن النظام الصوتي بعيد كلّ البعد من أن يكون ثابتًا طوال تطور لغة من اللّغات » [٢]، وفي حين أخذت أصوات اللّغات الأخرى تختلط حروفها وتتبدل أصواتها[٣] .

وقد عرف المنصفون من أبناء تلك اللّغات هذه المكانة لأصوات اللّغة العربية ورموزها الكتابية ، علمًا أن الكتابة (بمثابة جسد هامد يبعث فيها النطق حياة) ، وعرفوا أن ذلك سبب خلودها فكتب (جول فرن) قصة خيالية بناها على سياح

---

(١) ينظر في ذلك : الكتاب لسيبويه ١٦٩/٤ ، وكتاب : الخطاطة ، د. عبد العزيز الدالي (٦٢) ، (مكتبة الخاجي ، ط ١٤١٣هـ) ، وكتاب : تاريخ آداب اللّغة ، جرجي ٢٢٢/١ .

(٢) اللّغة ، فندريس (٦٤) .

(٣) ينظر في ذلك ما ذكره د . صبحي الصالح في كتابه : فقه اللّغة (ص ٢٨٦) ، وينظر ما ذكره فندريس عن اطراد التغيرات الصوتية (٦٦) (اللّغة) .

يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها ، ولما أرادوا العود إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثرًا يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللّغة العربية ، ولما سئل (جول فرن) عن وجه اختياره للّغة العربية ، قال : إنها لغة المستقبل ، ولا شك أنه يموت غيرها ، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه[١] .

وقال (أرنست رينان) في معرض دهشته من كمال العربية وسطوتها : « ومن يوم عُلمت ظهرت لنا في حلل الكمال إلى درجة أنها لم تتغير أي تغير يُذكر»[٢].

---

(١) نقلاً عن : القياس في اللّغة العربية ، محمد الخضر حسين (١٢) .

(٢) نقلاً عن المرجع السابق ، (١٨) .

ثانيًا - تعميم بعض الظواهر والخصائص اللهجية :

من مظاهر الوحدة اللّغوية أن هناك بعض الصفات والخصائص اللهجية الخاصة دخلت إلى اللّغة الأدبية ، واستعملها جميع العرب بسبب مجيئها في القرآن واستعماله لها ، فالقرآن وإن نزل أكثره بلغة قريش فقد استحسن من سائر اللهجات الأخرى بعض الصفات والصيغ وكثيرًا من المفردات واعتبر أن الجزيرة بيئة لغوية واحدة أسهمت جميع لغاتها في بناء لغته بعد اختياره منها ومزجه بينها وفق منهج منظم قام معظمه على أساس لغة قريش وعرفت به اللّغة العربية الفصحى .

فالقرآن أسهم في بناء الفصحى كما أسهمت قريش في بنائها ثم خاصة العرب والشعراء والخطباء ، فاكتملت بنزوله محاسنُها ، واستقرت أحوالُها ، وقدم لها المثلَ الأعلى والنموذجَ الموحَّد فأمكن مع وجوده قياس لهجاتها عليه ، ومعرفة مدى توافقها واختلافها معه ، وسعت إلى متابعة لغته والسير على اختياراته التي من بينها بعض الصفات اللهجية المحلِّية غير المشتركة التي لم تجر عوائد بعض العرب على النطق بها ، واستعمالها إمّا لتخلصهم منها مع سبق وجودها ، وإمّا لحدوثها في لغة قوم دون آخرين ، ومع مجيء القرآن بها تذللت ألسنة جميع العرب بها بعد أن عمم استعمالها . من ذلك ما يلي :

١ - تعميم ظاهرة الهمز في اللّغة :

فالهمز من خصائص لهجة تميم وأكثر القبائل البدوية ، وهي من الخصائص التي جاء بها القرآن واختارها ، وقد كانت قريش وأكثر الحواضر العربية تخلصت منها بتخفيفها (بين بين) أو إبدالها أو حذفها ، قال أبو زيد : « أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون . وقف عليها عيسى بن عمر فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ؛ وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا » (١).

فدل قول ابن عمر على أن الهمز من صفات الفصحى التي اكتسبتها عن تميم ، أما حديثه عن اضطرار أهل الحجاز فيبينه لنا ما روي عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) كما يبين أن تعميم تحقيق الهمز عند من لا يحققها في لغته كان

---

(١) لسان العرب ١/ ٢٢ .

بسبب القرآن، فروي عن أمير المؤمنين علي (رضي الله تعالى عنه) قوله :« نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر ، ولولا أن جبرائيل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ما همزنا » [١].

وعليه فقد جاء الهمز كثيراً في قراءة ابن كثير أحد القراء السبعة وقارئ مكة ، رغم أن قريشاً كانت لا تهمز ، وفي مجال تقعيد اللّغة الأدبية اعتبر المتشددون من أنصار تقديم الأفصح على الفصيح أنَّ ترك الهمز لحنٌ أو خطأٌيجب تقويمه وإصلاحه وعقدوا له الأبواب في كتب اللحن ، من ذلك ما عقده ابن السكّيت في كتابه (إصلاح المنطق) وهو باب ما يهمز مما تركت العامة همزه ، وكذلك عقد له ابن قتيبة في أدب الكاتب وهو باب (الأفعال التي تهمز والعوام تدع همزها) وباب (ما يهمز من الأفعال والأسماء والعوام تبدل الهمزة فيه أو تسقطها) وعاب أيضاً همز ما لا يهمز فذكر باب ما لا يهمز والعوامّ تهمزه ، ووضعوا قواعد نظّموا بها وقوع الهمز وشروط التخفيف وقد روى أن لعبدالله بن إسحاق الحضرمي كتاباً في الهمز .

٢ - تعميم الإتباع لضمير الغائب المفرد لما قبله من كسرة أو ياء :

وهو من الخصائص التي اختارها القرآن وجاء بها وهي لا تنتمي إلى البيئة الحجازية ، ولكن عُمِّم استعمالها في اللّغة الأدبية وأصبحت من خصائصها .

فالإتباع أو التوافق الحركي من خصائص لغة البدو خاصة (تميم) يلجأون إليه دائماً ، لسرعتهم في الكلام ، فيُحدثُ نوعاً من الانسجام الصوتي يتيسر به النطق ويخف ؛ لأن اللسان - عادةً - ما ينطق به من موضع واحد .

يقول سيبويه في الهاء التي هي علامة الإضمار:« اعلم أنَّ أصلها الضم وبعدها الواو ؛ لأنها في الكلام كلِّه هكذا ؛ إلا أن تدركها هذه العلَّةُ التي أذكرها لك . وليس يمنعهم ما أذكر لك أيضاً من أن يخرجوها على الأصل .

فالهاء تكسر إذا كان قبلها ياء أو كسرة ؛ لأنها خفيَّة ، كما أن الياء خفيّة ؛ وهي من حروف الزيادة ، كما أن الياء من حروف الزيادة ؛ وهي من موضع الألف وهي أشبه الحروف بالياء . فكما أمالوا الألف في مواضع استخفافاً ، كذلك كسروا

---

(١) شرح شافية ابن الحاجب ٣٢/٣ . ويدخل في الاضطرار أيضاً تلك الكلمات التي لا بدّ من همزها نحو نشأ وبرء .

هذه الهاء ، وقلبوا الواو ياءً لأنه لا تثبت واو ساكنة وقبلها كسرة ... وأهل الحجاز يقولون : مررت بِهُو قبل ، ولديهُو مال ، ويقولون : (فخسفنا بِهُو وبدارِهُو الأرض)»[١] ونسب إليهم ضمها مع الميم وضم الميم مع زيادة الواو في الجمع فقال : « ومن قال: (وبدارِهُو الأرض) قال : عليهُمُو مال وبِهُمُو ذلك » [٢].

والذي اختاره القرآن واتصفت به الفصحى من ذلك هو كسر هاء الضمير لما قبله من كسرة أو ياء وحذف الصلة (الواو أو اليا) ، وفي علامة الجمع (هم) تكسر الهاء وتسكن الميم ، هذا في حال سبقت بكسرة أو ياء فتكون كالتالي : (بِهِ ، عليهِ، بِهِمْ ، عليهِمْ) ، وقد رتب الزجاج لغات العرب فيها وحكم على أجودها فقال : «وأجود اللّغات ما في القرآن وهو قوله عليهِ ، والذي يليه في الجودة عليهُ ، ثم يلي هذا عليهي ثم عليهو بإثبات الواو ، وهي أردأ الأربعة . فأمّا قولهم (عليهُمْ) فأصل الهاء فيما وصفنا أن تكون معها ضمّة ، إلا أنَّ الواو قد سقطت ، وإنما تكسر الهاء للياء التي قبلها ، وإنما يكون ما قبل ميم الإضمار مضموماً ، فإنما أتت هذه الضمة لميم الإضمار ، وقلبتْ كسرةً للياء »[٣] ، وبين أنها كثرت في القرآن[٣] .

واعلم أن اتباع هاء الضمير ليس مقبولاً في كلِّ موضع إلا ما سلف ذكره ، أمّا إن سُبقت بساكن أو مفتوح أو ألف فإنها تجري على الأصل ويلتزم فيها الضم نحو : (منْهُ ، لَهُ، إيّاهُ وكذا لَهُمْ، منْهُمْ ، إياهُمْ) ، وقد نبَّه سيبويه إلى ذلك فقال: « واعلم أن قوماً من ربيعة يقولون : منْهِم ، أتبعوها الكسرة ولم يكن المسكّنُ حاجزاً حصيناً عندهم . وهذه لغة رديئة ، إذا فصلت بين الهاء والكسرة فالزم الأصل ... »[٤] . وقد أطلق اللغويون على هذه الظاهرةِ اسم (الوهم) وفسِّر بأنه الغلط في حركة الهاء[٥] .

---

(١) سورة القصص : ٨١ .

(٢) الكتاب ٤/١٩٥ .

(٣) معاني القرآن وإعرابه ، للزجاج ١/٥١ ، ٥٢ .

(٤) الكتاب ٤/١٩٦ .

(٥) ينظر المزهر ١/٢٢٢ ونسب فيه إلى كلب .

٣ – تعميم بعض الاستعمالات الخاصة والمصادر والكثير من المفردات واستعمالها عند غير أهلها :

من ذلك إجراء فعل القول مجرى فعل الظن ، فهو استعمال اشتهرت به قبيلة سُلَيم غير أنه عُمِّم فجاء بمقتضاه حديث الرسول صلى اللّه عليه وسلم : « ما تقول ذلك يبقى من درنه » بمعنى : تظن . وقد ذكر العلماء أن دخول هذا الاستعمال في اللّغة الأدبية تقيد بشروط ولم يكن مطلقًا كما هو في لغته التي اشتهرت به ، إذ تعمله سُلَيم بلا شرط ، فذكروا شروط إعماله في اللّغة الأدبية عمل ظنَّ الذي ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر وهي : أن يكون فعلاً مضارعًا، مسندًا إلى المخاطب ، متصلاً باستفهام(١) .

وهناك الكثير من المفردات وبعض المصادر والصيغ الخاصة لا تنتمي إلى البيئة الحجازية أسهمت في بناء الفصحى وتكوين ظواهرها المتعددة كالترادف والتضاد والاشتراك ، وهذه الظواهر كما ذكرنا من قبل يستحيل تكوّنها من لهجة واحدة أو ظهورها فيها مهما بلغ ثراؤها وسعتها (٢).

وقد كشفت لنا الدراساتُ التي تناولت لغةَ القرآن وعُنِيَتْ ببيان ما وقع فيه بغير لغة الحجاز ، كشفت طبيعة تكون الفصحى التي لا نشك أن القرآن مثّلها في أرقى درجاتها وأكمل صورها ، فأظهرت تلك الدراسات أن لغة القرآن قامت أساسًا على لغة قريش ، ولكنها توسعت في مجال المفردات فأخذت عن جميع لغات العرب ما يناسب نظمها ويعبِّر عن معانيها ، معتبرةً أن لغات الجزيرة العربية تمثل بيئة لغوية واحدة يمكن الاختيار منها والاعتماد عليها فيما حسن منها أو احتيج إليه ، ولكن وفقَ منهجٍ واحد يضمن انسجام أصولها وقواعدها ويمنع من تعادي صفاتها .

وقد ذكر العلماء مجموعة واسعة من المفردات والألفاظ التي جاءت في القرآن بغير لغة الحجاز منسوبة إلى قبائلها ، من ذلك ما نقله السيوطي في النوع السابع والثلاثين من كتابه (الإتقان) وهو (ما وقع فيه بغير لغة الحجاز) ولا بأس من نقل طرف منه : « قال أبو القاسم في الكتاب الذي ألّفه في هذا النوع في القرآن :

---

(١) ينظر في ذلك : شرح شواهد التوضيح والتصحيح ، ابن مالك ، البحث ٢٩ .

(٢) راجع الترادف في بحثنا (١٠١ ، ١٠٢) وينظر (١٤٧).

بلغة كنانة: السفهاء: الجهال ، خاسئين : صاغرين ، شطره : تلقاءه ، لا خلاق: لا نصيب ، يعزب : يغيب ، موئلا : ملجأ، مبلسون : آيسون ، الخراصون : الكذابون، أسفارا : كتبا .

وبلغة هذيل : الرجز : العذاب ، صلدا : نقيا ، العنت : الإثم ، هضمًا : نقصًا، تفاوت : عيب ، المبذر : المسرف ...

وبلغة حمير : تفشلا : تجبنا ، سفاهة : جنون ، زيلنا : ميزنا ، مسنون : منتن، ينغضون : يحركون ، رابية : شديدة ...

وبلغة جرهم : القطر : النحاس ، معكوف : محبوس ، حدب : جانب ، الخلال : السحاب ، الودق : المطر ، الحبك : الطرائق ...

وبلغة أزد شنوءة : العضل : الحبس ، الرس : البئر ، غسلين : الحار الذي تناهى حره ، لواحة : حرّاقة ...

وبلغة مذحج : رفث : جماع ، الوصيد : الفناء ، حقبا : دهرا ، الخرطوم : الأنف ...

وبلغة خثعم : تسيمون : ترعون ، مريج: منتشر ، هلوعًا : ضجورًا ، شططا : كذبا ...

وبلغة قيس عيلان : حرج : ضيق ، تفندون : تستهزئون ، تحبرون : تنعمون ، يلتكم : ينقصكم ...

وبلغة كنده : فجاجا : طرقا ، بُسَّت : فتَّت ، تبتئس : تحزن .

وبلغة لخم ... وبلغة خزاعة .. وبلغة تميم وسبأ وسُليم وطيئ وعمان وأنمار والأوس والخزرج ... » [١].

وقد أشار العلماء إلى بعض المصادر والصيغ التي استحسنها القرآن من غير بيئة الحجاز وجاء بها، كمجيئه بالمصدر اليماني فِعّال في قوله تعالى:(وكذبوا بآياتنا كِذَّابا) [٢] . قال الفرّاء : « وهي لغة يمانية فصيحة يقولون : كذبت به كِذَّابا، وخرّقت

---

(١) الاتقان في علوم القرآن ، السيوطي ١/٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) سورة عم : ٢٨ .

القميص خِرّاقا ، وكل فعلّت فمصدره فِعّال في لغتهم مشدد »(١) .

وهكذا أسهمت جميع لغات العرب في بناء لغة القرآن (العربية الفصحى) وفق منهج موحد قام على اختيار الفصيح والمناسب للمعاني معتمدًا بشكل أساسي على لغة قريش ، مما جعلهم يطلقون اسمها على تلك اللّغة الأدبية التي جاء بها القرآن والآثار الأدبية تغليبًا ، وعلى هذا فُسِّر قولهم بنزول القرآن على لغة قريش ، فقال ابن عبد البر في التمهيد : « قول من قال نزل القرآن بلغة قريش معناه عندي الأغلب ، لأن غير لغة قريش موجود في جميع القراءات من تحقيق الهمزة ونحوها ، وقريش لا تهمز » وقال الشيخ جمال الدين بن مالك : « أنزل الله القرآن بلغة الحجازيين إلاّ قليلا »(٢) .

وبعكس هذه الحقيقة فهم بعض المحدثين طبيعة تكوّن الفصحى ، فأنكروا -اعتمادًا على بعض الظواهر – أن تكون اللّغة الأدبية في أصلها لغة قريش مضافًا إليها ما حسن من خصائص اللهجات وصفاتها ، وأنكروا أن تكون خصائصها هي الغالبة على اللّغة الأدبية ، ومن أبرز هؤلاء الدكتور عبدة الراجحي إذ يقول في كتابه (اللهجات العربية) : « ومع دخول هذه الخصائص إلى اللّغة الفصحى نقول إن خصائص لهجة قريش ليست هي الغالبة على غيرها . وليس أدل على ذلك من ظاهرة الهمز في العربية .. » (٣) ، وقال عن وصفهم لفصاحة لغة قريش وأنها لغة القرآن وأقوالهم في ذلك : « أنها لم تصدر إلا عن تمجيد لقبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم »(٤) ، ومن هؤلاء أيضًا الدكتور تمام حسّان إذ يقول في كتابه (الأصول) : « إن الذين زعموا أن الفصحى كانت في أصلها لهجة قريش لا يستطيعون أن يقدموا دليلاً علميًا واحدًا على هذا الزعم ، وأقل ما يقال في زعمهم إنه حكم على مجهول ورجم بالغيب وفرض غير صالح للتحقيق »(٥) ، ثم ادعى أن عنده فرضًا هو

---

(١) معاني القرآن ، الفرّاء ٣/٢٢٩ .

(٢) بواسطة الاتقان للسيوطي ١/٢٨٧ .

(٣) اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د . عبده الراجحي ـ٤٩) .

(٤) السابق (٤٨) .

(٥) (١١١) .

أقرب للحقيقة ما أن تسمعه حتى تعلم أنه انتهى به حيث بدأ وهو يقول : « وإن الفرض الآخر الذي أقدمه في هذا البحث أولى منه بالاعتبار لأن له ما يشبهه في حياة العرب منذُ قيام الدولة الإسلامية إلى وقتنا الحاضر ، فهناك لهجات محلية ولغة أدبية مشتركة »[١] ، وهذا الفرض العلمي – كما ترى – لم يبن لنا كيف تكوَّنت اللّغة الأدبية المشتركة وعلى أي شيء اعتمدت ؟ وقد بينّا لك في غير موضع من دراستنا أن اللّغة الأدبية المشتركة دائمًا ما تقوم على أساس لغة موجودة أهلتها عوامل خاصة على السيادة والانتشار ، وبينّا لك أنها تفقد في سبيل ذلك بعض خصائصها الذاتية وتكتسب بعض خصائص اللهجات الأخرى نتيجة الصراع اللّغوي[٢] .

(١) الأصول ، د . تمام حسّان (١١١) .

(٢) راجع ما ذكرناه في بحثنا في مظاهر الوحدة اللّغوية قبل الإسلام (١٢٤) ، وراجع (١٥٣) .

ثالثا - لغة الكتابة :

تتجلى مظاهر الوحدة اللغوية للعربية في لغة الكتابة بصورة واضحة ؛ إذْ كان العلماء في جميع أرجاء الخلافة الإسلامية في القرن الثاني عشر الهجري (عصر التدوين) يكتبون باللّغة الأدبية التي نزل بها القرآن في الفقه والتفسير والحديث واللّغة وفي شتى العلوم الإنسانية والطبيعية بما في ذلك ترجمة العلوم الدخيلة .

ويرتبط اتخاذ اللّغة الأدبية المشتركة في العربية لغةً للكتابة بنزول القرآن وتأخر انتشارها بين العرب إلى ما بعد الإسلام(١) إذ لم تتسع حياة العرب في الجاهلية للفن الكتابي بمفهومه الشامل الذي ينشأ بنشوء الجماعات المنظمة وينمو بنموها الفكري وتعظم الحاجة إليه ، وعندما جاء الإسلام ونزل القرآن حث عليها فكانت أول سورة نزل بها الوحي (اقرأ) ، واستخدم الكتابة وسيلة لدعوته ، وتدوين تراثه الفكري والشرعي في لغة أدبية كان بعد ذلك مثلها الأعلى ونموذجها الموحد ، فكما جمعهم الإسلام على دين واحد كذلك جمعهم على اختيارات لغوية واحدة ساروا عليها وألفوا وكتبوا بمقتضى قواعدها واختياراتها اللغوية كما تأثرت ألفاظهم وأساليبهم بلغة القرآن .

لا غرو في ذلك فالكاتب تتكيف ملكة اللّغة فيه على مقدار حفظه من ألفاظها وأساليبها والقرآن تلهج به ألسنة المسلمين في الصلاة والعبادة ولغته أكثر دورانًا في العربية حتى على مستوى اللّهجات المحليّة ولغة الخطاب العامية لأنها كثير ما تقترض من ألفاظه في حياتها اليومية التي يدخل الإسلام في أدق تفاصيلها فهو ينظم علاقة الفرد بالفرد وبالجماعة وبالخالق (جلَّ ثناؤه) .

وهكذا أصبحت العربيةُ الفصحى لغةَ العلمِ والثقافةِ بالإضافة إلى كونها لغةَ الدين . فكانت مؤلفاتُ أهل المشرق تُقرأ في المغرب ومؤلفات المغاربة تقرأ في المشرق على حدٍّ سواء ، وفي المقابل قامت كتب اللحن وتقويم الألسنة لتنقية لغة المثقفين

---

(١) نرى أن تأخر انتشار الكتابة بين العرب إلى ما بعد الإسلام سمح بتأثيره في لهجاتها وامتزاجها فجاءت الكتابة على هذا النحو ، ولو تقدمت قبل الإسلام لكان من الممكن أن تظهر فيها خصائص اللهجات ، وقد كان لكل من اللحيانيين والصفويين والثموديين كتابة خاصة تميّز كلاً منها عن الأخرى مع أن جميعها عربي واعتمد على المسند .

والكتاب على أساس اللّغة الفصحى التي نزل بها القرآن ، بعد اتخاذها في تعليم النشء وتدوين المؤلفات وإنتاج الأعمال الأدبية والعلمية ، وباتت لها قواعدُ ثابتةٌ يراعيها كلٌّ من أراد الكتابَةَ - بغض النظر عمَّن قد يخطئ فيها - في مختلف البيئات العربية فصارت اللّغةُ الأدبيةُ موحدةً ليس فقط في البيئات العربية المتعددة -مصر والشام والمغرب والجزيرة وغيرها - ، بل عبر العصور منذ نزول القرآن وحتى يومنا هذا ولم يصبها تغيُّرٌ يذكر في أصولها والفضل في ذلك يرْجِعُ إلى وجود القرآن بين ظهرانينا فكان الحارسَ الأمينَ لهذه اللّغة وسببًا في خلودها ومثلاً أعلى تفزع إليه الأمة العربية عبر العصور كلما أصاب لغتها الكهولة والفتور ، ونزعت إلى التغيّر والتبدل تماشيًا مع سنن اللّغات ، فيعيد اليها شبابها وفتوتها ويقيمها على طريقتها ، ويعمل على تربية الملكة اللغوية في الأمة حتى بات أبناؤها يقرءونه وكأنه نزل فيهم بالأمس القريب .

وعلينا ألاّ ننسى العمل البالغ الأهمية الذي قام به اللغويون والنحاة - بدافع ديني - حيث جمعوا اللّغة ووضعوا قواعدَها وحدودَها على نحو يجعلها مطابقة في كل عصر لمذهب القرآن والآثارالأدبية ، وأساليب الفصحاء ، وسنن كلامهم ، ثم تصديهم للتطور الذي من شأنه شقَ وحدتِها وتغييرِ قوالبِها إلا ما وافق روح العربية وقيس على كلام أهلها ، فتطورت في هذا الإطار مما جعلها تنمو وتتسع دون أن يفقدها تطورها شيئًا من مكتسباتها فهي بين جديد يضاف وقديم يبقى ومهجور يستعمل طالما قيدته المعاجم .

نعم تطورت لهجات الكلام العامية وتميزت في كل بيئة من البيئات العربية ببعض السمات الخاصة ، واستقلت ببعض المفردات ، وتغيرت فيها بعض الأصوات ، وتخلصت معظمها من الإعراب ، وهو أمر ليس بالجديد بل حدثنا عنه المقدسي منذ ألف عام في كتابه (أحسن التقاسيم) حين طاف البلاد العربية فحدثنا عن الخصائص اللغوية بكل إقليم من الأقاليم العربية وتميز لهجاتها ، وهنا يظهر أثر الإسلام في التوحيد اللغوي إذ منع ارتباط العربية بالإسلام من تطور لهجاتها إلى درجة تتحول معه إلى لغات مستقلة كما حدث للاتينية القديمة ، التي تحولت لهجاتها إلى لغات مختلفة وانقطع ما بينها من وحدة لغوية زمانية ومكانية ،اندثرت معها لغتها

الأم مخلفةً عدّةً لغات منها: (الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والرومينية) .

فاللهجات العربية بالرغم من استقلال أقاليمها سياسيًا بعد الخلافة الإسلامية ووقوع بعضها تحت الاحتلال الغربي في العصر الحديث (القرن التاسع عشر) ومحاولته الدعوة لتغريبها ، وبالرغم من تطور لغاتها المحلية بحيث استقلت بمجموعة واسعة من الخصائص والمفردات الخاصة إلا أنها لم تتحول إلى لغات مستقلة ، ولم يجد أهلُها صعوبةً في الاتصال اللغوي والثقافي بين أقطارها وذلك لتمسُّكهم بالعربية الفصحى التي نزل بها القرآن واتخاذهم لها في عبادتهم وكتابتهم واتصالهم فيما بينهم؛إذ يفهمها أكثر العرب أُميَّةً، وذلك لأن القرآنَ يطرق سمعَه بكرةً وعشيا ، وكذلك الحديث الشريف مع حرصه على تفهم لغتهما مما جعل العربيةَ الفصحى مألوفةً عنده قريبةً منه، وفي المقابل انحصراستعمال اللهجات العامية في نطاق ضيّق بين الرجل وأهله ، وداخل مجتمعه ، يستخدمها في حياته اليومية وشئونه الخاصة في التافه من القول وفي غير مواقف الجد من علم أو أدب أو سياسة أو دين .

وقد أورث ذلك اللهجاتِ المحلية ضعفًا في ذاتها إلى جانب رغبة الأمة في الحفاظ على لغة كتابها وتفهم معانيه فلم تقوَ تلك اللّغات على التحول إلى لغات مستقلة أو منافسة الفصحى في الكتابة ، وظلت مربوطةً بها بحبل من الله وحبل من الناس .

ويظهر أثر الإسلام في التوحيد اللغوي واتخاذ الفصحى لغةً للكتابة عندما نعلم أن اليهودَ والنصارى العرب لم يتخذوا العربية الفصحى في أوّل عهدهم بالكتابة (القرن الهجري الثاني) بل استخدموا اللّغة الدارجة في عصرهم وكانت عربيتهم ضعيفةً حتى ساد الاعتقاد بأن النصرانية والبيان العربي لا يجتمعان وقال قائلهم : «العربية لا تتنصر » [(١)]، وهذا –طبعًا– بعد فساد السليقة وإلا فقد كان منهم شعراء مقدمون على رأسهم الأخطل شاعر الدولة في العصر الأموي علمًا بأن علماء اللّغة لم يأخذوا عن النصارى اللّغة بدعوى أنهم كانوا يقرءون بالعبرانية كما جاء في قول

(١) أدباء العرب ، بطرس البستاني ٣/٢٢٧ ، (دار مارون عبود – بيروت) .

الفارابي عندما ذكر القبائل التي عزف علماء اللّغة عن الأخذ منها حيث قال : « ولا من قضاعة وغسان ، وإياد ، لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية »[1] فدلَّ ذلك أن تأثرهم بلغة كتابهم قد أورث لغتهم ضعفًا منع العلماء من الأخذ عنهم ، هذا إلى جانب مجاورتهم الأمم الأخرى ، فكان أثره على لغتهم معاكسًا لأثر القران في لغة العرب ؛ إذ كان مثل العربية الأعلى الذي نهض بلغة أهلها ووحَّدها .

وإلى فقد اليهود والنصارى لهذا المثل الأعلى عُزي ضعف لغتهم واتخاذهم العامية في كتابتهم ، فقال يوهان فك في كتابه (العربية) : « أما اليهود والنصارى بالمشرق ، الذين كانوا يعيشون في جو من التراث الأدبي ، يختلف تمامًا عن محيط العالم الإسلامي من حولهم ، فقد ظلوا طويلاً دون أن يكون لهم نصيب من الثقافة الإسلامية. ولذلك لم يستخدموا، لأول عهدهم بالكتابة العربية ، تلك العربية الفصحى، بل اللغة الدارجة في عصرهم . ومن هنا كانت الآثار المسيحية العربية الأولى التي ترجع إلى القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، ذات أهمية كبيرة لتاريخ اللّغة العربية ، إذ فيها نجد نصوص العربية المولدة لأوّل مرة في صورة متماسكة »[2] . ثم أكَّد على جهة الضعف اللغوي وبيّن سبب اتخاذهم العامية في الكتابة فقال : « ولم يكن للنصارى واليهود ، الخاضعين لسلطان الإسلام بالمشرق ، حظ من المثل الثقافي الأعلى ، وقد ألفوا ، من حيث إنهم ذوو أديان نص القرآن على حقها من التسامح والحماية ، جماعاتٍ دينية في الدولة الإسلامية ذات استقلال ثقافي ، وإدارات خاصة بشئونهم ، وقوانين مقصورة عليهم ، كما كانوا يحيون حياة اجتماعية واقتصادية خاصة بهم . وعلى عكس ذلك كانوا يشاركون جيرانهم المسلمين في لغتهم الدارجة »[3] . ثم قال بعد أن أخذ يترسم نشوء العربية المولدة في كتابة النصوص النصرانية واليهودية العربية مبينًا مواطن ضعف لغتها بمخالفتها قواعد العربية واستعمالاتها العامية ، قال : « فهذا ما تدل عليه النصوص النصرانية

---

(١) نقلاً عن المزهر ٢١٢/١ .

(٢) العربية ، يوهان فك ، ترجمة : د. رمضان عبد التواب (١٠٩) .

(٣) المرجع سابق (١١٠) .

العربية ، أو اليهودية العربية ، التي ترجع قيمتها من الوجهة اللغوية التاريخية إلى أنها تعين على متابعة اللهجات الشعبية الحديثة حتى ظهور الأسلوب التحليلي للّغة ، في وقت كانت الآداب العربية المكتوبة بأقلام المؤلفين المسلمين ، ما تزال في أسلوبها اللغوي ، مليئة بالمثل العليا للعربية الفصحى »[(١)].

وقد ذكر إسرائيل ولفنسون أن من اليهود في مصر من استخدم العامية لغة في الكتابة بحروف عبرية ، فقال : « وهناك مرجع قيم للبحث عن اللهجة العامية في القرون الوسطى لم ينتبه إليه أحد قبلنا وهي مدوّنات يهودية أغلبها تفاسير لكتب التوراة والتلمود ، ومصنفات في الأخلاق والفلسفة وفي سير الآباء الأقدمين وهي كلها مكتوبة بلغة عامية مصرية كانت مألوفة عند اليهود في عصر الفاطميين ولا تتميز هذه الرطانة اليهودية عن العامية المصرية إلا بوجود كثير من الألفاظ العبرية فيها وقد كتبت هذه المؤلفات بالحروف العبرية على أن لغتها عربية عامية ليفهمها طبقات الشعب من يهود مصر »[(٢)].

وحاول بطرس البستاني تعليل ضعف لغة النصارى بقوله: «إنه بسبب عزوف النصارى عن اللّغة والأدب بعد ذهاب العصبية العربية بعد العصر الأموي وانتشار الفساد اللغوي في العصر العباسي بكثرة الأعاجم ما جعل اللسان العربي لا يستقيم أمره وتحصيله إلا بالتعلم ، والعلم يومئذ ينحصر في المساجد ، فلم يحظ به غير المسلمين فاحتكروا بذلك الأدب وطبعوه بطابع الإسلام »[(٣)] .

فأصاب بطرس في مقدمة كلامه وأخطأ في نتيجته إذ لم يكن العلم في الخلافة الإسلامية محصوراً على قوم دون آخرين . وقد لاحظنا أن العربية استعملت عند بعض أهل الأمصار قبل أن يسلموا لأسباب علمية واجتماعية ، وقد مرّ بنا أن ترجمة التوراة والإنجيل في بعض الأمصار العربية والإسلامية لجأ إليها رهبانهم وقساوستهم لتعليم أبنائهم الذين لا يحسنون غير العربية أمور دينهم وكي لا ينعزلوا اجتماعياً[(٤)] .

---

(١) العربية ، يوهان فك ، ترجمة : د. رمضان عبد التواب (١١٨) .

(٢) تاريخ اللغات السامية (٢٢٢ ، ٢٢٣) .

(٣) أدباء العرب ، بطرس ٢٢٦/٣ ، ٢٢٧ ، بتصرف .

(٤) راجع ما كتبناه في العامل الاجتماعي (٢٧١ - ٢٧٧) .

وبهذا يتضح أن ضعف لغة أهل الكتاب نجم عن فقدهم للمثل الأعلى ، بالإضافة إلى تأثُّر لغتهم بالترجمة الركيكة لكتبهم المقدّسة ، خاصة وأن فريقًا منهم ناصب الفصاحة العداء لا لشيء سوى أنها سمة القرآن ، فكانوا « يتبركون بالركيك من القول ويستوحشون من العربي الجزل البليغ» وإذا عمد أحدهم إلى تعريب التوراة تعمد المرذول والركيك الساقط نأيًا به عن شبه القرآن على حد زعمهم[١] ، و ﴿ أنّى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ [٢]، فلم يكسبوا لغتهم إلا ضعفا ولا أحلامهم إلا سفهًا بتفريطهم في حق لغتهم وما جنوه على أبنائهم الذين تأثّروا بلغة كتبهم ، التي عدَّ العلماء التأثر بها من أسباب ضعف الأساليب الكتابية والنزول باللّغة .

فقال الرافعي في ذلك : « لا أعرف من السبب في ضعف الأساليب الكتابية، والنزول باللّغة دون منزلتها إلا واحدًا من ثلاثة ، فإمّا مستعمرون يهدمون الأمّة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي أمّة به ولن تكون أمّة إلاّ به ، وإمّا النشأة في الأدب على مثل نهج الترجمة في الجملة الإنجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ، وإمّا الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف »[٣].

وقد رد عليه الأديب الأمير شكيب أرسلان بموافقته على توفر جميع هذه الأسباب وأن تلك الفئة التي عادت الفصاحة هي ممن عجز عن الفصيح فأبغضه واستأنس بالركيك لأنه هو الشيء الوحيد الذي يقدر عليه[٤] .

وفي الحقيقة أن لغة النصارى قد تخلصت من ذلك الضّعْفِ منذ القرن التاسع عشر على أيدي أولئك الشرفاء الذين اتخذوا العروبة خيارًا قوميًا ، ولغة القرآن خيارًا لغويًا بعد أن التزموا بها في شكل قواعدَ نحويةٍ وأساليبَ بلاغيةٍ كانت قد أُفرِغت فيها وبُنِيت على أساسها واستُنبِطت منها ، بل اعتبروا القرآنَ نصاب اللّغة وقطبها الأوحد فكان منهم من يحفظ آياته ويحتج به في تقرير اللّغة من هذا المنطلق، كما أسهم اهتمامهم بتعليم الفصحى في مدارسهم الكنسية في النهوض بلغة

---

(١) بين عن هذا التوجّه عند بعضهم أحمد فارس في كتابه (الفارياق أو الساق والساق) وهذه عبارته نقلناها من كتاب (تحت راية القرآن للرافعي)(٣٥) . ولا يخفى على القارئ أن هذه الفئة اعتذرت بمنهجها عن ضعف لغتها ، فكان حالهم كحال من إذا أعياه كرم العنب قال هو حامض ، أو من لم يقدر على الشيء فقال لا أريده .

(٢) سورة سبأ : ٥٢ . (٣) تحت راية القرآن ، الرافعي (٢٨) .

(٤) أورد الرافعي هذه المقالة لشكيب في كتابه (تحت راية القرآن) (٣٤ – ٤٢) فينظر إليه .

متعلميها فظهر من النصارى كتّابٌ وشعراءُ لا يشق لهم غبار ، وظهر منهم النحاة واللغويون ، وقد لفت نظري قول جرجي زيدان في ترجمته للشيخ ناصيف اليازجي اللبناني (ت : ١٨٧١م) « وأنه أول من راجت كتبه اللغوية في المدارس العربية من النصارى »[١] .

وهذا يدل على بداية تغير تلك النظرة إلى لغة النصارى وظهور مؤلفات لغوية صنعها أبناؤهم يحفل بها المجتمع .

وعلى النقيض من أولئك الذين ناصبوا الفصاحة العداء ووافق هواهم هوى المستعمر فدعوا إلى نبذ الفصحى واتخاذ العامية في الكتابة ، تصدى هؤلاء لتلك الدعوة كما تصدى لها المسلمون ، فعندما قامت صحيفة المقتطف في بيروت بترديد دعوة المستعمر باتخاذ العاميّة في الكتابة ، سارع منهم رجل غيور بالرد عليه وهو الشيخ خليل اليازجي (ت : ١٨٨٩م) ابن الشيخ ناصيف اليازجي سالف الذكر ، فكتب في نفس الصحيفة في العددالتالي للعدد الذي صدرت فيه الدعوة (كانون الأول سنة ١٨٨١م) مشيراً إلى نقطتين :

أولاهما: أن اتخاذ العاميّةِ للكتابة فيه هدُم بنايةالتصاريف العربية من أساسها وإضاعةُ كثير من جهود المتقدمين ، ثم تكلف مثلها في المستقبل .

والأخرى: هي أن عامّة الناس وجهّالهم ، يفهمون العربية الفصيحة، ويتذوقونها على عكس ما يدعيه خصوم العربية[٢] .

وبأمثال هؤلاء تغيرت النظرة إلى لغة النصارى على الأقل بالنسبة لهم في ألسنتهم ومداد أقلامهم .

ويجدر بنا أن نتحدث في هذا المقام عما وراء الدعوة إلى العامية واستخدامها في الكتابة لا سيما وهي الطريقة المثلى لشق الوحدة اللغوية ومحاربة الإسلام ، مع اعتذاري عن هذا التصريح فليس ذلك بخافٍ عن أعدائنا بقدر ما خفى على بعض أبناء جلدتنا الذين تأثروا بدعوات أعداء الفصحى والإسلام ،المكسوّة – في أغلب

---

(١) تاريخ آداب اللّغة ، جرجي زيدان ٤٠/٥٩٨ .

(٢) نقلاً عن كتاب : اللسان العربي والإسلام معًا في معركة المواجهة ، د. السيد رزق الطويل (٥٥ ، ٥٦)، سلسلة دعوة الحق ، رابطة العالم الإسلامي ، عدد (٦٠) .

الأحيان- بثوب التجديد والتيسير اللغوي أو التطوير والوصول إلى أفهام العامة .

عرف أعداء الإسلام تلك العلاقة الوثيقة والارتباط العكسي بين الإسلام والعربية الفصحى ، فاستهدفوا اللّغة العربية كوسيلة غير مباشرة لضرب الإسلام ، لِمَا وجدوه من أن الهجوم المباشر على الإسلام يحرك ضمير الأمة ويجمع صفها في الدفاع عنه ، يدفعهم إلى ذلك أحقاد دينيَّة وأطماع استعمارية يصعب تحقيق أهدافها إلا بتفريق الأمّة وإبعادها عن دينها مصدر قوتها ، فقام بعض أبنائهم من المستشرقين بالدعوة إلى العاميّة واتخاذها في الكتابة ونبذ الفصحى لصعوبتها المزعومة وبعدها عن أفهام العامة كهدف معلن ، أما الهدف الحقيقي فهو إغلاق القرآن والحديث على الأفهام وقطع ما بين المسلمين ومصدر تشريعهم ، وتأهيل اللهجات العربية لتتحول إلى لغات مختلفة ، وشق ما بينها من وحدة لغوية ممثلة في العربية الفصحى ؛ فتتفرق على إثرها العرب ، ويصبح الاتصال اللغوي والثقافي فيما بينهم شبه مستحيل إلا ما كان عن طريق الترجمة ، كما يترجم الفرنسي عن الإيطالي والإنجليزي عنهما وهكذا .

ولم يخفَ هذا الهدف في يوم من الأيام على الأحرار من أبناء أمتنا ، فقد نشرت الهلال عام ١٩٣٤م مقالاً للدكتور حسين الهراوي ضمّنه تقريرًا وقع في يده للجنة العمل المغربي الفرنسية ، يقول الدكتور حسين : « فرأيت هذا التقرير يتبع السياسة الاستعمارية ، ويصف مقاومة الإسلام ، والتقارير السرية التي يرسلها المستشرقون في البلاد المستعمرة إلى حكوماتهم لمقاومة الإسلام ، لأن روحه تتنافى مع الاستعمار ، وأن أوّل واجب في هذا السبيل هو التقليل من أهمية اللّغة ، وصرف الناس عنها بإحياء اللهجات المحلِّية في شمال أفريقيا واللغات العامية حتى لا يفهم المسلمون قرآنهم ، ويمكن التغلب على عواطفهم »(١) .

وبالفعل فقد كان المستشرقون أوّل من نادى بالعاميّة ودعا إلى استخدامها في الكتابة ، بل عملوا على تنفيذ المخطط ، فقام (ولهم سبيتا) وهو ألماني يعمل في دار الكتب المصرية ، قام بتأليف كتاب سماه (قواعد اللّغة العامية في مصر) ، ثم تلاه

---

(١) بواسطة اللسان العربي والإسلام معًا ، د . رزق الطويل (٧٩) .

ألماني آخر وهو (كارل فولرس) فألف في عام ١٨٩٥م كتاباً سماه (اللهجة العامية الحديثة في مصر) ، وفي الجانب التنفيذي أيضاً قام المهندس الإنجليزي (وليم ويلككس) في عام ١٩٢٦م بترجمة الإنجيل إلى العاميّة المصرية .

وقد لبى النداء بعض الأذناب ومن وافق هواه هوى المستعمر من أعداءالفصحى وحمل راية الدعوة إلى التفريق أشخاص دارت حولهم علامات استفهام على رأسهم (يعقوب صنوع) يهودي مصري أصدر صحيفة (أبو نضال) باللّغة العامية في باريس عام ١٨٧٩م ، ومنهم سلامة موسى في مصر واسكندر المعلوف ، وسعيد عقل في لبنان ، وهم من النصارى ولهم كتابات يدعون فيها إلى العامية والكتابة بها .

وقد لاقت تلك الدعوةُ الفشلَ الذريعَ في جميع الأقطار العربية وتصدى لها المخلصون وكشفوا أبعادها ومغزاها ونبّهوا المفتونين بها بآثارها ، واستهجنها العامّة قبل الخاصة ، وذلك عندما علموا أنها تستهدف القرآن ووحدتهم القومية واللغوية . بل استهجنها الشرفاء من أبناء أوربا إذ قال المؤرخ الإنجليزي (أرنولد توينبي) مشيداً بقيمة الفصحى في وحدة العالم الإسلامي: « إن هناك بلاداً إسلامية عربية اللّغة ، وإذا كانت لغة التخاطب تختلف حسب المناطق فإن اللّغة الفصحى واحدة من شواطئ الخليج العربي ، ومن حلب والموصل شمالاً ، حتى الخرطوم ، وعدن ومسقط وزنجبار جنوباً ، جميع الكتب الصادرة في القاهرة ودمشق وبيروت ، تُقرأ في هذه المنطقة الشاسعة كلها ، وحتى خارجها ، لأن اللّغة العربية هي اللّغة الدينية لجميع البلدان الإسلامية ، حتى تلك التي تستخدمها في التخاطب ، فهل من الضروري أن يُجزأ هذا العالم العربي إلى عشرين دولة مستقلة ، تعيش بعزلة تامة بعضها عن بعض ؟ »(١) .

وهذا الذي ذكره (توينبي) شهادة بالوحدة اللغوية التي حققها الإسلام ، وتحذير من إحياء القوميات المحلية التي تؤدي إلى تفريق الأمّة وتفضي إلى قطع لسانها متى تعصب كل فريق إلى لهجته .

وفي الختام نود أن نشير إلى أن ظهور اللهجات العربية لا ينافي الوحدة اللغوية طالما ظلت اللغة العربية الفصحى لغة للكتابة والعلم والثقافة والأدب في جميع

---

(١) نقلاً عن كتاب : اللسان العربي والإسلام معاً (٤٥ ، ٤٦) .

الأقطار العربية ، وأن ما نراه في واقعنا اللغوي من وجود مستويين لغويين أحدهما فصيح والآخر عامي هو أمر طبيعي ناجم عن اختلاف خصائص اللّغة المكتوبة عن اللّغة المنطوقة ، فاللّغة الفصحى تمثل لغة الكتابة واللهجات العامية تمثل لغة المشافهة، وإليك ما يتعلق بهذا الجانب من خصائص كلٍّ منهما :

اللغة المكتوبة :

١ - تستخدم اللغات المكتوبة اللغة المشتركة ، وهو أمر تكاد تجمع عليه جميع اللّغات ، يقول فندريس : « اللّغة المكتوبة هي الطابع المميز للّغات المشتركة ، واللّغة المشتركة بطبعها في نزاع دائم مع اللّغة المتكلمة ؛ لأن هذه الأخيرة ، في خضوعها للتأثيرات الفردية ، تميل دائماً إلى الابتعاد عن المثل الأعلى الذي تحتذيه اللّغة المشتركة »[١] ، ويقول أيضاً : « فلسنا - على عكس ما يتصور كثير من الناس - نكتب كما نتكلم، بل إننا نكتب (أو نحاول أن نكتب) كما يكتب غيرنا، وإن أقل الناس ثقافة يشعرون بمجرد وضع أيديهم على القلم ، بأنهم يستعملون لغة خاصة غير المتكلمة ، لها قواعدها واستعمالاتها كما أن لها ميدانها وأهميتها الخاصين بها »[٢].

٢ - تتميز اللّغة المكتوبة بالثبات وشبه الجمود . لا أقصد بذلك رسمها فقط بل مادتها اللغوية وتراكيبَها وأساليبَها وجميعَ قواعدها ، فتبقى محافظةً على لغتها فترات زمنية طويلة حتى تتغير لأنها تستعمل في التعليم والتأليف فتظل الحاجةُ إليها قائمةً ، هذه سمتها في جميع اللغات الإنسانية ، أما حالتها في العربية ومع احتياج المسلمين إليها في قراءة القرآن لم يكن مصيرها إلا الخلود وكذلك هي حتى الآن . وهذا الثبات أمر قرره علماء اللّغة في جميع اللّغات المكتوبة ، يقول فندريس في ذلك : « فاللّغة المتكلمة تتطور دون توقف ، أما اللّغة المكتوبة فمحافظة بطبعها ، لا لأنها تعبير مشخص للّغة المشتركة وقد قننها النحاة فحسب ، بل أيضاً لأنها لا تستطيع التغير بنفس السرعة التي تتغير بها اللّغة الكلامية . نعم إن قوة التقاليد تصير أمراً خطيراً عندما تحميها المدرسة والآداب وإجماع المثقفين ، ولكن التقاليد هنا ليست العقبة الوحيدة في سبيل تطور الكتابة ، فالثبات ضروري للّغة المكتوبة ، لأنها تعتبر

---

(١) اللّغة ، فندريس ، عبد الحميد دواخلي ومحمد القصاص (٤٠٥) .

(٢) المصدر السابق (٤٠٤ ، ٤٠٥) .

لغة مثالية حددت معالمها نهائيًا ، ولا يمكن المساس بها إلا بعد فوات الأوان » (١).

وعلى النقيض من ذلك خصائص **اللغة المنطوقة** :

١ - يكثر فيها استخدام اللّغة المحلية الخاصة غير المشتركة ، فنادرًا ما تجد إنسانًا يتحدث مثل ما يكتب إلا في الميادين التي تقتضي الحديث بلغة الكتابة ، كميدان العلم والأدب والثقافة والدين والميادين الرسمية .

٢ - التطور والتغير المستمر من أبرز خصائصها ، فلا تكاد تقف عند حد معين لا سيما إذا كثر المتحدثون بها وانتشروا في مناطق واسعة فعندئذٍ تأخذ أشكالاً مختلفة في تطورها تختلف من بيئة إلى أخرى ، ومع تتابع التغيرات وطول الزمن لا تلبث أن تتحول إلى لغات مستقلة ، وهو ما نجت منه اللهجات العربية بفضل ارتباط أهلها بلغة القرآن ، وفي هذا يقول ولفنسون : « وطبيعي أن تؤدي هذه النهضة العلمية إلى تدرج وتحول عظيمين في اللّغة العربية فقد نشأت لهجات كثيرة مختلفة وظهرت أساليب شتى متباينة كان حتمًا أن تصل في نهاية أمرها إلى الانفصال عن العربية لولا تأثير القرآن الذي لَمَّ شعث العرب وحمل المسلمين على أن يحافظوا على اللّغة العربية محافظة شديدة » (٢).

هذه هي الحدود الفاصلة بين لغة الكتابة والمشافهة وهي نفس الحدود بين العربية الفصحى واللهجات العامية وهو أمر تشترك فيه جميع اللغات إلا أن لغاتهم تتغير ولا تتغير لغتنا ، ولهجاتهم تتطور وتتحول إلى لغات مستقلة ، ولهجاتنا تتقارب فيما بينها ، وتتكسر الحواجز اللهجية الخاصة أمامها كلما ازداد احتكاكها وانتشر التعليم بين أهلها ، لأنها تدور حول محورٍ واحد هو العربية الفصحى تصطنعها في كتابتها وعبادتها وعلومها وثقافتها وآدابها ، وتقترض من ألفاظها وأساليبها حتى قيل : « إن اللهجات العامية العربية غير بعيدة من اللّغة الفصيحة بوجه عام حتى إنه اتضح للعلماء أن كلماتٍ عامية يظهر كأنها بعيدة جدًا من الأصل العربي هي في الواقع - بعد البحث العميق - موجودة في المادة اللغوية .. ثم إن هناك جملة من الألفاظ ضاعت من المادة اللغوية الفصيحة ولكنها بقيت مستعملة في

---

(١) اللّغة ، فندريس ، (٤٠٨) .

(٢) تاريخ اللغات السامية ، ولفنسون (٢١٦) .

اللهجات العامية »[١] .

هذه هي حقيقة الوحدة اللّغوية وهذا هو أثر الإسلام في حدوثها إذ حوَّل اللغات المختلفة إلى لهجات ، ثم أذاب الفروق بين اللهجات مع تخليده للغتها الفصيحة ، وهو أثر خارق تفردت به العربية عن سائر اللّغات وخالفت به سننها .

ولهذا فإن حقيقة التوحيد اللغوي في العربية يتمثل في لغتها الفصحى وهي لغة الكتابة والتأليف ولغة الحديث في الميادين الرسمية غير الخاصة ، أما اللهجات الخاصة فتوحدها يعني تقاربها وإذابة الفروق اللغوية بينها ، فهي بين توحد يعقبه خلاف يكون أقل منه قبل التوحد لأنها تشربت خصائص اللغة التي توحدت على أساسها وهي الفصحى ثم يعقبه توحّد جديد ، وكذلك حالها لأنها لغة منطوقة واللغات المنطوقة في تطور مستمر ، ولهذا فنحن لا نرى أن وجود اللهجات ينافي الوحدة اللغوية أو أن وجود الوحدة يقتضي القضاء على اللهجات طالما أنها في تقارب مستمر ويقتصر استعمالها في الحياة العامية دون أن تنافس الفصحى في مجالاتها .

(١) قاله ولفنسون في تاريخ اللّغات السامية (٢٢٠) .

الخاتمـــــة

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وبعد :

هذه خاتمة ما لم يغلق البحث عن علم درسه وبيانه ، وبداية ما لم يطرق علمه وآثاره - قبل هذا - بشكل مباشر أو بكتاب خاص يشرح معانيه ويُبين عن (أثر الإسلام في التوحيد اللغوي) إلا ما جاء منثوراً في بعض التفاسير وكتب اللّغة والقراءات وفي أقوال العلماء في معرض دراستهم لغير هذا الموضوع بالذات ، وكأنه عندهم من المسلّمات التي لا يختلف فيهااثنان أو يتمارى فيها متخاصمان ، ولا يجهلها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وإن صحّ ذلك ففيه يكمن السِّر ؛ إذ أصبح ذلك مسلماً به دون أن يُعلم أثره، أو يقدّر دوره حق تقدير ، فيعرف بذلك فضله للأجيال اللاحقة ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه : « تضعف عرى الإسلام عروة تلو عروة كلما ظهر من المسلمين من لا يعرف الجاهلية) وكذلك الأمر بالنسبة للّغة .

وعليه فقد قامت دراستنا لبيان أثرالإسلام في التوحيد اللغوي وعرضت لما يلي:

تناولنا في المدخل معنى اللّغة ودرجاتها والنظريات حول نشأتها وأثر ذلك على تفسير ظواهرها وبينّا كيف تأثرت بعض التفسيرات بنظرة العلماء إلى نشأة اللّغة لا سيما أحمد بن فارس الذي فسر جميع ظواهر اللّغة على التوقيف بخلاف ابن جنّي الذي فسر معظم ظواهرها على الوضع ، حتى المحدثين وقع بعضهم تحت هذا التأثير في تفسيرهم لأسباب اختلاف اللغات دون أن يتكلفوا دراسة ذلك في اللغة نفسها.

وفي المدخل أيضاً تناولنا اللّغات العربية في الجزيرة وبينّا أنها كانت مختلفة ومتعددة وأن منها ما باد وانقرض ومنها ما تغير وانقسم بين عربية شمال وجنوب وبائدة وباقية ، وتعرّفنا على أسباب البيود والانقراض ، وأسباب التفرق والانقسام ووجدنا أن ذلك سنّة من سنن اللّغات خضعت لها جميع اللّغات بما فيها العربيةُ نفسها عندما تفرعت وأخواتها عن اللّغة السامية الأم .

واستطعنا في نهاية المدخل واعتماداً على مقدمته أن نفسر أسباب اختلاف لغات العرب وفيها تلك الأسباب التي قال بها أصحابها تحت تأثير نظرتهم لأصل اللّغة ، وذكرنا أن هناك أسباباً وطّأت لأسباب أخرى وهي سعة العربية وكثرة متحدثيها وانتشارهم في مناطق جغرافية واسعة مع تقادم العهد عليها فظهرت أسباب وعوامل أخرى أدت إلى اختلاف اللّغات بشكل مباشر وهي ظاهرة الخفّة والثقل ، والقياس المستقل ، ومجاورة الأمم الأخرى (الاحتكاك اللغوي الأجنبي) ، والعامل الزمني الذي أسهم في موت قديم واستحداث جديد يختلف من بيئة لغوية إلى أخرى .

وقد حرصنا من خلال المدخل أن نرسم للقارئ صورة حقيقية للواقع اللغوي في جزيرة العرب قبل الإسلام وإيقافه على سنن اللغات في التغيّر والاختلاف وبينّا له أن للعرب لغات بادت وانقرضت وأخرى تفرقت وانقسمت ؛ ليدرك مقدار أثر الإسلام في توحيد اللّغة توحيداً زمانياً ومكانياً متى تحدثنا عنه .

ولهذا الهدف قام الباب الأول أيضاً ، فالعربية الباقية (لغة أهل الشمال) تعرضت للانقسام – بالرغم من سيادتها على لغات الجنوب – فتفرعت إلى لهجات تختلف فيما بينها بدرجات متفاوتة حسب قربها وبعدها ودرجة اتصالها ببعض ، فكان الاختلاف بين لغة الشمال والجنوب أكثر اتساعاً إذ بلغ درجة يتعذر معها الفهم في كثير من الأحيان – كما يظهر في شكوى بعض الصحابة من عدم فهم أكثر ما يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم وفود العرب من أهل اليمن ، وهو ما استدعى – فيما بعد – نزول القرآن على سبعة أحرف ، ويقل الخلاف اللغوي بين اللهجات العدنانية فيما بينها وإن كان اختلافها بلغ درجة أصبح فيها لكل قبيلة –تقريباً– لغة تميزها عن غيرها وتختلف معها فيها ، وقد ذكرنا أن لا سبيل إلى الحصول على أمثلة وافية عن جميع اللّهجات العربية قبل الإسلام لأنها تعرَّضت للوأد والإماتة بما في ذلك الأحرف السبعة التي كان من الممكن أن تظهر لنا أمثلة الخلاف اللغوي التي نزلت مراعاة له . ولأن كلَّ ما وصلنا هو القريب من أرض الحجاز والشبيه بلغة القرآن بعد أن وضع العلماء تلك الاستثناءات والأسس

في أخذ اللّغة وجمعها فاستبعدوا أهل الحضر والقبائل البعيدة عن قلب الجزيرة والمتاخمة للأمم الأخرى ، كما أن كتب اللّغة والنحو قامت أساساً على تتبع اللّغة الأدبية إلا ما جاء عن اللّغات عرضاً ودوّنت أكثرها في القرن الثاني أي بعد ظهورالإسلام وانتشار آثاره في اللّغة .

ولكي لا نحرم من المثال حاولنا إثبات الفروق اللّغوية بين أقرب لهجتين وهما الحجازية والتميمية محاولين أخذها عن القدماء لأن أثر الإسلام في التوحيد اللّغوي استغرق فترة طويلة – نسبيًا – ولأن تلك الفروق قد تقاربت – بعد ذلك – بين جميع اللهجات العربية كما يبدو من قول ابن جني (من علماء القرن الرابع) عن الخلاف بين اللهجات العربية « هذا القدر من الخلاف لقلته ونزارته محتقر غير محتفل به ولا مَعِيجٍ عليه .. » وقد كان الخلاف قبل ذلك واسعًا ؛ تعسر معه الفهم بين الشمال والجنوب وقال عنه أبو عمرو بن العلاء : « ما لغة حمير وأقاصي اليمن بلغتنا ولا عربيتهم بعربيتنا » .

وقد بينّا أن الفروق بين أقرب لهجتين شمل جميع مظاهر اللّغة الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية فما بالك بالفروق بين اللّهجات التي استثناها العلماء في أخذ اللّغة وجمعها والبعيدة عن لغة القرآن .

وقد حرصنا أثناء عرضنا لمظاهر الخلاف اللغويّ في الباب الأول أن نترسم أسبابها وأن نقف على آثارهـــا في تكوين اللّغــة الأدبية ، وبالفعل وقفنا على الكثير من ذلك خاصــة في المظهر الدلالــي ، ووجدنا أن اللّغة الفصحى أفادت من اختلاف اللهجات في تكوين ثروتها اللفظية وظواهرها من ترادف واشتراك وتضاد وغير ذلك مــن الخصائص التي تميزت بها العربية وفاخرت سائر اللّغات الإنسانية .

وفي الباب الثاني ذكرنا أن بوادرَ الوحدة اللغوية بدأت قبل الإسلام لتضافر عدة عوامل أدت إلى التقارب اللغوي بين اللهجات العربية أهلت الجزيرة العربية لاستقبال الإسلام وكتابه الخالد لتتم به وحدتها الدينية واللغوية وترسخ دعائمها على الطريقة المثلى ، فعممها على جميع العرب على اختلاف بلادهم ولغاتهم أو

مستوياتهم الثقافية وأحدث توحيداً لغوياً امتد إلى لغات مختلفة خارج جزيرة العرب وخلدها على مرّ العصور .

وقبل ذلك أشرنا إلى خضوع اللّغة بين سنتين يتوقف مصير اللغات عليهما، الأولى ، سبق الحديث عنها في الباب الأول ، وهي تلك التي تقود اللّغة إلى التفرق والاختلاف إلى لهجات مختلفة ثم لا تلبث أن تتحول إلى لغات مستقلة بذاتها ، أما الأخرى التي قام الباب الثاني لبيانها فهي تلك التي تسير باللغات صوب التوحد والاندماج متى ما وجدت العوامل المؤثرة والمساعدة على تقاربها ، وذكرنا أن هاتين السنتين تخضع لهما جميعُ اللّغاتِ وتحدثُ عبر حقبٍ من التاريخ دون أن يشعر بها أهلها ، وأثناء التوحد والتفرّق قد تخرج لغاتٌ جديدة لا تقوى عوامل التقارب على ردها لأخواتها ، وأن التوحد الذي تشترك فيه اللّغات هو آني بحيث يَعْقُبه تفرُّق جديد ، وهكذا حتى تنقطع العلاقة اللّغوية بين أجيالها ، أما وحدة العربية فهي خالدة عبر العصور وتدين بذلك إلى الإسلام . ووضّحنا عوامل التقارب اللّغوي التي أدت إلى ظهور لغة مشتركة على الصعيد الخاص في طبقة المثقفين وبينّا أنها قامت بضرورة اجتماعية وأدبية واعتمدت أساساً على لغة قريش ، فكان أهمها الحج ، والهجرات ، وأسواق العرب ، والحروب ، وعمل الشعراء خاصة شعراء الحوليات ، وبينّا آثارها في تنامي الحاجة إلى لغة موحدة يتم بها الاتصال ويتوحد معها المعيار النقدي ، وشرحنا أثر كلٍّ منها في تكوين الفصحى وتأثيرها عليها وإثرائها ، وبينّا كيف كانت قريش تعد لغتها لتتبوء هذه المكانة باختيارها ما حسن من لغات العرب وإسقاطها المرذول والمستقبح من لغتها، ثم وقفنا على عمل الشعراء ودور القيود وأثرِهما في تكوين الفصحى وإثرائها والمزج بين اللهجات في ميدانها .

وفي آخر الباب الثاني ذكرنا أن مظاهر الوحدة اللغوية قبل الإسلام تتجلى في اللغة الأدبية المشتركة الموّحدة وهي العربية الفصحى التي جاءت بمقتضى قواعِدها وأصولِها آثارُ الجاهليين الأدبية وأعمالُهم اللغوية بصورة موحدة لا تفرق فيها بين شمالي وجنوبي وبين نجدي وحجازي بالرغم من اختلاف لغاتهم المحليّة (الخاصة) .

وعرضنا بعد ذلك لآراء أولئك الذين أنكروا قيام الفصحى على أساس لغة قريش وأنكروا أن تكونَ اللّغةُ المشتركةُ الأدبيةُ في أصلها لغةَ قريش ، وطعن بعضهم في صحة روايات القدماء ونزاهتهم ، ففندنا آراءهم ومزاعمهم بأسلوب علمي مقارن وبيّنّا لهم أن اللّغات المشتركة عادة ما تقوم على أساس لغة ساعدتها على السيادة والانتشار عواملُ ومؤثراتٌ خاصة (دينية ، سياسية ، اقتصادية ، مدنية واجتماعية) وهي التي توفرت للقرشية ، وقلنا إن ذلك أمر مطرد تكاد تشترك فيه جميع اللّغات المشتركة ، وقد قاله الغرب في لغاتهم المشتركة وأشرنا إلى أن عاملاً واحداً من العوامل التي توفرت للقرشية أدى إلى تكوين لغات مشتركة في غيرها .

وذكرنا أن اللّغةَ الفصحى هي القرشيةُ بعد خروجها من مكة وسيادتها على لغاتِ العرب ، واتخاذها لغة أدبية مشتركة من قبل غير أهلها ، ففقدت بذلك بعضَ خصائصها الموغلةَ في الذاتية نتيجةَ الصراع اللغوي واكتسبت ثروةً لفظيةً وخصائص جديدة اكتسبتها من اللغات العربية التي تغذّت بها وسادت عليها ، فارتقت بذلك عن العامّة من أهلها ، خاصة وقد أضفى عليها الشعراء والأدباء ما حَسُن من خصائص لهجاتهم ومفرداتها عندما اتخذوها لغة أدبية ، وعلى هذا فسَّرنا وصف القدماء للّغة الحجازية بأنها اللّغة الفصحى أو اللّغة الأولى القدمى ، أو عندما يقولون إن الفصحى هي لغة قريش (فذلك يعني في أصلها) .

وفي الباب الثالث تناولنا أثر الإسلام في التوحيد اللغوي ودرسنا أسبابَ الوحدة اللغوية التي كان الإسلام من ورائها بشكل مباشر وغير مباشر بما فيها تلك الأسبابُ السياسيةُ والاجتماعيةُ لأنه كما يقول لوبون : « كانت الدولة التي أسسها العرب هي الدولة العظمى الوحيدة التي قامت باسم الدين والتي اشتقت منه جميع نظمها السياسية والاجتماعية »[١] . وقلنا إنه بالرغم من ظهور بوادر الوحدةِ اللغويةِ قبل الإسلام إلا أنها لم تتحقق بمفهومها الشامل إلا بعد مجيء الإسلام ونزولِ القرآن ؛ إذ عمل على ترسيخ الوحدة اللغوية وتعميمها بين جميع

---

(١) جوستاف لوبون (حضارة العرب) بواسطة كتاب الحضارة العربية الإسلامية ، د . علي حسني الخربوطلي (٧٥).

العرب على اختلاف لغاتهم ومستوياتهم الثقافية ، لأن قوّة الشعور الديني دعت العامّة إلى تفهم كتابهم وتدبّر معانيه وحفظ آياته فخضعوا لتأثيره اللّغوي وتذللت به ألسنتهم مما جعل توحيد لغات العرب وتقاربها أمرًا يسيرًا تحقق بعد ذلك على يد عثمان حين جمع الناس على مصحف واحد (وهو الذي نزل بلغة قريش) وحرق سائرالمصاحف . وبالفعل فقد أصبحت الفروق اللغوية بين اللهجات العربية - بعد ذلك - يسيرة وفي شيء من الفروع وتقاربت فيما بينها ، وإذا لم أكن مخطئًا فإن ذلك من الأسباب التي أغرت بعض المتأخرين من علماء اللّغة ونحاتها بالاحتجاج بكل ما هو عربي ولم يفرقوا بين لغة وأخرى ويقتصروا على بعضها كما فعل القدماء .

ولم يقتصر أثر الإسلام في التوحيد اللغوي على اللهجات العربية وتعميم اللغة الأدبية بين أهلها بل أسهم في نشرها بين الأمم من حولهم فتوحدت بأثره اللغات المختلفة وبات يتكلم العربية من لا سابق عهد له بها وهي أسمى درجات التوحيد اللغوي ، ويطلق عليها أيضًا التعريب . وقد ذكرنا أن القومية العربية قامت على أساس لغويّ ، مما جعل بعض الأمصار تنتمي إليها فأصبحوا بذلك عربًا شأنهم شأن أهل الجزيرة ، وهو يتماشى مع روح العروبة وتقسيم القدماء لأنواعهم إلى عاربة ، ومتعربة ومستعربة .

وهناك نوع ثالث من أنواع التوحيد اللغوي كان بأثر الإسلام وحده وهو التوحيد الزماني أو الخلود ، إذ حافظ نزول القرآن باللّغة العربية الفصحى عليها وكان سببًا في محافظة أبنائها عبر العصور التاريخية عليها فحرصوا على عدم تغيرها وجمعوا اللّغة في عصر الفصاحة وقعّدوها على أساس اللّغة الأدبية التي نزل بها القرآن على نحو يجعلها مطابقة في كل عصر لمذهب القرآن والآثار الأدبية وأساليب الفصحاء في عصر الاحتجاج ، ثم تصديهم لأي تطور من شأنه شق وحدتها وتغيير قوالبها إلا ما وافق سننها وقيس على كلام أهلها وباتت محافظةً على أصواتها وأبنيتها وتراكيبها وأساليبها وجميع أصولها وقواعدها على صورة واحدة في جميع البلاد العربية وعلى مر العصور ، يستعملها أهلها

في الكتابة والتأليف والعلم والأدب والثقافة .

هذه هي أنواع التوحيد اللغوي الذي حققه مجيء الإسلام وقد حدث بشكل متدرج وبطريقة مباشرة وغير مباشرة ، أما المباشرة فهي تلك الأعمال التي قدمها الإسلام وأسهمت في توحيد اللّغة كنزول القرآن باللّغة الأدبية وما تبعه من نشرها وتعميمها بين جميع العرب ، أما غير المباشرة فهي تلك الأعمال التي قام بها خلفاء المسلمين وعلماؤهم وأدت إلى التوحيد اللّغوي والتي منها جمع الناس على مصحف واحد ، وجمع اللّغة وتقعيدها على أساس لغة القرآن العربية الفصحى ، وهذه الأعمال كانت بدافع ديني تهدف إلى خدمة الإسلام والحفاظ على العربية ، بحيث لا تستطيع أن تفصل بين ما هو مباشر وغير مباشر ، فأعمال العلماء تتفق مع سياسة عثمان التي تهدف إلى جمع العرب وتوحيدهم وهي بالتالي تعتمد على الإسلام وتنطلق من أحكامه وأصوله ، ناهيك عن تقديمه المثل الأعلى والنموذج الموحد الذي تسامت إلى لغته لغاتُ العرب فاتبعت اختياراتِه اللّغويةَ وأساليبَه الفصيحة وتركت من لغاتها ما يخالفه مما أذاب الفروقَ اللغويةَ بين لغاتها وانعكس أثره على لغة أهلها فارتفعت بلاغة الإسلاميين على الجاهليين وارتقت به لغة العرب من المسلمين على لغة غيرهم ممن حُرِم المثلَ الأعلى .

وقد توصل البحث إلى نتائج كان من أهمها :

١ - أن تفرّقَ اللغاتِ وانقسامَها إلى لهجات ثم تحوّل اللهجات إلى لغات مستقلة سنّة من سنن اللغات الإنسانية خضعت لها جميع اللغات ، وكانت سبباً في تفرُّع اللغات الساميّة واللغات الهندو أوربية إلى لهجات تحولت إلى لغات ثم تفرع لغاتها الجديدة إلى لغات مستقلة كما حدث للاتينية القديمة حيث تفرعت عنها (الفرنسية ، الإسبانية ، البرتغالية وغيرها) وكان من المؤكد أن تنقسم اللهجات العربية إلى لغات مستقلة لولا مجيءُ الإسلام ونزولُ القرآن بها فرد أهلها لها وألجأهم إليها ، وقيد لهجاتهم وحال دون تحولها إلى لغات مستقلة .

٢ - هناك سنّة أخرى وهي توحد اللّغات واندماجها وهي ممكنة الحدوث في جميع اللغات الانسانية متى ما وجدت العواملَ والمؤثراتِ المساعدة على

تقاربها وتوحد لهجاتها ، - ولكنّه يكون توحداً آنياً (فترة محدودة) يعقبه تفرق جديد لأن سنّة التفرّق أقوى تأثيراً من هذه ، وقد تخرج عنه بعض لغاتٍ لا تقوى عوامل التوحيد على ردّها إلى أخواتها ، فهو توّحد يعقبه افتراق يعقبه توحد وهكذا ، ومع اختلاف طبيعة التوحد الأول عن التوحد الثاني - حيث يتشرب خصائص اللّغة المشتركة - ومع تعاقب ذلك عليه تنقطع العلاقات اللغوية بين أجيال اللّغة الواحدة عبر العصور التاريخية .

وتعتبر سنّة التوحد هذه في ظل سنة الاختلاف والتفرّق من الناحية الزمنية ، وهنا تتميز وحدة اللّغة العربية بأنها مكانية وزمانية لأنها مرتبطةٌ بلغة القرآن حريصةٌ على استبقائها في جميع حالات التوحد أو الافتراق .

٣ - اللّغة العربية الموحدة والمشتركة هي القرشية بعد سيادتها على لغات العرب وانتشارِها بينهم ، واتخاذها لغة أدبية مشتركة من قبل غيرِ أهلها ، ففقدت بذلك بعض خصائصها الموغلة في الذاتية نتيجة الصراع اللغوي واكتسبت مكانها خصائص جديدةً وثروةً لفظية اكتسبتها من اللغات العربية التي سادت عليها وتغذت بها .

هذه هي طبيعة اللّغات المشتركة إذ لا يمكن أن تقوم إلا على أساس لغة موجودة تعتمد عليها وتنطلق منها وهي شبه سنّة في جميع اللّغات المشتركة ، أما التآلف العشوائي فلا تنجم عنه لغة موحدة تتسم بالمنطقية والانسجام ولو أمكن لظهرت في صورة مسخ لغوي تتعادى فيه صفاتها وتتناقض أصولها وقواعدها .

ثم إن الطريقة التي تكونت بها الفصحى هي نفس الطريقةالتي رويت عن قريش في تهذيب لغتهم ؛ إذ اعتمدوا على اختيار ما حسن من لغات العرب وتكلموا به وأسقطوا الوحشي والمستقبح من كلامهم ، فأعدّوا لغتهم بذلك لتتبوأ هذه المكانة . وهذا العمل هو نفس المنهج الذي قامت عليه اللّغة الأدبية والذي استعمله الشعراء والأدباء .

٤ - اختلاف الحميرية في عصرالرسول صلى اللّه عليه وسلم عن حميرية النقوش ينبئ بأن توحداً لغوياً حدث قبل هذا ، وقد أعقبه اختلاف جديد تشربت

فيه حميرية صدر الإسلام خصائص اللّغة المشتركة ، فكان اختلافها مع اللهجات العدنانية في ظل اللّغة الواحدة ، غير أنه اتسع لتأثر أهلها بعوائد لغتهم القديمة ، وكادت تستقل بذاتها لولا أثر الإسلام الذي ردّ العرب إلى العربية الفصحى.

يؤيد ذلك ما قاله الهمداني -وهو الخبير بلغة حمير- في لغة أهل صنعاء : « في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبذ من كلام حمير » .

٥ - لأثر الإسلام في التوحيد اللغوي ثلاث صور :

أ - توحيد اللّهجات المختلفة لا سيما الشمالية والجنوبية وإذابة فروقها اللّغوية . وهي وحدة بدأت بوادرها قبل الإسلام وعمل مجيئه على ترسيخها وتعميمها بين جميع العرب على اختلاف مستوياتهم الثقافية لأنها كانت قبل ذلك محصورة على طبقة المثقفين والخاصة . وهو عبارة عن تغليب لهجة على لهجات ودمجها فيما بينها ونجم عنه تكوين لغة أدبية مشتركة وموحدة (العربية الفصحى).

ب - توحيد بعض اللغات المختلفة من حولهم (تعريب) ، فوّحد اللغات السامية في الشام والعراق وبعض اللغات الحامية القبطية في مصر والبربرية في بلاد المغرب وبعض مناطق الكوشتيه وجمعها على اللّغة العربية .

وهذا النوع من التوحيد عبارة عن زحف وسيادة لغوية انقرضت فيها لغة وحلت مكانها أخرى ، وهو بعكس الأول إذ أسهم في تكوين اللّغة المولدة وظهور العامية وذلك لتأثرالعربية في تلك المناطق ببعض عوائد أهلها في لغاتهم القديمة .

جـ - توحيد اللّغة العربية عبر عصورها التاريخية (تخليدها) ، فحفظ اللّغة من الدروس والانقراض كما انقرضت لغات كثيرة ، فقدم نزول القرآن بلغتها مثلها الأعلى ونموذجها الموّحد الذي اعتصم بلغته أهلها عبر العصور كلما زاغوا عن نهج الفصاحة والبيان أو اعترت لغتهم الشوائب رجعوا إليه فيُقيمهم على طريقتها المثلى ، وكم من انحطاط لغوي مرّ بعصورنا خرجت منه العربية قوية معافاة .

٦ - إن ظهور اللهجات العامية في ميدان الحياة الخاصة بين الرجل وأهله لا ينفي وجود الوحدة اللغوية أو ينقضها طالما أن الفصحى لغة للعلم والأدب والثقافة وتستعمل في الكتابة والتأليف في جميع البلاد العربية ولها قواعدها الثابتة ونظامها الموحد الذي لا يختلف أو يلتاث .

وقد وجدنا أنه كلما ازداد الاحتكاك بين اللهجات وانتشر التعليم بين أهلها تقاربت فيما بينها وذابت فروقها اللغوية لأنها تستقي معظم مادتها وأغلب أساليبها من الفصحى .

لكن الخطر يكمن في استعمال العامية مكان الفصحى واتخاذها في الكتابة والتأليف وإنتاج العمل العلمي والأدبي أو تدريسه وعندئذٍ فلن يقف في سبيل تطورها إلى لغات مستقلة أي شيء حتى القرآن سينغلق على أفهام أهلها ، وقد رأينا في ثنايا البحث أن إدراك علماء الإسلام والعربية لحقيقة تطور اللّغة وتغيّرها كان سببًا جوهريًا لجمع اللّغة وتقعيدها للحفاظ على لغة القرآن ، ثم اشترطوا في تطورها وقيّدوه بما يكفل مساوقته للّغة القرآن وأساليب العرب الفصحاء في كل عصر بحيث يجري التطور وفق سننها ويقاس على كلام أهلها .

٧ - اللّغة العربية الفصحى استفادت ثروتها اللفظية وظواهرها المتعددة (الترادف والاشتراك والتضاد) بعد توحّد لهجاتها ، فحوّلت ما كان بينها من اختلاف وتنوّع إلى مصلحتها في توسيع أضرب القول وتنويع فنونه .

ولولا حدوث الوحدة اللغوية لذهبت كل لهجة في طريقها ثم لم تلبث أن تتحول إلى لغات مستقلة ، ولكان ذلك الاختلاف وبالاً عليها وسببًا في تفريقها ، وقد رأيت أن تلك الظواهر التي تفاخر بها العربية سائر اللغات لا تكاد توجد في اللهجة الواحدة ، ولا يمكن أن تتكون منها .

٨ - أسهم الشعراءُ والأدباءُ قبل الإسلام في تكوين الفصحى وتوحيد اللّغة وإثرائها وتنميتها بالظواهر اللغوية المتعددة والتي كانت قيود الشعر وضروراته سببًا في استعمالها والاعتماد في أخذها عن اللهجات المتعددة .

وقد كان الشعر والنثر المسجوع ساحة امتزجت فيها اللّغات العربية ودخلت

عبرها بعض خصائصها وكثير من مفرداتها في تكوين اللّغة العربية الموحدة .

٩ - نزول القرآن باللّغة الأدبية الفصحى كان سببًا في نشرها وتعميمها بين جميع العرب على اختلاف مستوياتهم الثقافية ، فرد العرب إليها وأسهم في التقريب بين لغاتهم وذلك عندما اتخذوه مثلاً أعلى ونموذجًا موحدًا تسامت إلى لغته لغاتهم ، وتذللت ألسنتهم بقراءته وسماعه .

أما نزوله على سبعة أحرف فقد كان من باب التدرُّج في توحيد لغاتهم لأن عامتهم لا تطيق التحول عن لهجاتها ، وبعد أن تذللت ألسنتهم وأمكن جمعهم على لغة واحدة ، جمعهم عثمان على مصحف واحد وهو القرشي وحرق ما سواه وعُدّ عمله هذا رجوعًا إلى الأصل ، ولهذا وافقه عليه الصحابة وأجمعت عليه الأمة ، وقد حاول ذلك عمر من قبل .

١٠ - إن جمع اللّغة وتقعيدها كان بدافع ديني - في أول الأمر - ولهذا نشأت علوم العربية على يد القرّاء وعلماء الشريعة وقامت على أساس اللّغة الأدبية التي نزل بها القرآن مما أسهم في توحيد اللّغة والتقريب بين لهجاتها خاصة عندما حرص علماء العربية على تعميم أقيستهم وقواعدهم التي استخرجوها من اللّغة الأدبية والتي كان القرآن مثلها الأعلى الذي احتجوا به واحتكموا إليه .

١١ - لقد تعرّضت اللهجات الخاصة للوأد والإماتة من قبل علماء العربية وفق منهج مقصود وطريقة منظّمة هدفت إلى توحيد اللّغة ونشر العربية الفصحى بين العرب ، وقد ساعد على ذلك ميل القبائل أنفسها إلى هجر لغاتهم واتباع لغة القرآن .

فالقدماء من علماء اللّغة لم يأخذوا عن جميع اللّهجات العربية ، كما أنهم لم يأخذوا كلّ شيء عن اللهجات المعتمدة ، وإنما أخذوا اللّغة الأدبية التي نزل بها القرآن وحكّموها فيما أخذوه عن العرب ، وأصبحت العرب تقيس فصاحتها على مدى موافقتها للّغة القرآن .

وقد كان لتشددهم في اختيار النوعية وتحديد الزمان والمكان وطرق الأخذ والتحمل أكبرُ الأثر في توحيدها .

١٢ - إن الوحدة اللّغوية في الوطن العربي تدين بحدوثها للإسلام بشكل أساسي ، ولولا القرآن لما بقيت العربية الفصحى إلى يوم الناس هذا ، ولما توحدت لغة العرب في التحدث بها والكتابة بلغتها ، ولما عرفنا كيفية النطق بأصواتها الفصيحة ، ولانقسمت لهجاتها إلى لغات مستقلة ، لأن تاريخ اللّغات الإنسانية لم يعرف لغةً حافظت على أصولها وأصواتها كل هذه المدّة طوال أربعة عشر قرنًا وخلدت بهذه الصورة غير اللّغة العربية .

هذا وفي البحث نتائج فرعية تجدها منثورة في موضوعاته .

توصيات علميــــة :

لقد كان من ثمرة هذا البحث أن تكوّنت لديّ بعض الخبرات العلمية عن الوحدة اللغوية وكيفية الحفاظ عليها ، ونواقضها ومحظوراتها ، فأحببت أن أسجلها في توصيات علمية عسى الله أن ينفع بها هذه الأمّة التي شرفها الله بحمل رسالة التوحيد . ومن ذلك ما يلي :

١ - يجب الالتزام بتعليم العربية الفصحى وَفقَ مبدأ (دع عنك ما يجوز والتزم صحيح الإعراب) فإن التساهل في اللّغة والتوسع في اللهجات ومحاكاتها، لا يخدم توحيد اللّغة بوجه ، كما أنه لا يخدم توّحد المعيار النقدي ، وهو أمر استهجنه القدماء من علما العربية ولم يكن هدفًا مباشرًا عند قيام علم العربية ، وإنما ظهر عند المتأخرين منهم لمحاولة التميّز المدرسي والبحث عن الجديد فتوسعوا في المنهج ، وقد يكون التقارب اللغوي الذي أحدثه الإسلام بين اللهجات العربية أغرى المتأخرين على الأخذ بكل ما هو عربي دون تمييز ، ولم يقدِّروا أن التسامي إلى المثل الأعلى هو ما قرّب بين لهجاتهم وكان عليهم أن يلزموا الأصل وهو اللّغة الأدبية حتى لا يثقلوا كاهل النحو بكثرة القواعد والتفريعات .

٢ - يجب الالتزام في ارتجال اللّغة أو إحداث مصطلحات جديدة بالقياس الصحيح المطّرد والتقيّد بسنن العرب في كلامها ونظام تأليف أصواتها حتى لا تتغير اللّغة وتختلف عبر عصورها .

٣ - إن تعدد المجامع اللغوية في الوطن العربي مع عدم التنسيق بينها من شأنها أن تضرب الوحدة اللغوية دون أن تدري فتحدث عدّة لغات فصحى في كلِّ إقليم ، وإذا كان ذلك محموداً من جهة الأدب وإثراء اللّغة بالترادف والتضاد والإشتراك فإنه مذموم من جهة العلم والتعريب إذ يشترط في اللّغة العلمية وضوح الدلالة وتحديد المعنى ووحدة اللفظ في كل إقليم حتى يسهل على رجال العلم في كلِّ إقليم القراءة لبعضهم دون أن تحول المصطلحات العلمية والرموز المختلفة بينهم .

وقد كان أصدقائي في الأقسام الطبيعية - في المرحلة الجامعية بصنعاء - يشكون من تعدد المصطلحات العلمية حيث كان يتناوب عليهم أساتذة من مصر وسوريا والعراق كلٌّ له مصطلحه العلمي الخاص يتعصَّب له ويرى صوابه لدرجة التهديد بالرسوب لمن خالفه ، فكان الطلاب يضيعون جهودهم في تحصيل المصطلحات المتعددة للمعنى الواحد على حساب تحصيل المادة العلمية .

وهذا بالطبع مما يعيق النهضة العلمية في وطننا العربي ويضرب وحدتنا اللغوية ، ونحن معشرَ اللغويين مطالبون بعلاج هذه المشكلات .

٤ - يمكن تطبيق نتائج البحث في تعريب بعض الدول الأفريقية والآسيوية من حولنا متى ما وجدت الإرادةُ والعزيمةُ لتحقيق ذلك ، وقد عرّب أجدادنا معظم الدول العربية المعروفة الآن بعد الإسلام ، وذلك عندما نشروا الإسلام والقرآن بينَهم واختلطوا بأهل الأمصار وعاشوا بينَهم وعملوا على نشر العربية بينهم واستخدامها في العلم والأدب والثقافة .

نعم قد يستغرق تحقيق ذلك فترة طويلة تتطلب تعاقب ثلاثة أجيال فأكثر ولكنه ممكن الحدوث على الأقل في لغة العلم والأدب والثقافة .

وقبل ذلك يجب أن نوحِّد أنفسنا ولغاتناالعاميّة أو نقرّب بينها حتى لا نخسر ما هو موجود ، ناهيك عما هو مطلوب ، كما يجب أن نأخذ بناصية العلوم كما فعل أجدادنا ليحتاج أهل تلك اللغات إلى لغتنا . ولا يصدنّك عن قبول هذا ما تراه من واقعنا السياسي والعلمي فهو ممكن من الناحية النظرية وأنت ترى كيف

تنتشر الانجليزية في الشعوب النامية ، وكذلك الفرنسية فهي لغة العلم والثقافة في كثير من الدول الافريقية وكادت تغرّب الجزائر أثناء احتلالها الفرنسي لولا تمسك أهلِها بالإسلام والعروبة مما أعاد للعربية اعتبارها بعد الجلاء ، وبعد أن فشل المستعمر في تغريبها حاول إحياء اللّغة الأمازيغية فيها ليخرجهم عن عروبتهم بدعوى أن القومية هي انتماء عرقي وليس لغوي ، وهذه دعوة صهيونية مغرضة تريد أن ينفضَّ أمر العرب ، فهذا يحنُّ إلى الأمازيغية وذاك إلى القبطية وذاك إلى الفينيقية وآخر إلى الآرامية ، وكلّ فريق يحيي لغته الميتة ، ومن فشل منهم في إحياء لغته الميتة حاول الدعوة إلى العامية لتكون نواةً للغات مستقلة ، فهذا مرادهم من تلك الدعوة .

هذا ما ظهر لنا ورسخ في عقيدتنا ومع علمنا أن كلَّ ما هو من عند غير اللّه فيه اختلاف وخطل ، فنقول لك خُذ ما ثبت لك صوابه من بحثنا وألقِ بخطئه عرض الحائط ثم ادعُ لصاحبه بأجر المخطئ إن فاته أجر المصيب .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربِّ العالمين .

فهــرس
المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الحديث الشريف .
- الإتقان في علوم القرآن ، عبد الرحمن السيوطي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ، الشيخ أحمد محمد الدمياطي (البناء) ، دار الندوة ، بيروت .
- أثر القرآن في أصول مدرسة البصرة ، د. محمد الكيشي ، ط أولى ١٤٠١هـ ، كلية الدعوة الإسلامية ، مكة المكرمة .
- أثر القرآن في العربية ، د. محمد عبد الواحد حجازي ، ط ثانية ، ١٩٨٧م ، مجمع البحوث الإسلامية ، بلد النشر (غير معروف) .
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المقدسي المعروف بـ (البشاري) ، قدّم له : د. محمد مخزوم ، ١٤٠٨هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- أدب الكاتب ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق : محي الدين عبد الحميد .
- أدباء العرب ، بطرس البستاني ، ١٩٨٦م ، دار مارون عبود ، بيروت .
- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، سعيد الأفغاني ، ط ٢ ، ١٤١٣هـ ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة .
- الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا ، د. حسن أحمد محمود ، ط ثالثة ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
- الأشباه والنظائر في النحو ، عبد الرحمن السيوطي ، ١٤٢٢هـ ، ط أولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الإصباح في شرح الاقتراح ، د. محمود فجال ، ١٤٠٩هـ ، طبعة أولى ، دار القلم، دمشق .
- الأصوات العربية بين اللغويين والقراء ، د. محمود زين العابدين محمد ، ١٤١٩هـ، دار الفجر الإسلامي ، المدينة المنورة .
- الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس ، ١٩٨٧م ، مكتبة الأنجلو، القاهرة .
- أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء في ضوء علم اللغة الحديث ، د.محمد عيد ، ط سادسة ، ١٩٩٧م ، عالم الكتب ، القاهرة .

- الأصول ، د . تمام حسان ، ١٤١١هـ ، دار الثقافة ، الدار البيضاء .
- الأضداد ، محمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق : محد أبو الفضل إبراهيم ، ١٤٠٧هـ ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي ، د. محمود عصام الميداني ، دار دمشق ، سوريا .
- الاقتراح ، عبد الرحمن السيوطي ، علق عليه: د. أحمد سليم الحمصي ، د. محمد أحمد قاسم ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .
- الإحكام في أصول الأحكام ، ابن حزم الأندلسي ، دار الحديث ، القاهرة .
- الإحكام في أصول الاحكام ، علي بن محمد الآمدي ، تحقيق : عبد المنعم إبراهيم، ١٤٢١هـ ، مكتبة الباز ، مكة المكرمة .
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، مصطفى صادق الرافعي ، ١٤١٠هـ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- الأمالي ، إسماعيل بن القاسم القالي ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، كمال الدين أبي البركات الأنباري ، تحقيق : محي الدين عبد الحميد ، ١٤١٤هـ ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- أيام العرب قبل الإسلام ، أبو عبيدة معمر التميمي ، جمع وتحقيق : د. عادل البياتي ، ١٤٠٧هـ ، عالم الكتب ، بيروت .
- البحر المحيط في التفسير ، أبو حيان الأندلسي ، ١٤١٢هـ (طبعة جديدة ١١جزء)، دار الفكر ، بيروت .
- البيان والتبيين ، أبو عثمان الجاحظ، ١٩٦٨م ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الاعراب ، المقريزي ، تحقيق : د.عبدالمجيد عابدين ، ١٩٦١م ، ط أولى ، عالم الكتب ، القاهرة .
- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ، ١٣٩٤هـ ، ط رابعة ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
- تاريخ آداب اللغة ، جرجي زيدان ، ١٩٩٢م ، دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- تاريخ اللغات السامية ، أ. ولفنسون ، ط ١ ، ١٩٨٠م ، دار القلم ، بيروت .
- تحت راية القرآن ، مصطفى صادق الرافعي ، طبعة سابعة ، ١٣٩٤هـ ، دار

الكتاب العربي ، بيروت .

- تأويل مكشل القرآن ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ١٣٩٣هـ ، دار التراث ، القاهرة .
- تصحيح الفصيح وشرحه ، عبدالله بن درستويه ، تحقيق : محمد بدوي المختون ، ١٤١٩هـ ، وزارة الأوقاف (بمصر) ، القاهرة .
- التعريفات،الشريف علي بن محمد الجرجاني،ط أولى،المكتبةالفيصلية،مكة المكرمة.
- تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ، محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر ، ط أولى ، دار المعارف ، مصر .
- تفسير القرطبي ، محمد بن أحمد القرطبي ، تحقيق : أحمد عبد العليم البردوني ، ط ٢ ، ١٣٧٢هـ ، دار الشعب ، القاهرة .
- التفسير اللغوي للقرآن الكريم ، د. مساعد سليمان الطيار ، ط أولى ، ١٤٢٢هـ ، دار ابن الجوزي ، الرياض .
- جامع الأحاديث للجامع الصغير وفوائده والجامع الكبير ، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: عباس أحمد صقر وأحمد عبدالجواد، ط أولى، مطبعة الكتبي، دمشق .
- جمهرة اللغة (معجم) ، محمد بن الحسن بن دريد ، تحقيق : د. رمزي منير البعلبكي ، ط أولى ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- الحضارة العربية والإسلام ، د. علي حسن الخربوطلي ، طبعة أولى ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق : محمد علي النجار، المكتبة العلمية، مصر.
- دراسات في فقه اللغة العربية ، صبحي الصالح ، ط ١٠ ، ١٩٨٣م ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- دراسات في المعاجم العربية ، د. أمين محمد فاخر ، ط أولى ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الأحساء .
- دلالة الألفاظ ، د. إبراهيم أنيس ، ط ٧ ، ١٩٩٣م ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة .
- رسائل الجاحظ ، الجاحظ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- سرّ صناعة الإعراب ، ابن جنّي ، تحقيق : د. حسن هنداوي، ١٤٠٥هـ، دار القلم،

دمشق.
- شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين الاستراباذي (الرضي) ، تحقيق : محمد نور الحسن ، محمد الزفراف ، محي الدين عبد الحميد ، ١٤٠٢هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، بهاء الدين عبدالله بن عقيل ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ١٤١٣هـ ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ١٤١٧هـ ، دار إحياء التراث ، بيروت .
- شواهد التوضيح والتصحيح ، ابن مالك ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط أولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- الصاحبي ، أحمد بن فارس ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة .
- صفة جزيرة العرب ، أحمد بن يعقوب الهمداني ، تحقيق : محمد بن علي الأكوع ، ١٤١٠هـ ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء .
- طبقات الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : الشيخ محمد سويد، دار إحياء العلوم ، بيروت .
- طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني جده .
- طبقات النحويين واللغويين ، محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر .
- العربية ، يوهان فك ، ترجمة د . رمضان عبد التواب ، ١٤٠٠هـ ، الخانجي ، مصر .
- العصر الجاهلي ، د. شوقي ضيف ، ط ثامنة ، ١٩٦٠م ، القاهرة .
- علم الأصوات ، د . كمال بشر ، ٢٠٠٠ م ، دار غريب ، القاهرة .
- علم اللغة ، د. عبد الواحد وافي ، ١٣٨٢ هـ ، ط ٥ ، مكتبة نهضة مصر .
- العين (معجم) ، الخليل بن أحمد الفراهيدي ، تحقطق : د. عبدالله درويش ، ط أولى ، مطبعة العاني ، بغداد .
- غرائب اللغة العربية ، الأب رفائيل نخلة اليسوعي ، ط خامسة ، دار المشرق ، بيروت .

– الفارسية من غير معلم ، أحمد لواساني ، ط أولى ، دار العلم للملايين ، بيروت .
– الفاضل ، أبو العباس المبرد ، د. عبد العزيز الميمني ، ١٣٧٥هـ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة .
– الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، ط ثانية عشر ، دار المعارف، القاهرة .
– فقه اللغة ، د. عبدالواحد وافي ، ضبطة أولى ، دار نهضة مصر ، القاهرة .
– فقه اللّغة وسر العربية ، أبو منصور الثعالبي ، تحقيق : مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي ، ١٣٩٢هـ ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .
– الفهرست ، ابن النديم ، تحقيق : د. يوسف علي طويل ، ط ثانية ، ١٤٢٢هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
– في أصول النحو ، سعيد الأفغاني ، ١٤٠٧هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
– في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد مختار العبادي ، ط أولى ، دار النهضة العربية ، بيروت .
– في علم اللّغة العام، د. عبد الصبور شاهين ، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
– في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس ، ط٩، ١٩٩٥م ، مكتبة الأنجلو ، مصر.
– القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية ، د . عبد العال سالم مكرم ، ط أولى ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة .
– قواعد التجويد على رواية حفص ، د. عبد العزيز عبد الفتاح قاري ، ط خامسة ، ١٤٠٤هـ ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة .
– القياس في اللغة العربية ، محمد الخضر حسين ، ١٣٥٣هـ ، المطبعة السلفية ، القاهرة .
– القياس في النحو العربي ، د، سعيد جاسم الزبيدي ، ١٩٩٧م ، دار الشرق ، الأردن .
– الكامل في اللغة والأدب ، أبو العباس المبرّد ، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ، مؤسسة هارون ، بيروت .
– الكتاب ، أبو بشر عمرو بن قنبر (سيبويه) ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، عالم الكتب ، بيروت ، وطبعة بولاق بتاريخ ١٣١٦ (وهي بدون تحقيق).

- الكتابة الفنية في مشرق الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ، د. حسني ناعسة ، ١٣٩٨هـ ، مؤسسة الرسالة ، سورية .
- الكوكب الدرّي (ودراسته) ، الإمام جمال الدين الأسنوي ، تحقيق : د. محمد حسن عواد ، ط أولى ، ١٤٠٥هـ ، دار عمار ، الأردن .
- لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ، د. عبد العزيز مطر ، ١٣٨٦هـ ، الدار القومية ، القاهرة .
- اللحن في اللغة ومظاهره ومقاييسه، د. عبدالفتاح سليم ، ١٤٠٢هـ ، دار المعارف، القاهرة .
- لسان العرب (معجم)، ابن منظور ، ط ٣، ١٤١٤هـ ، دار الفكر ، بيروت .
- اللسان العربي والإسلام معًا في معركة المواجهة ، د. السيد رزق الطويل ، ١٤٠٧هـ ، العدد (٦٠) ، سلسلة دعوة الحق ، رابطة العالم الإسلامي بمكة .
- اللغة بين القومية والعالمية ، د. إبراهيم أنيس ، ط أولى ، دار المعارف ، مصر .
- اللّغة ، فندريس ، تعريب عبد الحميد الدواخيلي ، محمد القصاص .
- اللغة العربية وأبناؤها ، د. نهاد الموسى ، ١٤٠٥هـ ، دار العلوم ، الرياض .
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير ، تحقيق : كامل عويضة ، ط أولى ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- مجاز القرآن ، أبو عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق : فؤاد سزكين ، مكتبة الخانجي، مصر .
- مجلة كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، العدد الثاني .
- المحتسب في تبيين شواذ القراءات ، أبو الفتح بن جني ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، ١٤١٩هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- المدارس النحوية ، د . شوقي ضيف ، ط أولى ، دار المعارف ، مصر .
- مراتب النحويين ، أبو الطيب اللغوي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ١٩٥٥م ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن السيوطي ، ضبطه وشرحه : محمد أحمد جاد ، علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل ، دار الجيل، بيروت .

- المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغوية ، د. إسماعيل أحمد عمايرة، ط ثانية ، ١٤١٢هـ ، دار حنين ، الأردن .
- معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء ، تحقيق : أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار ، ط أولى ، دار السرور ، القاهرة .
- معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج ، د . عبد الجليل عبده شلبي ، ١٤١٨هـ ، عالم الكتب ، بيروت .
- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، ياقوت الحموي ، تحقيق : د. إحسان عباس ، ط ١، ١٩٩٣م ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت .
- المعيار في التخطئة والتصويب ، د، عبد الفتاح سليم ، ١٤١١هـ ، طبعة أولى ، دار المعارف ، القاهرة .
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري ، تحقيق : محي الدين عبد الحميد، ١٤٠٧هـ ، المكتبة العصرية ، بيروت .
- المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، ط أولى ، دار المعرفة ، بيروت .
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، د، جواد علي ، ط ٢ ، ١٩٧٦م ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن خلدون ، تحقيق : د. علي عبد الواحد وافي ، الطبعة الثالثة ، دار نهضة مصر ، القاهرة .
- الممتع في التصريف ، ابن عصفور الإشبيلي ، ط رابعة ، ١٣٩٩هـ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
- من أسرار اللغة ، د. إبراهيم أنيس ، ط ٧ ، ١٩٩٤م ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة .
- النحو وكتب التفسير ، د. إبراهيم عبدالله رفيدة ، ط أولى ، ١٩٨٠م ، المنشأة الشعبية ، ليبيا .
- النحو والصرف بين التميميين والحجازيين ، د. عبدالله البركاتي ، ١٤٠٤هـ ، المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة .
- نحو القراء الكوفيين ، د. خديجة أحمد مفتي ، ١٤٠٦هـ ، ط ١ ، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة .

- النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ، دار الكتاب العربي ، مصر .
- نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ، الأب أنستاس ماري الكرملي ، ط أولى ، مكتبة الثقافة الدينية .
- النظم الإسلامية ، ديمومبين ، ترجمة : صالح الشماع وفيصل السامر ، ١٩٥٢م ، بغداد .
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية ، د . عبده الراجحي ، ١٩٩٩م ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية .
- الوسائل في مسامرة الأوائل ، عبدالرحمن السيوطي ، تحقيق : د. أسعد طلس، ١٣٦٩هـ ، مطبعة النجاح ، بغداد .

كتب مخطوطة :

- علاقة اللغة المنطوقة باللغة المكتوبة في اللغة العربية ، أ.د. سليمان بن إبراهيم العايد ، نادي مكة ١٤١٧هـ .
- مذكرة في المعاجم العربية ، أ.د. عبد الخالق عضيمة .
- نشأة النحو ، أ.د. محمد صفوت مرسي .

فهرس الموضوعات

فهـــرس الموضـــوعـــات

الصفحة	المـوضــــــــــوع
	كلمة شكر.
أ - ح	المقدمة.
١-٤١	مدخل تمهيدي :
٢	- تعريف اللّغة ودرجاتها .
٤	- حول نشأة اللّغة الإنسانية والعربية .
	أولاً : نظريات القدماء في أصل اللغة :
٤	١ - النظرية التوقيفية .
٦	٢ - النظرية الوضعية .
	ثانيًا : نظريات المحدثين في نشأة اللغة :
٩	١ - نظرية داروين .
١٠	٢ - نظرية ردّة الفعل للآثار الخارجية .
١٠	٣ - النظرية الاجتماعية .
١١	٤ - تصوُّر إبراهيم أنيس .
١١	ثالثًا : طريقة جديدة وأسلوب دراسة للكشف عن نشأة اللغة (نظرية جسبرسن) .
١٤	- في تاريخ نشأة اللّغة العربية .
١٨	العرب والأعراب .
	- العربية الجنوبية والعربية الشمالية .
١٩	أولاً : العربية الجنوبية القديمة :
١٩	١ - اللهجة المعينية .
٢٠	٢ - اللهجة السبئيّة .
٢٠	٣ - اللهجة الحميرية القديمة .
٢١	٤ - اللهجة القتبانية .
٢١	٥ - اللهجة الحضرميّة .
٢٢	انقراض اللهجات اليمنية القديمة وحلول الفصحى مكانها .
٢٦	ثانيًا : العربية الشمالية (بائدة وباقية) :
	١ - اللغة العربية البائدة :
٢٦	أ - لهجات القسم الأوّل من النقوش :
٢٧	١ - النقوش اللحيانية .
٢٧	٢ - النقوش الثمودية .
٢٨	٣ - النقوش الصفوية .

الموضـــــــوع	الصفحة
ب – القسم الثاني من النقوش :	٢٩
١ – نقش النمارة .	٣٠
٢ – نقش زبد .	٣١
٣ – نقش حران .	٣١
٢ – اللغة العربية الباقية .	٣٢
– أسباب اختلاف لغات العرب :	٣٤
١ – ظاهرة الخفَّة والثِّقَل .	٣٥
٢ – القياس المستقل (قياس القريحة) .	٣٧
٣ – مجاورة الأمم الأخرى (الاحتكاك اللغوي الخارجي) .	٣٨
٤ – العامل الزمني (تقادم العهد) .	٣٩
أسباب قال بها أصحابها تحت تأثير نظرتهم لأصل اللغة .	٣٩
الباب الأول (مظاهر الاختلاف اللغوي)	٤٣–١١٦
تمهيد : حالة اللّغة العربية قبل الإسلام	٤٣
ومظاهر الاختلاف وأنواع الرويات التي ذكرتها .	٤٥
الفصل الأول : (المظهر الصوتي) :	٤٨
أولاً : الاختلاف في الحركات :	٤٩
١ – بين الحركة والسكون .	٤٩
٢ – بين الضم والكسر .	٥٠
٣ – بين الفتح والكسر .	٥٢
ثانيًا : الاختلاف في بعض الحروف :	٥٥
١ – الهمز بين التحقيق والتخفيف .	٥٥
٢ – إبدال الحروف .	٥٨
٣ – الإدغام .	٦٤
ثالثًا : الخلاف في التفاعل بين الحركات والحروف – الفتح والإمالة .	٦٩
الفصل الثاني : (المظهر الصرفي) :	٧٣
أ – ما يتعلّق بتصريف الأسماء :	٧٦
١ – اسم المفعول من الثلاثي المعتل العين .	٧٦
٢ – اسم المفعول من رضى .	٧٧
٣ – المصدر من فَعَلَ إذا لم يسمع .	٧٧
٤ – الفَيْعَال والفيعُول .	٧٨

الموضوع	الصفحة
٥ – جمع أسير .	٧٩
٦ – تأنيث سكران .	٨٠
ب – ما يتعلّق بتصريف الأفعال :	٨١
بين فَعَل وأَفْعَل .	٨١
بين التعدي واللزوم .	٨٢
بين فعَّل وفاعل .	٨٣
بين استحى واستحيا .	٨٤
الأجوف بين التصحيح والإعلال .	٨٥
الخلاف في اختيار الباب لبعض الأفعال .	٨٦
الفصل الثالث : (المظهر النحوي) :	٨٨
١ – إعمال (ما) عمل (ليس) .	٨٩
٢ – (ليتما) بين الإعمال والإهمال .	٩٠
٣ – (عسى) بين الإضمار فيها والتجريد .	٩١
٤ – الإستثناء المنقطع .	٩٢
٥ – ضمير الفصل .	٩٣
٦ – تمييز (كم) الخبرية .	٩٤
٧ – اللغات في إعراب (أب ، أخ ، حمُ) .	٩٥
٨ – (هَلُمَّ) .	٩٦
٩ – (المثنَّى) .	٩٧
١٠– مطابقة الفعل والفاعل أو نائبه .	٩٨
الفصل الرابع : (المظهر الدلالي) :	١٠٠
الاختلاف الدلالي بين اللهجات العربية وأثرها في تكوين ظواهر اللغة :	١٠١
١ – الترادف .	١٠٢
– العوامل التي أدت إلى الترادف .	١٠٧
٢ – الإشتراك .	١١٠
– أسباب وقوع الإشتراك .	١١٣
٣ – الأضداد وأسبابه .	١١٦
الباب الثاني	
(أسباب الوحدة اللّغوية قبل الإسلام)	١٢١
عن سنن اللغات .	١٢٢
الفصل الأول : (عوامل التقارب اللّغوي بين اللهجات العربية قبل الإسلام) :	١٢٥

الموضـــــوع	الصفحة
أولاً : الحجّ .	١٢٧
ثانيًا : أسواق العرب :	١٣٠
– أنواعها وأثر كل نوع على اللغة .	١٣٠
– سوق عكاظ .	١٣٣
ثالثًا : الهجرات البينيّة .	١٣٧
رابعًا: الحروب (أيام العرب).	١٤٠
خامسًا: عمل الشعراء والخطباء .	١٤٣
– أثر القيود في المزج بين اللهجات وتكوين الفصحى .	١٤٦
الفصل الثاني : (مظاهر الوحدة اللّغوية قبل الإسلام)،	١٥٠
الباب الثالث	
(أسباب الوحدة اللّغوية بعد الإسلام ومظاهرها)	١٦١
الفصل الأول : (أسباب الوحدة اللغوية بعد الإسلام) :	١٦٤
أولاً : نزول القرآن على سبعة أحرف .	١٦٥
– معنى الأحرف السبعة .	١٦٦
ثانيًا : معسكرات الجهاد وإذابة الفروق اللغوية .	١٧٠
س – هل فُرِضت اللغة العربية على الأمصار الإسلامية بقوة السلاح ؟	١٧٣
– العروبة جنسية لغوية .	١٧٥
– غربة اللغة تتبع غربة الدين وعكسه .	١٧٦
ثالثًا : جمع عثمان رضي اللّه عنه الناس على مصحف واحد (القرشي) وحرق سائر المصاحف .	١٨٠
– أثر توحيد المصاحف في اللغة بالتوحُّد .	١٨٢
– العلاقة بين القراءات والأحرف السبعة .	١٨٧
رابعًا : قيام علماء الإسلام بجمع اللّغة وتقعيدها على أساس اللّغة الأدبية بدافع ديني :	١٩٢
١ – جمع اللغة العربية بدافع ديني :	١٩٢
السبب الأول : لمعرفة معنى لفظٍ غريب جاء في القرآن أو الحديث والاستعانة بها على فهم نصوص الشريعة .	١٩٢
– ابن عباس يتتبع اللغات ويتحقق بالعربية في التفسير .	١٩٥
السبب الثاني : إثبات أن القرآن نزل وفق سنن العرب في كلامها (الاحتجاج على لغة القرآن).	١٩٩
– الاحتجاج بالقرآن على اللغة وأثره في التوحيد .	٢٠٦
– جمع اللغة وفق اختيارات لغة القرآن(العربية الفصحى)وأعمال العلماء التي أسهمت في توحيدها:	٢١٠
أ – تشدُّد العلماء في جمع اللغة لحرصهم على لغة القرآن :	٢١٠
١ – التشدد في اختيار مادة اللغة من حيث تقديم الأفصح على الفصيح .	٢١١

الموضوع	الصفحة
٢ – التشدد في تحديد اللهجات التي جمعت منها اللغة من حيث فصاحتها وعدم تغيرها .	٢١٧
٣ – التشدد في تحديد زمن الجمع والاحتجاج به .	٢٢٢
٤ – أخذ اللغة وفق منهج العلوم الشرعية في طرق نقلها وتحملها .	٢٢٦
ب – إماتة اللهجات الخاصة .	٢٣١
– مراحل جمع اللغة .	٢٣٧
٢ – ضبط اللغة العربية وتقعيدها بدافع ديني :	٢٤٠
السبب الأول (الثالث في الجمع) – تعليم المسلمين من غير العرب (تعليمي).	٢٤٠
– أدلّة السبب التعليمي في تقعيد اللغة .	٢٤٤
السبب الثاني (الرابع في الجمع) – الحفاظ على العربية ودفع اللحن .	٢٤٩
– العوامل التي ساعدت على تقعيد اللغة وأدت إلى توحيدها	
إسهام الفكر الإسلامي في ظهور المصطلح والقياس كدليل علمي :	٢٥٤
١ – من جهة المصطلح .	٢٥٤
٢ – من جهة القياس :	٢٥٨
– تأثر القياس اللغوي بالقياس الشرعي وحمله عليه .	٢٦٠
– الردّ على من أرجع القياس إلى المنطق اليوناني والنحو السرياني .	٢٦٢
خامسًا : العامل الاجتماعي .	٢٦٨
– توحيد اللغات من حول العرب (تعريبها) وتأثيرها في غيرها من اللغات .	٢٦٩
– تأثر العربية باللغات الأخرى نتيجة الصراع .	٢٧٨
سادسًا : التسامي إلى المثل الأعلى والنموذج الموّحد في اتباع لغة القرآن :	٢٨٢
١ – اعتمادهم على ألفاظه وكثرة دورانها .	٢٨٥
٢ – متابعة لغته والسير على اختياراته :	٢٨٥
أ – اختيار من متعدد .	٢٨٥
ب – اختياره بعض المفردات والصيغ وتعميمها .	٢٨٦
جـ – اختيارات في مجال الاستعمال وتحديد الاستخدام .	٢٨٦
٣ – احتجاجهم بالقرآن واحتكامهم إليه .	٢٨٨
سابعًا : الوحدة السياسية تبعتها وحدة لغوية .	٢٩٨
– حث الشارع وتوفيره البيئة الخصبة للتوحيد .	٢٩٨
– قرارات سياسية أسهمت في التوحيد اللغوي .	٣٠١
– سهولة الاتصال الثقافي والفكري أحدث وحدة لغوية .	٣٠٣
الفصل الثاني : مظاهر الوحدة اللغوية بعد الإسلام :	٣٠٦
أولاً – المظهر الصوتي من خلال وحدة التلاوة (التجويد) وأثره في خلود أصوات العربية .	٣٠٧

الموضوع	الصفحة
– أثر القرآن وتجويده في خلود أصوات العربية وتوحيدها .	٢٠٨
– جهود القرّاء وعلماء العربية التي أسهمت في توحيد اللغة وخلود أصواتها :	٢٠٨
١ – تحديد مخارج الحروف .	٣١٣
٢ – بيان صفات الحروف وأجناسها .	٣١٤
٣ – تقنين العلاقات الصوتية حال التركيب وما ينجم عن تداخلها .	٣١٨
– استخراج سنن العرب في تأليف حروفها والمزج بين أصواتها .	
– التقريب بين اللغة المنطوقة والمكتوبة .	٣٢٠
ثانيًا – تعميم بعض الظواهر والخصائص اللهجية :	٣٢٤
١ – تعميم ظاهرة الهمز في اللّغة .	٣٢٤
٢ – تعميم الاتباع لضمير الغائب المفرد لما قبله من كسر أو ياء .	٣٢٥
٣ – تعميم بعض الاستعمالات الخاصة والمصادر والكثير من المفردات .	٣٢٧
ثالثًا – لغة الكتابة :	٣٣١
– وحدة لغة الكتابة في العالم العربي وثبات قواعدها .	٣٣١
– انحسار الخلاف اللغوي في اللهجات العامية مع ارتباطها بالفصحى وعدم تحولها إلى لغات مستقلة .	٣٣٢
– ضعف لغة العرب من غير المسلمين وعدم اتخاذهم الفصحى في أوّل عهدهم بالكتابة لفقدهم المثل الأعلى .	٣٣٣
– ما وراء الدعوة إلى العامية واتخاذها في الكتابة .	٣٣٨
– وجود مستويين لغويين فصيح وعامي أمر طبيعي تشترك فيه جميع اللغات لأنه ناجم عن اختلاف اللغة المنطوقة عن اللغة المكتوبة .	٣٤٠
الخاتمة : وفيها النتائج والتوصيات .	٣٤٣
فهرس المصادر والمراجع .	٣٥٨
فهرس الموضوعات .	٣٦٧

Thesis Abstract

The Impact of Islam on Linguistical Unification in the Arabic Language

This study consists of an introduction and three main chapters:

The Introduction:

The introduction deals with the following:

- The meaning of language, its different levels, the impact of theories of language origin on the interpretation of language features that stand behind the linguistical difference of Arabic language.
- The rule of change and division in the human languages, identifying the factors that affect such change and division through studying the linguistical reality in Arab Peninsula where there were many Arabic language dialects that some of which were perished while other were changed and divided into north and south Arabic language the thing that resulted in many different Arabic language dialects.
- Identifying the reasons stand behind the difference in Arabic language in the Pre-Islam period. Some of these reasons are direct while the other are indirect. The direct reasons include: spread of Arabic language in wide geographical areas, the large number of people who deal with it and the length of the period of time during which the people deal with it. The indirect reasons include: the lightness and heaviness, independent measurement, external linguistical practice and the time that allows the occurrence of change and difference.

The First Chapter: Features of linguistical difference among Arabic language dialects in the Pre-Islam period:

This chapter deals with the following:

- The features of linguistical difference that appear in all linguistical morphological, grammatical and semantical levels of the language. Therefore, the Arabic language has divided into many different dialects and has become inevitable for it to change into independent language as a result of the difference and the length of the period of time during which the people deal with it so that it can keep pace with the rules of other languages.
- The reasons of linguistical difference during the pre-Islam period, the effects of such difference in forming the classical Arabic language that has benefited from the difference of these dialects after having been unified in the classical Arabic language and enriched and developed its features that include the synonym, antinomy ..etc.

The Second Chapter: The reasons for linguistical unification during the pre-Islam period:

This chapter deals with the following:

- The rule of linguistical unification, consolidation and the factors that affect such unification and consolidation, but these factors are transient and weaker than their previous ones. Moreover, they occur in the shade of change and division of the language.
- Linguistical unification in the pre-Islamic period has occurred as a result of many factors that led to the linguistical convergence among Arabic language dialects. Such factors include the Hajj, inter-immigration movements, Arab markets, wars, activities of poets and preachers.
- The features of linguistical unification are represented in the literal Arabic language.

The Third Chapter: Reasons and features of linguistical unification in the pre-Islam period:

- Studying the impact of Islam on the linguistical unification and identifying the reasons of linguistical unification in the pre-Islam period that the Islam has directly or indirectly stood behind it i.e. it has created to serve the Islam.
- The impact of the Islam on linguistical unification has three aspects:

1. Unifying the different Arabic language dialects and eliminating their linguistical differences; especially the north and south differences.
2. Unifying the languages other than Arabic language and eliminating of the unified language after Arabaizing the people who deal with it.
3. Unifying the Arabic language in its all historical eras and maintaining it from change and extinction.